الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop

كاتي رايكس
Kathy Reichs

الإثنين الأسود

رواية

الإثنين الأسود



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
MONDAY MOURNING
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
SCRIBNER
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم - ناشرون، ش.م.ل.

الإثنين الأسود

كاتي رايكس

ترجمة
سعيد محمد الحسنية



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 978-9953-87-173-8



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (961-1)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

شكر

أريـد توجـيه خالص شكري إلى داردين هود، مدير شركة تحاليل بيتا، لتقديمه النصـح لـي بشأن طريقة تأريخ الكربون 14. أشكر و. آلان غورمان وجايمس ك. دبلـيو. لي، من كلية العلوم الجيولوجية في جامعة كوينز، كينغستون، أونتاريو. أشكر كذلك بريان بيرد من كلية الجيولوجيا في جامعة ويسكونسن، اللذين أعطياني معلومات قيّمة عن علم تحليل طبقات الصخور، ونظير السترونتيوم.

أشـكر مايكل فينيغان، من كلية علوم الإنسان (الأنثروبولوجيا) من جامعة ولاية كنساس، الذي قدّم لي شرحاً عن تحديد عمر العظام عن طريق الأشعة فوق البنفسجية. أشـكر روبـرت ب. ج. دوريون، الذي يعمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشـرعي، والـذي قدّم إليّ معلومات مهمة عن طريقة البحث عن ملكية العقارات في مونـتريال. وأشكر السرجنت بيار مارينو، وهو شرطي خاص يعمل في الأمن العام، وهـو الذي قادني في جولة على قصر العدل في مونتريال. أودّ أن أشكر أيضاً كلود بوتـيل، الـذي يعمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي، وهو الذي أجاب عن أسئلة تتعلّق بعلم الأمراض والتشريح.

أعطاني ميشال آبيل كل ما بحوزته من معلومات تتعلّق باليهود. أشكر جيم جونو الذي دقّق بتفاصيل لا حصر لها.

قدّم لي بول رايكس النصح بشأن صلاحية الشاهد الخبير. أظهرت تعليقاته حول النص أنها ذات فائدة عظيمة لي، كالعادة.

أتاح لي مايكل فيليبس مشكوراً استخدام كلمات أغنية "الاثنين، الاثنين".

أديـن بشكر وافر لجايمس وودوارد، وهو مستشار جامعة كارولينا الشمالية في مديـنة شـارلوت، وذلك لدعمه المستمر لأعمالي. أشكر آندريه لاوزون، رئيس قسم الخدمات، وكل زملائي العاملين في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي.

أشـكر محررتـي سـوزان كيرك، ووكيلة أعمالي جينيفر والش، اللتين أظهرتا الكثير من الصبر، والتفهم، والمساندة الكلية، كعادتهما.

الإهــداء

إلى ديبورا ماينر

شقيقتي الصغيرة.

عزيزي هاري.

شكراً على مساعدتكما الدائمة

آه، يا صباح يوم الاثنين. لم تُنذرني

بما سيأتي...

جون فيليبس،

ماماز وباباز

الفصل 1

الاثنين، الاثنين...

لا أستطيع الوثوق في ذلك اليوم...

تـــردّد صوت إطلاق النار في أرجاء الطابق السفلي الضيق المساحة، في الوقت الـــذي كنـــت أردّد فيه هذه الأغنية في ذهني. ارتفع بصري نحو الأعلى، بينما كانت أجزاء من العضلات، والعظام، والأحشاء الداخلية، تتطاير على الجدار الحجري، على مسافة ثلاث أقدام مني فقط.

بدا للحظة أن الجسم المشوّه قد تسمّر على الجدار، لكنه ما لبث أن انزلق نزولاً تاركاً لطخةً من الدماء والشَعْر.

شعرت بقطيرات دافئة على خدّي، فأسرعت لإزالتها بظاهر قفاز يدي. استدرت وأنا ما زلت مقرفصة في مكاني.

- "كفى!"

تقـــوّس حاجـــبا الرقيب في التحري، لوك كلوديل، بحيث شكّلا حرف V. أنزل الرجل مسدّسه من عيار تسعة مليمترات، لكنه لم يضعه في غمده.

بـــدت كلمات كلوديل الفرنسية مجتزأة عند خروجها من أنفه، ما يعكس جذوره الجبلية: "جرذان! لا بد أنها من نسل الشيطان".

صرخت فيه: "يمكنك أن تقذفها بالحجارة".

- "كان ذلك اللعين كبيراً بما يكفي ليردّها".

أتعبتني الساعات التي جلست فيها القرفصاء في مونتريال، في يوم الاثنين البارد والرطـــب هذا من شهر كانون الأول/ديسمبر. أوجعتني ركبتاي عندما أخذت وضعية الوقـــوف. كنـــت قـــد انتعلت جزمةً في ذلك اليوم. سألتُه عندما استدرت نحوه: "أين شاربونيو؟"

- "يستجوب مالك المطعم، وأتمنّى أن يوفّق في مهمته. أعرف أن مورون يمتلك معدّل ذكاء عالياً".

أشرت بيدي نحو أرض الغرفة خلفي، "هل المالك هو من اكتشف هذه؟"

- "لا، فالسمكري هو من اكتشفها".

- "وماذا كان يفعل السمكري في هذا القبو؟"

- "لاحظ ذلك العبقري وجود فجوة قرب الخزانة، فقرّر أن يقوم بالاستكشاف في الطابق السفلي كي يتعرّف على نظام أنابيب الصرف".

تذكّرت حالتي عندما نزلت مستخدمةً ذلك السلم المتداعي، فعجبت أن يخاطر أيّاً كان باستخدامه.

- "هل كانت العظام فوق الأرض؟"

- "يقول الرجل إنه تعثّر بشيء عالقٍ بالأرض، هناك".

قـرّب كلوديـل ذقـنه من الحفرة القليلة العمق حيث يلتقي الجدار الجنوبي مع الأرض الترابـية، ثم أكمل: "أخرج الرجل العظام، وأخذها للمالك. قام الاثنان بتفحّص مجموعة التشريح الموجودة في المكتبة المحلية ليتأكّدا أنها عظام بشرية. حرصا على انتقاء كتاب مليء بالصور الملونة، لأنني أعتقد أنهما لا يجيدان القراءة".

أوشكت على طرح سؤال ثانٍ عندما قرقعت أصوات من فوقنا. تطلّعت وكلوديل متوقعَين أن نرى زميله.

رأينا رجلاً في ثياب رثة بدلاً من شاربونيو. كان الرجل يرتدي كنزة تصل إلى ركبتـيه، وسـروال جينز واسعاً، وحذاءً وسخاً أزرق اللون من ماركة *نايكي*. تدلّت ضفائر شعر الرجل من الجهة السفلى للمنديل الأحمر الذي يلتفّ حول رأسه.

جثم الرجل في المدخل مصوباً نحوي آلة تصوير من نوع كوداك، من تلك التي تستخدم لتصوير فيلم واحد فقط.

تضـيّق حاجـبا كلوديل أكثر، بينما أصبح أنفه المعقوف أشدّ حمرةً. "تابرناك!" سمعت قرقعتين للكاميرا قبل أن ينحرف الرجل من مكانه.

وضـع كلوديـل مسدسـه فـي غمده، وأمسك بالسياج الخشبي، ثم قال: "اقذفي الجرذان بالحجارة إلى أن يعود أفراد قسم التحقيقات القضائية".

يُذكر أن قسم التحقيقات القضائية في كيبيك يماثل جهاز استرداد مسرح الجريمة في الولايات المتحدة.

رأيت مؤخرة كلوديل وهو يحشر نفسه عبر الفتحة الضيّقة المستطيلة الشكل، قبل أن يختفي. لم أقذف حجراً واحداً مع أنني شعرت بدافع كي أفعل.

سمعت أصواتاً مكتومةً في الطابق العلوي بالإضافة إلى أصوات الجزمات الثقيلة. لم يتردّد في الطابق السفلي سوى صوت مولّد الأنوار الكهربائية النقّال. أمسكتُ أنفاسي وأصغيتُ إلى الأشباح المتحلقة حولي. لم أسمع صأصأةً، ولا صريراً، ولم أسمع حتى أصوات الأرجل المتراكضة. أجريت مسحاً سريعاً للوضع، ولم ألاحظ أعيناً صغيرة مدوّرة، ولا ذيولاً عارية، أو محرشفة. ألا يحتمل أن تكون هذه المخلوقات التافهة تنظّم نفسها استعداداً لهجومٍ آخر؟

اتّفقت مع كلوديل على شيء واحد: أستطيع العيش من دون القوارض، مع أنني أختلف معه في طريقة مواجهته لهذه المشكلة. شعرت بالارتياح لكوني وحيدةً لبعض الوقت، فاستطعت أن أعيد تركيزي على الصندوق المتعفن الموجود أمامي. يحمل الصندوق الكلمات التالية: منشط الدكتور إنرجي القوي. هل تشعر بإعياء شديد؟ الدكتور إنرجي يجعل عظامك تتحرّك ويجعلك ترغب بالرقص.

لا تنطبق هذه الوصفة على هذه العظام بالذات أيها الدكتور!

حدّقت بالمحتويات المرعبة لهذا الصندوق. لاحظت أن أحدهم قد نظّف بعض عظام هذا الهيكل العظمي، لكن معظمه بقي مغطى بطبقة من التراب. بدت السطوح الخارجية للعظام بلون كستنائي بسبب الإضاءة القوية الصادرة عن المصابيح المحمولة. شاهدت عظمة ترقوة، وعظام حوضٍ، ولمحت جمجمةً بشرية.

اللعنة!

سأكرّر القول للمرة السادسة، فلعلّ في التكرار بعض النفع. بكّرت يوماً واحداً بالمجيء من شارلوت إلى مونتريال كي أستعدّ للمثول أمام المحكمة يوم الثلاثاء. اتُّهم رجلٌ بقتل زوجته وتقطيع أوصالها. سأقدّم شهادتي بخصوص تحليل آثار المنشار التي أجريتها على جمجمة المرأة المسكينة. بدت القضية معقدة جداً، لذلك رغبت بمراجعة ملفها الذي أعددته. وجدت نفسي، بدلاً من ذلك، أحفر في الطابق السفلي لمطعم يقدّم البيتزا.

حضر بيار لامانش إلى مكتبي في وقت مبكّر من هذا الصباح. استطعت أن أخمّن سبب مجيئه إليّ ما إن أدركت مغزى نظراته. أبلغني رئيسي أن عظاماً وُجدت في قبو مطعم البيتزا. استدعى مالك المطعم رجال الشرطة على الفور، وأسرعت الشرطة لاستدعاء الطبيب الشرعي، الذي استدعى بدوره رجال المختبر الطبي

القضائي. أرادني لامانش أن أتفحّص العظام.

- "اليوم؟"
- "من فضلكِ".
- "لكنني سأمثل أمام المحكمة غداً".
- "هل ستمثلين في محاكمة بيتيت؟"

أومـــأتُ برأسي. قال لامانش بفرنسيته الدقيقة ذات اللهجة الباريسية: "يُحتمل أن تكون هذه بقايا عظام حيوانات، وعلى أية حال لن يستغرقكِ الأمر وقتاً طويلاً".

أسرعت إلى تناول دفتر ملاحظاتي وسألته: "أين يقع المكان؟"

قـــرأ لامانش العنوان من ورقة كان يحملها في يده: "شارع القديسة كاترين، بعد عدة مبانٍ من وسط المدينة، شرقاً".

يدلّ العنوان على مركز شرطة مدينة مونتريال، حيث يعمل كلوديل. سبّبت فكرة العمل مع كلوديل إطلاق أول لعنةٍ لي في هذا الصباح.

تـــتواجد عـــدة دوائـــر صغيرة للشرطة في المدينة الجزيرة، أي مونتريال، لكن الدائرتيـــن الأهـــم لتطبيق القانون هما شرطة كيبيك، وشرطة مدينة مونتريال. تعمل شرطة كيبيك في المناطق المنعزلة، وفي البلدات التي تفتقد للمجالس البلدية. أما مراكز شـــرطة مديـــنة مونتريال، فتضمّ رجال شرطة المدينة. وتقع الجزيرة ضمن صلاحية مركز شرطة مدينة مونتريال.

يعمل لوك كلوديل، وميشال شاربونيو بصفتهما تحرّيين في قسم الجرائم الكبرى الـــتابع لمركـــز شـــرطة مدينة مونتريال. أما أنا فأعمل بصفة مختصة بعلوم الإنسان الشـــرعية لمقاطعـــة كيبيك. عملت مع هذين الشخصين على مدى السنوات الماضية. أســـتطيع القـــول إنني استمتعت بالعمل كثيراً مع شاربونيو، أما العمل مع زميله فكان بمـــثابة معاناةٍ على الدوام. أعترف أن لوك كلوديل هو رجل شرطة رائع إلا أنه يفتقد إلـــى الصـــبر، وهو يماثل فلاد إيمبايلر في حساسيته، وهو لا يكفّ عن السخرية من فائدة علوم الإنسان الشرعية. لكنه يبقى بالرغم من ذلك رجلاً متأنقاً شديد الروعة.

وجدت صندوق الدكتور إنرجي مليئاً بالعظام المبعثرة، وذلك عندما وصلت إلى هـــذا الطـــابق السفلي قبل ساعتين. افترضت أن مالك المطعم هو الذي جمع كل هذه العظام، ولعله فعل ذلك بمساعدة من ذلك السمكري التعيس، لكن بقي على كلوديل أن يعطينـــي بعـــض التفاصيل. اقتصرت مهمتي على تحديد ما إذا كانت هذه العظام هي عظام بشرية.

وجدتُ أنها عظام بشرية بالتأكيد. استتبع هذا الاكتشاف استنزال اللعنة الثانية في هـذا الصباح. تحدّدت مهمتي التالية في تحديد ما إذا كانت هناك جثة ثانية تقبع تحت أرضـية القـبو. بـدأت عملي بثلاث تقنيات استكشافية. استنجت، بعد قيامي بتسليط الضـوء الجانبي للمصباح على أرضية القبو، وجود عدة مناطق رخوة أو منخفضات، فـي سطح التراب. تفحّصت هذه المنخفضات لأكتشف طبقة ملبدة تحت كل منخفض، وهـو الأمر الذي يشير إلى وجود أشياء تحت السطح. أجريت حفراً اختبارياً فظهرت عظام بشرية.

إنها أنباءٌ سيئة في ما يتعلّق بالمراجعة المتأنية لملف قضية بيتيت.

شـاركني كلٌ من كلوديل وشاربونيو في استنزال اللعنات ثلاث، أو خمس مرات عندما أعطيتهما رأيي. أضاف الاثنان بضع كلمات تجديف للتأكيد.

اسـتُدعي قسـم التحقـيقات القضائية إلى المكان. وبدأت وحدة استعادة مسرح الجـريمة عملها الروتيني، وأعدّت الأنوار من أجل ذلك. التُقطت الصور أيضاً، بينما انشـغل كلوديـل وشاربونيو في هذه الأثناء باستجواب المالك ومساعده، وأحيط القبو بوحدة رادار تخترق أرضيته. أظهر جهاز الرادار الأرضي هذا بعض الأشياء الغريبة في أرضية القبو. تواجدت هذه الأشياء على عمق أربع بوصات في كل منخفض، وبدا القبو خالياً لولاها.

تبرّع كلوديل بتأمين دوريات البحث عن الجرذان بمسدسه شبه الآلي، وذلك أثناء اسـتراحة رجال قسم التحقيقات القضائية، بينما شغلتُ نفسي بوضع شبكتين تتألّف كل واحـدة من أربعة مربعات. كنت قد فرغت من تثبيت آخر سلك في آخر عمود عندما استمتع كلوديل بلحظةٍ بطولية مع الجرذان.

ماذا بقي الآن؟ هل أنتظر عودة خبراء قسم التحقيقات القضائية؟

تماماً.

استفدت من أجهزة قسم التحقيقات القضائية لالتقاط صورٍ وتسجيل شريط فيديو. فركـت يـديّ بعـد ذلك كي أنشّط الدورة الدموية فيهما واستبدلتُ قفازي، ثم جلستُ القرفصاء وبدأت بإزالة التراب من المربع الذي أعطيته الرقم أ – 1.

انتابني الشعور المعتاد بوجود جريمة ما أثناء انهماكي بالحفر. تسارع التوتر في داخلي، وشعرت بفضولٍ شديد. ماذا لو لم أجد شيئاً؟ وماذا لو وجدت شيئاً؟

شـعرت بالقلق. ماذا لو حطمت شيئاً مهماً وأرسلته إلى العدم؟ فكّرتُ بحفريات أخـرى، وبوفياتٍ أخرى. فكّرت بذلك القديس المكرّس في كنيسته المحترقة. وتذكّرت

ذلــك المراهق المقطوع الرأس في كوخ صاحب الدراجة، وكذلك أولئك المدمنين على المخــدرات الذين أردتهم رصاصات اخترقت أجسادهم، والذين شاهدتهم في قبر قرب ضفة النهر.

لا أعــرف كم مضى على حفري للتراب عندما عاد فريق التحقيقات القضائية، لاحظت أن الرجل الأطول بينهم حمل كوباً من الستايروفوم. جهدتُ كي أتذكّر اسمه.

فكّــرت بالجذر. إنه طويلٌ ورفيع مثل الجذر تماماً. نجحت هذه الحيلة المساعدة للذاكرة. فالجذر يعني راسين باللغة الفرنسية. إنه رينيه راسين الرجل الجديد. سبق لي أن عملــت معـــه لاستعادة عدة مسارح للجرائم. أمّا زميله الأقصر قامةً فيدعى بيار جيلبرت. عرفت هذا الرجل منذ عشر سنوات.

ارتشـــفت قهوتـــي الساخنة، وشرحت للرجلين ما فعلته أثناء غيابهما. طلبت من جيلبرت بعدها أن ينقل التراب ويصوّره، بينما طلبت من راسين أن يقوم بالغربلة.

عدنا إلى الشبكة.

انتهيـــت مـــن المـــربع الـــذي يحمل الرقم أ – 1 بعدما حفرت فيه بعمق ثلاث بوصـــات، ثم انتقلتُ إلى المربـــع ب – 1. وعندما انتهيت منهما انتقلت إلى المربعين ج – 1 و د – 1.

لم نجد شيئاً غير التراب.

حســـناً! أظهر جهاز الرادار المخترق للأرض وجود شيء غير عادي ابتداءً من عمق أربع بوصات تحت السطح.

تابعـــت الحفـــر. شعرت بخدرٍ في أصابعي، وأحسستُ بالجليد يخترق عظامي. فقدتُ إحساسي بالوقت.

اســـتمرّ جيلـــبرت بـــنقل دلـــوٍ إثر دلو من التراب الذي استخرجته من شبكتي، ووضعها في الغربال. انهمك راسين بالغربلة. وانشغل جيلبرت أيضاً بأخذ الصور بين حين وآخر. انتهيت من إفراغ التراب من الشبكة الأولى على عمق ثلاث بوصات، ثم عـــدت إلى المربع رقم أ – 1. رحت أحفر التراب حتى عمق ست بوصات، أي كما فعلت من قبل.

لم أكد أنتهي من محاولتي الثانية في المربع ب – 1 حتى لاحظت تغيّراً في لون الـــتراب. طلبـــت مـــن جيلبرت أن يعدّل لي وضع المصباح. تسبّبت النظرة الأولى بتسارع شديد في نبضات قلبي. "نجحنا أخيراً".

تساءل جيلبرت: "نجحنا بماذا؟"

مرّرت طرف المالج حول الحافة الخارجية للبقعة التي تقع داخل المربع ب – I.

قال راسين ملاحظاً: "يبدو لون التراب أغمق هنا".

أجبته شارحةً السبب: "يشير التبقّع إلى عملية تحلّل".

نظر التقنيّان نحوي بذهول.

أشرت إلى المربعين ج – I ود – I وقلت: "يتّجه شخص ما، أو شيء ما جنوباً تحت ذلك المكان".

سألني جيلبرت: "أتريدين إبلاغ كلوديل؟"

– "دعه يمضي يومه".

بعـد مضـي أربع ساعات شعرت بالجليد يغزو أصابعي. ارتجفت بشدة داخل سـترتي المقلنسة غير القابلة للاختراق، والتي تبقى صالحة حتى أربعين درجة مئوية تحـت الصـفر، بـرغم وضعي لوشاحٍ حول رقبتي، وبرغم القلنسوة الصوفية التي أعتمرها على رأسي.

جـال جيلـبرت فـي أرجاء القبو ليأخذ صوراً من زوايا مختلفة، بالإضافة إلى الـتقاطه صوراً بالفيديو، لكن راسين بقي يراقب واضعاً يديه تحت إبطيه طلباً للدفء، رغم أنه كان يرتدي القفازات. بدا الرجلان مرتاحين في بذلتيهما القطبيتين.

وقـف رجـلا البولـيس السرّيان، كلوديل وشاربونيو جنباً إلى جنب في وضع الاسـتعداد وقد شبك كل منهما يديه. ارتدى كل من الرجلين معطفاً صوفياً أسود اللون وقفازات جلدية سوداء اللون، لكن وجهيهما لم يعبّرا عن الحبور أبداً.

توزّعت بضعة جرذان ميتة عند أسفل الجدران.

لاحظـت أن الحفرة التي استخدمها السمكري والمنخفضين، كانت مفتوحة كلها علـى عمـق قدميـن. وجدت بعض العظام المبعثرة في تلك الحفرة، والتي لا بد أن السمكري وصاحب المطعم قد تركاها، لكن الأمر كان مختلفاً مع المنخفضين. لاحظت أن الهيكل العظمي الموجود تحت الشبكة الأولى هو في وضعٍ جنيني. لم أجد أية ثياب حول ذلك الهيكل، ولم نجد أيّة مصنوعات من أي نوع كان في الغربال.

استنتجت أن الشخص الموجود تحت الشبكة الثانية كان مربوطاً قبل دفنه، وبدت كـل الأجـزاء تابعـة لذلك الهيكل العظمي. نفضت آخر حبة تراب عن ذلك الهيكل

العظمـــي الموجـــود في الحفرة الثانية، ثم وضعت جانباً فرشاتي، ووقفت وأنا أضرب قدميّ بالأرض كي أدفئهما.

بدا صوت شاربونيو أجشَ نتيجة البرد حينما قال: "هل هذه بطانية؟"

أجبته: "يبدو لي كأنها مصنوعة من الجلد".

لكز الرجل صندوق الدكتور إنرجي بإبهامه.

- "هل هذا كل ما بقي من ذلك الرجل المديني في الصندوق؟"

وُلد الرقيب ميشال شاربونيو في شيكوتيمي، وهي بلدة تبعد مسيرة ست ساعات عن مونتريال باتجاه أعالي نهر سان لورنس، وتقع في منطقة تدعى ساغناي. أمضى ميشـــال عـــدة سنوات وهو يعمل في حقول النفط الموجودة في تكساس الغربية، وذلك قـــبل انضمامه إلى مركز شرطة التحقيقات القضائية. اعتاد شاربونيو على مخاطبتي بلغتـــي الأم بســـبب نشأته الأولى وسط رعاة البقر. لاحظت أن لغته الإنكليزية كانت جـــيدة بالـــرغم من استبداله بعض المقاطع بمقاطع أخرى، بالإضافة إلى النطق غير الصحيح تماماً لهذه المقاطع. لاحظت أيضاً كثرة استخدامه للكلمات العامية.

- "لنأمل ذلك".

انطلقت غيمةٌ صغيرة من الرذاذ المتطاير من فم كلوديل: "أتأملين ذلك فعلاً؟"

- "أجل سيد كلوديل، أنا آمل ذلك".

زمّ كلوديـــل شـــفتيه، لكنه لم ينبس ببنت شفة. انتهى جيلبرت من التقاط الصور للجـــثة المـــربوطة. جـــثوتُ بعدها على ركبتيّ وسحبت طرف القطعة الجلدية، لكنها تمزّقـــت. بدّلـــت قفازاتي الصوفية الدافئة بقفازاتي الطبية، وانحنيت كي أبدأ بتحريك الطرف الظاهر من تلك القطعة. انفصلت الطبقة الخارجية بسهولة فرفعتها ثم طويتها. انســـلخت الطـــبقة الخارجية بالكامل لجهة اليسار، فبدأت بالعمل على الطبقة الداخلية. لاحظـــتُ أنه في بعض الأمكنة التصقت الألياف بالهيكل العظمي. ارتجفت يداي نتيجة الـــتوتر والعصـــبية، لكننـــي تمكّنت من انتزاع بعض الجلد المتعفن من العظمة التي التصقت عليها.

سألني راسين: "ما هي تلك المادة البيضاء؟"

- "إنها مادة لزجة".

ردّد الرجل من بعدي: "مادة لزجة".

لـــم أكـــن بمزاج يسمح لي بإعطاء درس في الكيمياء لكنني أجبته: "تدعى شمع القـــبور، وهي مادة تتألّف من الحوامض الدهنية والكالسيوم تنساب من العضلات، أو

هي الدهون التي تتعرّض لتغيّرات كيميائية. يحدث هذا الأمر عادةً بعد وقت طويل من دفن الجثة، أو تغطيسها في الماء".

- "لماذا لم تظهر هذه المادة في الهيكل العظمي الآخر؟"

- "لا أعرف".

سمعت كلوديل ينفخ الهواء من خلال شفتيه، لكنني تجاهلته.

نجحت بفصل الطبقة الداخلية من الكفن ووضعتها جانباً، وهكذا أصبح الهيكل العظمي ظاهراً بالكامل. بقيت الجمجمة سليمة بالرغم من الضرر الذي لحق بهذا الهيكل العظمي.

صرّح شاربونيو بما نعرفه جميعاً: "ثلاثة رؤوس لثلاثة أشخاص".

قال كلوديل: "هذا ما يبدو".

قلت: "اللعنة".

بقي جيلبرت وراسين صامتَين.

سأل شاربونيو: "ألديكِ فكرة عن هذه الأشياء الموجودة أمامنا أيتها الدكتورة؟"

وقفت بسرعة بينما تبعتني ثمانية عيون عندما سرت نحو صندوق الدكتور إنرجي. بدأت بإفراغ قطع العظام واحدةً فواحدة، ولاحظت من بينها نصفَي حوض، ثم ظهرت الجمجمة. عبرت باتجاه الأخدود الأول، ركعت، ثم بدأت باستخراج هذه العظام وتفحّصها.

يا إلهي!

أعدت العظام إلى مكانها ثم زحفت نحو الأخدود الثاني. انحنيتُ وبدأت بتفحّص تلك الجمجمة. لا... ليس مجدداً. الضحايا المعهودة.

تفحّصت النصف الأيمن للحوض. تكثّفت الأنفاس أمام وجوه الحاضرين الخمسة. انتصبتُ واقفةً ونظّفت التراب من عظام منطقة العانة.

شعرت ببرودة غريبة تنساب إلى صدري. إنهن ثلاث نساء أكبر قليلاً من فتيات.

الفصل 2

استيقظت صباح يوم الثلاثاء على نشرة الأحوال الجوية. عرفت عندها أنني سأواجه برداً قاتلاً. لم تكن موجة البرد هذه تشبه درجة الحرارة العادية المتدنية، التي اعتدنا عليها في شهر كانون الثاني/يناير في كارولينا الشمالية. إنني أتحدّث هنا عن درجة حرارة أدنى من الصفر بكثير، ولعلها تقترب من برد المنطقة القطبية. أتحدّث عن البرد الذي يقتلك إذا لم تواظب على الحركة.

أنا أعشق مونتريال. أحبّ جبلها الذي يقلّ ارتفاعه قليلاً عن ثمانماية قدم، أحبّ ميناءها القديم، وإيطاليا الصغيرة، والحي الصيني، وقرية غاي، وناطحات السحاب المكوّنة من الفولاذ والزجاج في وسط المدينة، وأحبّ كذلك الأحياء المكتظّة وممرّاتها وحجارتها الرمادية، بالإضافة إلى درجِ هذه الأحياء الحجرية الرائعة.

لا تكفّ مونتريال عن الصراع مع ذاتها، فهي مدينة محيّرة. تتصارع في هذه المدينة الثقافتان الإنكليزية والفرنسية. ويتصارع الانفصاليون مع الاتحاديين. يتصارع كذلك الكاثوليك والبروتستانت. ويحارب القديم الجديد. إنني أجد هذه المدينة مدهشة، وأستمتع فيها بالامباناداً، وبالفلافل، والبوتين، وكذلك بكونغ باو، ذلك المكان المتعدّد الثقافات. أستمتع أيضاً بحانة هيرلي الإيرلندية، وبالكاتسورا، والإكسبرس، وفايرمونت بايغل، وأستمتع كذلك بتراتوريا تريستيفير.

اعتدت المشاركة بمهرجانات المدينة التي لا تنتهي: مهرجان الجاز الدولي، ومهرجان الطعام الدولي، ومهرجان السينما العالمي، ومهرجان تذوّق الحشرات الذي يقام في المكان المخصّص لحفظها. اعتدت أيضاً على زيارة المتاجر الموجودة في سانت كاترينا، والأسواق المقامة في الهواء الطلق الموجودة في جان – تالون وآتواتر، بالإضافة إلى محلات التحف المحاذية لنوتردام. تعوّدت أيضاً أن أزور المتاحف، وأن أتنزّه في الحدائق العامة. كما استمتعت بركوب الدراجة الهوائية في الممرات المحاذية لقناة لاشين. استمتعت في الواقع بكل هذه النشاطات.

لكنني لا أستمتع أبداً بالمناخ الذي يسود في الفترة الممتدة ما بين شهري تشرين

الثاني/نوفمبر وحتى أيار/مايو.

أعـترف أنني عشت في الجنوب لفترة طويلة جداً، ولهذا أكره أن أشعر بالجليد. أعـترف أيضاً أنني أتمتّع بالقليل من الصبر في ما يتعلّق بالثلج والجليد. يفرض علينا الجلـيد ارتـداء الأحذيـة العالية الثقيلة، وكذلك الحفاظ على عصا التزلج، والبقاء في الفـنادق المجهـزة لمواجهـة الجليد. أفضّل، بدلاً من ذلك ارتداء السراويل القصيرة، وزوج من الصنادل، والمشي لمسافات طويلة.

يشاركني هرّي بيردي في هذا الرأي. يسارع هذا الهر إلى النهوض عندما أقف، ثـم يـتقوّس، ثم يسارع إلى العودة إلى دفء الأغطية. ابتسمتُ عندما راقبت جسمه يتكوّر ليصبح كرةً مستديرة ومشدودة. إن بيردي هو شريك غرفتي الوحيد والمخلص.

أقفلتُ منبّه جهاز الراديو وقلت له: "أنا معك يا بيرد".

أصبحت الكرة المكوّنة من جسم هذا الهر مشدودةً أكثر.

تطلّعـت نحـو أرقام الساعة في جهاز الراديو، فوجدت أنها تشير إلى الخامسة والنصف تماماً. نظرت من النافذة. ما زال الظلام حالكاً. اندفعت نحو الحمّام.

جلسـت إلى طاولة مطبخي بعد مضي عشرين دقيقة، حيث كانت القهوة جاهزة في متناول يدي، وامتدّ أمامي أيضاً ملف قضية بيتيت.

كانـت مـاري رايـن بيتيت، التي تبلغ الثانية والأربعين من عمرها، أماً لثلاثة أولاد. عملـت هذه المرأة في محلٍ لبيع الخبز، لكنها اختفت قبل سنتين. مضت أربعة أشـهر قبل اكتشاف جذع ماري راين المتحلل في كيس هوكي. وُضع هذا الكيس في كـوخ تخزيـن يقع خلف منزل بيتيت، أما رأس ماري راين وأطرافها فقد أُخفيت في حقائب مماثلة وضعت في مكان مجاور.

كشـف البحث الذي أجري في الطابق السفلي لمنزل الضحية عن وجود مناشير حديـدٍ ومناشـير نجارين، وأنواع أخرى من المناشير القوية. أجريتُ بعد ذلك تحليلاً علـى آثـار عملية النشر الظاهرة على عظام ماري راين، وذلك بهدف تحديد ما إذا كانـت قـد نتجـت عن أداةٍ تترك آثاراً تماثل تلك التي تتركها إحدى أدوات الزوج. اكتشفت أن هذا ينطبق على منشار الحديد الذي يستخدمه الزوج الذي سيمثل اليوم أمام المحكمة بتهمة قتل زوجته.

مرّت ساعتان، شربت خلالهما ثلاثة أكواب من القهوة. جمعت الصور والأوراق الخاصـة بهذه القضية وأعدتُ تفحّص مذكرة الإحضار للإدلاء بشهادتي. إنها مذكرة إحضار شخصية صادرة عن هيئة المحكمة الجنائية التابعة لمحكمة كيبيك، قصر العدل

فـــي مونتريال، الحضور عند الساعة التاسعة من صباح اليوم الثالث من شهر كانون الأول/ديسمبر...

يا للروعة! إنها دعوة شخصية للإدلاء بالشهادة. إنها شخصية مثلما هي دعوات حضــور جلســات تدقـيق الضرائب، لكن من دون انتظار إعطاء الجواب بالموافقة. توجّهت إلى قاعة المحكمة.

انتعلــت حذائـــي الطويـــل وتدثّرت بسترتي المقلنسة، وتناولت قفازَي، وقبعتي، ووشاحي، ثم شغّلت جهاز الإنذار، وانطلقت أخيراً نحو المرآب. يبدو أن هرّي يستمتع الآن بفطور مبكّر.

اشـــتغل محـــرك سيارتي المازدا القديمة من المحاولة الأولى. يا للفأل الحسن! انطلقت بسرعة من المرآب، واضطررت لاستخدام المكابح على الفور، ثم انطلقت في الممر الضيق مثل ولد يتزحلق في الطريق. اعتبرت هذا فألاً سيئاً.

إنهـــا فـــترة الازدحـــام في الطرقات. ضاقت الشوارع بالسيارات التي شاهدتها تســـتثير الجلـــيد تحت عجلاتها. تسبّبت شمس الصباح الباكر في جعل زجاج سيارتي الأمامـــي ضـــبابياً نتيجة حبيبات الملح المتناثرة فوقه. وجدت نفسي وأنا أقود سيارتي على غير هدى بالرغم من أنني شغّلت المسّاحات، ومرذاذات المياه. ندمت كثيراً بعدما قطعت مسافة قليلة لأنني لم استخدم سيارة أجرة.

يُذكـــر أنه في أواخر القرن السادس عشر قدمت مجموعة من الهنود الأميركيين من موطنها في نيويورك لتستوطن قريةً تدعى هوشيلاغا تقع ما بين جبل صغير ونهر كبـــير. تقع هذه القرية تحت آخر مجموعة كبيرة من الشلالات. وجاءت مجموعة من المرســـلين والمغامريـــن الفرنســـيين لتستوطن في هذه القرية في العام 1642. أطلق الفرنسيون اسم قرية ماري على هذا المركز المتقدّم.

ازدهـــرت أحـــوال سكان قرية ماري مع مرور السنين، فشيّدوا المباني وعبّدوا الشوارع. أخذت هذه القرية في ما بعد اسم الجبل القابع خلفها، أي جبل ريل، أما النهر نفسه فقد حمل اسم القديس لورنس.

أهلاً وسهلاً بالأوروبيين، ووداعاً أيتها الأمم القديمة.

تُعـــرف محمـــية هوشيلاغا – قرية ماري القديمة، الآن باسم مونتريال القديمة، وهـــي محبوبة جداً من قِبل السيّاح. تزخر مونتريال القديمة بالجاذبية في امتدادها من الـــنهر حـــتى المـــرتفعات، فمصابيح الغاز ما تزال منتصبةً على الأعمدة، وما زالت العـــربات التـــي تجرّها الخيول تتهادى في شوارعها، كما أنك تستطيع مشاهدة باعة

الأرصفة، ومقاهي الهواء الطلق. تنتصب أيضاً المباني المشيّدة بالحجر الصلد، والتي سكنها المستعمرون ذات يوم، وكذلك تتواجد إسطبلات الخيول، والورش، والمستودعات التي تحوّلت إلى متاحف، بالإضافة إلى المحلات الصغيرة، والصالات الفنية، والمطاعم. ويُلاحظ أن الشوارع الضيقة مرصوفةٌ بالحجارة. ولا مكان هنا ليركن المرء سيارته في هذه الشوارع.

تمنّيت مرة أخرى لو أنني استقلّيت سيارة أجرة. سارعتُ إلى إيقاف سيارتي في موقف للسيارات. انطلقت بعدها في شارع سان لوران باتجاه قصر العدل الذي يقع في المبنى رقم واحد في نوتردام. يقع المبنى في الطرف الشمالي للحي التاريخي. أحسست بالملح يتفتّت تحت قدميَّ، وبدأت أنفاسي تتجمّد على وشاحي. بقيت الحمائم رابضةً عند مروري بالقرب منها، ولعلّها فضّلت الإحساس بالدفء الجماعي بدلاً من شعورها بالأمن الذي تستمدّه من الطيران.

فكّرت أثناء المشي بالهياكل العظمية الموجودة في قبو مطعم البيتزا. هل سيثبت أن هذه العظام تعود للبنات المقتولات؟ تمنّيت أن لا يكون الأمر كذلك، لكنني أعرف في قرارة نفسي أن هذا هو الواقع. فكّرت أيضاً بماري راين، وشعرت بالأسى على حياةٍ جرى اختصارها بحقد عميق. فكّرت أيضاً بأولاد بيتيت الذين سُجن والدهم لأنه قتل والدتهم. هل يستطيع هؤلاء الأولاد في يوم من الأيام أن ينسوا ما حدث لهم، أم أن ضرراً لا يمكن إصلاحه قد حدث لهم نتيجة الرعب الذي نزل بهم؟

تطلّعت أثناء مروري على فرع ماكدونالد الذي يقع على الضفة الثانية من نهر سان لوران، أي مقابل قصر العدل. لاحظت أن المالكين وجّهوا ضربة لنمط البناء الاستيطاني. أهمل هؤلاء الأقواسَ، وأكثروا من السقائف الزرقاء التي تظلّل النوافذ. لم ينجحوا في تحسين المنظر العام، لكنهم حاولوا على أية حال.

لم يهتمّ المصممون الذين عملوا على بناء مبنى المحكمة الأساسي بالتناسق الهندسي. تشكّل الطوابق الأرضية لهذا المبنى صالة مستطيلة الشكل. أحيطت هذه الصالة بقضبانٍ معدنية سوداء اللون تتدلّى فوق المنصة ذات الواجهة الزجاجية الموجودة تحتها. ترتفع الطوابق العلوية نحو السماء آخذةً شكل مسلات من دون ملامح خاصة بها. يظهر هذا المبنى مع المباني المجاورة وكأنك وضعتَ سيارة هامر في تجمّع سكني لطائفة الآمي الأميركية.

دخلت أخيراً مبنى قصر العدل المزدحم. شاهدت في الداخل خليطاً من السيدات المسنّات اللواتي يرتدين معاطف فراء تصل حتى كواحلهن، والمراهقين الشبان الذين

ارتدوا ملابس فضفاضة جداً. شاهدت كذلك رجالاً يرتدون بذلات رسمية، ومحامين في أرديتهم السوداء. لاحظت أن بعض هؤلاء الأشخاص يقف في حالة انتظار، بينما بدا آخرون في عجلةٍ من أمرهم، لكنني لم أشاهد أشخاصاً من غير هؤلاء أو أولئك.

شققتُ طريقي ما بين أحواض شتول الزينة، وأعمدة الإضاء المنتصبة والمنتشرة بشكل عمودي، ثم وصلت إلى مجموعة من المصاعد المتواجدة في نهاية الرواق. جذبتني رائحة القهوة التي ملأت المكان والمنطلقة من مقهى فيينا. فكّرت كثيراً في تناول رابع كوبٍ لي من القهوة، لكنني استبعدت الفكرة.

بدا المشهد في الطابق العلوي مماثلاً لذلك الذي في الأسفل، لكنني لاحظت أن الناس هنا قد دخلوا في لعبة الانتظار. جلس الناس على مقاعد معدنية طويلة مخرمة حمراء اللون، لكن أشخاصاً آخرين فضّلوا الوقوف مستندين إلى الجدران، بينما أخذ آخرون بالتحدث هامسين مع بعضهم بعضاً. لاحظت أن عدة أشخاص تواجدوا في غرف الاجتماعات الصغيرة التي تملأ الرواق، وذلك من أجل التشاور مع موكليهم. لم يبدُ لي أن أياً من هؤلاء كان سعيداً.

اخترت مقعداً أمام الغرفة ذات الرقم 401، وتناولت ملف قضية بيتيت من حقيبة يدي. خرجت لويز كلوتييه من غرفة المحكمة بعد مرور عشر دقائق. بدت لويز في السابعة عشرة من عمرها بشعرها الأشقر الطويل، ونظارتيها الكبيرتين. لاحظت أن وجه كلوتييه كان متجهماً عندما أخبرتني: "ستكونين شاهدتي الأولى".

أجبتها: "أنا جاهزة".

- "ستكون شهادتكِ حاسمةً جداً في هذه القضية".

تحرّكت أصابع كلوتييه لتنتزع مشبكاً للأوراق. أرادت أن نلتقي في اليوم السابق، لكن مهمتي في قبو مطعم البيتزا منعت هذا اللقاء. لم تستطع محادثتنا الهاتفية منحها التحضير الكافي الذي تريده، لكنني حاولت طمأنتها.

- "لا أستطيع ربط العلامات التي ظهرت على عظام بيتيت مع ذلك المنشار الحديدي بالذات، لكنني أستطيع القول بكل ثقة إن هذه العلامات أحدثتها أداة مشابهة له".

أومأت كلوتييه: "هل هي علامات متشابهة؟"

أجبت موافقةً: "إنها متشابهة".

- "ستكون شهادتك حاسمة، لأن بيتيت ادّعى في إفادته الأولية أنه لم يرَ ذلك المنشار أبداً. وستشهد محللةٌ تعمل في مختبرك أنها أقدمت على نزع مقبض المنشار،

فوجدت آثاراً صغيرة من الدماء عالقةً في مكان أحد البراغي".

علمت هذه الأمور من محادثتنا الهاتفية التي جرت في الليلة السابقة. أخذت كلوتييه بسرد دقائق قضية بيتيت من أجلها، ومن أجلي أنا أيضاً.

- "سيشهد أحد الخبراء المختصين بتحليل الحمض النووي، أن آثار الدماء هذه تعود إلى بيتيت. ستربط هذه الشهادة ما بينه وبين المنشار".

علّقتُ قائلةً: "وسأقوم أنا بإثبات علاقة المنشار مع الضحية".

أومأت كلوتييه: "يشدّد هذا القاضي كثيراً على مسألة صلاحية الخبراء".

- "أليس القضاة كلهم كذلك؟"

ظهرت ملامح ابتسامة عصبية على محيّاها: "سيناديك حاجب المحكمة في غضون خمس دقائق".

استغرق الأمر ما يقارب العشرين دقيقة.

يصعب وصف قاعة المحكمة بالحداثة، لكن يمكن القول إنها نموذجية. أحيطت الجدران بأقمشة رمادية اللون، وغطّيت الأرضية بسجاد رمادي اللون، كما غطّى القماش الرمادي مقاعد الغرفة الطويلة. تظهر الألوان الوحيدة في هذه القاعة في المسرح المركزي، أي داخل البوابات التي تفصل المتفرجين عن المعنيين الأساسيين، أما مقاعد المحامين فقد كانت ذات أقمشة بالألوان الحمراء، الصفراء، والبنّية. تذكّرنا هذه الألوان بألوان علَمي كندا وكيبيك ذات الألوان الزرقاء والحمراء والبيضاء.

امتلأت مقاعد الجمهور بما يزيد عن عشرة أشخاص. تبعتني الأعين عندما توجّهت نحو الممر الأوسط كي أقف على منصة الشهود. جلس القاضي في مواجهتي إلى اليسار، بينما جلس المحلّفون بمواجهتي مباشرة، وشاهدت السيد بيتيت جالساً إلى يميني.

سبق لي وقدّمت شهادتي عدة مرات في السابق، ووقفت بمواجهة رجالٍ ونساءٍ متهمين بجرائم رهيبة مثل القتل، الاغتصاب، التعذيب، وتقطيع الأوصال. لم ينجح المتهمون بإثارة تعاطفي تجاههم، ولم تكن هذه المرة استثناءً. بدا ريجان بيتيت رجلاً عادياً، بل رجلاً جباناً. تخيّلت أن هذا الرجل يُمكن أن يكون عمي فرانك.

أقسمت اليمين بمساعدة كاتب المحكمة. نهضت كلوتييه وبدأت باستجوابي من أمام طاولة الادعاء.

- "صرّحي باسمك الكامل من فضلكِ".

- "تمبرانس ديسي برينان".

تحدّثنا بواسطة مكبرات الصوت المتدلية من السقف، وكانت أصواتنا هي الوحيدة المسموعة في القاعة.

- "ما هي مهنتكِ؟"

- "أنا مختصة بعلم الإنسان الشرعي".

- "كم مضى عليكِ من الوقت وأنت تزاولين مهنتكِ؟"

- "ما يقارب العشرين سنة".

- "وأين تمارسين مهنتكِ؟"

- "أنــا أستاذةٌ جامعيةٌ متفرغة في جامعة كارولينا الشمالية في مدينة شارلوت. وأنا عالمةٌ بعلم الإنسان الشرعي لمقاطعة كيبيك، في مختبرات العلوم القضائية والطب الشــرعي الموجــودة فــي مونتريال. أتولّى أيضاً المنصب نفسه في ولاية كارولينا الشــمالية عــن طريق مكتب رئيس دائرة الطب الشرعي، في مركزه الكائن في شابل هيل".

- "هل أنتِ مواطنةٌ أميركية؟"

- "نعــم. أمــتلك أيضــاً رخصـــة عمــل كندية. وأقسّم وقتي ما بين مونتريال وشارلوت".

- "كيف تفسّرين مسألة أن أميركية تحتلّ مركز العالم بعلم الإنسان الشرعي في مقاطعة كندية؟"

- "لا يوجــد مواطــن كندي يمتلك رخصةً لمزاولة هذه المهنة، ويتكلّم الفرنسية بطلاقة، في الوقت ذاته".

- "ســنعود لاحقــاً لمسألة الترخيص القانوني. هل لكِ من فضلك أن تصفي لنا مؤهلاتك العلمية؟"

- "أحمل درجة بكالوريوس في علم الإنسان من الجامعة الأميركية في واشنطن العاصــمة، وأحمــل درجَتَي ماجستير ودكتوراه في علم الإنسان الإحيائي من جامعة نورث وسترن في إيفانستون، ولاية إيلينوي".

تلقّيــت بعــد ذلــك ســيلاً مــن الأسئلة المتعلّقة بدراسات التخرج التي أنهيتها، وبمواضـــيع أطروحتي التي أعددتها لنيل درجة الدكتوراه، وعن أبحاثي، وعن المنح التـــي تلقّيــتها، وعــن منشوراتي أيضاً. دارت هذه الأسئلة حول الأمكنة، والأوقات، والأشخاص الذين عملت معهم، والصحف التي كتبت فيها. وصلت لدرجةٍ ظننت معها

أنها ستسألني عن لون ملابسي الداخلية التي ارتديتها يوم دافعت عن أطروحتي.

- "هل ألفتِ كتباً، دكتورة برينان؟"

عدّدتها لها.

- "هل تنتمين إلى أية اتحاداتٍ مهنية؟"

عدّدتها لها.

- "هل تولّيت مناصب في إحدى هذه الاتحادات؟"

عدّدتها لها.

- "هل تمتلكين رخصةً من هيئة تنظيمية؟"

- "أنا مجازة من قبل المجلس الأميركي لعلم الإنسان الشرعي".

- "هل لك أن تصفي للمحكمة معنى ذلك من فضلك؟"

أسهبت هنا في وصف عملية تقديم الطلب، والامتحان، والسجل الأخلاقي، وشرحت كذلك أهمية المجالس التي تصدر التراخيص في عملية تقييم أهلية الذين يقدّمون أنفسهم بوصفهم خبراء.

- "هل هناك من مجالٍ آخر تمارسين فيه مهنتك، غير المختبرات الطبية الشرعية الموجودة في كيبيك، وكارولينا الشمالية؟"

- "عملتُ لصالح الأمم المتحدة، ولصالح المختبرات المركزية للتحقق من الهوية التابعة للجيش الأميركي والموجودة في هونولولو، هاواي. عملت أيضاً بصفتي أستاذة في الأكاديمية التابعة لمكتب التحقيقات الاتحادي الموجودة في كوانتيكو، فيرجينيا. عملت أيضاً بصفتي أستاذة في الأكاديمية الكندية الملكية لتدريب رجال الشرطة الفرسان الموجودة في أوتاوا، أونتاريو، وأنا عضو في فريق الاستجابة للكوارث القومية وأقدّم استشاراتي الخاصة للزبائن أحياناً".

جلس أعضاء هيئة المحلفين بسكون، إمّا نتيجة الدهشة، وإمّا نتيجة استسلامهم لغيبوبة مفاجئة. لاحظت أن محامي بيتيت لم يدوّن أية ملاحظات.

- "أخبرينا يا دكتورة برينان من فضلك ما هو عمل العالم بعلم الإنسان الشرعي؟"

وجّهت هنا حديثي لهيئة المحلفين مباشرةً.

- "يختص علماء علم الإنسان الشرعي بالهيكل العظمي البشري. يتم استدعاؤنا، أحياناً وليس دائماً، للفصل في هذه القضايا من قبَل الأطباء الذين يفحصون الجثث بعد

الوفـــاة. تبرز أهمية خبرتنا عندما يصبح التشريح العادي، الذي يركّز على الأعضاء والأنســجة الليـــنة، عاجزاً عن فحص العظام، أو عندما تكون قدرته محدودة في هذا المجال. يتوجّب علينا هنا أن نجري فحوصاً لنجد أجوبة لأسئلة حاسمة".

– "ما هي أنواع هذه الأسئلة؟"

– "تركّــز الأســئلة عــادةً على هوية الضحية، وعلى طريقة الوفاة، والتشويه الحاصل بعد الوفاة، أو أية تشويهات أخرى".

– "كيف يمكنك المساعدة بالأسئلة المتعلقة بهوية الضحية؟"

– "أســتطيع عــند تحليل البقايا العظمية أن أفتح سجلاً بيولوجياً يتضمّن عمرَ، وجــنسَ، وعرقَ الضحية. وأستطيع في حالات محددة أن أقارن العلامات التشريحية الملحوظــة عــند شخص غير محدّد الهوية، مع علامات مشابهة لها يحملها فرد حي ومعروف الهوية عن طريق صور الأشعة السينية".

– "ألا تــتمّ معظــم عمليات تحديد الهوية باستخدام بصمات الأصابع، وسجلات الأسنان، أو الحمض النووي؟"

– "أجل، لكن إذا أردنا الاستفادة من المعلومات الطبية، أو تلك المتعلقة بالأسنان، يصبح من الضروري أولاً أن نقلّل عدد الاحتمالات المتعلقة بالنموذج الموضوع تحت الدراسة. ويستطيع ضابط التحقيق أن يراجع السجلات البيولوجية المتعلقة بالأشخاص المفقوديــن، وأن يضـــع قائمةً بالأسماء، ثم يستحصل على السجلات الإفرادية، وذلك بهــدف مقارنتها مع المعطيات المتعلقة بالبقايا المكتشفة. إننا نقدم عادة المستوى الأول من التحليلات المتعلقة بمجموعة البقايا المجهولة تماماً".

– "كيف يمكنك المساعدة في ما يتعلّق بالمسائل المتعلقة بطريقة الموت؟"

– "يســتطيع علمـــاء الإنسان الشرعيون إعادة رسم مسار الأحداث التي تسببت بصدمةٍ معينة، وذلك عن طريق تحليل أنماط الكسور".

– "ما هو نوع الصدمات التي تقومين بفحصها عادةً، دكتورة برينان؟"

– "أفحــص الطلقــات الــنارية، والأدوات الحادة، وكذلك الأدوات غير الحادة. أُفحص كذلك حالات الخنق. دعيني أركّز مجدداً على أن هذا النوع من الخبرات يُطلب فقط في الحالات التي تكون فيها الجثة في حالة غير طبيعية، إلى درجة يصعب معها الإجابة عن تلك المسائل بواسطة تفحّص الأعضاء ذات الأنسجة اللينة فقط".

– "ماذا تعنين بعبارة حالة غير طبيعية؟"

- "أعنـــي عندما تكون الجثة متحلّلة، أو محترقة، أو محنّطة، أو في حالة وجود الهيكل العظمي فقط..."

- "هل يشمل ذلك تقطيع الأوصال؟"

- "نعم".

- "شكراً لكِ".

اســتعاد أفراد هيئة المحلفين نشاطهم، وتطلّع ثلاثة منهم نحوي بعيون مفتوحة. لاحظت امرأة تجلس في الخلف وقد وضعت يدها على فمها.

- "هــل سبق لك ونلتِ الأهلية من محاكم مقاطعة كيبيك، أو أماكن أخرى، لكي تعملي بصفتك شاهدة مختصّة في قضايا المحاكم الجنائية؟"

- "أجل. نلت هذه الأهلية عدة مرات".

التفتت كورتييه نحو القاضي.

- "إننا نقرّ، يا حضرة القاضي المبجل، أن الدكتورة تمبِرانس برينان هي خبيرة في حقل علم الإنسان الشرعي".

لم يصدر عن هيئة الدفاع أي اعتراض. انتهينا من الاستجواب.

انتهــت كلوتيــيه من استجوابي عند الظهيرة. شعرت بانقباضٍ في معدتي عندما نهــض محامـــي الدفاع. فكّرت أن الوقت قد حان الآن للأوقات الصعبة. اعتقدت أن الدفـــاع ســـوف يعمد إلى تشويه مؤهلاتي، وسيشكّك بي، حتى إنه قد يكون بذيئاً. لكن برهن محامي بيتيت على أنه مهذّب ولطيف. وانتهى كل شيء عند الساعة الخامسة.

تبيّــن لـــي لاحقــاً أن هذا الاستجواب ليس شيئاً مقارنةً مع الخطر الشديد الذي سأواجهه أثناء معالجتي للعظام الموجودة في قبو مطعم البيتزا.

الفصل 3

خرجـت من قاعة المحكمة فوجدت الظلام الدامس يخيّم على المدينة. تراقصت الأنـوار البيضاء في الأشجار المحيطة بشارع نوتردام. مرّت بقربي عربة خيل ذات سـطح قابلٍ للطي ومزينة بالأغطية والشراشيب الحمراء اللون، بالإضافة إلى غصن صنوبر. تطايرت حبيبات الثلج حول أنوار المصابيح الغازية.

عيد ميلاد سعيد يا مونتريال!

اصـطفّت السيارات وراء بعضها بعضاً من دون وجود مسافة تفصل واحدة عن الأخـرى. انطلقـت في سيري شمالاً في شارع سان لوران بينما كنت متوترة نتيجة وقوفي في منصة الشهود في المحكمة لوقت طويل.

بدأت أطرق بأصابعي على المقود، وتنقّلت أفكاري ما بين موضوعٍ وموضوع. شـهادتي أمـام المحكمة. الهياكل الموجودة في قبو مطعم البيتزا. ابنتي. الأمسية التي تنتظرني.

مـاذا بقـي من أشياء لم أقُلْها لهيئة المحلفين؟ وهل من الممكن تقديم شرحٍ أكثر وضوحاً؟ هل فهموا؟ هل سيدينون ذلك المجرم النذل؟ ماذا سأكتشف في المختبر غداً؟ هـل سـيثبت أن الهـياكل العظمية هي ما يجول في ذهني؟ وهل سيتصرف كلوديل بطريقـته البغيضة المعهودة؟ ما هو الأمر الذي يُحزن كاتي؟ أوحت لي في آخر مرة تحدّثنا فيها بأن الأمور ليست على ما يرام في شارلوتس فيل. هل ستكمل ابنتي سنتها الدراسـية الأخـيرة فـي الجامعة، أم أنها ستعلن لي في ليلة عيد الميلاد أنها ستترك جامعة فرجينيا من دون الحصول على إجازتها؟ ماذا سأكتشف أثناء العشاء هذه الليلة؟ هل أن حبي الجديد على وشك التفكك؟ هل إن ما أشعر به هو الحب؟

سـرت تحـت بوابـة التنين عندما وصلت إلى غوشيتيري، ودخلت إلى الحي الصيني. لاحظت أن المتاجر هناك على وشك أن تقفل أبوابها، أما العدد القليل جداً من المشاة فكانوا يسرعون الخطى باتجاه منازلهم، وقد غطوا وجوههم، وانحنوا قليلاً اتقاءً للبرد.

يـأخذ الحي الصيني طابع سوقٍ شرقي أيام الآحاد. تقدّم المطاعم في تلك الأيام الفول المدمّس، ويقيم أصحاب متاجر السمانة منصات خارجية لهم يعرضون فيها كل أنـواع المنتوجات الفاخرة، والبيض المعلّب، والأسماك المجففة، والأعشاب الصينية. ويشـهد هـذا الحـي رقصـة التنيـن فـي أيام المهرجانات والأعياد، بالإضافة إلى استعراضات الفنون العسكرية، والألعاب النارية، أما باقي أيام الأسبوع فهي مخصّصة للتجارة فقط.

عـادت بـي أفكـاري إلى ابنتي مجدداً. تحبّ كاتي هذا المكان، وعندما تزور مونتريال فهي لا تتنازل في مسألة زيارة الحي الصيني.

تطلّعـت باتجاه تقاطع سان لوران قبل أن أستدير إلى اليسار صوب شارع رينيه – لافيسك. شاهدت قلب المدينة مزيناً بأبهى زينة لعيد الميلاد، كما هي الحال تماماً في شـارع نوتردام. بقيَ شارع سان لوران، قلب المدينة، شرياناً تجارياً مهماً، مثلما كان تماماً قبل قرنٍ من الزمان. لعبت هذه المنطقة دور نقطة الاستراحة بالنسبة لمجموعات المهاجريـن التي تألّفت بمعظمها من الإيرلنديين، والبرتغاليين، والإيطاليين، واليهود. جـال هـؤلاء، بغضّ النظر عن بلدانهم الأصلية أو انتماءاتهم العرقية، في الشوارع والجادات المحيطة بسان لوران.

مـرّ رجـلٌ أمام أنوار سيارتي عندما وقفت أمام إشارة السير في بيل. كان هذا الـرجل طويـلاً، متورّد الوجه، يميل لون شعره الذي تطاير بفعل الريح، إلى اللون الذهبي.

يـا للصدمة الذهنية! إنه آندرو رايان، الملازم في قسم التحري في قسم الجرائم الـتابع لمركز شرطة كيبيك. إنه أول رجلٍ واعدته منذ أن انهار زواجي الذي استمرّ عشـرين عامـاً. إنه أيضاً شريكي في أقصر علاقة غرامية شهدها التاريخ. تسارعت وتيرة نبضات قلبي.

تتقاطع حياتنا المهنية أنا ورايان، فهو يعمل في قسم مكافحة الجرائم، بينما أعمل أنا في المشرحة. إنني أقوم بتحديد هوية الضحايا، بينما تنحصر مهمته في القبض على الجناة. عملنا معاً طيلة عقدٍ من الزمان في التقصي عن المغتصبين الجماعيين، وأفراد الطوائـف الغريبة، وعن الدراجين المهووسين، وعن المضطربين عقلياً، وكذلك عن الأشـخاص الذيـن يكرهون شركاء حياتهم بصورة خطرة. سمعت قصصاً كثيرة عن ماضي رايان على مرّ السنين. سمعتُ عن شبابه الصاخب، وكذلك عن قصة انضمامه إلـى الرجال الطيبين، وصعود نجمه مع رجال شرطة المقاطعة. سمعت كذلك قصصاً

عن حاضر رايان. لم يتنوّع جوهر هذه القصص كثيراً، لأنه ما زال لاعباً بارزاً.

جـــرّب هذا الرجل مراراً أن يلعب معي. يعرف رايان أنني أتبع قاعدة صارمة تقضـــي بعدم الانشغال بأية علاقة غرامية داخل مكان العمل. لكن طريقة تفكير رايان تناقضت مراراً مع طريقتي، بالإضافة إلى أنه يحبّ التحدي.

أصـــرّ رايان، لكنني وقفت بقوة في وجهه. بدا مثل قوة عاتية، لكنني كنت سداً منـــيعاً في وجهه. مضت سنتان منذ انفصالي عن زوجي بيتي، وكنت متأكّدة من أنني لن أعود إليه. أحببت رايان بكل ذكائه وحساسيته وإثارته الشديدة أيضاً. مررت بفترةٍ قاســـية من الناحية العاطفية في غواتيمالا. حدث ذلك قبل أربعة أشهر. قرّرت إجراء تقيـــيم للوضـــع. دعـــوت رايان للحضور إلى كارولينا الشمالية. جهّزت عندها أشياءً ضرورية، واشتريت فستاناً مغرياً أسود اللون، وبدأت بالمغامرة.

أمضيت أسبوعاً كاملاً على الشاطئ بصحبة رايان، لكننا بالكاد شاهدنا المحيط، أو ذلـــك الفستان الأسود. شعرت بالتوتر في أعماقي في كل مرة فكّرت فيها برايان، وكذلك في ذلك الأسبوع الذي قضيته قرب الشاطئ. أود هنا أن أضيف بنداً جديداً إلى لائحة الإيجابيات المتعلقة به. سواء كان الرجل كندياً أم لا، فهو يبقى بالنسبة إلي ذلك البطل الأميركي في السرير.

بقيـــنا ســـوية، هذا إن لم نكن شريكين، منذ شهر آب/أغسطس على الأقل. بقيت علاقتنا سرية، واحتفظنا بأمرها في ما بيننا فقط. بدت أوقاتنا التي أمضيناها سوية مثل تلـــك المشـــاهد التقلـــيدية التي تظهر في الأفلام الكوميدية الرومنسية. مشينا يداً بيد، وتحلّقـــنا حول النيران التي أوقدناها بنفسينا، وتسابقنا فوق أوراق الشجر، وتنافسنا في السرير. إذاً لماذا ينتابني هذا الشعور الذي يوحي بحدوث خطبٍ ما؟

دخلت إلى منطقة غاي، وفكّرت قليلاً بالمسألة.

تبادلت مع رايان محادثات هاتفية طويلة في أوقات متأخرة من الليالي، وذلك بعد عودتـــه من كارولينا الشمالية إلى مونتريال. لاحظت أخيراً أن هذه المكالمات قد قلّت بشكلٍ ملحوظ.

يا للروعة! ها أنا أقصد مونتريال في كل شهر.

بـــدا كـــل ذلـــك صحيحاً، لكن الصحيح أيضاً أنني لم أجتمع برايان كثيراً خلال جولتـــي الأخـــيرة. ادّعـــى أنه مشغول كثيراً بعمله هذه الأيام، وشكّكت بادعائه هذا. شعرت وقتها بسعادةٍ كبيرة، وتساءلتُ إذا ما كانت فاتتني بعض الدلائل، أو أنني أسأت تفســـيرها. هـــل أن رايان يتعمّد الابتعاد عني؟ هل أن الأمر برمته من نسج مخيلتي،

مثلما تفعل بطلات الأفلام الرومنسية؟

فتحـــت جهاز الراديو كي أبعدَ تفكيري عن هذه المواضيع. تناهت إلى أسماعي ألحان أغنية جفّف دموعك، التي يغنّيها دانييل بيلانغر، عبر جهاز الراديو.

يا لها من نصيحة جاءت في وقتها يا دانييل!

ازدادت كـــثافة تســـاقط الثلوج، فشغّلت مسّاحات الزجاج الأمامية وركّزت على قيادة السيارة.

اعـــتاد رايـــان تحضـــير وجبات الطعام، سواء تناولناها في شقته أم في شقتي. تبرّعـــت هذه الليلة بتحضير الطعام. إنني أطبخ جيداً، لكن ليس بصورة فطرية، لذلك أستعين بوصفات الطعام المكتوبة.

وصـــلت إلـــى المنزل عند السادسة، وأمضيت عدة دقائق مع بيردي، ثم تناولت الملـــف الـــذي أحتفظ فيه بالوصفات التي اقتطعتها من مجلة الغازيت. نجحت بالعثور علـــى وصـــفةٍ مناسبة بعد مرور خمس دقائق، وهي صدر دجاج مشوي مع صلصة الشمام. تتضمّن الوصفة أيضاً الأرزّ، والتورتية، وسلَطة الآريوغولا. تضمّنت اللائحة مكوناتٍ قليلة نسبياً، لذلك افترضت أنه لن يصعب عليّ تجميعها.

ارتديت سترتي المقلنسة وسرت باتجاه لا فابورغ سانت كاترين. لا يصعب على المرء أن يجد هناك الدجاج، والخضار، والأرزّ.

هـــل جرّبـــتم ذات مرة تناول بطيخ الكرينشو في شهر كانون الأول/ديسمبر في القطب الشمالي؟

أجريـــت مناقشـــة قصيرة مع العامل المسؤول في المتجر قبل أن تُحلّ المشكلة، وأخيراً استغنيت عن الشمام.

انتهيـــت مـــن تحضـــير الصلصة عند الساعة السابعة والربع، وكذلك بدأ الأرزّ بالغلـــيان، كمـــا أننـــي أنهيـــت خلط السلَطة. انساب صوت فرانك سيناترا من جهاز الأسطوانات المدمجة، كما أن عطر شانيل رقم خمسة كان يفوح مني.

جهّـــزت نفسي، وارتديت سروال جينز ضيّقاً أحمر اللون، ورفعت شعري خلف أذنـــيّ بعـــد أن سرّحته على طريقة ميغ رايان. أرسلت غرّة من شعري فوق جبهتي، ووضـــعت ظـــلالاً أرجوانية شاحبةً على جفنيّ. فقد أخبرتني كاتي أن العيون البندقية اللون تنسجم مع الظلال الأرجوانية الشاحبة. يا للروعة!

وصـــل رايـــان أخـــيراً عند الساعة السابعة والنصف وهو يحمل علبة من لحم المـــوظ، وحلية صغيرة، وعلبةً بيضاء صغيرة من محل حلويات. شاهدت تورّدَ وجهه

من البرد، ولاحظت حبيبات الثلج الصغيرة على شعره وكتفيه.

انحنى رايان وقبّلني في فمي، ثم احتضنني بذراعيه. فاحت منه رائحة عطر الربيع الإيرلندي، وتمازج العطران. شدّني رايان إليه وقال: "تبدين رائعة!"

- "شكراً لك".

بعد أن أفلتني رايان، نزع سترته السميكة ورماها على الأريكة. اندفع بيردي متدحرجاً على السجادة قبل أن يخرج من الغرفة.

- "آسف. لم ألاحظ وجود ذلك الصغير".

- "سيتحمّل ذلك".

مسّد رايان خدّي بظاهر يده وهو يقول: "تبدين رائعة بالفعل"

شعرت بانقباضات عدة في معدتي. "لا تبدو سيئاً أنت أيضاً حضرة التحري".

إنها الحقيقة، فرايان رجل طويل ونحيل، شعره ذهبي اللون، وعيناه زرقاوان إلى درجة لا تصدّق. وقد ارتدى سروال جينز، وكنزة غالواي لهذه الليلة.

لقد تحدّرت من سلالة من المزارعين والصيادين الإيرلنديين، لذلك ليس من الغريب أن تسحرني العيون الزرقاء، وليست أنا السبب في ذلك، بل الحمض النووي الذي أحمله. سألته: "ماذا يوجد في تلك العلبة؟"

- "إنها مفاجأة لحضرة الطاهية".

تناول رايان علبة شراب ووضع الباقي في الثلاجة. رفع غطاء الوعاء الذي يحتوي على الصلصة وهو يقول: "إنها رائحة شهية".

اكتفيت بإجابته: "إنها صلصة الشمّام. يصعب إيجاد الكرنشو في شهر كانون الأول/ديسمبر".

تحرّك حاجبا رايان وتظاهر أنه يدخّن سيجاراً: "هل أشتري لك شراباً أم كوكتيلاً يا حلوتي؟"

- "أريد تناول شرابي المعتاد"

ذهبت لأرى ما حلّ بالأرزّ، بينما استخرج رايان علبة كولا خاصة بالحمية من الثلاجة. تحرّكت زاويتي شفتيه وهو يناولني العلبة.

- "من يزورك أكثر؟"

شعرت بالضياع قليلاً: "آسفة، من تقصد؟"

- "أقصد عملاء الشرطة أم المسؤولون؟"

جمدت يدي عندما رفعتها في الهواء، وعرفت عمّا يتحدّث.

- "أين؟"

- "جريدة لوجورنال دي مونتريال".

- "اليوم؟"

أومأ رايان: "إنها في منتصف الصفحة".

شعرت باشمئزاز: "أهي في الصفحة الأولى؟"

- "ستجدين الموضوع في الصفحة الرابعة عشرة مع الصور الملونة. ستحبين زاوية التي التقطت منها الصور".

- "أية صور؟"

خطرت تلك الصورة في ذهني. إنها الصور التي التقطها الرجل الأسود النحيف الذي يرتدي كنزة تصل إلى ركبتيه. تذكّرت مدخل الحفرة، وتذكّرت آلة التصوير.

أقدم ذلك القذر الصغير في مطعم البيتزا على بيع صوره الفوتوغرافية.

تعوّدت في ما مضى أن أرفض إعطاء مقابلات صحفية أثناء عملي على قضيةٍ ما. اعتبر كثير من الصحفيين موقفي هذا نوعاً من الفظاظة. وصفني آخرون بعبارات أكثر حدةً. لم أكترث لكل ذلك، لأنني تعلّمت على مرّ السنين أن التصريحات تشجّع على الاقتباسات المشوهة في نهاية الأمر، وتؤدّي الاقتباسات المشوهة إلى المشاكل بطريقة أو بأخرى. أضف إلى ذلك أنني لا أبدو جميلةً في الصور أبداً.

تناول رايان علبة الكولا مني وسألني: "هل أستطيع أن أفتحها لك؟"

فتح رايان العلبة ثم ناولني إياها. وضعت العلبة على الطاولة، وأسرعت لفتح باب الفرن، وقلت له: "لا بد أنك أحضرت نسخةً منها".

- "سنتفحّصها بعد أن تُرفع السكاكين عن المائدة، وذلك لسلامة المشاركين في العشاء".

أخبرت رايان عن يومي في المحكمة أثناء تناولنا للعشاء. قال لي: "تبدو المقالات حسنة".

يمتلك رايان شبكة من المخبرين تبدو معها وكالة الاستخبارات المركزية شيئاً تافهاً. يعرف هذا الرجل بتحرّكاتي قبل أن أخبره بها، وهذا الأمر يقلقني كثيراً.

جعلني استمتاع رايان بصحيفة لوجورنال أشعر بالانزعاج.

- "تجاوزي هذا يا برينان. لا تفرطي بأخذ نفسك على محمل الجد".

ابتسمت: "أحقاً؟"

- "يعطيك النقاد أربعة نجوم".

أربعة فقط؟

- "فهمت".

- "يقولون إن بيتيت سيُدان".

لم أعلّق بأية كلمة، فغيّر رايان الموضوع: "أخبريني عن قضية مطعم البيتزا".

سكبت المزيد من السلَطة: "ألم تتناول لوجورنال القضية برمتها؟"

- "لاحظت أن التغطية مبهمة قليلاً. ناوليني هذه من فضلِك".

ناولـــته الطبق الذي يحتوي على السلَطة، وانشغلنا بتناول الأرغيولا في الدقائق الـــثلاث التالية. كسر رايان جدار الصمت عندما سألني: "هل ستخبرينني عن العظام التي تعملين عليها؟"

التقـــت عيوننا، وبدا اهتمامه حقيقياً. استجبت لطلبه، لكني أبقيت عرضي موجزاً قـــدر المســـتطاع. نهـــض رايان عندما انتهيت، ثم سحب من جيب سترته جزءاً من الصحيفة.

لاحظـــت أن الصـــورتين قـــد أخذتـــا من الأعلى، ومن يمين المكان الذي كنت مـــتواجدة فـــيه. تظهرني الصورة الأولى وأنا أتكلّم مع كلوديل، وقد بان الغضب في عينـــيّ. بدوت كأني أطعن الهواء بإصبعي التي يغطّيها القفاز. فكّرت أنني أستطيع أن أضع عبارة هجوم امرأة جريئة كعنوان لهذه الصورة.

التقطـــت الصـــورة الثانية منظراً لهذه الجريئة وهي تدب على أطرافها الأربعة، وتظهـــر اتجـــاه المؤخرة نحو الأعلى. سألني رايان: "ألديك فكرة عن طريقة حصول لوجورنال على هاتين الصورتين؟"

- "حصلتْ عليها عن طريق ذلك المساعد القذر لمالك المطعم".

- "هل كلوديل هو من يتولّى هذه القضية؟"

تناولت بعض كسرات الخبز عن سطح الطاولة وأجبته: "نعم".

تقدّم رايان ووضع يده فوق يدي وسألني: "هل يزورك كلوديل كثيراً".

لـــم أُجِـــب عـــن هـــذا السؤال. وأوشك رايان على التكلم ثانية عندما رنّ هاتفه الخليوي.

ضـــغط قلـــيلاً علـــى يـــدي قبل أن يسحب الجهاز من حزامه ويتأكّد من هوية

المتصـــل. اتجهــت عيـــناه إلى الأعلى دلالة على الإحباط، أو الانزعاج، أو شيءٍ لم أستطعِ فهمه تماماً.

قال شارحاً: "عليّ الإجابة عن هذا الاتصال".

تراجع عن الطاولة ثم توجّه نحو الصالة.

تمكّنت من سماع تواتر هذه المكالمة أثناء انهماكي بنقل الصحون من الطاولة. لم تكن الكلمات مفهومة، لكن إيقاعها أوحى بالاضطراب الذي شعر به رايان.

عـــاد إلـــيّ الـــرجل في غضون لحظات قليلة قائلاً: "آسف يا فتاتي، يتعيّن عليّ الانصراف".

وقفت مذهولة: "هل ستغادر؟"

- "يا له من عملٍ غير محمود".

- "لكنك لم تذُق الحلويات التي أحضرتها".

لم تتلاقَ العينان الزرقاوان مع عينيّ حين قال: "أنا آسف".

طـــبع رايان قبلةً عجلى على خدّي. بقي كبير الطهاة وحيداً مع مفاجأته التي لم يتذوّقها أحد.

الفصل 4

استيقظت بمعنويات منخفضة من دون أن أعرف السبب.

هــل يرجع ذلك إلى كوني وحيدة؟ أم يعود ذلك لكون الهر الكبير الأبيض اللون هــو شــريكي الوحيد في السرير؟ لم أخطّط كي أعيش على هذا النحو. صمّمت، أنا وبيتي أن نكبر معاً، وأن نرحل متزوجين عن هذا العالم.

اســتمرّت هذه الرغبة إلى أن تقاسم زوجي الأبدي حياته الزوجية مع وكيلة بيع عقارات، لكن ابنتي كاتي تقول إن مسيرة الحياة تمضي مهما كانت الظروف.

بدا الطقس ملبداً بالغيوم وعاصفاً في الخارج، ولم يكن يغري بالخروج على أية حـــال. أشارت عقارب الساعة إلى السابعة وعشر دقائق. لم ألمح بيردي في أي مكان من المنزل.

نزعت ثياب نومي واستمتعت بحمامٍ ساخن، ثم جفّفت شعري. دخل بيردي أثناء تنظيفـــي لأسناني. حيّيته، ثم ابتسمت لنفسي في المرآة، وتساءلت إن كان اليوم مناسباً لوضع بعض الظلال على عينيّ.

تذكّـــرت بعدها ما حدث الليلة الفائتة. تذكّرت انسحاب رايان المفاجئ، وتذكّرت تلـــك النظرة في عينيه. حشرت فرشاة أسناني في شاحنها الكهربائي، ثم توجّهت إلى غـــرفة الـــنوم وحدّقتُ من خلال نافذتها المكسوة بالجليد. شاهدت أشكالاً لولبية متبلّرة وأشكالاً هندسية صنعتها رقاقات الثلج. بدت هذه الأشكال رقيقة وهشّة للغاية.

هـــل تشـــبه هذه الأشكال الأوهام التي نسجتُها حول حياتي مع رايان؟ تساءلتُ مجـــدداً عمّـــا يحـــدث من حولي. تساءلتُ عن السبب الذي يجعلني أتصرّف مثل تلك الشخصية الساذجة التي تظهر في أحد أفلام دوريس داي المضحكة. صرخت بصوتٍ عالٍ: "سحقاً لهذا يا دوريس".

رفع بيردي رأسه باتجاهي، لكنه احتفظ بأفكاره لنفسه.

- "وسحقاً لك يا آندرو رايان".

تحـــتلّ مختـــبرات العلوم القضائية والطب الشرعي الطابقين العلويين من مبنى

ويلفـــريد ديـــروم. يقع هذا المبنى المصمّم على شكل حرف T في ضاحية هوشلاغا ماسوناف، إلى الشرق تماماً من وسط المدينة. ويقع مكتب التحقيق في أسباب الوفيات المشتبه بها في الطابق الحادي عشر من المبنى، بينما تقع المشرحة في الطابق السفلي من هذا المبنى. وتحتلّ شرطة كيبيك باقي أجزاء المبنى.

امـــتلأ الطـــابق الثانـــي عشر برجالٍ ونساءٍ يرتدون المعاطف البيضاء. حيّاني بعضهم عندما مرّرت بطاقتي الأمنية داخل الآلة الموجودة في مدخل الرواق، وعندما مـــرّرتها بعـــد ذلك في الآلة الموجودة أمام الأبواب الزجاجية التي تفصل جناح الطب الشـــرعي عن بقية المبنى. رددت تحية الصباح وتابعت سيري نحو مكتبي، ولم أشعر أننـــي في مزاج التحدث مع أحد. تملكّني شعور بالانزعاج نتيجة لقائي الليلة الماضية مع رايان. اعتبرت أن ذلك اللقاء لم يتمّ.

يبدأ كل نهار عمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي باجتماعٍ لفريق العمـــل المخـــتص، مثلما يحدث في معظم المؤسسات المشابهة. لم أكد أنتهي من نزع ملابســـي الخارجية حتى رنّ جرس الهاتف. سمعت صوت بيار لامانش على الطرف الآخر، وأوضح لي أن ليلته كانت حافلة، لذلك فهو مستعجل للبدء بالعمل.

لـــم أجـــد ســـوى لامانش، وجان بيليتييه جالسَين في مكانيهما عندما دخلت إلى الغـــرفة. نفّـــذ الاثـــنان نصف وقفة فور دخولي، وهو التقليد المتبع لتحيّة النساء عند دخولهن إلى الغرفة. بادرني لامانش بالسؤال عن محاكمة بيتيت، فأجبته أنني أعتقد أن الأمور سارت على ما يرام فيها.

- "وماذا عن مكتشفات نهار الاثنين؟"

- "كـــل شيء على ما يرام، ما عدا أنه تبيّن لي أن ما وصفتَه بالعظام الحيوانية هي عظام بشرية في الواقع، وعدا حالة البرد التي أصابتني".

سألني لامانش بفرنسيته السوربونية: "هل ستبدأين تحاليلك اليوم؟"

- "نعم".

لـــم أذكـــر له ما أعرفه سلفاً استناداً إلى فحصي السريع الذي أجريته في الطبقة السفلية للمطعم، لأنني أردت أن اتأكّد من استنتاجاتي.

- "طلب مني التحري كلوديل أن أبلغك أنه آتٍ إلى هنا اليوم عند الساعة الواحدة والنصف".

- "يتعيّن على التحري كلوديل أن ينتظر كثيراً، لأنني سأكون حينها بالكاد بدأت عملي".

سمعت همهمة بيليتييه فتطلّعت باتجاهه.

أمضـــى جـــان بيليتييه، وهو أدنى رتبةً من لامانش، عقداً كاملاً من الزمن وهو يعمـــل في المختبر قبل أن يستلم لامانش منصبه. إنه رجلٌ قصيرُ القامة، لكنه مكتنز الجسم، غزا الشيب شعره غير الكثيف، أمّا الانتفاخات الظاهرة حول عينيه الصغيرتين فقـــد كانـــت كبـــيرة. أعرف أن بيليتييه كان مداوماً على قراءة جريدة الجورنال، لذا عرفت ما سيتحدّث عنه.

- "أجل".

تبدو أصابع بيليتييه صفراء على الدوام نتيجة نصف قرنٍ أمضاها بتدخين سجائر غولواز. أشارت إحدى أصابعه نحوي وهو يقول: "أجل، إنها زاوية أكثر جاذبية، لأنها تُظهر عينيك الخضراوين الرائعتين".

جاء ردي الوحيد في تحريك عينيّ الخضراوين الرائعتين بحركة دائرية.

جلســـت فـــي مقعـــدي، وانضمّ إلينا في هذه اللحظة ناتالي آيرز، مارسيل مورين، وإميلي سانت آنجلو. تبادلنا تحية الصباح وعبارات الاطمئنان. أثنى بيليتييه على تسريحة شعر سانت آنجلو، وأوحت نظرتها أنها تفضّل أن تُترك وشأنها، وكانت محقةً في ذلك.

وزّع لامانش علينا لائحة عمل اليوم، ثم بدأ بمناقشة القضايا وتوزيع المهمات.

وُجد رجل يبلغ السابعة والأربعين من العمر مشنوقاً، ومتدلياً من عارضة خشبية في مرآب سيارته في لافال.

طُعن شخص آخر يبلغ الرابعة والخمسين من العمر. طعنه ابنه إثر شجارٍ حدث بيـــنهما حـــول الـــنقانق المتبقية من وجبتهما. تبرّعت الوالدة بالاتصال بشرطة سان هاياكينث.

حطّـــم مواطن من لونغويل سيارته، الرباعية الدفع، في حافة جليديةٍ على طريق غاتينو الريفية. يُعتقد أن تناول الشراب لعب دوراً في هذا الحادث.

وُجـــد زوجـــان مجهـــولا الهوية مقتولَين في منزل يقع في سان ليونارد، نتيجة جـــروحٍ أصـــيبا بها جراء طلقات نارية. أصيبت المرأة بطلقين ناريين، بينما أصيب الـــرجل بواحـــدٍ فقط. قضى ذلك الرجل بطلق ناري في حلقه. انطلقت الرصاصة من مسدس غلوغ من عيار تسعة ميليمترات.

طقطـــق طقم أسنان بيليتييه عندما قال: "إذا لم أستطع الحصول عليكِ، فلن يقدر أي شخص على ذلك".

طفح صوت آيرز بالمرارة وهي تعلّق: "القصة المعهودة!"

إنها محقة، لأننا رأينا هذا المشهد مراراً.

جـاء فـي اللائحـة أيضاً أن امرأة شابة قد وُجدت ميتة في حانةٍ للموسيقى في شـارع جـان طـالون. ثـارت شكوك بأن يكون سبب الوفاة هو جرعة مفرطة من المخدرات، والانخفاض الشديد بدرجة حرارتها.

أُعطِيَـت الهـياكل العظمـية، التي وُجدت في الطابق السفلي من مطعم البيتزا، الأرقام 38426، و38427، و38428 في اللائحة.

قـال لامـانش بنبرة استفهامية أكثر منها بيانية: "يشعر التحري كلوديل أن هذه الهياكل العظمية هي هياكل قديمة، ولعلها ذات قيمة تشريحية قليلة"

- "وكيف عرف السيد كلوديل ذلك؟"

عرفـتُ أن هـذا احتمال وارد، لكن ما أزعجني هو أن يعطي كلوديل رأياً في موضوع يُعتبر من خارج اختصاصه وخبرته.

- "إن السيد كلوديل هو رجل متعدّد المواهب".

خلـت ملامـح بيليتيـيه مـن كل تعبير، إلا أنني لم أُخدع. يعرف ذلك الطبيب المشـرّح العجوز مدى الحساسية القائمة بيني وبين كلوديل، لذلك يدأب على مضايقتي من هذه الناحية.

سألته: "هل سبق لكلوديل دراسة علم الآثار".

تقـوّس حاجـبا بيليتييه نحو الأعلى: "يصرف السيد كلوديل ساعات طويلة على دراسة الآثار القديمة".

بقي الآخرون صامتين منتظرين نهاية الحديث.

تساءلت لماذا لا يُفصح هذا الرجل عمّا يريده: "أحقاً؟"

- "يتفحّص الرجل مهارته كل صباح".

أخفى لامانش تعابيره أيضاً: "شكراً يا دكتور بيليتييه. هل تستطيع من فضلك أن تتولّى قضية الرجل المشنوق".

حصـلت آيـرز علـى قضـية الطعن، ونالت سان آنجلو قضية حادث السيارة الرباعـية الدفع، أما مورين فكانت حصتها قضية الانتحار والقتل. سجّل لامانش على لائحـته الحرفين الأولين من اسم الشخص الذي تولّى كل قضية في المكان المناسب، أي "بي"، "آي"، "سا"، و"مو".

سجّل لامانش الحرفين الأولين "بر" مقابل ملفات عظام الطابق السفلي لمطعم البيتزا، وهي التي تحمل الأرقام 38426، و38427، و38428.

لم يخصّ لامانش نفسه بأية عملية تشريح نظراً لأنه يتوقّع عقد اجتماع مطول للهيئة التي تراجع وفيات الأطفال الصغار في المقاطعة.

رجعت إلى مكتبي فور تفرّق شمل المجتمعين، لكن لامانش حضر إلى مكتبي بعد لحظات قليلة. أخبرني أن أحد التقنيين في مختبر التشريح اضطر للغياب بسبب إصابته بالالتهاب الشُعبي. قال إن الأمور صعبة مع وجود خمسة عاملين فقط، وسألني إن كنت أمانع في أن أعمل لوحدي.

يا للروعة!

وضعت ثلاثة نماذج للقضايا على لوحتي، لكنني لاحظت توهج الضوء الأحمر في جهاز هاتفي.

شعرت بقليل من الارتعاش. هل هو رايان؟

هيا، تغلّبي على هذا الشعور يا دوريس!

استجبت لهذا النداء، فأدخلت رقم صندوق بريدي وأرقام الشيفرة التابعة له.

صحفي من مجلة آلو الشرطة.

صحفي آخر من مجلة غازيت.

مراسل أخبار محطة سي. تي. في.

شعرت بالإحباط فأقدمت على إلغاء كل هذه الرسائل، وأسرعت إلى الغرفة التي تضمّ خزائن النساء. ارتديت ثياب الجراحين، ومشيت عبر ممر جانبي كي أستقلّ مصعداً منفرداً يصل ما بين مكتب السكرتيرة والمكتبة. خصّص هذا المصعد لمن يحملون تصريحاً خاصاً، وجهّز بثلاثة أزرار فقط تسمح بثلاثة أماكن للتوقف، وهي المختبرات، المحقق القضائي، والمشرحة. ضغطت على الزر الذي يحمل حرف م، ثم أُغلقت الأبواب على الفور.

وصلت إلى الطابق السفلي ودخلت من باب يؤدي إلى ممر طويل وضيق يمتدّ على طول المبنى. تقع على يساري غرفة الأشعة السينية بالإضافة إلى أربعة أجنحة مخصّصة للتشريح، ثلاثة منها مجهزة بطاولات مفردة، أما الجناح الأخير فمجهز بطاولة مزدوجة. وتتواجد إلى الجهة اليمنى غرف تضمّ رفوفاً مخصصة للتجفيف، ومراكز لأجهزة الكمبيوتر، بالإضافة إلى أحواض ذات عجلات، وعربات تستخدم

لـنقل العيـنات إلـى مختـبرات الأنسجة، والأمراض، والسموم، والحمض النووي، والأسنان. وتتواجد هذه المختبرات في الطابق العلوي.

استطعت أن أشاهد آيرز ومورين من خلال نوافذ زجاجية صغيرة موجودة على أبـواب الغرفتيـن الأولـى والثانية. انهمكت المرأتان بفحوصهما الخارجية بمساعدة مصور تابع للشرطة، وتقنيّ تشريح. شاهدت في الغرفة الثالثة تقنياً ثالثاً ينهمك بترتيب الأدوات المختـبرية. سيسـاعد هـذا التقنـي سانت آنجلو، أما أنا فسأعمل بمفردي. وسيصل كلوديل في غضون أقل من أربع ساعات. شعرت أن معنوياتي آخذة بالهبوط فـي كل لحظة، وخصوصاً أنها كانت كذلك منذ بداية النهار. تابعت سيري إلى الغرفة الـرابعة. تتمـتّع هـذه الغرفة بنظام تهوئة خاص من أجل إزالة الروائح الناتجة عن الجثث المتحللة، أو الغارقة، أو المحنطة، بالإضافة إلى روائح أخرى. وتمتلك الغرفة رقـم أربعـة بابيـن مزدوجيـن، مثل الغرف الأخرى، يؤدّيان إلى حجرة المشرحة. تصـطفّ علـى جوانـب هذه الحجرة مستوعبات مبرّدة تضمّ كل واحدة منها رفوفاً مزدوجة.

وضـعت لوحتـي علـى الطاولـة الطويلة، ثم تناولت رداءً بلاستيكياً من أحد الأدراج، وقفـازات وقـناع مـن درج آخر، وارتديتها كلها. أحضرت عربةً معدنية صغيرة من الممر، ثم مررت بطريقة خلفية من الأبواب المزدوجة.

بدأت التعداد.

وجدت ست بطاقات بيضاء، ولصيقة حمراء وحيدة. ست حالات سليمة وواحدة تظهـر فـيها الإصـابة بفيروس الإيدز. أشّرت بالأحرف الأولى على هذه البطاقات. حملـت الـبطاقة الأولى الرقم 38426، أما الثانية فحملت الرقم 38427، بينما حملت الثالـثة الـرقم 38428. وحملـت الرابعة عبارة عظام، والخامسة عبارة غير محدد، والسابعة عبارة عظام. وحملت البطاقة الأخيرة عبارة مجهول.

اعـتدت أن أبـدأ بالعمل بطريقة تسلسلية، إذ كنت أنتهي من تفحّص كل حالةٍ بالكـامل قبل الانتقال إلى الحالة التالية، لكنني اليوم أنتظر وصول التحري السعيد في السـاعة الواحـدة والنصف. استبقت قلة الصبر التي يتصّف بها كلوديل، فقرّرت أن أتجاهل البروتوكول، وأن أجري تقييماً سريعاً للعمر والجنس لكل مجموعة من البقايا.

كان ذلك خطأً ندمت عليه في ما بعد.

انتقلـت من باب فولاذي إلى آخر، ثم إلى بابٍ ثالث، وانتقيت العظام نفسها التي شاهدتها في الطابق السفلي لمطعم البيتزا، ثم نقلتها بالعربة إلى الغرفة رقم أربعة.

دوّنت المعلومات المتعلقة بالبقايا في النموذج المخصص للقضية، ثم بدأت بالعمل على الحالة رقم 38426، أي العظام التي كانت موجودة في صندوق الدكتور إنرجي. بدأت بالجمجمة.

وجــدت معهــا القليل من الملحقات العضلية. قذالاً مستديراً. وجدت كذلك قطعاً مستديرة صغيرة، وحوافٍ حادة من منطقة ما فوق محجر العينين.

تحولــتُ إلى عظمة حوض. لاحظت عظمتي ورك واسعتين عند حافتيها. لاحظت أيضاً جزءاً ممدوداً من عظم العانة بالإضافة إلى حافة دقيقة مرفوعة تخترق جهة البطن. لاحظت وجود زاوية منفرجة لمنطقة تحت العانة، بالإضافة إلى شق وركيّ واسع. قابلت كل هذه الميزات في صفحة تقييم الجنس، ثم أصدرت استنتاجي؛ إنها أنثى.

قلبــت الصــفحة إلــى قســم تقييم العمر، لاحظت أن خط الاتصال عند أسفل الجمجمــة، وهو الفجوة ما بين عظمتَي القذال والعظم الإسفيني في أسفل الجمجمة، قد التحم حديثاً. استنتجت من هذا أن الفتاة كانت في وسط أو أواخر سنوات مراهقتها.

عدت إلى الحوض. يتألّف كل جزءٍ من نصفَي الحوض في أثناء سنوات الطفولة مــن ثلاثة عناصر منفصلة: العظمة الحرقفية، عظمة الورك، وعظمة العانة. تبدأ هذه العظــام بالالــتحام داخــل الــتجويف الحوضي في أوائل سنوات المراهقة. شهد هذا الحــوض مــرحلة الــبلوغ بشكل متفاوت. لاحظت وجود تغضنات تمتدّ عبر منطقة الالتصــاق العانــي، أي عــند منطقة التقاء نصفَي الحوض من الجهة الأمامية. قلّبت العظمــة. ظهــرت خربشات على الحافة العلوية لعظمة الورك، وهو الأمر الذي يدل على فقدان العظمة الهلالية النهائية. ظهرت الخربشات واضحة أيضاً على الورك، أي قرب النقطة التي تدعم الجسم في حالة الجلوس.

شــعرت بموجــة برد معتادة تخترق بطني. أستطيع أن أمضي بتفحّص الأسنان والعظام الطويلة، لكن كل الدلائل دعمت انطباعي الأول. إن الفتاة المخبأة في صندوق الدكتور إنرجي هي فتاة توفيت في منتصف أو أواخر سنوات مراهقتها.

أرجعــتُ العظــام التي تحمل الرقم 38426 إلى العربة، ثم تحوّلت إلى تفحّص العظام التي انتقيتها من الحالة رقم 38427. تفرّغت بعد ذلك إلى الحالة رقم 38428.

تــناهى العــالم عــندي إلــى بعدٍ مختلف. اختفت من ذهني كل أجهزة الهاتف، والطابعات، والأصوات، والعربات. لم يعد هناك من وجود لشيء في ذهني سوى بقايا العظــام الموضوعة أمامي على طاولتي. تجاوزت بعملي وقت الغداء، وتزايد الشعور

بالحزن في داخلي كلما لاحظت شيئاً جديداً.

لطالمـــا سمعت اتهام الناس لي بأنني أشعر بعاطفة نحو الأموات أكثر مما أحمل تجـــاه الأحياء، لكن هذا الاتهام ليس صحيحاً. أعترف أنني أشعر بالحزن تجاه العظام التـــي كانت أشخاصاً، والتي تربض على طاولتي، لكنني أعي جيداً الحزن الذي خلّفه غياب هؤلاء الأشخاص عند ذويهم. لم تمثّل هذه الحالة أيّ استثناءٍ بالنسبة لي. شعرت بتعاطف تجاه العائلات التي أحبّت هذه الفتيات وخسرتهن.

لعلـــع صـــوت الهاتف عند الواحدة والنصف تماماً. أنزلت قناعي ومشيت نحو الطاولة.

- "دكتورة برينان".

- "هل انتهيتِ".

لم يعرّف المتصل عن هويته، لكنني عرفته من صوته.

- "لديّ بعض المعلومات الأولية. إنني في الغرفة رقم أربعة".

- "أنا أنتظرك في مكتبكِ".

إنه كلوديل بالتأكيد. خذ راحتك يا كلوديل، لا بأس.

- "هل ترغب بمشاهدة الأشياء التي اكتشفتها؟"

- "لن يكون ذلك ضرورياً".

إن بغـــض كلوديل للتشريح هو أمر أشبه بالأسطوري. اعتدت أن أضرب على هـــذا الوتر، ولطالما فكّرت بحيَلٍ لاستدراجه إلى هذا الحقل، لكنني توقّفت مؤخراً عن هذه المحاولات.

قلت له: "أحتاج إلى بضع دقائق لتنظيف المكان".

- "لعل ذلك ليس ضرورياً على أية حال".

- "أتمنّى ذلك".

أقفلت خط الهاتف.

حسناً! إنه كلوديل. أعتقد أنّ لدى هذا الرجل ميلاً للعيش في الماضي.

وضـــعت صفحة من الورق على الطاولة، ونزعت قفازاتي وبدّلت ملابسي، ثم أســـرعت إلى الطابق العلوي. لكن خوفاً متزايداً تملّكني. أنا أعرف طبيعة العظام التي تفحّصـــتها، وأنا أعرف أنني على حق. صلّيت إلى الله كي يكون كلوديل محقاً، وذلك برغم تظاهره بالتقوى وغروره.

الفصل 5

جلس كلوديل مواجهاً لطاولة مكتبي. اتّجه حاجبا الرجل وأنفه وفمه نحو الأسفل. لم يقف لحظة دخولي لتحيتي، وبادلته المودة نفسها.

- "هل انتهيتِ؟"

جلســـت فـــي مقعـــدي: "لا، سيد كلوديل. لم أنتهِ بعد. بالكاد بدأت، لكنني كوّنت بعض الملاحظات المقلقة".

التفّت أصابع كلوديل في إشارة تقول: "إذاً هاتِها".

- "أستطيع أن أبلغك أن الهيكل العظمي الذي يحمل الرقم 38426، هو لأنثى في منتصـــف أو أواخـــر سنوات مراهقتها، وذلك استناداً إلى الخصائص التي وجدتها في عظام الجمجمة والحوض التابع لها. وسيسمح لي تحليل العظام الطويلة أن أحدد أكثر الـــتقدير الذي أعطيته للعمر، لكن من الواضح أن خط الاتصال في أسفل الجمجمة قد لُحم حديثاً، وأن القشرة الحرقفية..."

- "لست بحاجة إلى درسٍ في التشريح".

ما رأيكَ إذاً بركلةٍ على قفاك؟

قلت ببرودة: "إن الضحية صغيرة السن".

- "تابعي".

- "كلهن صغيرات السن".

تقوّس حاجبا كلوديل ليشكّلا تعبيراً استفهامياً.

- "إنهن إناث في عمر المراهقة، أو تجاوزنها قليلاً".

- "وما سبب الوفاة؟"

- "سيتطلّب تحديد هذا الأمر فحصاً مدققاً لكل هيكل عظمي".

- "يموت الناس على الدوام".

- "لا يموتون عادةً في عمر مبكّر".

- "ما هي الخلفية العرقية؟"
- "لست متأكّدة بعد".

توحـــي تفصـــيلات الوجه والجمجمة أن الضحايا هن من البِيْض، مع أنه يتعيّن عليّ التحقق من الأصل العرقي.

- "إذاً فمن المحتمل أن نكون قد استخرجنا بوكاهونتاس ورفيقتيها".

منعـــت نفســـي مـــن التعلـــيق على كلامه، لأنني لن أسمح لكلوديل باستدراجي للتصريح عن أمرٍ قبل أوانه.

- "صـــحيحٌ أن العظام التي كانت موجودة في الصندوق، وتلك التي استخرجت من المنخفض الشمالي الشرقي، تفتقد إلى الأنسجة الليّنة، لكن الهيكل العظمي الملفوف احـــتوى آثـــاراً مـــن شمع القبور. لست مقتنعة أن هذه الوفيات قد حدثت في الماضي السحيق".

فـــتح كلوديـــل يديـــه ووجّه راحتيه نحو الأعلى: "كم مضى على الوفاة، خمس سنوات، عشر سنوات، قرن من الزمن؟"

- "يتطلّب تحديد المدة التي مضت على الوفاة دراسة أعمق. لا أستطيع عند هذا الحد اعتبار الوفيات قديمة، أو تعود لما قبل العصور التاريخية".

- "لا أطلب توجيهاتٍ منك تتعلّق بكيفية تحضير تقاريري. ماذا تريدين أن تقولي بالضبط؟"

- "أقـــول ببساطة إننا اكتشفنا للتو بقايا ثلاث بنات متوفيات، في الطبقة السفلية لمطعـــم البيـــتزا. لا أعتقد أن من المناسب عند هذا الحد من التحقيق أن نعتبرها ذات قيمة تاريخية فقط".

تبادلت مع كلوديل النظرات المركّزة. مدّ يده بعدها إلى الجيب الأمامي لسترته، وتناول منها كيساً بلاستيكياً، ورماه على الطاولة.

أخفضت بصري بتمهل. احتوى الكيس على ثلاثة أشياء أسطوانية الشكل.

- "أخرجيها من الكيس إذا أردتِ".

فتحت زمّام الكيس، ثم وضعت محتوياته على راحة يدي. رأيت ثلاث أسطوانات معدنـــية مسطحة يبلغ قطر الواحدة بوصةً واحدة. لاحظت، برغم الصدأ، صورة ظلّية لامـــرأة محفورة على الجهة الأمامية، بينما احتوت الجهة الأخرى على ثقبٍ صغير. لاحظت أن الحرفين س. ت. قد حفرا إلى جانب كل ثقب.

وجّهتُ نظرة استفهامية صوب كلوديل.

- "أقنعنا صاحب مطعم البيتزا بالاعتراف أنه احتفظ ببعض الأشياء عند وضعه العظام في الصندوق".

- "أزرار؟"

أومأ كلوديل موافقاً.

- "هل كانت مدفونةً مع الهيكل العظمي؟"

- "كـــان ذلك السيد غامضاً بشأن طبيعتها. لكن، أجل إنها أزرار، ومن الواضح أنها قديمة".

- "كيف يمكنك أن تتأكّد من أنها قديمة؟"

- "أنـــا لا أستطيع، لكن الدكتورة أنطوانيت ليجو، العاملة في ماكورد، تستطيع ذلك".

يشـــتمل مـــتحف مـــاكورد للـــتاريخ الكندي على ما يزيد عن مليون قطعة فنية مصـــنوعة، بالإضافة إلى أكثر من ستة عشر ألف قطعة منها تتعلّق بمجموعة القماش والملابس.

- "هل تمتلك ليجو خبرةً بالأزرار؟"

تجاهل كلوديل سؤالي: "صُنعت الأزرار في القرن التاسع عشر".

انطلق هاتف كلوديل بالرنين قبل أن أتمكّن من التعليق. نهض الرجل، ومن دون استئذان، توجّه إلى الصالة.

عـــدت بنظري إلى الأزرار. هل وجودها يوحي بأن هذه الهياكل قد أمضت قرناً من الزمان أو أكثر قليلاً تحت التراب؟

عاد كلوديل في غضون أقل من دقيقة.

- "استجدّ أمر هام".

أراد الرجل الانصراف قبل الانتهاء من المحادثة.

أعـــترف أنني حادة المزاج، وأعترف أنني أفقد أعصابي أحياناً. وبدا أن غرور كلوديـــل كـــان يدفعني لهذه الحالة. اندفعتُ لإجراء التقييم الأولي لكي يستطيع متابعة بـــرنامجه، وذلك افتراضاً مني أن هذا التحقيق يتمتّع بأولوية قصوى، وها هو ينحيني جانباً بعد تفحّصٍ سريع.

- "أتعني أن هذه القضية ليست مهمة؟"

أنزل كلوديل ذقنه وتطلّع نحوي، وبدا لي أنه يتمتّع بصبرٍ لا حدود له.

- "أنا ضابط شرطة، ولست مؤرخاً".

- "وأنا عالِمة، ولست بصّارة".

مدّ يده ليتناول أحد الأزرار: "يعود تاريخ هذه المصنوعات إلى قرنٍ آخر".

وقفتُ فجأة: "لكن الفتيات المتوفيات قد عشن في هذا القرن".

تصلّب جسد كلوديل، وأغمض عينيه.

- "وصلت للتو مومس إلى مستشفى نوتردام مع جمجمة مكسورة وسكّين في جوفها، لكن زميلتها كانت أقل حظاً منها لأنها ماتت. سأقوم أنا وزميلي بإلقاء القبض على قوّادة معينة من أجل حماية النساء الأخريات".

وجّه كلوديل إصبعاً باتجاهي متابعاً: "سيدتي، هذه هي القضية المهمة".

بعدئذٍ اتجه نحو الباب.

وقفت للحظة واجتاحني غضبٌ شديد. إنني أكره واقع أن كلوديل يتمتّع بالقوة لتحويلي إلى امرأة عصبية للغاية، ويحدث ذلك أحياناً بشكل غير منطقي على الإطلاق. ها هو الآن، قد فعلها مرة أخرى.

جلست في مقعدي. استدرتُ بالمقعد، ووضعت قدميّ على حافة النافذة، وأسندتُ جانب رأسي إلى الحائط. بدت المدينة تحتي باثني عشر طابقاً، وهي تمتدّ باتجاه النهر. كانت السيارات والشاحنات التي تبدو صغيرة الحجم تتحرّك عبر جسر جاك كارتييه باتجاه سانت هيلانة، وهي الضاحية الشاطئية الجنوبية، والتي تقع في ولاية نيويورك.

أغمضت عينيّ وقمت ببعض تمارين التنفس على طريقة اليوغا. تبدّد غضبي ببطء. فتحت عينيّ وشعرت... بماذا؟ شعرت بالإحباط... بالتشوّش.

تُعتبر التحقيقات بأسباب الوفاة معقدةً بما يكفي. لماذا يكون هذا الأمر دائماً ذا صعوبة مضاعفة مع كلوديل؟ لِمَ لا نستطيع أن نستمتع، هو وأنا، بالأحاديث التي أتبادلها مع بقية المحققين في إطار أعمالي المهنية؟ رايان مثلاً؟

رايان!

تذكّرت دوريس في أحد أدوارها في فيلم حديث الوسادة.

بدت بعض الأمور واضحة بما يكفي. تمسّك كلوديل برأيه. لم يكن الرجل يحبّ الفئران. لم يحبّ مطعم البيتزا. ولم يعتقد أن هذه العظام تستأهل اهتمامه. وبدا أن أية مساعدة قد أحتاجها في التحقيقات ينبغي أن أحصل عليها من مصادر أخرى.

- "حسـناً أيهـا المتكبّر، والمتشكّك الصلب. اهزأ بتحليلاتي من دون أن تحاول فهمها. سنكمل هذه التحقيقات من دونك".

تناولت لوحتي وعدت إلى الطابق السفلي.

بعد مرور ثلاث ساعات، أنهيت جردةً للهيكل العظمي الذي يحمل الرقم 38426. بـدت الـبقايا سليمة في ما عدا العظم اللامي، وعظمة صغيرة بشكل حرف U، وهي التـي تكون معلقة في نسيج ليّن من الحنجرة، بالإضافة إلى عدة عظام صغيرة تعود لليدين والقدمين.

تـزداد العظام الطويلة طولاً طالما تبقى عظام الكردوس، وهي التي تغطي كل نهايـة من نهايات هذه العظام، وتكون منفصلة عن العظمة نفسها. يتوقّف النمو عندما تـتّحد عظـام الكردوس مع الجزء الرئيسي للعظمة. تتحرّك كل مجموعة من عظام الكردوس هذه حسب توقيتها الخاص به، وذلك لحسن حظ العالمِ بعلم الإنسان.

اسـتطعت تضـييق هامش العمر، وذلك عن طريق ملاحظة حالة تطوّر عظام الذراع، والساق، والترقوة. طلبت بعد ذلك إجراء فحصٍ للأسنان بالأشعة السينية، كي أتمكّـن من ملاحظة تطور جذر الأضراس. وهكذا، لم يتبقَ عندي أي شك، وأستطيع أن أقـول الآن إن الفتاة التي وجدت في الصندوق ماتت بعمر يتراوح ما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة.

امتلأت ورقة نموذج القضايا عندي بعشرات العلامات التي تدل على التحدر من أصـل أوروبي، والتي ظهرت في العمود الخاص. واشتملت هذه الإشارات على فتحة الأنـف الضيقة، والانحدار الشديد لحافة الأنف السفلى، وكذلك الجسر الأنفي المتميز بـزاوية كبـيرة، وبالمحور الأنفي البارز. تبيّن أيضاً أن عظام الخدّين قريبة جداً من الوجـه. دلت كل هذه الملامح والقياسات على أن الجمجمة تنتمي إلى الفئة القوقازية. تأكّدت الآن أن الفتاة كانت بيضاء.

بيّنـت قياسـات السـاق الدقـيقة التي أجريتها أن طول الفتاة كان خمسة أقدام وبوصتين على وجه التقريب.

تفحّصت كل العظام تقريباً، وكل كسرات العظام، لكنني لم أجد أي أثرٍ لاستخدام العـنف علـيها. وبدت الخربشات القليلة التي وجدتها في منطقة القناة السمعية اليمنى سـطحيةً، وتبيّن لي عندما وضعتها تحت المجهر أنها على شكل الحرف V. تولّد شكّ عـندي مـن أن تكـون هذه العلامات قد حدثت بعد الوفاة، ربما نتيجة الاحتكاك مع

التراب، أو لربما حدثت نتيجة الإهمال أثناء نقل العظام إلى الصندوق.

فحـــص الأسنان قدّم دليلاً على عدم الاهتمام بها، وعدم محاولة إصلاحها. عدت إلى تركيز اهتمامي على الفترة التي مضت على الوفاة. كم مرّ من الوقت على وفاتها؟ سأثبت لهذا المتعجرف خطأه عن طريق دراسة عظمةٍ بسيطة.

يُعتـــبر جســـم الإنسان كوناً كوبرنيكياً (نسبة إلى كوبرنيكوس) صغيراً مؤلفاً من عناصـــر الكـــربون، والهيدروجين، والنيتروجين، والأوكسجين. ويُعتبر القلب بمثابة نجمـــة الصـــباح فـــي هذا الكون الصغير، وهو يؤمّن مصدر الحياة لكل نظام أيضي موجودٍ في هذه المجرة.

تحـــدث فوضى في المادة الحية للخلايا في حالة حدوث الوفاة. تنطلق عند ذلك الأنـــزيمات بولـــيمة وحشية تلتهم فيها مخزونات الكربوهيدرات، والبروتينات للجسم ذاته. تتمزّق في هذه الحالة أغشية الخلايا كي تتخلّى عن الطعام لجيوش من الكائنات المجهـــرية. وتبدأ البكتيريا الموجودة في القناة الهضمية بالتوجه إلى الخارج. وتنطلق البكتيريا الموجودة في البيئة، والحشرات التي تقتات على الجيَف، والحيوانات الكاسحة إلى داخل الجسم.

يؤدي الدفن، والتغطيس بالماء، أو التحنيط، إلى تأخير عملية التحلّل، لكن هناك عدة عوامل ميكانيكية وكيميائية تستطيع تعزيز هذه العملية. إذاً متى نتحدّث عن عودة التراب إلى التراب؟

تختفـــي الأنســـجة اللينة في مدة ثلاثة أيام فقط، هذا إذا توفّرت عوامل الحرارة والـــرطوبة الشديدتين. تبقى هذه الحالة رقماً قياسياً، فتحْتَ الظروف العادية، ومع دفن سطحي يستغرق الجسم فترة تتراوح ما بين ستة أشهر وسنة ليصبح هيكلاً عظمياً.

إن تواجـــد الجـــثة في قبو من شأنه التسبب بإبطاء هذه العملية، أما إذا تواجدت الجـــثة في بيئة شبه قطبية فتتباطأ هذه العملية أكثر فأكثر. والآن، ما هي الحقائق التي هي تحت تصرفي؟

وُجدت الجثث في قبور غير عميقة. هل كان ذلك القبو هو المكان الأصلي الذي دُفنت فيه؟ وكم مضى من الوقت ما بين وفاة أصحابها، ووضعها هناك؟

أعرف على الأقل أن جثتين قد جرى طيّهما، ووضعت الركبتان في وضعٍ قريب جـــداً مـــن الصدر. أعرف أيضاً أن واحدة من هذه الجثث الثلاث قد حُزمت، وغلّفت بكيس جلدي. لا أعرف شيئاً غير هذه الحقائق. يتعيّن عليّ التفكير في تأثير الرطوبة، وحموضة التراب، والتغيّرات في درجة الحرارة.

مـــاذا أســـتطيع أن أقول؟ وجدت العظام جافة، ومتفككة، وخالية تماماً من اللحم والرائحة. لاحظت بعض اللطخات، وبعض التراب المتسرب إلى التجويف الأنفي في الجمجمة، وكذلك إلى تجاويف النخاع العظمي. أعتقد أن الفتيات تعرّضن إلى الخطف، ونزعــت عنهـــن ثيابهن لإخفاء أية آثار تدلّ على هويتهنّ، ولم تُترك معهنّ أية أشياء مصنوعة، هذا إلا إذا كانت الأزرار التي أحضرها كلوديل تعود لهنّ.

أفـــترض أن أفضل التقديرات التي يمكنني إعطاؤها للفترة التي مضت على وفاة الفتيات هي: أكثر من سنة، وأقل من ألف سنة. يستطيع كلوديل أن يستمتع بانتصاراته نتـــيجة هـــذا التقدير. شعرت بخيبة الأمل، فأعدت الهيكل رقم 38426 إلى مكانه، مع تصميمي على طرح المزيد من الأسئلة.

كنـــت منشـــغلة بإخراج الهيكل الذي يحمل الرقم 38427 من العربة، عندما رنّ الهـــاتف الموجـــود خلفي. تضايقت من المقاطعة، وتوقّعت أن يكون كلوديل هو الذي يتّصل ليظهر سخريته التي تنمّ عن الغرور. نزعت قناعي وتناولت سماعة الهاتف.

- "برينان".

سمعت صوتاً أنثوياً متهدجاً يفوح بالتردد: "الدكتورة تمبرانس برينان؟"

- "أجل".

نظـــرت إلـــى ساعتي. بقيت خمس دقائق ليحين وقت الخدمة الليلية للعاملين في مركز الهاتف.

- "لم أتوقّع أن تجيبي أنتِ شخصياً في الواقع. أعني اعتقدت أن سكرتيرة أخرى هي التي ستجيب. قالت عاملة..."

أجبت بإنجليزية تحاكي لهجتها: "أيمكنني أن أساعدك بطريقة ما؟"

مـــرّت فترة صمت، وبدا أن المتصلة كانت تفكّر فعلاً بالمسألة. تمكّنت أن أسمع أصواتاً تشبه أصوات الطيور من الجهة الأخرى.

- "حسناً، لا أعرف. فكّرت في الواقع أن أكون أنا من يقدّم المساعدة إليك".

عظيم. ها هي مواطنة أميركية متبرعة أخرى.

إن أفراد فريق استعادة مسرح الجريمة لا يكونون عادةً من العلماء. إنهم تقنيون، فهـــم يجمعـــون الشعر، والألياف والخيوط، وشظايا الزجاج، وشذرات الدهان، والدم، والمنـــيّ، واللعـــاب، وأيـــة دلائـــل ماديـــة أخرى. إنهم يجهدون في جمع البصمات، ويلـــتقطون الصور. ينتهي عمل وحدة استعادة مسرح الجريمة فور توضيب كل هذه

الأشــياء وترقـيمها. لا يحـتوي هـذا العمل على أية تقنية عالية، وهم لا يشعرون بضرورة الإسراع في عملهم. ولا يشترك هؤلاء في مطاردات ساخنة. تفرض طبيعة عملـنا أن يقوم الأخصائيون الذين يحملون شهادات عالية، بإنجاز الأمور التي تتطلّب تطبيق علومهم، أما رجال البوليس فهم الذين يطاردون الأشرار.

تقدّم هذه المدينة المبهرجة نوعاً آخر من الرقص، لأن الناس هنا يميلون للاعتقاد أن تقنيـي مسـرح الجريمة هم علماء ورجال تحرٍّ. إنني أتلقّى أسبوعياً اتصالات من المشـاهدين الواهمين الذين يظنّون أنهم اكتشفوا شيئاً. أحاول أن أكون لطيفةً معهم في العادة، لكن هذه الأسطورة الهوليودية تحتاج إلى ركلةٍ على القفا.

- "آسـفة سـيدتي، لكـن إذا أردتِ أن تعملي في هذا المختبر فعليك أن تبرزي مؤهلاتك، وأن تخضعي لعملية التوظيف الرسمية".

سمعت المتصلة وهي تأخذ شهيقاً حاداً: "أوه".

- "إذا مـررتِ بمكتـب شـؤون الموظفين ستجدين نموذجاً مطبوعاً لتوصيف الوظيفة..."

- "لا... لا. أنـت أسـأتِ فهمـي إذاً. رأيـت صورتك في لوجورنال البارحة فاتّصلت بمكتبك".

أفترض أن هذه المرأة هي أسوأ من مجرد أن تكون مغرمة بالعروض البوليسية، ولعلهـا جـارة متطفلة تمتلك أفضل النصائح في هذا القرن، ولربما هي مجرد مدمنة تتطلّع للحصول على مكافأة.

وضـعت قلمـي فـي مكانه، وجلست على مقعدي. أعتقد أنني ذهبت بعيداً في ظنوني بالنسبة لمكالمة هاتفية، لكن هذا هو الحال مع صاحبة الصوت الخفيض.

سـمعت همهمة على الطرف الآخر من الخط: "يبدو هذا نوعاً من الجنون، وأنا متأكّدة من أنك مشغولة جداً".

- "أنا منهمكة جداً في موضوعٍ هام سيدة...؟"

وصلني الاسم مشوشاً قليلاً، غالانت، أو بالانت، أو تالنت.

- "... بشأن العظام التي قمت باستخراجها".

سـادت فترة صمت أخرى. وسمعت، مجدداً، بعض الصفير والأصوات الحادة الأخرى.

- "ماذا بشأنها؟"

ازداد الصوت قوة.

- "أشعر أنها من ضمن مسؤوليتي الأخلاقية".

لم أقل شيئاً، بل حدّقتُ بالعظام الموجودة أمامي ورحت أفكّر بالمسؤوليات الأخلاقية.

- "مسؤوليتي الأخلاقية التي تفرض عليّ متابعة الأمر حتى النهاية، على الأقل عن طريق مكالمةٍ هاتفية. إنه أقل ما يمكنني عمله قبل مغادرتي. لا يريد أحد تخصيص بعض الوقت لسماعي بعد الآن، ولا أحد يكترث بي. لا يريد أحد أن ينشغل بهذا الموضوع".

سمعت بعض الأصوات في القاعة المجاورة وسمعت صوت الأبواب وهي تُغلق بشدة، ثم ساد الصمت من جديد. أعرف أن تقنيي التشريح قد أنهوا أعمالهم لهذا اليوم وغادروا المكان. استرخيت في مقعدي وقد تملّكني التعب، لكنني شعرت برغبة أكبر لإنهاء المكالمة والعودة إلى عملي.

- "ما هي الأشياء التي تودّين إخباري إياها؟"

- "عشت في مونتريال لوقت طويل. أعرف ماذا جرى في ذلك المبنى".

- "عن أي مبنى تتحدّثين؟"

- "أتحدّث عن المبنى الذي خُبّئت العظام فيه".

استحوذت المرأة على كل انتباهي الآن.

- "أتقصدين مطعم البيتزا؟"

- "هذا ما أصبح عليه الآن".

- "أجل، تابعي".

لعلّ في الطرف الآخر صوت جرسٍ صاخب في تلك اللحظة، صوت جرسٍ مماثل لصوت أجراس المدارس القديمة الطراز. وانتهت المكالمة فجأة.

الفصل 6

ضغطت عدة مرات على زر جهاز الهاتف محاولة أن أحصل على انتباه موظفة مركز الهاتف، لكن دون جدوى.

اللعنة!

أرجعت سماعة الهاتف إلى موضعها، وأسرعت راكضةً نحو المصعد.

تعيش سوزان، وهي موظفة مركز الهاتف في المختبرات، في مدينة صغيرة تقع عند منتصف المسافة ما بين مونتريال وأونتاريو. يشتمل جدول تنقلاتها على قطار الأنفاق، والقطار، لكن مع توقيت دقيق جداً أكبر ممّا تطلبه عملية التحامٍ مع محطةٍ فضائية. تسارع سوزان للمغادرة فورِ انتهاء دوامها، وهي تفعل ذلك بسرعة الصاروخ. تمنّيت أن ألحق بها في المصعد، وإن بمعجزة.

أشارت أرقام المصعد الضوئية إلى وجوده في الطابق الثالث عشر. هيا. هيا أيها المصعد!

حسبت أن شهراً مضى قبل أن يهبط المصعد، وأن شهراً آخر سيمضي قبل أن أصل إلى الطابق الأعلى. خرجت من أبواب المصعد المفتوحة عند الطابق الثاني عشر.

كانت طاولة سوزان مهجورة. صلّيت أن تكون المتصلة قد عاودت الاتصال بي، وأن تكون المكالمة حوّلت بواسطة الخدمة الليلية الآلية إلى بريدي الصوتي. أسرعت إلى مكتبي، شاهدت الضوء الأحمر يومض.

أجل!

أعلن لي صوت آلي عن وصول خمس رسائل. جاءت الأولى من صديقتي آن التي تعيش في كارولينا الجنوبية. جاءت رسالة ثانية من آلو الشرطة. ورسالة من غازيت مجدداً. ورسالة جديدة من مراسل أخبار محطة سي أف سي أف. وأخرى من رايان.

تملّكتنـــي مشـــاعر متناقضة. شعرت بالفضول لأن آن قد اتّصلت بي، وشعرت بالارتـــياح لأن رايان حاول الاتصال بي. شعرت بالإحباط لأن مخبرتي الغامضة لم تتّصل. خشيت أن أكون قد فقدت هذه المرأة إلى الأبد.

حاولت أن أتذكّر اسمها. هل كان غالانت؟ أم بالانت؟ أم تالنت يا ترى؟ تساءلت لماذا لم أطلب منها تهجئة ذلك الاسم.

تقلّبـــت فـــي مقعـــدي، وحدّقت في جهاز الهاتف، وتمنّيت أن يلتمع ذلك الضوء الأحمر ليبلغني أن رسالة وصلت إلى الجهاز. طرقت بيدي على سطح طاولة مكتبي، وسحبت سماعة الهاتف بحيث امتدّ سلكها، ثم سمحت للسلك اللولبي بأن يعود كما كان ثانية. لماذا لم تحاول تلك المرأة الاتصال بي مجدداً؟ إنها تعرف رقمي.

مهـــلاً... ألـــم تقل إنها اتّصلت بي من قبل؟ هل ظنّت أنني أتهرّب منها، وأنني قطعت الاتصال معها عمداً؟ هل فقدت الأمل بالاتصال بي؟

فتحت الدرْج، وبحثت عن قلمي. أقفلت الدرْج ثانية. ألم تذكّر المتصلة شيئاً عن المغـــادرة؟ هـــل تحدّثـــت عن مغادرة المنزل، أم عن مغادرة المدينة، أم عن مغادرة المقاطعة؟ هل تحدّثت عن المغادرة ليومٍ واحد، أم إلى الأبد؟

رحـــت أضـــرب أخماسي بأسداسي، واندفعت بلوم نفسي على إهمالي. في هذه اللحظات رنّ هاتفي المحمول، فانتزعته انتزاعاً من حقيبتي.

- "سيدة غالانت؟"

- "لقّبت ذات مرة بغالانت (الرجل الشهم)، لكنهم لم يطلقوا عليّ أبداً لقب سيدة".

آه! إنه رايان.

- "ظننتك شخصاً آخر".

ندمت على حماقة كلماتي ما إن تفوّهت بها. تذكّرت الآن أن السيدة غالانت، أو بالانـــت، أو تالنـــت، قـــد اتّصلت بي من خلال مركز الهاتف، ولذا من المستحيل أن تعرف رقم هاتفي الخليوي.

- "يؤلمني جداً أن أتحسّس مدى الإحباط الذي يشي به صوتكِ".

عـــدت إلى مقعدي، وابتسمت لأول مرة في هذا اليوم: "إنك رائع، رايان. يرجع إحباطي إلى القضية التي بين يديّ".

- "أية قضية؟"

- "الهياكل العظمية التي وجدت في قبو مطعم البيتزا".

حافظت على مراقبتي لضوء الرسائل الأحمر أثناء مكالمتي مع رايان. وقفت على أهبة الاستعداد كي أقفز عند أول إشارة لبريدي الصوتي.

- "هل تمتّعتِ اليوم بصحبة كلوديل؟"

- "حضر الرجل إلى هنا".

- "هل حضر بمفرده؟"

- "لم تستطع وحدة وافن للمخابرات السرية مرافقته".

- "أقصد أن كلوديل يبدو صلباً أحياناً".

- "ينتمي كلوديل إلى فصيلة إنسان نياندرتال. لا، أعتقد أنه ينتمي إلى العصر الحجري القديم، لأن إنسان نياندرتال تمتّع بدماغ متعقّل بالكامل".

- "لا يشكو دماغ كلوديل من شيء، لكنه يميل إلى تعليق أهمية كبرى على الخبرات السابقة والأنماط المعتادة. أين يمكنني إيجاد شاربونيو؟"

- "تعرّضت مومسان للاعتداء. قُتلت واحدة، بينما ترقد الأخرى في مستشفى نوتردام".

قال رايان: "سمعت عن هذا الأمر".

استشعرت شيئاً من الانزعاج في صوته.

- "أعتقد أن مدير أعمال المرأتين قد استُدعي للتحقيق".

- "ستعرف بالتفاصيل".

تجاهل رايان مدى الانزعاج في صوتي، أو أنه لم يلاحظه.

- "ماذا يريد كلوديل أن يفعل بالعظام التي تفحصينها؟"

- "لا يستطيع أن يفعل الكثير مع الأسف".

تدخلت دوريس من دون أن أستطيع إيقافها: "لم تكن هذه القضية على رأس أولوياتك في الليلة الفائتة".

امتنع رايان عن الرد.

أسرعتُ لمتابعة الموضوع: "تبيّن لي أن الهياكل العظمية الثلاث تعود كلها لشابات صغيرات في السن".

- "هل هي حديثة العهد؟"

- "أخبرني كلوديل أن صاحب المطعم وجد أزراراً مع إحدى مجموعات العظام، وأن خبيراً في متحف ماكورد قد قدّر أن هذه الأزرار تعود إلى القرن التاسع عشر".

- "دعيني أخمّن. لا يكترث كلوديل بما يعتبره أشياءً قديمة العهد".
- "أستغرب هذا، مع أن تفكيره مليء بأمور تعود إلى العصر الحجري الحديث".

أضجرتني المتعة التي فاحت من صوت رايان عندما قال: "هل أنتِ في يومٍ سيئ يا شمسي؟"

أزعجتني رغبتي بتقديم شرحٍ له. حاولت أن أتذكّر فلسفة آن. لا تشرحي أبداً، ولا تشتكي أبداً. كم أنتِ على حق يا آني!

حافظت على تركيزي على جهاز الهاتف، مع أن ذلك المربع الأسود بقي أسود: "لم يكن هذا الأسبوع سهلاً بالنسبة لي".

قال رايان: "كلوديل هو رجل شرطة جيّد، لكنه يتطلّب في بعض الأحيان إقناعاً أكثر مما نحتاجه نحن، أي الأنواع الأذكى بطبعيتنا".

- "إنه عنيد".
- "حاولي تغييره".
- "لم أفكّر بهذا الأمر".

مرّت لحظة صمت، لكن رايان أسرع لكسرها.

- "ما هو عمر هذه العظام برأيك؟"
- "لست متأكّدة بعد، حتى إنني لست متأكّدة من أن وفاة الفتيات قد حدثت في نفس الوقت"
- "هل هناك عملٌ على الأسنان؟"
- "لم ألحظ شيئاً من هذا القبيل".

ساد الصمت من جديد.

- "ماذا بشأن انطباعك الأوليّ؟"
- "إن فترة الدفن في القبو لم تكن طويلة".
- "ماذا يعني ذلك؟"
- "أعتقد أن علينا أخذ القضية بجدية أكبر".

تجاهل رايان مجدداً المرارة التي أشعر بها.

- "ما هو الأساس الذي بنيتِ عليه انطباعك الأولي؟"

لم أكفّ عن طرح هذا السؤال على نفسي في الأيام الثلاثة الماضية.

- "التجربة".

لم أذكر له المخبرة الغامضة التي اتّصلت بي مؤخراً، ولم أذكر له مدى حماقتي عندما لم أكترث بها كثيراً.

- "حسناً يا شمسي..."

سارعتُ إلى مقاطعته: "أجل يا حبيبي".

مرّت فترة صمت.

- "يتعيّن عليكِ إيجاد الدليل الذي يُقنع كلوديل أنه مخطئ".

مهـــلاً، مهلاً أيها الأستاذ الذي يوبخ طالباً في صف الحضانة. مرّت فترة صمت طويلة تخلّلتها أنفاسي المضطربة. بادر رايان إلى التكلّم مجدداً.

- "أعتقد أن هذه الليلة لن تكون مريحةً بالنسبة إليك".

- "ماذا تعني بكلامك هذا؟"

- "أتدركيـــن كم أنتِ متعبة ومحبطة. اذهبي إلى بيتك واستمتعي بالاستحمام في المغطس مع الفقاقيع. ستجدين أن الأمور أصبحت أفضل في الصباح".

جلســـت أستمع إلى الهمهمة الصادرة عن المبنى بعد انتهاء الاتصال. لا أستطيع إنكـــار الواقع، أي أنني أمضيتُ إلى الآن ثلاثة أيام كاملة بلياليها في مونتريال. حافظ رايـــان خـــلال هذه الأيام على شخصيته اللطيفة والساحرة. وحافظ أيضاً على غيابه عني. إن آخر شيء أحتاج إليه هو أن تحترق أعصابي. ها هو الضابط المتباهي يبتعد عني، وها أنا عالقةٌ مع التحري العنيد الرأس.

أشـــرفت على ذرف الدموع، لكنني نجحت بكبحها. عشت في الماضي من دون رايـــان، وأنـــا مصـــممة الآن علـــى فعل ذلك مجدداً. لطالما استطعت أن أتعايش مع كلوديـــل، وســـأفعل ذلك ثانية. أتساءل الآن إن كانت المشكلة مع رايان هي من صنع خيالي. وأتساءل عن سر هذه البرودة في علاقتي معه هذه الأيام؟

عصفت الرياح في الخارج، أما في الطابق السفلي لهذا المبنى فترقد ثلاث نساء بصـــمت مطـــبق داخل مستوعبات من الفولاذ غير القابل للصدأ. تطلّعت مجدداً نحو جهاز الهاتف. لم تقرّر السيدة غالانت، أو بالانت، أو تالنت، أن تتّصل بي بعد.

نهضـــت من مقعدي وقلت: "فلتذهب الفقاقيع إلى الجحيم. ولتذهب أنت أيضاً، يا آندرو رايان إلى الجحيم".

انتهيت من تفحّص الهيكل رقم 38427، أي الهيكل الذي استُخرج من المنخفض

الأول، عند الساعة التاسعة. تبيّن لي أنها أنثى بيضاء، يتراوح عمرها ما بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة، ويتراوح طولها ما بين أربع وستين، وسبع وستين بوصة. لم يحمل هذا الهيكل معه أية رائحة، ولا حتى الشعر، ولا أية شذرة من النسيج الليّن. لم أجد سوى هيكلٍ جاف من دون ألوان، لكنني لاحظت بعض التراب المتسرب. لاحظت أيضـاً بعـض الكسـور في الجمجمة، وهي كسور حدثت بعد الوفاة، بما فيها بعض الشـظايا فـي منطقة الإحساس اليمنى بالوقت، وكسور في عظام الوجه اليمنى، وفي الفـرع الأيمـن للفكّ. لم ألحظ أية كسور في العظام حصلت قبل الوفاة. لم ألحظ أيّ ترمـيم للأسـنان، ولـم أجد أية بقايا للثياب، أو أية ممتلكات أخرى. بدا الهيكل رقم 38427 نسخة طبق الأصل عن الهيكل رقم 38426.

اكتشـفت فارقـاً واحداً. رأيت هذه الشابة في مكان دفنها الأصلي، وتمكّنت من معرفة أشياء عن ظروف دفنها. وُضع الهيكل رقم 38427 عارياً في الحفرة في وضعٍ جنيني.

تعودنـا نحن الذين نتبع المعتقد المسيحي، أن نرسل أمواتنا إلى العالم الآخر في أفضل هندام لهم. إننا نسبّلهم وأرجلهم ممدودة بالكامل، ونضع أيديهم فوق بطونهم، أو نـتركها مسـبلةً على جوانبهم. وأعرف أن عادة وضع الإنسان المتوفى في وضعية الشخص النائم، وفي حالة انثناء، متبعةٌ أكثر بين إخواننا السكان الأصليين لهذه البلاد، وعلـى الأخـص قبل احتكاكهم بنا. إذاً، هل يدعم هذا الوضع المنثني فرضية كلوديل بتقادم تاريخها؟

ليس الأمر بهذه البساطة!

يتطلّـب الجسـد المنثني حفرةً أصغر، كما يتطلّب حفراً أقل، ووقتاً وجهداً أقل. ويشيع هذا النمط من الدفن عند الذين هم في عجلةٍ من أمرهم. ويبدو المجرمون كأبرز مثال على هؤلاء.

شعرت بالتعب، فأرجعت العظام إلى موضعها، ثم رجعت إلى مكتبي، وأسرعت إلى إلقاء نظرةٍ على جهاز هاتفي مرة أخرى.

لا رسائل.

كانت الساعة قد تعدّت العاشرة بقليل عندما غادرت عملي. عصفت الرياح حول زاويـة ويلفـريد ديـروم، واستطاعت هذه الرياح أن تخترق ثيابي كما تفعل الشفرة. أسرعت إلى سيارتي بينما كادت أنفاسي تتجمّد بفعل البرد.

لـم أسـتطع التفكـير بأي شيء، عدا الفتيات الراقدات في المشرحة. هل كان

المـــرض هـــو ســـبب الوفاة؟ هل تمّت عملية قتل الفتيات بطريقةٍ لا تترك أثراً على العظام؟ هل حدث القتل بطريقة التسميم، أم عن طريق الاختناق؟ هل تمّت عملية القتل بطريقة تخفيض درجة الحرارة؟

ظهـــر مراهقان أمامي عندما وصلت إلى الإشارة الضوئية لشارع فايجر، ظهرا فجـــأة مـــن بيـــن ظلال جسر جاك كارتييه. لاحظت وشميهما، والثقوب في آذانهما، وتســـريحة شـــعرهما الســـبايكي. رفع المراهقان تجاهي ممسحتين مطاطيتين بحركة مـــتوترة ومســـتهترة. أومـــأتُ إلـــيهما أن يمضيا قدماً، وبدأت بالبحث عن دولارٍ في محفظتـــي، ومضيت بمراقبتهما أثناء انهماكهما بإزالة الماء غير النظيف عن الزجاج الأمامي لسيارتي.

هـــل كانـــت فتـــيات قـــبو مطعم البيتزا متمردات مثل هذين الشابين؟ وهل كنّ ماضـــيات في دروب العصيان المألوفة؟ هل كنّ محبات للعزلة، أو تعرّضن للتعسف من طغاة عائلاتهن؟ هل كنّ هاربات يناضلن من أجل كسب عيشهن في الشوارع؟

لم أجد أي دليلٍ على ملابسهن. أسلّم أن الأنسجة الطبيعية مثل القطن، أو الكتان، والصوف، تتحلّل بسرعة. لكن كيف يمكنني تفسير غياب أي سنٍّ من أسنان الزمّام، أو أيـــة حلقة صغيرة، أو حتى أيّ مثبّت للصدار، أو حتى مثبتاً لصديرية؟ أظن أنه تمّت تعرية الفتيات قبل تخبئتهن في مدافن غير معلومة.

هـــل ماتت الفتيات معاً، أم في غضون أشهر، أم على مدى أعوام؟ ويبقى دائماً السؤال المحوري: متى حدث ذلك؟ أقَبل عقدٍ، أم قبل قرنٍ من الزمان؟

وصـــلت إلى منزلي وأنا أشعر بصداعٍ شديد، شعرت بجوعٍ شديد أيضاً. تذكّرت أنني لم أتناول أي شيء هذا اليوم عدا بضعة أصابع من الغرانولا، والقليل من الصودا المخصصة للحمية.

انتهيـــت من أخذ حمام سريع، فأسرعت بتحضير عشاءٍ مكسيكيٍّ مثلج. سرحت بأفكـــاري نحـــو آن، أثناء تناول عشائي برفقة رجل وهمي. تستطيع آن أن تفهمني. دعونـــي أنفّـــس عن مشاعري وأقول أشياء تبعث فيّ الارتياح. لم أكد أتناول سماعة الهاتف حتى انطلقت بالرنين.

قالت آن: "كيف حال بيردي؟"

- "أتتّصلين لتسأليني عن هرّي".

- "لا أظن أن المسكين يلقى ما يستأهله من الاهتمام".

ربض ذلك المسكين بجانبي على الأريكة، وركّز نظره على الكريما التي رشحت

من بقية الترتّية التي تناولتها.

- "أعتقد أن بيرد سيوافق على هذا الكلام".

وضعت عشائي على طاولة القهوة، وغرفتُ كمية من الكريما وقدمت للهرّ كميةً منها بإصبعي. لعق بيردي إصبعي ونظّفها تماماً، ثم عاد بتركيزه نحو الصحن.

- "ماذا بشأنك أنتِ؟"

شعرت بالضياع، فسألتها: "ماذا تعنين بسؤالك؟"

- "هل تحصلين على اهتمامٍ كافٍ؟"

تتمتّع آن ببصيرةٍ نفاذة مثل القمر نافسات، لكنها لم تعرف بالقلق الذي أشعر به تجاه رايان. قلت لها: "كنت على وشك الاتصال بكِ".

تابعتْ كلامها من دون أن تصغي فعلاً لإجابتي: "أنا لا أحصل على هذا الاهتمام".

- "عمَّ تتحدثين؟"

- "أتحدّث عن طوم تيد".

أعرف أن آن متزوجة من محامٍ يدعى طوم ترنيب. اكتسب طوم لقب تيد عندما واظب شريكه في مكتب المحاماة على مناداته بهذا اللقب لمدة شهر كامل، وذلك عندما أنهى سنة شراكته الثانية في مؤسسته. اكتسب طوم اسم طوم تيد منذ ذلك الحين.

- "ماذا بشأن طوم تيد؟"

- "خمّني؟"

أردت أن أكون متعاطفة معها، لكنني كنت متعبة جداً لكي أدخل في لعبة التخمين.

- "أخبريني من فضلكِ"

- "يا للفكرة الرائعة! سأكون هناك غداً".

الفصل 7

تحسّــن مزاجي كثيراً بعد مضيّ ثماني ساعات، وزال صداعي. لقد غمر ضوء الشــمس المكان، كما أن صديقتي المفضلة هي في طريقها لزيارتي. هذا ما أفترضه على الأقل، لأنني أعرف أن آن تغيّر آراءها كثيراً.

بمناســبة الحديــث عن تغيير الآراء، أعتقد أن رايان كان محقاً. إن إيجاد دليلٍ يكشــف المــدة التــي انقضت على الوفاة، هو في صميم الجدال مع كلوديل. انشغلت بمضغ رقاقات الذرة أثناء تفكيري بهذه المشكلة.

أعــرف عــند هذا الحد أن الهيكلين 38426 و38427، قد استُخرجا من قبور حُفرت في قبوٍ جاف. خلا هذان الهيكلان من اللحم، لكنهما كانا محفوظين بشكل سليم، ولم تظهر عليهما أية آثار لكسور أو للتقشّر.

أجريــت تدقيقاً ذهنياً. وتساءلت عن أية معطيات أخرى قد تساعدني على تحديد المــدة التي مضت على الوفاة عن طريق تحليل عظامٍ بسيطة وجافة. هل أمتلك مواد مهترئة مرافقة للعظام؟ هل أمتلك تحليلاً يثبت وجود حشرات في العظام؟

قــرّب بيرد رأسه من صحن الحبوب الذي أعددته، على أمل أن يتمكّن من لعق شيء من الحليب. أعدت الهر إلى مقعده.

هــل يتوجّــب عليّ الانتقال إلى الهيكل رقم 38428، أم أنه يجدر بي أن أركّز على تحديد مدة الوفاة؟

تســلّل بيردي مجدداً إلى الطاولة. أعدته مجدداً إلى مكانه السابق. شعرت أنني سأرتاح إذا حصلت على دليلٍ يؤكد أن عملية الدفن قد تمّت منذ وقتٍ بعيد، وسألجأ في هذه الحالة إلى إخطار علماء الآثار. أعلم أيضاً أنني إذا وجدت دليلاً على حداثة عهد الوفــيات، كما هو ظنّي، فسيصّر القاضي على المضي بإجراء التحقيقات، وسيرضخ كلوديــل للأمــر الواقع. ويستطيع كلوديل بعدها الانطلاق بالتحقيق الرسمي بمساعدة شاربونيو، بينما أتفرّغ أنا لتحليل ثالث مجموعة من البقايا.

شنّ بيردي غارته الثالثة أثناء انهماكي بسكب القهوة. أرجعته مجدداً إلى مكانه، لكن بحرصٍ أقل.

أعترف أنني لا أمتلك أية دلائل دامغة، فما هي الخيارات المتبقية أمامي؟

أعلم أن تركيب عناصر العظام يتغيّر مع مرور الوقت. تأخذ كميات النيتروجين بالتناقص مع الزمن، بينما تزداد كميات الفلوريد. تحدث هذه التغيّرات ببطء شديد، بحيث يتعذر علينا الاستفادة من هذا الواقع لتحديد عمر البقايا.

قرأتُ في الماضي دراسات ركّزت على التصوير الشعاعي، وعلى علم الأنسجة والتفاعلات الكيميائية، ومحتويات العظام من النظائر المشعة. وسبق لي أيضاً الاطلاع على دراسات تشير إلى الأحماض الأمينية كونها مفيدة في تمييز العظام الحديثة عن القديمة.

أعرف أيضاً أن هناك عوامل كثيرة تؤثر على العمليات الكيميائية الحيوية، والعمليات الفيزيائية التي تحدث في العظام. تبرز هنا عوامل الحرارة، ورطوبة التربة، وضغط الأوكسجين، بالإضافة إلى النشاط البكتيري، وتوازن حموضة التربة وقلويتها. ذلك يعني عدم وجود تقنية دقيقة يُمكن استخدامها بشكل موثوقٍ به. ما إن تحدث الوفاة حتى يبدأ الجسد بالتحلّل، وتغزوه الجراثيم وأنواع الحشرات، تصبح هنا مسألة تحديد مدة الوفاة بمثابة مثلث برمودا بالنسبة للطب الشرعي.

لا أستطيع التفكير إلا باختبارٍ واحد يُمكن أن يعطي نتائج محددة، لكن هذا الاختبار يتطلّب الوقت والكثير من المال، بالإضافة إلى أن القليل من المختبرات تُقدم على إجرائه. علمتُ أنه من الصعب إقناع لامانش بإجراء الاختبار، نظراً لمعرفتي بالحالة المالية الحالية للمختبرات. لكن الأمر يستأهل المحاولة.

وضعت الطبق على الأرض، ثم تناولت جهاز كمبيوتري المحمول وانطلقت.

بقي ضوء الرسائل في جهاز الهاتف الموجود في مكتبي مظلماً بشكل ثابت.

بدا الاجتماع الصباحي روتينياً. مات رجل اختناقاً بدخان مدفأةٍ معطّلة. وعلمنا بوجود قتيلٍ نتيجة حادث سيرٍ له علاقة بتناول الشراب. ومات مهووسٌ آخر نتيجة غلطة ارتكبها في أنشوطة حبلٍ كان يعبث به. ووجد جسد مشوّه في مرآبٍ محترقٍ للسيارات.

تولّى بيليتييه الضحية المحترقة. طلب بيليتييه أن أكون جاهزة للمساعدة في حالة تعقّد الأمور، مع أنه يظن أن البقايا تعود لصاحب الشاحنة.

التفتّ إلى لامانش بعد خروج الآخرين، وقلت: "هل أستطيع التحدث إليك قليلاً؟"

رجع لامانش إلى مقعده: "أجل".

- "انتهيت من تفحّص اثنين من الهياكل التي وجدت في قبو مطعم البيتزا".

استطالت الخطوط المرتسمة على وجه لامانش وتعمّقت عندما رفع حاجبيه. بدا لـــي أنـــه تقـــدّم فجأة بالسن، أكثر ممّا كنت أظن. هل يعود السبب إلى ضوء الصباح المتسلل من النافذة خلفي؟ هل صحة لامانش ليست على ما يرام، أم أنني لم ألاحظ هذه التغيّرات في الرجل حتى هذه اللحظة؟

قلت له: "تبيّن لي أن الضحيتين اللتين تفحّصتهما شابتين وصغيرتين في السن".

- "أرى أنكِ تستخدمين كلمة ضحية".

- "إنهما صغيرتان في السن وميّتتان".

لـــم تطرف عينا لامانش الكئيبتان نتيجة وصفي الحاد. تابعت معترفةً: "لكنني لم أجد أية علامات تدل على العنف".

- "يشعر السيد كلوديل أنه يُحتمل ألاّ تكون البقايا حديثة العهد".

- "وجد صاحب المطعم أزراراً يُحتمل أن تعود للقرن التاسع عشر".

ارتفع الحاجبان مجدداً: "أيحتمل ذلك؟"

- "أخذها كلوديل إلى متحف ماكورد".

- "وهل اقتنعتِ؟"

- "حـــتى لو كانت الأزرار حقيقية، فليس من الواضح أنها ترتبط بأي هيكلٍ من الهياكل العظمية. يحتمل وجود الأزرار في القبو العديد من التفسيرات".

تأوّه لامانش وزاد من انتباهه: "أخبرني السيد كلوديل أيضاً أن عمر المبنى يزيد عن الماية عام".

شـــعرت أن وجهـــي يـــتورّد: "هل تفحّص كلوديل المبنى؟ لم يخبرني عن هذه المعلومة".

- "جرت عملية البناء منذ ما يزيد عن قرنٍ من الزمان".

أعترف أنني أتمتّع بحد أقصى لفقدان أعصابي، وقد ورثت هذا عن والدي. اعتاد والـــدي أن يســـمح لغضـــبه الشديد بالسيطرة عليه، وذلك إضافة إلى تناوله الشراب. تعوّدت على نوبات الغضب هذه وكبرت معها.

مثل والدي تماماً، استسلمت لإغراء الشراب، لكنني اختلفت عنه في ابتعادي عن

الإدمان. اختلفت عنه أيضاً في مقدرتي على السيطرة على نوبات غضبي. أستطيع أن أحافظ على مظهرٍ خارجي باردٍ تماماً، بينما تغلي نيران غضبي في داخلي.

ســـألت بصـــوتٍ شديد البرودة: "ألم يدرك السيد كلوديل أن مثل هذه المعلومات هامة جداً لعملي؟"

- "أنا متأكّد من أنه سيبلغكِ بتفاصيلها".

- "هل سيحدث هذا خلال حياتي؟"

- "لماذا تأخذين موقفاً دفاعياً، فأنا لا أحاربكِ".

أخذت نفَساً عميقاً، وقلت: "هناك اختبار واحد يحسم المسألة".

- "أخبريني عنه".

- "هل سمعتَ عن تأريخ الكربون 14؟"

- "أعــرف أن هــذه الطريقة تُستخدم لتحديد عمر المواد العضوية، بما في ذلك العظام البشرية، لكنني لا أعرف كيف".

- "يُعتــبر الكربون المشع، أو الكربون 14، من النظائر المشعة غير المستقرة. تتلاشـــى هــذه المادة، مثل كل المواد المشعة الأخرى، عن طريق إطلاق جسيمات ما دون ذرية، وذلك بمعدل منتظم".

بقيــت عيــنا لامانش مركزتان على عينيّ، فتابعت: "تتحول نصف كمية ذرات الكربون المشع إلى عنصر النيتروجين في غضون 5,730 سنة".

- "يسمى هذا نصف العمر".

أومـــأت موافقةً وتابعت شرحي: "وفي غضون 11,460 سنة يتبقّى ربع الكمية الأصلية للكربون المشع. ويبقى ثمنٌ واحد فقط من هذه الكمية بعد 5,730 سنة أخرى، وهكذا دواليك".

لم يحاول لامانش مقاطعتي، فأكملت شارحة: "إن كمية الكربون المشّع الموجودة فـــي الجو هي صغيرة فعلاً. وتتواجد ذرة كربون مشعٍ واحدة مقابل كل تريليون ذرة كربون مستقر. يتكوّن الكربون المشع باستمرار في الطبقات العليا من الجو، وذلك عن طــريق القــذف الكوني لذرات النيتروجين. تتحوّل بعض ذرات النيتروجين هذه إلى الكربون المشع، الذي يتأكسد فوراً ليصبح ثاني أوكسيد الكربون. يترسّب ثاني أوكسيد الكــربون ذاك إلـــى طبقة المحيط الحيوي، أو البيوسفير، لتستفيد النباتات منه. يؤلف الإنســـان والحـــيوانات والنـــباتات سلسلة غذائية واحدة طالما يبقون على قيد الحياة،

ويحتفظون بنسبة ثابتة من الكربون المشع في أجسادهم. تتناقص الكمية الفعلية تدريجياً بســبب التآكل الإشعاعي، لكن يجري تعويض هذه الكميات المفقودة عن طريق تناول المزيد من الطعام، أو عن طريق التمثيل الضوئي بالنسبة للنباتات. يستمرّ هذا التوازن موجوداً طيلة بقاء الكائنات الحية على قيد الحياة. يبدأ التآكل عند موت هذه الكائنات، ويستمرّ في كونه العملية النشطة الوحيدة. إن طريقة تحديد التاريخ عن طريق الكربون المشع هي طريقة تحدّد زمن بداية الإخلال بهذا التوازن".

رفــع لامانش راحتَي يديه بحركة تنمّ عن بعض التشكيك.: "ما يزيد عن الخمسة آلاف سنة. كيف يمكن لهذه العملية البطيئة أن تكون ذات قيمة بالنسبة للبقايا الحديثة؟"

– "إنه سؤال وجيه، لأنه من الصحيح أن طريقة تحديد التاريخ بواسطة الكربون 14 أكثر ما تُستخدم من قبَل علماء الآثار، ولطالما أثبتت مصداقيتها. تستند هذه التقنية على افتراضات عديدة، إحداها تقول إن مستوى الكربون المشع في الجو بقي ثابتاً مع مــرور الزمن. ويمكننا استخدام المعطيات غير المتوافقة مع ذلك الافتراض من أجل إعطاء هذه العملية تطبيقات أوسع".

– "وكيف يكون هذا؟"

– "تصبح العملية أكثر تشويقاً هنا. تمكّنت الدراسات من توثيق بعض الشواذات فــي معطــيات الكــربون المشــع بالنســبة لفترات محددة من الزمن. برزت بعض الاضطرابات على مدى الثمانين سنة الماضية، وهي التي تسبّب بها النشاط البشري".

استرخى لامانش في مقعده، وشبك أصابع يديه، ثم وضع يديه على صدره. هل هــذه إشــارة مــنه لضرورة الاختصار؟ أجريت لهذه السبب بعض الاختصارات في ذهني.

– "تمــيّزت الفترة ما بين عامَي 1910 و1950، بتناقص كمية الكربون المشع الموجــود في الجو، ولعل ذلك يعود إلى إطلاق مخلفات احتراق الوقود الأحفوري في الجو. وتشمل أنواع الوقود هذه النفط، الفحم، والغاز الطبيعي".

– "لماذا؟"

– "لا يشتمل الوقود الأحفوري، بسبب قدم عهده، على كميات مهمة من الكربون المشــع. يُدعــى هذا الوقود بالوقود الميت. يتسبّب احتراق الوقود الأحفوري بانطلاق غــاز ثاني أوكسيد الكربون الذي يخلو من الكربون المشع، لذلك تتناقص نسبياً كميات الكربون 14 الموجودة في الجو".

– "نعم".

– "أسفرت عمليات تجربة الأسلحة النووية الحرارية، والتي أجريت بعد العام 1950، عن عكس هذا الاتجاه التنازلي".

– "ونتج عن ذلك ازدياد كمية الكربون المشع الموجودة في الكائنات الحية".

– "ازدادت كثيراً. ارتفعت الأرقام إلى نسبةٍ تقارب 85 بالمئة أكثر من المستويات القياسية المعاصرة، وذلك من الفترة الممتدة ما بين العام 1950 والعام 1963. وأسفرت اتفاقية دولية عُقدت في العام 1963 عن توقف معظم الدول عن إجراء التجارب النووية فوق سطح الأرض، وعادت نسَب الكربون المشع، الموجودة في الغلاف الحيوي، إلى الاستقرار على توازن جديد".

هزّ لامانش رأسه بحزن: "يا للحماقة".

– "تُعرف هذه التغيرات بالتأثيرات الناجمة عن الوقود الأحفوري والقنابل الذرية".

اختلس لامانش نظرةً على ساعته.

– "إن مغزى كلامي كله هو أن ذلك الكربون 14 الصناعي، أو ذلك الناتج عن القنابل، يمكن استخدامه لتحديد ما إذا كان شخصٌ ما قد توفي قبل، أو بعد، فترة إجراء تجارب القنابل النووية فوق سطح الأرض".

– "وكيف يُجرى هذا الاختبار؟"

– "هناك طريقتان في الواقع. تعتمد طريقة قياس الكمية الإشعاعية العادية على تحليل المواد بواسطة تحويل نموذج من الكربون إلى بنزين، ثم قياس محتوى الكربون 14 بواسطة تحليل التألق الطيفي".

– "وما هي الطريقة الثانية؟"

– "تُستخرج النتائج في الطريقة الثانية عن طريق تقليص نموذج الكربون إلى مادة الغرافيت. يُجرى اختبار بعد ذلك على الغرافيت لتحديد محتواه من الكربون 14، ويجري ذلك داخل مسرّع الكتلة الطيفي".

لم يقل لامانش شيئاً للحظاتٍ عديدة، إلى أن سمعت منه: "ما هي كمية العظام التي يتطلّبها الأمر؟"

– "نحتاج إلى مايتين وخمسين غراماً لإجراء تعداد تقليدي للتلاشي، أما في حالة مسرّع الكتلة الطيفي فنحتاج إلى غرام واحد، أو حتى أقل من ذلك".

– "هل يكلّف اختبار مسرّع الكتلة الطيفي أكثر من الاختبار العادي؟"

- "أجل".

- "كم هي الكلفة؟"

عــندما أخــبرته، نــزع لامانش نظارتيه عن عينيه، وعصَرَ منطقة أعلى أنفه بإبهامه وسبابته.

- "ألا توجــد خطــوة وسيطة من أجل تقرير ما إذا كان هذا النوع من الإنفاق مبرراً؟"

- "هــناك شــيء واحد أستطيع تجربته. إن الطريقة ليست موثوقة تماماً، لكنها بسيطة ويُحتمل أن تُظهر ما إذا كانت الوفاة قد حدثت منذماية سنة، إما أكثر قليلاً، أو أقل قليلاً".

حاول لامانش البدء بالكلام.

أضــفت قائلــة: "كما أنها مجانية، لأنني أستطيع أن أجريها بنفسي، لكنني أقول مجــدداً إنهــا تعطــي تقديراً تقريبياً لمسألة إذا ما كان عمر العظام أكثر من قرنٍ من الزمان، أو أقل بقليل".

أعاد لامانش نظارتيه إلى موضعهما وهبّ واقفاً: "سأناقش اقتراحك مع الدكتور أوتييه قريباً جداً، لو سمحتِ".

ينظر جان - فرانسوا أوتييه، وهو رئيس قضاة التحقيق بالوفيات المشبوهة، في جمــيع طلــبات الإنفــاق غير الاعتيادية. دأب الرجل على قبول القليل جداً من هذه الطلبات.

تناولت معطف المختبر من مكتبي ثم توجّهت إلى المشرحة. لاحظت أن مورين وآيــرز كانــتا منهمكتيــن في الغرفة رقم اثنين بتقطيع شقوق بشكل حرف Y. طلبت الحصــول علــى مصــباح للأشعة فوق البنفسجية، وانتظرت ريثما يفرغ التقني من إحضــاره. أســرعت بعــد ذلك إلى الطاولة المناسبة وأخرجت عظام الفخذ اليسرى للهياكل العظمية التي تحمل الأرقام 38426، و38427، و38428.

عــندما دخلــت إلــى غرفة التشريح رقم أربعة، شرعت بكتابة أرقام الحالات بالترتيب على النهايات القريبة من مراكز عظام الساق، وتلك البعيدة عنها، ثم وضعتها على طاولة التشريح. أصدرت كل مجموعة من العظام قرقعةً وسط الصمت المخيّم.

وضعت القناع، ثم شغّلت منشار سترايكر الكهربائي. تجمّع مسحوق أبيض على الصينية الفولاذية غير القابلة للصدأ، وذلك عندما قطّعت كل عظمة من عظام الساق.

ملأت المكان رائحة حادة وساخنة.

تساءلت مجدداً عن الشابات اللواتي انهمكُ الآن بتقطيع عظامهن. هل ماتت الفتيات وسط عائلاتهن؟ لربما لا. هل كنّ وحيدات وخائفات؟ أرّجح هذا الاحتمال الأخير. هل امتلكن أملاً بالحصول على المساعدة، أم كنّ يائسات؟ هل كنّ غاضبات؟ هل شعرن بالارتياح؟ أعتقد أن كل الاحتمالات واردة هنا. لن تحصل الفتيات على فرصة لتوضيح ما حصل.

انتهيت من عملية النشر، فجمعتُ أجزاء عظام الساق، ومصباح الأشعة فوق البنفسجية، وحملتها إلى حجرة الإيداع الموجودة في نهاية القاعة.

لكم أتمنّى أن تنجح محاولتي هذا.

دخلت إلى الحجرة، وبحثت عن مقبس كهربائي مناسب لمصباح الأشعة فوق البنفسجية. وضعت أجزاء عظام الساق النصفية على الرف، ووضعت معها الأجزاء التي نشرتها للتو ووجّهتها نحو الجهة الخارجية.

أقفلت باب الحجرة، وساد الظلام في الأرجاء.

أمسكت أنفاسي، ووجّهت مصباح الأشعة فوق البنفسجية، وضغطت على المفتاح الكهربائي.

الفصل 8

- "أجل!"

ضربت الهواء بيدي الأخرى وأنا أشعر بالانتصار.

تضـــيء عظـــام الأطراف التي يعود عمرها إلى قرنٍ من الزمان تحت أضواء الأشعة فوق البنفسجية. يقلّ هذا الإشعاع مع مرور الزمن، ويبدأ القطاع الميت بالتمدد خارجاً من تجويف نخاع العظم، ونحو الداخل ابتداءً من السطح الخارجي. يغيب كلياً الوهج ذو اللون الأصفر الذي يميل إلى الخضرة بعد مرور قرنٍ على الوفاة.

بدا أن هذه العظام تتوهّج مثل حلقات أضواء النيون.

حسناً يا كلوديل! ليست هذه سوى الخطوة الأولى.

أرجعتُ عظام الساق إلى مكانها في الأكياس المخصصة لها، وانطلقتُ أبحث عن رئيسي.

وجدت لامانش منهمكاً بتقطيع دماغٍ في مختبر الأنسجة. رفع رأسه عندما دخلت، ولاحظتُ أنه يحمل السكين بيده، وأنه ارتدى مئزراً بلاستيكياً مربوطاً خلف رقبته، وفي منطقة الخصر. شرحت له ما فعلته.

- "ماذا بعد؟"

- "توهّجت الأسطح المقطوعة مثل نجم مستسعر".

- "علامَ يدلّ ذلك؟"

- "يدلّ على وجود مكونات عضوية".

وضع لامانش سكّينه على لوحة من الفلّين: "إذاً لا نستطيع اعتبار أن هذه الهياكل المدفونة تعود إلى السكان المحليين".

- "ماتت الفتيات بعد العام 1900".

- "تحديداً؟"

علّقتُ، لكن بحماسةٍ أقل: "لربما".

- "بُنيت العمارة في أوائل القرن الماضي تقريباً".

لم أعلّق.

- "أتذكرين البقايا التي وُجدت قرب كاتدرائية ماري - راين دو موند؟"

قَصَد لامانش تلك المهمة التي أوكلها إليّ في وسط المدينة، من أجل التحقيق في أجـــزاء من أجسامٍ اكتشفها فريق صيانة أنبوب المياه الرئيسي للمدينة. وجدتُ، حينما وصلت إلى المكان، حفّارات وشاحنات لنقل الردميات، ووجدت حفرةً كبيرةً في وسط شارع رينيه - ليفسكو. وجدت أيضاً أجزاءً من جماجم، وأضلاعٍ، وعظام طويلة على طول الرصيف، استخرجت من خندق جرى حفره حديثاً. لاحظت وجود أجزاء بشرية مختلطة مع شظايا خشبية، ومسامير صدئة.

يا للقضية الواضحة، لأنها مدفونات مكفّنة!

أكّـــد علمـــاء الآثـــار رأيـــي في ما بعد. تواجدت في المكان مقبرة حيث ترتفع الكاتدرائـــية هذه الأيام، والتي تشهد أمامها ازدحام السيارات التي تعبر شارع رينيه - لافاســـكو. بقيت هذه المقبرة إلى أن أغلقت بفعل وباء الكوليرا الذي اجتاح المنطقة في منتصـــف القرن الثامن عشر. فوجئ فريق الإصلاح بوجود بعض هذه البقايا البشرية، والتي يظهر أنها نُسيت في المقبرة عند نقلها إلى مكانها الجديد.

سألته: "هل تريد أن تقول إن ذلك المبنى قد أُقيم فوق مقابر مجهولة؟ في الواقع، لم أجد دليلاً على وجود أكفان".

يشتهر الكنديون ذوي الأصول الفرنسية بهز أكتافهم دلالة الاستهجان، وباستخدام حركات دقيقة بالأيدي، والعيون، والأكتاف، والشفاه، وذلك للإيحاء بعددٍ لا يحصى من المعانـــي. توجـــد إشارات للإيحاء بالموافقة، وبعدم الموافقة، وبعدم الاكتراث، وأيضاً للاســـتفهام عمّا يمكن فعله، وللدلالة على عبارة: من يدري، وللدلالة على أن الشخص الآخر أحمق، وأخيراً هنالك إشارة لتقول: افعل ما يحلو لك.

رفع لامانش إحدى كتفيه وحاجبيه، وهي حركة هز الكتف التي تدل على: ربما نعم وربما لا.

سألته: "هل ناقشت مسألة الكربون 14 مع أوتييه؟"

- "ينشـــغل الدكـــتور أوتيـــيه في هذه الأثناء باستضافة وفدٍ من أكاديمية الطب الشرعي المغربية. تركت رسالة له كي يتّصل بي هاتفياً".

لم أحاول إخفاء انزعاجي: "يستغرق الاختبار بعض الوقت".

- "تمبرانس!"

أعـــرف أن لامـــانش هو الوحيد على هذا الكوكب الذي يناديني بهذا الاسم. لفظ لامـــانش اسمي على نحو مماثل لوزن كلمة شمعدان قبل أن يقول: "أصبحتِ متورطة شخصياً إلى حد مفرط".

- "لا أعـــتقد أن هـــذه العظـــام هـــي قديمة العهد. إنها لا تبدو كذلك بمظهرها وملمسها. تبدو البيئة التي وجدت فيها العظام غير طبيعية. أنا..."

طفـــح وجه ذلك الرجل العجوز بالصبر الشديد: "هل ماتت الفتيات في الأسبوع الماضي؟"

- "لا".

- "هل هنك حاجة ملحة للكشف عنها؟"

لـــم أقـــل شيئاً، عندئذٍ حدّق بي لامانش لوقتٍ طويل حتى ظننت أن ذهنه سرح بعيداً، ثم قال بغتةً: "أرسلِي نماذجك. سأسوّي المسألة مع الدكتور أوتييه".

قاومت رغبةً شديدة لاحتضانه: "شكراً لك".

- "أتمـــنّى فـــي هـــذه الأثـــناء أن نستخرج بعض المعلومات المفيدة من الهيكل العظمي الثالث".

عـــاد لامانش بعد فراغه من إبداء هذه الملاحظة المتفائلة إلى انشغالاته. شعرت بابتهاجٍ غامر، وتوجّهت إلى الطابق السفلي، ثم وضعت رداء العمل.

أوقفتنـــي لـــيزا بيـــنما كنت في طريقي إلى غرفة المشرحة رقم أربعة. تبيّن أن ضـــحية احـــتراق الشاحنة المقطورة يفتقد للأسنان، أو الأسنان الصناعية، كما أنه لا يمـــتلك أصابع يمكن أن تؤخذ منها البصمات. تحوّل التعرّف على هوية هذه الضحية إلـــى مشكلة، كما أن الدكتور بيليتييه أصرّ على الاستفادة من رأيي. أخبرت ليزا أنني سأنضمّ إلى بيليتييه في غضون نصف ساعة.

عملـــت بسرعة، واقتطعت جزءاً يبلغ طوله بوصةً واحدة من المنطقة الوسطى لعظمتَي الساق، ثم أسرعت إلى الطابق العلوي، وفتحت شبكة الإنترنت. أدخلت عنوان مختبرات فلوريدا التي ستُجري التحاليل. نقرت على صفحة نموذج المعطيات وأدخلت المعلومات المطلوبة، ثم طلبت إجراء الاختبار بطريقة مسرّع الكتلة الطيفي.

توقّفـــت قلـــيلاً عـــند القسم المتعلق بتسليم النماذج. تستغرق الخدمة العادية وقتاً يتراوح ما بين أسبوعين وأربعة أسابيع، وباستخدام الخدمة المتطورة تظهر النتائج في

فترة لا تتعدّى الستة أيام فقط، لكن بسعرٍ أعلى بكثير.

سحقاً لذلك! إذا توانى أوتييه، فسأدفع أنا من جيبي الخاص.

أشّــرت علـــى المربع الثاني، ونقرت زر أرسل. أتممت نماذج نقل الرزمة التي تحــتوي علـــى الدليل، وأعطيت العنوان لدينيس، وطلبت منه أن يغلّف العيّنات، وأن يرسلها بالبريد السريع على الفور. أسرعت نزولاً مرةً أخرى.

تعيّــن عليّ التوافق مع بيليتييه. أعرف أن مالك المقطورة - المنزل كان رجلاً أبيض اللون في الرابعة والستين من عمره. الجسد الموضوع على الطاولة كان يرتدي بقايا متفحمة من حمالة صدر من نوع وندر، وهناك أساور في اليدين.

حسناً، يبدو أن الرجل كان غريب الأطوار.

كلا! لم يكن الأمر كذلك. أظهرت صور الأشعة السينية وجود حاجز وسطي في منطقة الحوض.

فرغنا من التصنيف في وقت متأخر من الظهيرة. تبيّن لنا أن الضحية هي أنثى بيضـــاء، وتفــتقد للأسنان. لاحظنا كسراً في مرحلة الشفاء في عظام الخدين والأنف. وقدّرنا عمر الضحية ما بين الخامسة والثلاثين والخمسين.

أين هو رجل الشاحنة المقطورة إذاً؟ أصبحت هذه المشكلة من اختصاص رجال الشرطة الآن.

أشـــارت عقـــارب الســـاعة إلـــى الثالثة والدقيقة الأربعين. غسلت يديّ، وبدّلت ملابســـي، ثم تناولت، في طريقي إلى مكتبي، علبة كولا مخصصة للحمية، وقطعتين مـــن الكعـــك المحلـــى بمسحوق السكر. توهجت أضواء جهاز الهاتف في مكتبي مثل توهج أضواء تنزيلات الأسعار في متاجر كاي مارت. أسرعت لتناول سماعة الهاتف. جاءت الرسالة الأولى من آن لتعلمني أن طائرتها ستصل عند الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرين. وأتت الرسالة الثانية من آرثر هوليداي، وهو الرجل الذي سيجري اختبار الكربون 14. طلب مني في رسالته أن أتّصل به قبل أن أرسل العيّنات.

سارعت إلى مكتب المساعدات، وتفحّصت كومة البريد المعدة للإرسال، فوجدت أن الرزمة لم ترسل بعد. استخرجت الرزمة وعدت بها إلى مكتبي، واتّصلت بالمختبر في فلوريدا مستغربةً المشكلة التي استجدّت.

- "تمـــب. حسناً، حسناً. اتّصلت بك ما إن استلمت رسالتك بالبريد الإلكتروني. هل أرسلتِ عيّنات العظام؟"

- "إنها جاهزة، لكنها ما زالت هنا. هل هناك من مشكلة؟"

- "لا، لا. لا توجد أية مشكلة على الإطلاق. حسناً، أصغي إليّ، هل تمتلك نماذجكِ أسناناً؟"

- "نعم".

- "جيّد. جيّد. اسمعي إذاً، لدينا مشروع دراسات صغير يجري هنا، وتساءلنا عمّا إذا كان مكان الولادة يحمل أهمية في قضيتك".

- "لم أفكر بتلك الناحية، لكن نعم، قد تكون تلك المعلومة مفيدة. هل تستطيع تحديد مكان الولادة؟"

- "هل لاحظتِ وجود الكثير من المياه السطحية في ذلك القبو؟"

- "لا. أستطيع أن أقول أن المكان جافٌ بما يكفي".

- لا أستطيع أن أعدك بشيء، لكننا نحصل على بعض النتائج الرائعة عن طريق استخدام تحليل السترونتيوم المشع. إذا سمحتِ لنا بتخزين النتائج في قاعدة بياناتنا، فيمكنك مراجعتنا في النهاية عندما تتّضح هوية الأشخاص المجهولين لديك. سأكون سعيداً بإجراء هذا الاختبار التجريبي على عيّناتك المجانية".

- "أتقول مجانية؟"

- "إننا بحاجة إلى توسيع قاعدة بياناتنا المرجعية".

- "ماذا يتوجب عليّ أن أرسل لكم؟"

أخبرني عن الأشياء التي يتعيّن عليّ إرسالها، ثم بدأ بشرح أسباب احتياجه إلى عيّنات العظام والأسنان في الوقت نفسه. أشارت عقارب الساعة إلى الثالثة والخمسين دقيقة. قاطعت مكالمة الرجل.

- "آرت، هل تستطيع أن تفسّر هذا عندما نصل إلى مناقشة النتائج؟ وإذا أردتُ أن تُرسل العيّنات هذا اليوم مع شاحنة البريد السريع، فيتعيّن عليّ أن أعود إلى الهياكل العظمية كي أنتزع أسنانها في غضون الدقائق الثلاثين القادمة".

- "أجل، أجل بالطبع. سنتحدّث لاحقاً. يُحتمل يا تمب أن لا تحصلي على أية نتائج، لكن.. حسناً، لا نستطيع أن نتأكّد من ذلك".

قطعت الاتصال، وتوجّهت إلى المشرحة، قطّعت قطعة أخرى من كل مجموعة من البقايا، ثم أرجعت العظام إلى مكانها. أقدمت بعد ذلك على انتزاع الفك، ورجعت إلى مختبري. أخذت صوراً للفك، ثم انتزعت الضرس الأيمن الثاني من كل واحدٍ

منها، وأعدتُ كل شيء إلى مكانه، ثم أرجعت الرزمة إلى كومة رسائل البريد، وشعرت بالارتياح لأنني أجريت صورة بالأشعة السينية للأسنان.

استقرّيتُ في مكتبي مجدداً عند الساعة الرابعة والنصف. وضعت كاحليّ على حافة النافذة، وارتشفت بعض الصودا المخصصة للحمية، وبدأت بتناول أول كعكة محلاة، ثم ركّزت أفكاري على مواضيع أخرى غير فتيات قبو البيتزا.

كاتي!

ماذا بشأن كاتي؟ لم أمتلك أية فكرة عمّا تفعله ابنتي في هذه اللحظة، أو حتى أين يمكن أن تكون بصورة محددة. هل يجدر بي أن أتّصل بها؟ تطلّعت إلى ساعتي. يُحتمل أن تكون خارج المنزل الآن، ولعلها في المكتبة أو في صفها. لا بأس. أفترض أن كاتي تنهمك الآن بحضور الصفوف، وبالتخطيط لمستقبلها بعد تخرجها من الجامعة. لم تكن ابنتي تخبرني عن أحوالها. هل وصلت ابنتي يا ترى إلى مرحلة بلوغها، والتي أتوقّع أن ألعب فيها دوراً ثانوياً فقط؟

أعادتني هذه الفكرة السعيدة مجدداً إلى الفتيات اللواتي أصبحن هياكل عظمية الآن. لماذا لم أجد أية قصاصة من ملابس؟ هل أغفلت شيئاً؟ هل كان يجدر بي استخدام شبكة أدق؟ هل حصل المالك على أشياء غير الأزرار؟ وما هو الشيء الذي يفسّر دفن الفتيات الثلاث في القبو بعد تعريتهن؟

تناولت علبة الكولا، وأجريت تحولاً ذهنياً.

آن!

ما سرُّ هذه الزيارة غير المتوقعة؟ وما الذي أخفَتْه رنة المرح في صوتها؟

عاد عقلي للتفكير ثانية بالهياكل العظمية بالتزامن مع تناولي للكعكة المحلاة الثانية. إذا كانت وفاة الفتيات الثلاث قد حدثت في الوقت نفسه، فكيف يمكننا تفسير وجود شمع القبور في المجموعة الثالثة فقط من البقايا؟ حسناً، لدينا الهيكل المغلّف، لكن لماذا استخدمت هذه الطريقة مع فتاة واحد فقط؟

لا أريد الدخول في هذا. أريد التفكير بموضوع جديد.

تذكّرت الكنزة التي رأيتها في واجهة أوغليفي. تذكّرت تلك الجلبة الحادة التي أحدثها محرك سيارتي، وتلك البقعة الغريبة البنية اللون التي ظهرت في كتفي الأيمن.

أنهيت تناول كعكتي المحلاة الثانية، فأجرى عقلي محاولة صعبة أخرى للدخول في موضوع الهياكل. وُضِعت الجثث على عمق يقل عن الست بوصات. لماذا وُضعتْ

فـــي مكـــان قريب جداً من سطح الأرض؟ اعتاد السكان المحليون وضع موتاهم على عمق أكبر بكثير، كذلك هي الحال مع القبور التاريخية.

مـــاذا لـــو استطاع آرت أن يحدد لي تاريخ ميلاد كل فتاة من هذه الفتيات؟ هل ســـتكون هـــذه المعلومة مفيدةً لي؟ أم أن تحاليله ستكتفي بتحديد أن كانت الضحايا من الســـكان المحليين؟ هل يمكن أن يكون لامانش على حق؟ وهل أصبحتُ مهووسة فعلاً بهـــذه القضـــية؟ أعترف أنني أصبحت عصبية وأتخذ موقفاً دفاعياً، فأنا لا أنام جيداً، حتى إن القضية تدخّلت في أحلامي.

سلكت أفكاري مساراً آخر. هل أن سخطي في العمل هو في أساس مشكلتي مع رايان؟ وهل أن القلق والإحباط ينتقلان إليه، ويتسبّبان بتحطيم صورتي عنده؟

رايان!

رنّ جـــرس الهـــاتف وكأن ذلك حصل بدافع إلكترون مرسل هارب من أفكاري هـــذه. اســـتدرت بمقعدي، وأسرعت بتناول سماعة الهاتف، حتى كاد كوب المشروب ينزلق على الأرض.

- "دكتورة برينان".

أبلغتني سوزان أن أحد رجال الشرطة السرية هو في طريقه إلى مكتبي.

فكـــرت أنـــه كلوديل من دون شك، وهو الرجل الذي أحتاج للتكلم معه، إلا أن الرجل لم يكن كلوديل أبداً.

بدا رايان مزيجاً وسطاً من بيرس بروسنان، والرجل الأكبر منه سناً الذي يظهر فـــي إعلانـــات أديداس الرياضية. أو هكذا خيّل إلي في وقفته بطوله البالغ ست أقدام وبوصـــتين، وبثيابه الكاكية اللون، وبقميصه الكتانية ذات اللون البني الفاتح، وبسترته التويد. هزّ رأسه عندما رأى علبة الكولا الخاصة بالحمية في يدي، إضافةً إلى رؤيته لمسحوق السكر الذي غطّى النشّافة الموجودة على طاولتي.

- "المرأة هي كتلة لامتناهية من التناقضات".

- "أتمتع بذوقٍ انتقائي".

- "لا بد أن ذوقك يجعل بنكرياسكِ شديد الاضطراب".

- "إنه بنكرياسي أنا".

بدا رايان مندهشاً من الحدّة التي تميّزت بها ردّة فعلي.

- "هل جئتكِ في وقتٍ غير مناسب يا حلوتي؟"

وضعت علبة الكولا على الطاولة: "كنت أنتظر شخصاً آخر يا حبيبي".

- "إنك تردّدين هذه الكلمة كثيراً في الآونة الأخيرة".

- "أتقصد كلمة حبيبي؟"

- "بل أقصد أنني لست الشخص الذي تنتظرينه".

- "اعـتقدت أن أحـد الأشخاص المهتمين بالقضية يتّصل ليحمل إلي معلومات عنها".

- "أراني، مجدداً، أضعت آمالك التي لا أعرف شيئاً عنها".

استرخيت في مقعدي وقلت: "تبدو مثل وينستون تشرشل".

- "إنها لسخافة منك أن تتكلّمي هكذا بطريقةٍ أرفضها".

غمسـت طـرف إصـبعي بالمزيد من مسحوق السكر: "أعطيك العلامة الأولى للقواعد، لكنني أعطيك أدنى علامة بالنسبة لوضوح كلامك".

- "أهذا ما قاله ويني؟"

- "أنت تكرّر كلامه".

اسـتند رايـان علـى مقبض الباب وكتّف ذراعيه فوق صدره. انجذبت عيناي باتجاهـه كالعادة. تأسرني دائماً عيناه الزرقاوان، بغض النظر عن عدد المرات التي أراه فيها.

- "يشـغّل كلوديل عدداً محدوداً من خلايا دماغه، وهي الخلايا التي يحتاج إليها من أجل التواصل بالبريد الإلكتروني للمحافظة على الحد الأدنى من الاتصال".

- "وهل الاتصال بطيء هذه الأيام؟"

- "لم أرَ كلوديل هذا اليوم. إنني أنتظره في الواقع كي أتبادل الحديث معه حول موضوع معيّن".

لعقـت مسـحوق السـكر من إصبعي، ثم غمست إصبعي بالسكر المتناثر على النشّافة.

- "هل ستتبادلين الحديث عن هذا الموضوع مع حبيبك؟"

- "وافق لامانش على صرف مبلغٍ كبير من أجل إجراء اختبار طلبته أنا".

- "من دون تمريره إلى أوتييه؟"

أومأت موافقة على كلامه.

- "يمكـن للامـانش أن يكـون وغداً في بعض الأحيان. ما هو الاختبار الذي

تتحدّثين عنه؟"

- "الكربون 14".

- "أهو الاختبار نفسه الذي يُجرى على المومياءات، والحيوانات المنقرضة؟"

أعطيت رايان الشرح المختصر الذي تلوته سابقاً على مسامع لامانش، لكنني قرّرت عدم إخباره عن تحليل نظير السترونتيوم المشع، لأن هذا الموضوع ليس مؤكداً بعد.

- "كم تستغرق النتائج؟"

- "أتمنّى ألاّ تستغرق أكثر من أسبوع. اقترح عليّ لامانش أن أمضي لتحليل الهيكل الثالث، كما اقترح أن أنسى المدة التي مضت على الوفاة في الوقت الحاضر".

- "إنها ليست بالنصيحة السيئة".

- "إنها مخيبة لآمالي".

- "يتلاءم ذلك مع طبيعة مهمتك".

رنّ جرس آلة الاتصال التي يحملها رايان، وتأكّد من رقم المتصل ثم أعاد الجهاز إلى حزامه ثانية.

تابعت كلامي: "أسلّم أن هؤلاء الفتيات لم يمتن الأسبوع الماضي، أو حتى الشهر الماضي، لكنني لا أستطيع التخلي عن فكرة أن الوقت يضيع بسرعة. لا أستطيع تفسير القلق الذي يتملّكني بشأن هذه القضية".

- "لماذا؟"

أخبرت رايان بشأن السيدة غالانت، أو بالانت، أو تالنت.

- "وماذا قالت لك بالضبط؟"

- "قالت إنها تعرف ماذا جرى في ذلك المبنى".

- "وما هو؟"

- "لم نصل إلى هذا الحد".

- "لعلها امرأة معتوهة".

- "قد تكون كذلك".

- "تقولين إنها بدت كبيرة بالسن".

- "نعم".

- "أليس من الممكن..."

- "فكّـــرت في هذا يا رايان، لكن ماذا لو كانت محقة وعلى مستوى المسؤولية؟ ماذا لو كانت تعرف شيئاً بالفعل؟"

- "ستتّصل بك مجدداً".

- "لكنها لم تفعل".

- "هل تتبّعْتِ رقم هاتفها؟"

- "نعم".

- "أتريدين رؤية ما يمكنني اكتشافه؟"

- "أستطيع احتمال ذلك".

- "أيّ نوع من الخطر يُمكن أن تحمله امرأة مسنة بالنسبة لأي شخص؟"

- "تعــرف هذه المرأة بأمر جولتنا الميدانية في القبو. ويعرف الله وحده كم من الأشخاص قرأوا، أو سمعوا عن هذه الجولة. رأيتَ بنفسك لو جورنال. تهافتت وسائل الإعلام على هذه القضية، مثلما تتهافت القطط على عربةٍ مليئة بالسمك".

- "ماذا تعرفين عن هذه العمارة غير زمن بنائها؟"

- "أعرف أن ثلاث فتيات متوفيات جرى دفنهن في طبقتها السفلية".

- "أنت ماهرة بإيقاع الألم بالآخرين يا برينان".

- "أنا أعمل على ذلك".

سألني رايان: "أتتناولين العشاء معي هذه الليلة؟"

- "أنا مشغولة".

خـــيّم على المكتب صمت ثقيل. مرّت ثلاثون ثانية، وما لبثت أن امتدّت لتصبح دقيقة كاملة.

أصلح رايان من وقفته وابتعد قليلاً عن الجدار. ركّزت عيناه الزرقاوان الباردتان على عينيّ مباشرة. لم تكن نظرته تفوح بالسعادة.

- "يجب أن نتحدّث".

أجبته: "أجل".

شاهدت رايان يبتعد من خلال الباب، وودّعت بذهني ذلك الفارس.

الفصل 9

تُعتبر قيادة السيارات في مونتريال في منتصف أيام الأسبوع، وخصوصاً عند المساء، أمراً غير مريحٍ على الإطلاق. اندفعت بسيارتي وسط نفق مدينة ماري، ثم في الشارع الذي يحمل الرقم 20. سرت بسرعة وصلت إلى خمسة وثلاثين ميلاً. وصلت أخيراً إلى تقاطع توركو، فأصبح تقدمي بطيئاً جداً، يقاس بطول السيارة فقط.

توهّج أمامي ملصق وضع على خلفية إحدى السيارات. جاء في هذا الملصق: "ستستمرّ الهزائم إلى أن تتحسّن المعنويات". ضحكت قليلاً بعد قراءتي الأولى لهذه العبارة، ثم تلاشى المرح بعد قراءتي لهذا الملصق للمرة العاشرة. فهمت معنى العبارة أخيراً: ستستمرّ زحمة السير إلى أن تتلاشى قلة الصبر.

ألقيت نظرة على جميع الإعلانات الكبيرة الموجودة على جانبَي الطريق، وذلك بهدف كسر حدة الضجر الذي شعرت به. اختلطت اللغتان الإنكليزية والفرنسية في إعلانات الهواتف الخليوية، وسيارات الهوندا، والمسرحيات الهزلية، بالإضافة إلى مرذاذات الشعر.

اشتدّت سرعة الرياح الباردة مع اقتراب الظلام. راحت السيارة تهتزّ بين الفينة والأخرى، وبدا كأنها انتعلت حذاءً رياضياً عملاقاً. بدت المدينة في الشتاء كأنها تزحف من خلال زجاج سيارتي الأمامي. رأيت النوافذ المضاءة بالمصابيح تزيّن المرتفعات العالية للجبل الغربي. شاهدت أيضاً الساحات الداكنة للسكك الحديدية. انتشرت في الضواحي البيوت المؤلفة من طابق واحد، والتي تسطع الأضواء الكهربائية فيها، كما انتشرت إلى جانبها محلات البضائع التي تعلن عن تنزيلات أسعارها لمناسبة عيد الميلاد.

خفّ الازدحام كثيراً عندما وصلت إلى مدينة سان بيير، فرفعت سرعة سيارتي لتصل إلى الثلاثين ميلاً. بدأت أنقر بأصابعي على عجلة القيادة، ولاحظت أن عقارب ساعة لوحة القيادة تشير إلى الخامسة والنصف. قدّرت أن الطائرة التي تقل آن قد هبطت.

مضت ساعة كاملة على مغادرتي المختبرات، واستطعت أخيراً أن أدخل محطة مطـــار دورفال. وجدت أن آن قد أنهت معاملات الجمارك، ووقفت في طرف صف الأشخاص الذين ينتظرون وصول أحبائهم.

وقفــت في مكاني، وحركت ذراعيّ بحركة دائرية. لاحظتني آن فتناولت مقبض حقيبــتها الكبيرة ذات العجلات، ثم اتّجهت بها نحوي. شاهدت كمبيوتراً محمولاً معلقاً على إحدى كتفيها، بينما علّقت على كتفها الأخرى حقيبة جلدية ضخمة.

عـــادت بـــي الذكـــرى فجأة إلى مشهدٍ آخر. تذكّرت أختي هاري وسط حقائبها الجلديـــة الكثيرة التي تحمل ماركة لويس فوتون، والتي كانت تكفيها لتقوم برحلة حول العالم. يومها أتت لتقضي أسبوعاً عندي، لكن إقامتها امتدّت شهراً كاملاً.

يا الله!

تتمـــيّز آن بأنهـــا طويلة جداً وشقراء جداً. تبعتها أعينٌ كثيرة غير عيناي بينما كانـــت تشـــقّ طريق حقيبتها البولمان وسط حشود المستقبلين. وصلتْ إلى حيث أقف بانـــتظارها، وانحنت لتحيط عنقي بذراعيها. انزلق جهاز كمبيوترها المحمول ولامس أضلعي.

ساعدت آن بإنزال الحقيبة عن كتفها: "يا لزحمة السيارات المريعة!"

– "إنه لطف كبير منك أن تأتي لأجلي".

– "أنا فرحةٌ جداً لمجيئك".

– "ادعى قبطان الطائرة أن درجة الحرارة هي ثماني عشرة درجة تحت الصفر. هل هذا صحيح؟"

بـــدت لهجـــة آن غريـــبة عنْ المكان وسط ضجيج سكان كيبيك، تماماً كأغنية راوهايد عندما تغنّي وسط حفل جمعية بيتّا.

لـــم أشأ أن أقول لها إن درجة الحرارة كانت أعلى قليلاً من الصفر: "إنه يقصد درجة مئوية".

– "أتمنّى أن أشهد عاصفة ثلجية، فالثلج هو شيء رائع".

– "هل أحضرتِ معك ثياباً تدفئك؟"

رفعت آن ذراعيها في حركة تشّجعني على التأكّد من ذلك. ارتدت صديقتي كنزةً محبوكة يدوياً، وسترةً جلدية، وسروالاً أخضر اللون، ووشاح أنغورا زهريّ اللون مع قـــبعة تتناسب معه. تأكّدتُ أن حقيبة يدها تحتوي على قفازات ذات لون زهري غامق

من أجل إتمام المجموعة. أنا أعرف طريقة تفكيرها، وأعتبرها حسناء الشتاء.

ولـــدتْ آن فـــي ألاباما، وتلقّت تعليمها في ميسيسيبي، ثم ارتحلت شمالاً، لذلك تكـــوّن لديهـــا مفهوم نظري عن البرد، مثل الكثير من سكان الولايات الجنوبية. بقي عقلها مع ذلك عقل والدةٍ تفرط في حماية أولادها. إنها تخفي الأشياء التي لا تهتمّ لها. أخفـــت آن عـــن ذهـــنها حقـــيقة وجود درجات حرارة تحت الصفر، كما يفعل سكان المناطق شبه الاستوائية.

إنها كيبيك، وقد ارتدت آن الملابس المناسبة لقضاء فصل الخريف في جبال بلو ريدج.

خرجـــنا مـــن المطار، وسمعت حسناء الشتاء وهي تجهد في تنفسها. ابتسمتُ، وأسرعت بها نحو سيارتي. إنني لا أستطيع أن أنتقد آن في الواقع، لأنني أتنقّل بانتظام ما بين شارلوت ومونتريال، لكن هذا هو الشتاء الأول الذي حيّر الجميع، بمن فيهم أنا.

تحدّثت آن بمواضيع عدة أثناء اتجاهنا بالسيارة نحو وسط المدينة. أخبرتني عن قطتـــيها ريجـــيس وكاتـــي لـــي. أخبرتني أيضاً عن توأميها جوش ولولا، وعن ابنها الأصـــغر ســـتيوارت، الـــذي أصبح متحدثاً عن حقوق الإنسان. لجأت آن إلى فترات صمت بين فترات كلامها، وعندها كان يخيّم حولنا صمت حزين.

رحت أختلسُ نظرات جانبية باتجاه آن بين حين وآخر. بدا وجهها متوهّجاً بسبب أضواء النيون المتعددة الألوان، بالإضافة إلى تلك الناجمة عن أضواء فرامل السيارات التي تسير أمامنا. لم أستطعِ أن أستنتج أي شيء من ملامحها، كما أنها لم تذكر لي أي شيء عن سبب زيارتها.

حسناً، يا صديقتي الحميمة! يمكنك إخباري قصتك عندما تشائين.

بـــدأت آن بالتلميح عن سبب زيارتها بعد مرور ساعة ونصف. أحسست بشيء مـــن التردد من جانبها عندما تكلّمت، وبدا لي أنها تختبر الأفكار في نفس الوقت التي كانت تتلفظ بها.

توقّفـــنا فـــي المـــنزل كي نضع فيه حاجيات آن، ثم توجّهنا مباشرة إلى مطعم تـــراتوريا تريســـتيفير، الذي يقع في الجهة السفلى من الكرسنت. فرغ النادل للتو من تقديـــم ســـلطة السيزر. اخترت أن أشرب شراباً خفيفاً، بينما فضّلت آن تناول الكوب الثالث من الشراب القوي الذي اختارته.

بـــدأ ذلـــك الشراب يفعل فعله في آن، فبدأت تقول: "أبلغ السادسة والأربعين من العمر يا تمب، وإذا لم أجد معنىً لحياتي الآن، فلن يتبقّى لي شيء أجده لاحقاً هناك".

وجّهَت إصبعاً مطلي الظفر نحو صدرها وأكملت: "أو في الداخل هنا".

فكّرت بشقيقتي مجدداً. جاءت هاري إلى مونتريال طلباً للسلام الداخلي، وعلقت بحـــبال رجالٍ مهووسين قالوا لها إنهم سيأخذونها في رحلة نحو السلام الدائم، كالسلام الـــذي يـــتحقّق بالموت. لحسن الحظ، استطاعت شقيقتي أن تتخطّى ذلك. بدت لي آن كأنها تسير في ذلك الطريق نفسه للحصول على الدعم النفسي.

- "إذاً أستطيع أن أفترض أن الأولاد بخير؟"

- "إنهم على ما يرام".

- "هل أقدم طوم على شيء يدلّ على تخلّيه عنك؟"

تحـــوّل الظفر ليشير باتجاهي: "لم يفعل طوم أي شيء إطلاقاً، إلاّ إذا اعتبرنا أن عملـــه هو الدفاع عن المقاولين المغفّلين الذين يرغبون بتجريد العالم من كل الأشجار، والذيـــن يمضون بقية وقتهم وهم يبحثون عن الكأس المقدسة. أعتقد أنني أخطأت منذ البداية في الزواج من شخص يحمل اسم تورنيب".

بقي اسم عائلة طوم تيد مصدراً للتندر بيننا على مدى السنين.

- "انتهينا من ذلك الجذر (اسم تورنيب يعني اللفت)".

لم أصدق هذا الخبر، فسألتها: "هل تركتِه؟"

- "نعم".

- "تركتِه بعد أربع وعشرين سنة من الزواج، وبعد إنجاب ثلاثة أولاد؟"

- "إن ما يجري لا يطال الأولاد".

جمدت شوكتي في الهواء، وتسمّرت عيناي على عيني آن.

قالت: "تعرفين أنني لا أعني هذا. كبُر الأولاد، وتخرّج جوش ولولا من الجامعة، أما ستيوارت فترك جامعته ليفعل ما يحلو له".

تناولـــت آن ورقة خسّ وأضافت: "إنهم يمضون بحياتهم، وأنا بقيتُ وحدي، أبيع العقارات وأزرع نباتات الأزاليا اللعينة".

انضـــمّ زوجي بيتي إلى مكتب محاماة في شارلوت، وذلك فور انتهائي من نيل درجـــة الدكـــتوراه من جامعة نورثوسترن. قبلت بعد ذلك منصباً في يو أن سي سي. تحمّســـت كثيراً لمغادرة شيكاغو والعودة إلى كارولينا الشمالية التي أحبّها كثيراً، لكن

هذه الخطوة حملت معها جانباً سلبياً.

وجـدت نفسـي محاطةً بالأكاديميين طيلة النهار. بدا هؤلاء متفانين ومتعاطفين ولامعيـن، ويتمتّعون بمراكز اجتماعية مرموقة. لم يكن لأيّ منهم أولاد، ولا يمتلكون أية فكرة عن تربية الأطفال، في حين كانت ابنتي كاتي ما تزال طفلة صغيرة.

اعـتدت كل مساء أن اصطحب ابنتي من دار حضانة الأطفال، ثم أنتقل إلى بيئة مثالـية تشـبه مـا يُحكى عن العيش في نادٍ ريفي. تواجدت في تلك البيئة المساحات الخضـراء الجمـيلة، والسـيارات الرائعة، والزوجات اللواتي يمتلكن تفكيراً سطحياً، وعقلـية الـبقاء فـي البـيوت. تركّزت الأحاديث النسائية هناك على كرة المضرب، والغولـف، ومعارض السيارات. يئست من قدرتي على اكتساب صداقات نسائية مفيدة إلـى أن التقيـت آن فـي حفلة جمع تبرعات أُقيمت في الحي، أو على الأدق إلى أن سمعتها. عندئذٍ التقت عندها المغنوليا الفولاذية مع البحّار السكير.

انجذبت نحوها، وجمعتنا الصداقة على الفور.

رأيـت أولاد آن، ورأت هـي أولادي، مـن خـلال العظام المكسورة والقلوب المكسورة. استمتعت العائلتان بعقدين من السنين كنا نخيّم فيها في العطلات، ونستمتع بجـولات التزلج. استمتعنا أيضاً بالمآدب التي أقيمت لمناسبة أعياد الشكر، ومناسبات التعمـيد، والمـآتم أيضاً. لم تتأخّر عائلتا تورنيب وبيترسون عن تمضية صيفٍ واحدٍ قرب المحيط طيلة هذه المدة، إلى حين انهيار زواجي. تعوّدنا في هذه الأيام على القيام لوحدنا بتمضية الوقت قرب الشاطئ.

– "ماذا أخبرتِ الأولاد؟"

– "لا شـيء. لم أغادر المنزل في الواقع. أخذت إجازة منه فقط لأرتحل لبعض الوقت".

– "لكن..."

– "دعيـنا لا نـتكلّم عنـي يا عزيزتي. دعينا نتحدّث عنكِ. بماذا تنشغلين هذه الأيام؟"

لا يستطيع المرء متابعة الحديث عن قضية تريد آن الكف عن الحديث عنها.

لخّصت لها قضية قبو مطعم البيتزا، وأخبرتها عن الإحباط الذي أشعر به بالنسبة لزميلي كلوديل.

– "ستكسـبينه إلـى جانـبك كما فعلتِ دائماً من قبل. لنتحدّث الآن عن الأخبار

المهمة، هل تواعدين أحداً هذه الأيام؟"

- "نوعاً ما".

استبدل النادل السلَطَة بمقبلات أخرى. وضع صحن لازانيا أمام آن، ووضع صحناً من لحم عجلٍ طلبته أنا. طلبت آن المزيد من الشراب، ثم تناولت المطحنة ونثرت المزيد من الجبنة فوق المعكرونة في صحنها. قرّرت أن أقوم بمحاولة أخرى للتحدث بموضوع طوم. جهدتُ ليكون صوتي خالياً من السخرية: "ما هو هدفك الشخصي بالضبط من برنامجك خارج المنزل؟"

أنزلت المطحنة من يدها بقوة ووضعتها على الطاولة: "أريد أن أشعر بأنني حقّقت شيئاً، وأن أشعر بالتقدير لذاتي، وبالاحترام. لا أريدك حتى أن تقترحي عليّ الانضمام إلى دورةٍ إرشادية تافهة".

تناولنا الطعام بصمت للحظات عديدة. لاحظت أن نبرة صوت آن أصبحت أفضل قليلاً وأقل توتراً عندما استأنفت الحديث، لكنني شعرت أنها تتكلّف بعض الشيء في حديثها.

- "حصلتُ من الجالس في المقعد رقم 3 على اهتمام أكبر من الاهتمام الذي تلقّيته من طوم طوال الاثني عشر شهراً الماضية. أظن أنه خرج الآن كي يشتري لي بعض الغاردينيا.

ارتشفت آن المزيد من الشراب وتابعت: "أظن أنه بينما نحن نتحدّث الآن تتكدّس الرسائل في جهاز الإجابة الآلية في جهاز هاتفك".

- "من هو هذا الشاب في المقعد رقم 3؟"

- "هو شاب شهم التقيته في الطائرة".

- "هل أعطيتِه رقم هاتفي؟"

- "إنه غير مؤذٍ".

- "وكيف تعرفين أنه غير مؤذٍ؟"

- "كان يسافر في الدرجة الأولى".

- "الشبان اللطفاء الذين فجّروا مركز التجارة العالمي كانوا يجلسون في الدرجة الأولى أيضاً".

تطلّعت إليّ صديقتي وكأنني قلتُ شيئاً سيئاً.

- "لا تسرحي بعيداً في خيالاتك يا تمب. لا أعتزم رؤية ذلك الشاب".

لم أصدّق كلامها هذا. إنني حذرة جداً بإعطاء رقم هاتف منزلي للآخرين، وها قد أقدمت آن على إعطاء هذا الرقم لرجل غريب بكل استهتار، ولا أستغرب أن يقوم هذا الغريب بزيارة منزلي بحثاً عنها.

تابعت كلامها متجاهلة مدى انزعاجي: شربنا القليل من الكوكتيل. تحدّثنا، ثم سألني كيف يستطيع الاتصال بي. كتبت الكلمات على منديل ورقي..."

- "الكلمات؟ أتعنين أنك أعطيتِه عنواني أيضاً؟"

استدارت آن على طريقة الذين يستلمون الجوائز الأكاديمية، وقالت: "أنا متأكّدة من أن ذلك الشاب أقدم على رمي الورقة ما إن خرجنا من المطار. كيف وجدتِ اللحم الذي في صحنك؟"

بدا اللحم في حالة مثالية، وذلك بعكس المحادثة الجارية بيننا. اتّضح لي أن الشاب قد لا يتّصل، لكنه قد يطرق باب شقتي، وأخذت أتمتم: "جيدة".

أخذت آن تلوّح بشوكتها في الهواء: "أمّا صحني فيبدو مثالياً. أتدركين ماذا أقصد؟ إنني بعيدة جداً جداً عن غالاكسي، كارولينا الجنوبية. يا لروعة هذه المقاطعة! إنها هائلة!"

سمعت الناس يقولون إنني أتكلم الفرنسية بلهجة أهل الجنوب، لكن لهجة آن لم تترك لي شيئاً.

- "إنك في فترة نقاهة الآن، أليس كذلك؟ هل تقضين عطلة زوجية؟"

تبادلت أنا وآن الكثير من الدعابات بشأن العطلة الزوجية، وذلك في أول عهدي بالزواج من بيتي. اعتبرنا أن هذه العبارة هي كلمة السر بيننا للقيام بجولة من دون زوجينا.

أنزلت آن شوكتها لكنها وجّهتها نحوي هذه المرة: "قد يمضي أسبوع على موتي من دون أن يلاحظ طوم تورنيب غيابي. لا، قد يكون ذلك تشبيهاً متطرفاً، لكنه إذا احتاج أي شيء في المنزل فترينه على استعداد للصراخ ليعرف مكان وجودي".

أطلقت آن ضحكة من الأعماق: "أتعلمين؟ أتخيّل الصورة الجميلة عزيزتي. أتخيل ذلك المحامي البارع وهو يتناول..."

- "آني!"

- "أصبح الشاب من الماضي يا عزيزتي".

جلسنا لحظات قليلة نتناول طعامنا بصمت. جرّبت للمرة الأخيرة أن أطرق

الموضوع، وذلك بعد انتهائي من تناول طعامي.

- "هـذا أنـا تمب يا آني. أنا أعرفك، وأعرف طوم. عرفتكما معاً لمدة عشرين سنة. أخبريني ماذا يجري فعلاً".

وضعت آن شوكتها، ثم انشغلت بالمنديل الورقي الموضوع تحت كوبها. مرّت دقيقة كاملة قبل أن تبدأ بالكلام.

- "كانـت الأمـور رائعة عندما التقيت طوم لأول مرة. تبادلنا الحب كل ليلة، وبقيت الأمـور رائعـة في ما بيننا. تخبرنا الكتب والبرامج التلفزيونية أن الأزواج يتـنقلون مـا بين لهيب مستعر من الغرام إلى لهيب خافت منه، وأن هذا أمر طبيعي، لكن هذا لم يحدث بيني وبين طوم".

بدأت قطع اللحمة الرقيقة تظهر على جوانب المنديل الورقي.

- "ليس قبل سنتين مضتا".

- "هل تتكلّمين عن الجنس؟"

- "إننـي أتكلّم عن اتجاه شديد الهبوط. توقّف طوم عن الشعور بأي شيء، وبدأ يركّـز علـى أي شيء عداي أنا. بدأت بتعويد نفسي على عدم توقّع أشياء كثيرة منه تدريجـياً. لكننـي تلقّيـت صـدمة في الأسبوع الماضي، إذ لم تتقاطع مساراتنا على الإطلاق".

- "هل حدث شيء فظيع؟"

- "هذه هي المصيبة؛ لم يحدث أي شيء، ولم يكن أي شيء ليحدث. بدأت أشعر باللامـبالاة، والأسوأ من ذلك هو أنني بدأت بالتعوّد على هذه اللامبالاة، وبدأت أعتبر أنها الأمر الطبيعي في ما بيننا".

جمعت آن قطع اللحم الرقيقة في كتلة صغيرةٍ واحدة داخل منديلها الورقي.

- "الحـياة قصـيرة جداً يا تمب. لا أريد أن يُكتب على لوحة قبري، "هنا ترقد المرأة التي عملت في بيع المنازل"".

- "أليس من المبكر قليلاً أن تدمّري زواجك؟"

ألقت آن محتويات المنديل الورقي على الأرض بحركةٍ من يدها.

- "طمحـت فـي فترة حياتي الماضية لأن أكون تلك الزوجة المثالية، ولم تكن النتيجة سوى خيبة الأمل. اتخذت فلسفةً جديدة لي، وهي: 'اقطعي علاقتك مع الماضي وابتعدي راكضة'".

- "هل فكّرتِ بالحصول على استشارة؟"
- "سأفكر في ذلك عندما تتجمّد جهنم وملاعب الغولف".
- "تعرفين أن طوم يحبّك".
- "هل يحبّني فعلاً؟"
- "قلّما نلتقي بأشخاص يهتمّون بنا حقاً".
- "أنتِ محقة يا عزيزتي".

ابتلعت آن رابع رشفةٍ لها من شرابها بحركة سريعة ومرتجفة، ثم وضعت الكوب فوق المنديل الورقي الذي أشرف على التلف وتابعت تقول: "وهؤلاء هم الأشخاص الذين يصيبونك بأكبر قدرٍ من الأذى".

أجبرت صديقتي على التطلع نحوي بعينيها العميقتين، ذات اللون الأخضر الفاتح، فبدا أثر الأسى على حدقتيها اللامعتين "آني، هل أنتِ متأكّدة مما تقولين؟"

شبكت آن أصابع يديها ووضعت جبهتها على قبضتَي يديها. مرّت فترة تردد، ثم استعاد وجهها إشراقته.

- "لا".

أوجعت قلبي نبرة الحزن التي بدت في صوتها.

هبّت الرياح الصاخبة أثناء تناولنا للعشاء، وانخفضت درجة الحرارة في اتجاه معاكس لمشاعر الود المرتفعة ما بيني وبين صديقتي. بدا لي أن قطع مسافة الربع ميل التي تفصل المطعم عن منزلي أشبه بقيادة زلاّجة تجرّها الكلاب ما بين أنكوراج ونوم.

مضت الرياح في أنينها في سانت كاترين، فعبثت بملابسنا، وصفعت وجهينا بقطع الثلج والجليد. انحنيت أنا وآن بوجه الرياح مثلما يفعل الجنود المحتجزون في مستودع تحت الأرض. بدأنا بالاستدارة حول زاوية المجمّع السكني الذي يقع فيه منزلي، ولاحظت كتلة من الثلج تربض بشكل غريب في مدخل المبنى الذي أسكنه. تسبّب البرد القارس بنزول الدمع من عينيّ، لكن بدا لي أن هناك شيئاً مريباً جداً بشأن تلك الكتلة البيضاء.

ركّزت بصري، ولاحظت أن تلك الكتلة الثلجية تزداد حجماً، ثم يتغيرّ شكلها، وبعد ذلك تتقلّص مجدداً. توقّفت، وركّزت نظري مجدداً. ماذا يُمكن لهذا الشيء أن

يكون؟ ظهر شيء آخر، تسلّل، ثم تراجع إلى الوراء. ماذا يجري بحق الجحيم؟

أسرعت بعبور الشارع وتوجّهت إلى السلالم الخارجية.

- "بيردي!"

رفــع هرّي ذقنه قليلاً وفتح عينيه. انطلق مسرعاً فور رؤيته لي، ومن دون أن يكلّف نفسه بتحريك قوائمه وثب نحوي. تكثّفت كتلة صغيرة من أنفاسي حول فمي، ما إن اندفع الهر بثقله على صدري.

رفــع بــيردي مخالــبه إلى الأعلى، واتكئ بذقنه على كتفي، ملصقاً بطنه على سترتي. فاحت رائحة الرطوبة منه، فيما كان جسده يرتعش من البرد أو من الخوف.

بــدأت آن بطــرح ســؤالها، لكن هبّة الرياح اختطفته من شفتيها وأرسلته عبر الشارع: "ماذا يفعل هنا في الخارج؟"

- "لا أعرف".

- "هل يستطيع الهر أن يخرج بنفسه؟"

- "لا بد أن شخصاً ما أقدم على فتح الباب".

- "هل أنت قريبة ما يكفي من أحدهم إلى درجة تسمح لك بإعطائه مفتاح بيتك؟"

- "لا".

- "إذاً، من دخل إلى المنزل؟"

- "لا فكرة لديّ إطلاقاً".

- "حسناً، من الأفضل أن نعرف".

نزعت آن قفازيها، ثم تناولت مرذاذ مايس من حقيبة كتفها.

قلت لها: "أعتقد أن القانون لا يسمح بهذا الشيء هنا".

- "إذاً أطلقي النار عليّ".

دفعت آن الباب الخارجي بشدة.

دخلــنا إلى الردهة، وكان ذلك أشبه بالخروج من دوامة العاصفة، والدخول في الفــراغ. وضعت بيردي جانباً، ثم نزعت قفازي، ومددت يدي إلى جيبي، ثم تناولت مفاتيحي. فتحت الباب الداخلي بيدين غطّاهما العرق.

خيّم على الرواق صمت القبور. لم ألحظ أية بقايا ثلجية، أو آثار أقدام رطبة على ســجادات الممــر، أو على الأرضية المبلطة. تابعت المسير وسط ازدياد في نبضات قلبي. اتّجهت إلى اليمين فجأة، بينما تبعتني آن.

مـــررت قـــرب الجدران النحاسية المستعارة والتي تحمل المصابيح التي تضيء الردهة والأروقة.

تكفـــي المصابيح ذات المستوى الخفيف من الإنارة لإضاءة المكان عادةً، لكنني لاحظـــت أن هـــناك ضوئين معطلين، الأمر الذي تسبّب بوجود بقعتين داكنتين وسط جزر الضوء الأصفر التي تضيء رواقي.

هـــل كـــان الضـــوءان الكهربائيان معطلين وقت خروجي؟ لا أستطيع أن أتذكّر بالضبط.

واجهـــت شقّتي مباشرة. تجمّدت في مكاني لدى رؤيتها، وخارت قواي بالكامل. ظهرت ثغرة سوداء ما بين الباب وعارضته؛ باب شقتي مفتوح!

الفصل 10

استطعت أن أميّز من خلال فتحة الباب خيالات غير واضحة المعالم، وأضواء غريبة تلتمع مثل انعكاس ضوء القمر على صفحة الماء.

ألقيت نظرة عجلى من وراء كتفي. رأيت آن واقفةً تحتضن الهرّ بذراعها، رافعةً علبة مرذاذ المايس في وضع جاهز للاستخدام بالذراع الأخرى. تعلّق بيردي بصدرها، والتّف برأسه ماية وثمانين درجة كي يتمكّن من التحديق ببيته.

رجعت ببصري نحو الباب، وأصخت سمعي لأسمع الأصوات الآتية من الجهة الأخرى. سمعت صوت وقع أقدامٍ، وسعلةَ أحدهم، ثم حفيف سترة. وصل إلى مسامعي أيضاً صوت تنفس آن المجهَد. ثم خيّم صمت ثقيل وراء الباب.

جمدنا نحن الثلاثة في مكاننا، وفتحنا أعيننا جيداً، ونحن نرتجف. مرّت الفترة التي تستغرقها نبضة قلب، لكننا حسبناها دهراً.

أخيراً، نفّذ بيردي خطوته. وثب نحو الأعلى، وأطلق صوت خرخرة، ثم اندفع مبتعداً عن صدر آن باتجاه فتحة الباب. حاولت آن الإمساك به، لكنها لم تفلح سوى بتغيير مسار طيرانه.

اصطدمت المخالب بالباب، فاندفع الباب إلى الخلف، ثم اصطدم بالجدار. أسرع بيردي إلى الداخل بينما ارتدّ الباب عن الحائط، فانغلق ثانيةً.

شعرت أن الدماء قد هربت من دماغي. بدأت باستعراض عدد لا حدّ له من الخيارات. هل أتراجع؟ هل أصرخ؟ هل من الأفضل أن أتّصل بالنجدة؟

لطالما اعتبرت أن الهواتف الخليوية هي أمر مزعج لا يحتمل في المطاعم، لهذا لم أحمل معي هاتفي إلى المطعم.

اللعنة!

التفتّ نحو آن. رأيت وجهها المتوتر الإهليليجي الشكل، وقد أصبح أبيض اللون وسط الضوء الخافت. حرّكت أصابعي بحركة إيمائية للدلالة على عملية نقر الأرقام

علـــى الهـــاتف الخليوي. هزّت آن رأسها بالنفي، وأبقت على العلبة مرفوعة. جهّزت سيدة الحرية نفسها بعلبة *مايس*، لكنها لم تجهّز نفسها بهاتف خليوي.

تبادلنا نظراتٍ تدلّ على الحيرة. تكلّمت أولاً بصوت أدقّ درجة من الهمس: "هل من المحتمل أننا لم نغلق المزلاج جيداً؟"

تحدّثـــت آن فـــي البداية بصوت يشبه الصفير، لكنها استطاعت أن تهمس: "أنا مـــتأكّدة مـــن أنني أغلقته بشكل محكم، لكنه بابك اللعين. وفوق كل ذلك، هذا لا يفسّر كيف شقّ بيردي طريقه إلى الخارج".

– "لو أن أحدهم يختبئ هنا ليهاجمنا، لما أبقى الباب مفتوحاً".

اتّســـعت حدقتا عينَي آن: "يهاجمنا؟ أوه، يا إلهي العظيم! هل تتحدّثين عن مجرمٍ معتوهٍ غضب منك في سياق عملك؟"

– "لم يكن هذا ما قصدته".

مـــع أنني قصدت هذا بالضبط لكنني أردفت قائلة: "أعني قد يكون أحد المتطفلين العشوائيين".

اتّســـعت عيـــنا آن مـــن جديـــد، وقالت: "يا للروعة، لربما كان أحد المغتصبين المعتوهين".

– "لـــيس هـــذا هـــو المهم الآن. إن ترك الباب مفتوح هو دعوة لانتهاك حرمة المنزل".

– "يا للاختيار الموفق للكلمات!"

تتمتّع آن بالقدرة على المحافظة على هدوئها حتى عندما تتعرّض للضغوط.

– "أعتقد أنه لو كان الأمر مجرد سرقة عادية، فلن يعلن المقتحم عن وجوده عن طريق ترك الباب مفتوحاً، ولا معنى لوجود الباب المفتوح إن كان أحدهم في الداخل".

استرخت ذراع *سيدة الحرية* قليلاً، لكنها لم تقل شيئاً. تسلّلت إلى الأمام ووضعت أذُني على الباب؛ لا ضجيج، لكنني سمعت شيئاً آخر.

جلســـت القرفصـــاء ومـــددت يدي نحو أسفل الباب، فأحسست بتيّار من الهواء البارد. حافظت آن على نبرة صوتها الهادئة: "ماذا وجدتِ؟"

انتصبتُ واقفةً، وأنا أقول: "لا بد من وجود باب، أو شباك، مفتوحٍ في الداخل".

– "هل يعني ذلك أن المهاجم قد فرّ؟ أم أنه فضّل تناول مشروباً بارداً قبل قتلنا؟"

فُـــتح باب الرواق في تلك اللحظة. فوقفنا في حالة جمود. سمعنا أصواتاً صادرة

عـــن رجـــل، ومرة أخرى، انطلق مرذاذ مايس نحو الأعلى. تراجع وقع الأقدام نحو الجناح المقابل لجناحي. سمعنا صوت بابٍ يُفتح، ثم أُغلق بعد ذلك.

مرّت لحظة صمت، ثم سمعنا المزيد من أصوات وقع الأقدام المتجهة نحونا!

دفعــت آن باتجـــاه رواق بيت الدرج الموازي لباب غرفتي. التصقت بصديقتي حـــتى أصبحنا كأننا شخص واحد. ملأ شخص إطار المدخل الرئيسي للرواق المؤدي إلـــى شقتي. أنزل ذلك الشخص قبعته حتى كادت تغطي عينيه. منعتني الظلمة والقبعة مـــن رؤيـــة وجـــه الرجل. لم أستطع أن أتبيّن سوى شكل جسده. رأيته رجلاً طويلاً ورشيقاً.

تـــردّد الشـــخص قليلاً قبل أن ينزع قبعته ويتقدّم نحونا. شدّت آن أصابعها على العلبة التي تحملها حتى ابيضّت مفاصل أصابعها.

مـــرّ الشـــخص تحت مصباح، فلاحظت أنه أشقر الشعر، ويرتدي سترة بومبر. غمرني شعور بالارتياح تبعه شعور بالحرج، بالإضافة إلى مشاعرٍ لم أستطع تحديدها. شرعتُ بتهدئة آن بحركة مني، وتقدّمتُ خطوةً إلى الأمام.

همست، لكن بقوة غمرتني بفضل الأدرينالين الذي سرى في جسدي: "ماذا تفعل هنا؟"

ضعفت ابتسامة رايان، لكنه استمرّ بالابتسام: "جئت لأشاهد كيف يكون الترحيب علامة الإعجاب".

- "أقول لك دائماً إنك تظهر بشكل غير متوقّع".

وضع رايان كلتا يديه على صدره قبل أن يفتحهما: "أنا رجل مغرم، ولا أستطيع البقاء بعيداً".

أنزلت آن ذراعها، وأوحت تعابير وجهها بشيء من الارتباك الغامر.

التفت رايان كي يتحضّر لتوجيه شيء من سحره باتجاه آن، لكن ابتسامته تلاشت عـــندما رأى علبة المايس. تطلّع نحوي مستفسراً. بدأت موجة من الانزعاج والإرباك تتغلّـــب على موجة الارتياح. لم أرغب بأن أبدو حمقاء في حالة لم يكن اقتحام المنزل حقيقـــياً. ولم أرغب بأن أجد نفسي مضطرة لطلب مساعدة رايان، أو حتى حمايته، إذا كـــان الاقـــتحام حقيقياً. لكن للأسف، وجدت نفسي في الوقت الراهن بحاجة لمساعدته وحمايته.

- "أعتقد أن شخصاً ما قد اقتحم منزلي".

لم يشكّك رايان بما قلته له، لكنه تكلّم من دون أن يتحرك: "كم من الوقت تغيّبتما عن المنزل؟"

- "غبنا ساعتين وعدنا منذ خمس دقائق أو أقّل".

- "هل شغّلتِ جهاز الإنذار قبل مغادرتك المنزل؟"

أعتبر نفسي ماهرة بأمور الأمن في الأحوال العادية، لكنني في هذه الليلة لم أفكّر إلاّ باللقاء مع آن، لذا لم أكن متأكّدة فأجبته: "لربما".

انــتزع رايان قفازيه وقبعته، وفكّ زمّام سترته، ثم تناول مسدسه الغلوغ، وأشار لــنا كــي نعــود باتجاه بيت الدرج. انزلقت آن إلى الجهة اليسرى، وأسندت ظهرها بالحائط. أمّا أنا فتحرّكت وراء رايان. انحرف رايان مستنداً على الحائط، وأخذ يطرق على الباب بعقب مسدسه قائلاً: "الشرطة! سأدخل الآن!"

لا جواب.. لا حركة...

صرخ رايان مجدداً، أولاً باللغة الفرنسية، ثم باللغة الإنكليزية.

خيّم صمت تام...

أشــار رايان باتجاه القفل، فتقدّمت واستخدمت مفتاحي لفتح الباب. دفعني رايان بذراعه بحيث صرت خلفه تماماً، بينما دفع الباب بقدمه، فانفتح.

- "ابقَيْ هنا".

أمســك رايــان مسدسه بيديه الاثنتين، لكنه صوّبه باتجاه الأعلى، ثم عبر العتبة فتبعته.

شعرت بشيء ينسحق تحت قدميّ. تقدّمت خطوةً أتبعتُها بخطوةٍ أخرى. لاحظت وجود مساحات سوداء داكنة على جدار البهو المكسو بالزجاج. لاحظتُ أيضاً انعكاس الأضواء الخارجية فبدت مثل الفوسفور على الأرض الرخامية.

تقدّمــت خطوة ثالثة. التمع مضلعٌ بلون الزعفران في الطاولة المكسوة بالزجاج، والموجــودة في غرفة الطعام المواجهة لنا. شاهدت أشكالاً أخرى وسط الظلمة، مثل طاولة الكتابة، كما شاهدت زاوية من خزانة غرفة الطعام. اجتاحني إحساسٌ بالتوجّس، ما جعل حواسي كلها متيقّظة.

نادى رايان مرة أخرى. ولم يتلقَّ أيّ جواب مجدداً.

تقدّمــت، أنــا ورايــان من خلال العتمة، وبدونا مثل وحشين مفترسين يختبران الهواء. خيّمت على المكان أصوات الفراغ: الثلاجة، وجهاز إزالة الرطوبة.

نسّم هواء بارد من جهة غرفة المعيشة.

توجّه رايان إلى القاعة الجانبية وضغط على زر المصابيح. أشار لي بالبقاء في مكانـــي، ثم استدار يمنةً واختفى في الداخل. اضاءت المصابيح في غرفة النوم، وفي الحمام، وفي غرفة المطالعة.

لم يحاول أحد الهرب، ولم يمّر أي شخصٍ من أمامي. لم يُسمع في المكان سوى صوت حركات رايان.

تراجعـــنا باتجـــاه الصـــالة الرئيســـية. تقدّم رايان ليستكشف المطبخ، ثم غرفة المعيشة، لكنه عاود الظهور في غضون ثوانٍ قليلة.

- "لا أحد".

اســـتطعت أخـــذ أول نَفَـــسٍ حقيقي لي منذ دخولي إلى الشقة. لاحظ رايان مدى الرعـــب الذي أشعر به فاستعاد الشعور بالأمان، وأرجع مسدسه إلى غمده، ثم غمرني بذراعيه.

- "أقدم أحد الأشخاص على قطع زجاج الباب الفرنسي".

بدا صوتي مرتعشاً وكلماتي ممطوطة مثل تلك الصادرة عن شريطٍ تسجيل أُفرط في استخدامه: "لكن ماذا عن جهاز الإنذار".

- "لم يخترقه أحد. هل تستخدمين كاشف الحركة؟"

- "أوقفته عن العمل".

شـــعرت بذقن رايان تلامس قمة رأسي. شرحت بنبرةٍ دفاعية: "دأب بيردي على إطلاق ذلك الشيء اللعين".

- "لماذا بحق الجحيم؟"

التفتّ أنا ورايان، ورأينا آن تقف في المدخل، وقد أبقت على علبة المايس باتجاه الأعلى. ولاحظنا اتساع حدقتي عينيها. قال رايان: "أهلاً بكِ في مونتريال".

تقوّس حاجبا آن نحو الأعلى، فقلت موضحة: "إنه رجل شرطة".

علّق رايان: "مستعد دائماً للخدمة والحماية".

أخفضـــت آن حاجبـــيها وأنزلـــت علبة المايس: "إنه نوعي المفضل من رجال الشرطة".

أفلتني رايان فتمكّنت من تقديمهما لبعضهما بعضاً. سمع بيردي أصواتنا، فانطلق مـــن غرفة النوم، ورسم بحركته رقم 8 حول قدميّ، وقد انتصب فراؤه نتيجة الإثارة

التي شعر بها.

رفعت آن حاجباً واحداً في وضعٍ استفهامي: "هل التحري رايان هو الرجل الذي أشرتِ إليه بكلمة نوعاً ما أثناء تناولنا العشاء في المطعم؟"

أطلقت باتجاهها نظرةً تحثّها على تأجيل البحث في هذا الموضوع وقلت: "اقتحم شخص ما المنزل".

توجّهت آن إلى البهو، وسارت بضجيج وهي تتمتم: "تبّاً!"

انشغل رايان باستدعاء رجال مكافحة السرقات، وانصرفتُ مع آن لتقييم الضرر الحاصل.

تـمّ قطـع اللوح الزجاجي بطريقة متقنة، من دون إحداث أي ضرر في أسلاك الكشف التابعة لنظام الأمن، لكن شظايا الزجاج انتشرت في البهو، وفي غرفة الطعام، وتكسّرت مرايا الحمامات، كما تكسّر الزجاج في جميع إطارات الصور الموجودة في المـنزل. التمعـت شـظايا الزجاج المنتشرة على قطع الأثاث وعلى المغاسل، وعلى طاولة المطبخ، وعلى أرض المنزل. تناثرت بعض الكتب والمجلات هنا وهناك، وفي ما عدا ذلك بقيت غرفة المعيشة الرئيسية سليمة من كل أذى.

شـكّلت الفوضـى التي سادت غرف النوم نقيضاً صارخاً لغرفة المعيشة. كانت وسـائد السرير ممزقة، والأدراج خارج أماكنها ومقلوبة أيضاً. بدا أن كل موجودات الخزائن قد تعرّضت للتفتيش.

أظهـرت جردتنا السريعة وجود خسارتين. لحظنا فقدان آلة تصوير آن الرقمية، وكذلك جهاز كمبيوترها المحمول. لم نفقد أي شيء عدا ذلك.

قالت آن وهي تفكّر بهذه النعمة: "شكراً لك يا الله".

أشرتُ إلى مفقوداتها وقلت: "أنا آسفة جداً".

كانـت آن قد وضعت الكيس الصغير الذي يحتوي على مجوهراتها في الخزانة. وضعت يدها على خصرها: "أظن أن السارقين الصغار لم يعجبوا بذوق طوم تورنيب في ما يتعلّق بالمجوهرات".

* * *

اسـتغرق إعـداد الـتقرير عدة ساعات. ووعدني الضباط أن الرجال المولجين بتفحّص مسرح الجريمة سيأتون في الصباح من أجل تفحّص البصمات، وآثار الأقدام، وكذلك علامات الأدوات المتبقية.

قدّمت أنا وآن الشكر لهم، ولاحظنا أن أياً منهم لم يكن متحمساً للموضوع. علمنا

جميعاً أن مفقودات آن قد اختفت في ثقبٍ أسود لسرقة صغيرة.

بقـي رايان معنا. لعلّه فعل ذلك من أجل تشجيع أفراد الشرطة على بذل المزيد من اليقظة، أو ربما من أجل رفع معنوياتي المنخفضة.

عرض علينا رايان بعد رحيل رجال البوليس أن ننام في منزله. تطلّعت نحو آن، فهـزّت رأسها علامة عدم موافقتها، لكن نظراتها جعلتني أستنتج أن التعب بدأ يتغلّب علـى الأدرينالين عـندها. ذهب رايان لإحضار شريط لاصقٍ، وبضعة ألواح من الكرتون المقوى، والبلاستيك، بينما انطلقتُ مع آن في جولة تنظيف أولية. راقبناه بعد عودتـه أثناء انهماكه بتفصيل لوحةٍ مؤقتة للباب الفرنسي. استأذنت آن كي تذهب إلى الحمام.

راقبـت رايـان أثـناء انهماكه بوضع المزيد من الشريط اللاصق على اللوحة الكرتونية، وأدركت فجأة أنني لا أمتلك أية فكرة عن سبب مجيئه إلى منزلي.

بدأت بالقول: "لا أعرف كيف أشكرك".

- "لا لزوم للشكر".

أشـرت إلـى الفوضـى السائدة في المكان: "وجدت نفسي وسط هذه الفوضى السائدة، لكنني لم أسألك عن السبب الذي دعاك للمجيء إلى منزلي".

وضـع رايان لوحته على طاولة القهوة، وانتصب واقفاً من جديد، ثم وضع يديه علـى كتفيّ. لاذ بالصمت للحظة طويلة. لانت ملامح وجهه بعد ذلك، ومدّ يده ليرفع خصـلةً من الشعر تدلّت على خدي، ثم عادت يده إلى منطقة ما خلف كتفي. وصلت إلى مرحلة لم أعد أحتمل صمته، لكنه تكلّم بغتةً: "سأغيب لبعض الوقت".

شعرت بتوتر في معدتي. أتت اللحظة إذاً! أزفّت نهاية النهاية!

- "لا أسـتطيع تقديـم الكثير من التفاصيل. إنها عملية كبيرة ومشتركة ما بين مخـتلف قوى الشرطة في مونتريال، حتى إن الأميركيين مشتركون فيها. بدأ الإعداد لهذه العملية منذ شهور عدة".

مرّت لحظة قبل أن أستوعب الفكرة.

- "هل تتحدّث عن مصيدة ما تحضّرها الشرطة؟"

- "إنني لا أكشف لك أية أسرار إذا قلت لك إن كلوديل سيشترك في هذه العملية، وكذلك الأمر مع شاربونيو".

شعرت أن عقلي عاجزٌ عن إيجاد الروابط بين هذه المعلومات.

- "لماذا تخبرني عن الأمر".

- "أظــن أن افــتقاد كلوديل للاهتمام بالعظام التي وجدت في مطعم البيتزا يؤثّر عليك كثيراً".

- "هل ستغيب عن المدينة؟"

ارتســمت معــالم ابتسامة على شفتيه: "ليس هذا ما أريده. يتعلّق الأمر بالشهرة وبالأموال الطائلة".

أنزلت بصري نحو يديّ.

- "أكره أن أدعك وحيدة وسط هذه المشكلة".

- "لم أطلب المساندة يا رايان. أنت مررت من تلقاء نفسك".

بدا صوت رايان لطيفاً: "لا يعجبني ما جرى يا تمب".

- "لا أعتقد أن ما جرى هو أمر مهم جداً".

استطعت أن أشعر بنظرات عينيه تحوم فوق معالم جسدي.

- "سأطلب مراقبة دائمة لمنزلك".

- "سأكون بخير".

رفــع رايان ذقني بإصبع واحد قائلاً: "لست متأكّداً ممّا حصل هنا، لكنني مصمّم على معرفته".

- "إنها حالة سطو بسيطة".

ارتفعــت إصبعه لتلامس شفتيّ، ثم قال: "فكّري بالأمر، ماذا حصل هنا؟ ما هي الأشياء التي لم تمسّ؟ لماذا تمّ اقتحام البيت بهذه الطريقة البارعة؟ ولماذا تمّ تهشيم كل هذا الزجاج؟"

ضــغط رايــان بــيديه على يديّ. لقد اعتاد على القيام بهذه الحركة عندما يريد تهدئتي، لكنها زادت من اضطرابي هذه المرة.

- "أريد أن أبقى فعلاً يا تمب".

تفحّصــت وجهه آملةً أن أسمع منه الكلمات التي تُشعرني ببعض الارتياح، لكن رايان أفلتني، وارتدى سترته. تناول الشريط اللاصق ومد يده ليلمس وجنتي، ثم انطلق مغادراً.

وقفت لحظة أتساءل عمّا قصده بالعبارة التي تلفّظ بها.

أيــن تريد أن تبقى يا آندرو رايان؟ أتريد أن تبقى متبعاً النهج نفسه، أم تريد أن

تبقى عندي هذه الليلة؟ أتريد أن تبقى متردداً... حراً؟

لـــم أسمع أي صوت من جهة الحمام، ولم أسمع أي صوت من غرفة المطالعة. أطفأت آن أنوارها.

شـــغّلت جهـــاز التدفئة في المنزل، ثم انصرفت لتفقد كل قفلٍ وكل نافذة. شغّلت جهاز الإنذار، وتفقّدت جهاز الهاتف. توجّهت بعد ذلك إلى غرفتي.

لم ألاحظ ما أشاهده الآن من قبل، فما إن اجتزت العتبة حتى لفت انتباهي شيء مثل شبح مميت.

تجمّدت ساقاي من الصدمة عندما شاهدت تلك الإساءة المميتة التي تنتصب فوق سريري.

الفصل 11

- "لا!"

اندفعت إلى الأمام، وقفزت إلى السرير، ثم انتزعتُ قطعةً طويلةً من اللوحة الممزقة المعلقة فوق الجهة الرأسية لسريري، وقذفتها بعد ذلك إلى الجهة الأخرى من الغرفة.

تهشّم الزجاج، وتطايرت الشذرات بعد ارتطامها بالجدار، سقطت في زاوية الغرفة فوق الكومة التي تجمّعت أثناء حملتنا الأولية لتنظيف المكان.

- "أيها السافل، وابن الساقطة!"

تسارعت دقات قلبي، وتساقطت الدموع التي كوَت ظاهر أجفاني. نزعت ثيابي، ثم رميتها فوق قطع اللوحة الممزقة. انسللت عاريةً، ورحت أرتجف تحت أغطية السرير.

اختارت كاتي، فور انضمامها للسنة التحضيرية في الجامعة، دراسة الفنون الحرفية. لم يطل اهتمام كاتي باختصاصها هذا، لكنها اهتمت خلال دراستها القصيرة بالفنون الجميلة، مثلها في ذلك مثل بقية الطموحين الذين يملأون شارع مونمارتر. استطاعت أن ترسم أربع لوحات في فصل دراسي واحد، وأن تتمّ أربع عشرة رسمةً، وست لوحات زيتية، وتميّز أسلوبها بمزيج من البهرجة المتحررة والواقعية الباربيزونية.

أهدتني ابنتي الوحيدة، بمناسبة عيد ميلادي الأربعين، لوحةً زيتية أصلية بريشة كاتي بيترسون، تصوّر تلة من تلال مدينة شارلوت، بأسلوب هو مزيج من ماتيس وروسو. احتفظت دائماً بتقدير كبير لهذه اللوحة الزيتية المرسومة على القماش، وهي إحدى ممتلكاتي القليلة التي نقلتها معي من كارولينا إلى كيبيك. أردت أن تساهم هذه اللوحة في جعل شقتي تبدو مثل منزل حقيقي. إن هذا المنظر الطبيعي، الذي رسمته ريشة كاتي، هو آخر ما تقع عليه عيناي قبل أن أستسلم للنوم كل ليلة، وهو يلفتني كيف ما تنقّلتُ في أرجاء الغرفة.

لمـــاذا لـــم يكتفِ هذا اللص بأخذ أي شيء آخر أراده؟ لماذا خرّب لوحة كاتي؟ لمـــاذا أقدم على تخريب لوحة ابنتي الجميلة؟ ضغطت على أجفاني، واجتاحني غضب كبير منعني من البكاء، ومنعني أيضاً من عدم البكاء. تمسكتْ أصابعي بغطاء السرير وضغطت عليه مرة بعد أخرى.

مرّت الدقائق. دقيقةٌ واحدة... اثنتان... سالت الدموع على صدغي. مرّت الدقيقة الثالثة... الرابعة...

عـــادت أنفاســـي أخـــيراً إلـــى وضعها الطبيعي، وارتخت قبضتي الحديدية عن الغطاء. فتحتُ عينيّ على الظلام المخيّم، ولم أتبيّن سوى الضوء الخافت لساعة جهاز الراديو. حدّقت بالأرقام، وتمنّيتُ أن أسترجع تفكيري المنطقي.

تلاشـــى الغضـــب أخيراً، وبدأت بإعادة تركيب صورة ما حدث خلال الساعات الـــثلاث الماضـــية. ماذا حدث هنا؟ هل أقدمتُ أنا وآن على مقاطعة عملية سرقة في أوجهـــا، أم أنـــنا اقتحمـــنا عملاً من أعمال الشر؟ لم أفهم أي سبب لهذين الاحتمالين. تشابكت أصابعي مرة أخرى.

أقـــدم رجل غريب على انتهاك حرمة منزلي. من أقدم على هذا العمل؟ هل هو لصّ انتقائي جداً يبحث عن أشياء قيّمة ومحددة؟ أم لعله مدمن على المخدرات، يبحث عن أي شيء يمكنه بيعه ليموّل شراءه لهذا السم؟ هل كانوا أولاداً يبحثون عن الإثارة؟ لماذا؟ والأهم من ذلك، ما هو سبب هذا العنف العشوائي؟

تذكّرت كلمات رايان.

مـــا هـــي الأشياء التي سُرقت؟ إنها جهاز كمبيوتر آن المحمول، وآلة التصوير الرقمية العائدة لها. أليس هذا أمراً غريباً؟

كـــان كـــيس المجوهـــرات واضحاً للعيان. احتوى ذلك الكيس على أشياء قيّمة وخفـــيفة الحمل. لماذا لم يأخذ السارق ذلك الكيس؟ لماذا لم يسرق جهاز التلفزيون، أو جهـــاز أســـطوانات الفيديو الرقمية؟ ألم تكن هناك أشياء أخّف على الحمل؟ فكّرت في جهاز كمبيوتري المحمول، وتذكّرت أنني لشدة فرحي بقدوم آن، نسيتُ هذا الجهاز في صندوق سيارتي.

هل شعر المقتحم بالرعب قبل أن يستطيع الاستيلاء على الأشياء الثمينة؟ لا أظنّ ذلـــك، لأن ذلـــك المقـــتحم عمل بهدوء من أجل تحطيم الأشياء التي حطمها، هذا إذا افترضـــنا أنـــه رجل. أظن أن الرجال يتميزون بالميل إلى التدمير العشوائي أكثر من النساء.

وجدنـــا الباب مفتوحاً عند وصولنا، أما الأبواب التي تؤدي إلى الباحة الخارجية فكانت موصدة من الداخل. إن الهرب من خلال الأبواب الفرنسية يعني أن المقتحم قد تسلق السور الخارجي للباحة.

مـــاذا تعنـــي كل هذه الافتراضات؟ هل تفسّر الطريقة التي دخل بها. وهل أقدم المقـــتحم على فتح الباب الخارجي لتضليلي عندما أعود؟ هل رمى ذلك اللص بيردي، أم أنه تسلّل من خلال الباب الفرنسي عندما بدأت عملية تهشيم الزجاج؟

تقلّبت في فراشي. لكمتُ وسادتي. تقلّبت ثانيةً.

لماذا قام بإحداث كل هذا الضرر؟ أين جيراني؟ ألم يسمع أي جارٍ لي الضجيج؟ هـــل كان رايان محقاً؟ وهل إن ما جرى يتعدّى قضيةً بسيطة؟ يعرف السارقون كيف يعملـــون من دون إحداث أي ضجيج. لماذا الحرص على قطع زجاج الباب الفرنسي بدقـــة، ثـــم الانطلاق بتحطيم المرايا والصور بصورة عشوائية؟ لماذا كل هذا التشويه للّوحة؟ اجتاحتني نوبة غضب أخرى.

هل كان القصد من هذا العمل توجيه تهديدٍ لي، أم توجيه إنذارٍ يا ترى؟ إذا كان القصد توجيه إنذار، فلِمن؟ أهو لي أم إلى آن؟ إذا كانت فرضية توجيه إنذار صحيحة، فمن وجّهه؟ هل أتى هذا الإنذار من أحد المعتوهين المصابين بانفصام في الشخصية، من الذين يمرّون معي في سياق عملي، أم أنه أتى من مصابٍ آخر بهذا الداء؟ هل أتى من ذلك الشاب الذي التقته آن في الطائرة؟

تلاطمت الأفكار المجنّحة في رأسي... سمعت صوت أشياء تنسحق بنعومة تشبه أصـــوات وقع الأقدام على الرمال، ثم ارتطمت كتلةٌ ما بسريري، وما لبث بيردي أن التفّ حول ركبتي.

انحنيت قليلاً لأمسّد ظهر هرّي.

- "أحبّك، أيها الهر".

مدّد بيردي جسده على طول ساقي.

- "وبالنسبة إليك أيها اللعين الكريه. نعم، لقد وصلت إليّ، لكنني سأعرف هويتك ذات يوم".

تكلّمت بصوت يعلو على الصوت الهادئ الصادر عن الهرّ.

ملأني شعور بوجود شيء على غير ما يرام عندما استيقظت. لم أتذكّر كل شيء في البداية، ثم تسلّل إليّ قلق مبهم. بعدئذٍ تذكّرت كل شيء.

فتحــتُ عينـــيّ. توهج ضوء الشمس من الشظايا المتناثرة على السجادة، وعلى سطح الخزانة. لم أجد بيردي بجانبي، واستطعت سماع صوت جهاز الراديو من خلال الباب المفتوح جزئياً.

وجــدت آن ترتشف القهوة في المطبخ، وتنشغل بحل أحجية للكلمات المتقاطعة، فيما راحت تدندن أغنية لدافيد بووي. راحت تغني بصوتٍ عالٍ عندما سمعتني أدخل.

– "تغييرات!"

سألتها: "هل هذا اقتراح منكِ؟"

نظــرت آن إلى شعري من وراء إطار نظارتيها ذات اللون الزهري والأخضر، والتي تستخدمها للقراءة، وهي واحدة من مجموعة النظارات التي تشتريها كل سنة من متجر ستاين مارت.

– "هل أنتِ راضية عن مظهركِ؟"

– "وهل تظنين أنكِ ابنة حاكم كندا؟"

رفعــت آن شعرها، ولفّته بواسطة ربطة شعر، ثم زيّنته بحليةٍ تدلّت من رأسها مثل التاج الذي يزيّن ببغاء كاتي.

– "فكّــرت بتســريحة أفضــل، لكننـــي احــترت بالنسبة للأشياء التي يمكنني استخدامها".

وقفت آن، ثم تناولت كوباً كبيراً من الخزانة، وملأته، ثم ناولتني إياه.

– "شكراً".

– "ماذا وضعتِ للسحلية على السياج؟"

تســـتخدم آن عدة تعابير أخذتها من أيام طفولتها في الميسيسيبي، لكنني لم أسمع هذا التعبير منها سابقاً.

– "وما هي ترجمة هذا التعبير؟"

– "ماذا لديك من خططٍ هذا اليوم؟"

– "لــديّ موعــد مــع آخر هيكل عظميّ من الهياكل التي وجدت في قبو مطعم البيتزا. وأنتِ؟"

– "أعــتزم الذهاب إلى متحف الفن المعاصر. يقع هذا المتحف في محطة مترو قصر الفنون، أليس كذلك؟"

– "صحيح".

أضـــفت الكريما إلى كوب قهوتي، ثم وضعت نصفَي قطعة فطيرة إنكليزية على المحمصة الكهربائية.

- "هل تعرفين أن ألفين وخمسماية من المغفلين وقفوا عراة تحت المطر، ليأخذوا صورة مع سبنسر تونيك في تلك الساحة؟"

- "كيف عرفت أنهم جميعهم من ذلك النوع؟"

- "هل قصدت شاطئاً للعراة ذات مرة؟"

عرفـــت أن آن كانـــت علـــى حقٍ هذه المرة، لأن الذين يفرطون بالتباهي بهذه الأمور هم الذين يتعيّن عليهم عدم فعل ذلك.

أضافت قائلة: "سأقصد سان دينيز بعد ذلك لأتناول الغداء وأتسوّق".

تذكّرت نوعية الناس الذين يتواجدون عادة في ذلك المكان، فسألتها: "هل تذهبين وحدكِ؟"

- "نعم ماما. سأذهب وحدي".

- "أتعتقدين يا آني أن ذلك الرجل هو الذي اقتحم المنزل؟"

- "ولمـــاذا يفعـــل ذلك؟ يُحتمل أنه لا يعرفك، وطريقته هذه لا تؤثّر بي بالمرة. لماذا يُقدم على شيء فيه كل هذا الجنون؟"

- "لكن أحدهم فعل ذلك".

بدا صوتها متهدجاً حين قالت: "لا أعتقد أنه الفاعل، لا أعتقد ذلك بالفعل. بدا ذلك الشاب طبيعياً بالكامل، لكن... أنا آسفة يا تمب، كانت حماقةً مني".

بدأتُ بوضع بعض مربى الفراولة عندما تكلّمت آن ثانية.

- "ما هي الكلمة المؤلفة من أربعة أحرف، والمرادفة لعبارة "غير حساس؟"

- "بليد".

- "إنها تبدأ بحرف الكاف".

- "كلوديل".

رفعـــت آن عينـــيها فـــوق إطار نظارتيها الزهريتي اللون، وقالت: "أعتقد أنني سأختار كلمة كليل".

أعادت تركيزها على شبكتها، وجلست أنا قبالتها أصغي إلى نشرة الأخبار؛ اندلع حريق في سان ليونار، تساقط مزيد من الثلوج على المنطقة...

كنـــت قـــد انتهيت للتو من تناول فطيرتي عندما أنزلت آن نظارتيها، ووضعت

قلمها على الطاولة.

- "هل كلوديل هذا رجل تحرٍ جيد؟"

اكتفيت بإصدار صفير من بين شفتيّ.

- "سأعتبر جوابك هذا سلبياً".

- "كلوديــل هو رجل متمكّن، لكنه ضيّق الأفق، متشبثٌ برأيه، وعنيد. ولا يرى ضرورة لوجود كل علماء الأنثروبولوجيا عموماً، والإناث منهم على وجه الخصوص. إنه ينظر إلى كل اقتراح على أنه تدخّل في شؤون عمله".

- "دعيني أخمّن. إنه لا يبذل أي جهد في قضية الهياكل التي تعملين عليها".

- "إنــه لا يقــدّر عملي، كما أنه يعتبر أن قضية الهياكل العظمية تخصّه وحده، ولا تخصّني".

- "واجهتِ هذا المشكلة معه من قبل، أليس كذلك؟"

- "أوه، نعــم. إنــه كلوديل الواثق من نفسه، لكنه الرجل الذي يكون على خطأ مراراً".

- "إذاً أنت لا تعتبرينه المفضّل لديكِ؟"

- "لا أعتــبر أن كلوديل هو رجل طائش، لكن أسئلته مقتضبة، حتى إنها تقترب مــن حد الفظاظة. كما أنه من النادر أن يفسّر لماذا يهتمّ بحقائق محددة، ولا يفسّر لي لماذا لا يهتمّ بآرائي".

- "وكيف تحملينه على الإصغاء إليكِ؟"

نهضــتُ ووضــعت فطــيرة أخرى في المحمصة: "إذا أدّيتُ ترنيمة الشكر وأنا عارية".

أجابــت آن: "لعلكِ تمتلكين القوام الممشوق، لكنك لا تمتلكين صوتاً غنائياً. إنني أفكّر بطريقة مهنية".

- "إن نقطة خلافنا هي تحديد المدة التي مضت على وفاة الضحايا. يعتقد كلوديل أن العظــام قديمة، أما أنا فأعتقد أنها حديثة العهد. أرسلت نماذج منها لإجراء اختبار الكربون 14، لكنني لن أحصل على النتائج قبل أسبوعٍ على الأقل".

- "ما هي الأشياء الأخرى التي تثير انتباهه؟"

- "إذا قُتل ستة أو سبعة أطفال صغار".

رفعت آن كوبها الكبير الفارغ: "ها أنتِ بدأتِ بالتضايق مني يا تمب. إنني أطرح عليكِ سؤالاً جدياً. أعني ما هو الشيء الذي يُلهم كلوديل إبداء اهتمام أكبر بالعظام التي تدرسينها".

- "إذا استطعنا البرهنة أن هذه العظام حديثة العهد".

ملأت الكوبين، وناولتها واحداً منهما. رفعت آن يدها التي لا تحمل كوب القهوة، وفتحت راحة يدها قائلة: "إذاً ابدأي من هذه النقطة".

- "يعتقد كلوديل أنه لا وجود لدليل كهذا".

- "لا تنتظري نتائج اختبار الكربون 14. قومي بتغيير رأيه".

- "إنه يرفض البحث في الاحتمالات".

- "إذاً أعطِه شيئاً ليعمل عليه".

- "ماذا يُفترض بي أن أفعل؟ هل أستأجر بعض المرتزقة ليضربوه حتى يوافق؟"

- "يوافق على ماذا؟"

- "يوافق على فتح تحقيق".

- "وماذا يعني ذلك؟"

استرخيت في مقعدي بعد أن تناولت فطيرتي الثانية: "هل هذا استجواب مؤلف من عشرين سؤالاً؟"

- "ماذا تريدين من كلوديل أن يفعل؟"

فكّرت بهذه الكلمات لعدة لحظات، ثم أجبت: "أريده أن يأمر بإحاطة المكان بسياجٍ من القماش، وأن يأتي بالمزيد من المعلومات عن المبنى. أريده أيضاً أن يتقصّى عن المقيمين السابقين، وأن يعرف من امتلك ذلك المكان، ومن عاش فيه، ومنذ متى أصبح الطابق الأول مكاناً تجارياً. يتعيّن عليه أن يعرف كذلك ما هي أنواع التجارة التي كانت تُمارس هناك، بالإضافة إلى نوع رخصة البناء التي أُصدرت، ولمن أعطيت".

رفعت راحة يدها مجدداً: "يمكنك الانطلاق من هذه النقطة".

- "تقولين هذا للمرة الثانية".

- "لا تجبريني على قولها للمرة الثالثة".

- "من أين يمكنني الانطلاق؟"

- "ابدأي بإيجاد حلّ لمشكلتك".

أعتقد أن من المبكّر القيام بهذا الشيء، لأنني لا أعرف كيفية بناء الجسور مع الآخرين.

- "وما هي مشكلتي؟"

- "ابداي بالاعتماد على نفسك".

- "سيجعل هذا من كلوديل رجلاً عدائياً".

- "وكيف يمكنه فعل هذا؟ إنه يقول إن العظام قديمة، كما أنه لا يرى ضرورة لإجراء المزيد من التحقيقات. يمكنك القول إنك تجرين أبحاثاً إضافية".

- "هذا ليس من ضمن مهمّاتي".

- "يبدو لي أن كلوديل يعتقد أن هذا الأمر ليس من مهمّاته كذلك".

- "لا يهتمّ كلوديل باقتراحاتي أبداً، لكنني إذا أقدمتُ على أي شيء يشبه أعمال التحري فإنه يتحوّل إلى رجل عدائي جداً".

- "اسمعي، لا يتعيّن عليك جعل هذا الأمر مسلسلاً تلفزيونياً. أنزلِي دلوك في البئر، وانظري ما يستجد".

فكّرت في ما قالته آن بينما ملأت، ومحت، ثم ملأت ثانيةً العمود الرابع والثلاثين من أحجيتها. يظهر أنها تتكلّم بصورة منطقية. ماذا سأخسر إذا ما تفحّصتُ الصكوك العقارية القديمة، السجلات الضريبية، ورخَص البناء؟ إذا كان كلوديل على حق فمعنى ذلك أنني عملت لصالح علماء الآثار على أية حال. أفترض أن كلوديل سينشغل بتلك العملية البوليسية التي ذكرها رايان. أعتقد أيضاً أنه ما إن يتفرّغ كلوديل ثانيةً، ويعرف أنني قمت ببعض التحرّيات، فإنه سيضطر إلى القيام بتحرّيات أخرى بنفسه، حتى لو شعر بالغضب، لكي يتأكّد من أنني لم أكتشف شيئاً فاته.

رنّ جرس الباب في تلك اللحظة. وجدت فريقاً من سرية مكافحة السرقات أمامي. أدخلت الفريق إلى المنزل، وذكرت لهم الأضرار التي أصابت الباب الفرنسي، وتلك التي حدثت في غرفة آن، بالإضافة إلى الضرر الكبير الذي أصاب لوحة كاتي. سألتهم إن كانوا يمانعون في بدء عملهم في غرفة المعيشة.

انشغل التقنيون بالتقاط الصور، ورفع البصمات، بينما انسحبتُ مع آن إلى غرفتينا لارتداء ملابسنا، وتمشيط شعرينا، وكذلك لوضع مساحيق التجميل حيثما يلزم. فكّرت بالخيارات المتاحة أمامي أثناء جلسة التجميل هذه.

إنه يوم جمعة، والمكاتب الرسمية تقفل في أيام نهاية الأسبوع. وإذا ما بدأت

بتفحّص الهيكل العظمي الثالث هذا اليوم فلن يكون بإمكاني الوصول إلى مبنى المحكمة، أو قاعة المدينة، حتى يوم الاثنين.

أستطيع العمل في مختبري في أيّ وقتٍ أشاء، حتى في أيام العطلة الأسبوعية إذا كان هذا الأمر ضرورياً، لكنني لا أستطيع تفحّص السجلات في أي وقتٍ أريد. إذاً ما هو قراري؟

أجّلت التفحّص الكامل للهيكل الثالث مرةً أخرى.

وضعتُ كميات طعام وماء إضافية لبيردي، وانضممت قليلاً إلى فريق مكافحة السرقات الذين مضوا بعملهم.

اقتربت من جهاز الهاتف وفوجئت بآن تدخل غرفة نومي. انتعلت آن الحذاء العالي والسترة التي رفضت أن ترتديها البارحة. رأيت الوشاح المصنوع من وبر الأرانب في مكانه، وكذلك القبعة والقفازين.

– "هل تنطلقين الآن؟"

أجابت آن: "بل سننطلق معاً".

– "ماذا عن زيارتك للمتحف؟"

– "إن الفنون خالدة، وستكون في مكانها غداً، أما اليوم فهو مخصص لأعمال التحري. أتفهمين؟ إن حياتي متعددة الأبعاد، أنت وأنا، مثل كاغني ولايسي. ستصبح حياتي ممتعة هكذا على ما أعتقد".

– "هل أنت متأكّدة؟"

– "أنا متأكّدة".

– "إن كاغني ولايسي رجلا تحريات مدربان، يمتلكان الشارات والمسدسات. أظننا نصلح أكثر لنكون الآنسة ماربل، وإحدى صديقاتها المنتميات إلى نادي غاردن. لننطلق إذاً ونجرّب. سيخرج فريق مكافحة السرقات بأنفسهم. سأتحقّق من الرسائل الواصلة ثم نمضي في طريقنا".

اتّصلت بالمختبر، ونقرت على أرقام بريدي وعلى مفتاح الدخول. وصلت رسالة واحدة عند الساعة التاسعة والدقيقة الثالثة والأربعين من الليلة السابقة.

تسبّبت كلمات المرأة بإطلاق سلسلة لا متناهية من الاحتمالات في رأسي، وبدا كل واحد منها أبشع من الاحتمال الذي يليه.

الفصل 12

أشرت بحماسةٍ كبيرة نحو القلم الموجود في خزانتي، فاندفعت آن وناولتني إياه.

– "دكـــتورة برينان. أشعر أنه يتوجّب عليّ القيام بمحاولةٍ أخيرة، وإلا فلن أكون قادرة على التعايش مع ذاتي".

سجّلت انطباعاتي عن الصوت. إنه صوت امرأة مسنّة.

– "اتّصلت قبل يومين لأحدّثك بشأن المقالة المنشورة في صحيفة لو جورنال".

مــرّت لحظة صمت، وسمعت صوت سقسقة طائر، كما في المرة السابقة، لكنها سقسقة غير واضحة. تابع الصوت الذي ينضح بالتوحّد والشك: "أعتقد أنني أعرف من الذي مات، وأعرف كذلك سبب موته".

قلت بإلحاح من بين أنفاسي المترقبة: "هيا. من أنتِ؟"

– "أنت تعرفين اسمي"

– "لا أعرف اسمك"

ارتفع رأس آن بسبب ذهولها لخيبة الأمل التي شعرت بها.

– "تستطيعين الاتصال بي على الرقم 937-514..."

– "يا لهذه المرأة!"

راقبتني آن أثناء كتابتي رقم الهاتف، وحين قُطع الاتصال، ثم عندما طلبت ذلك الرقم.

رنّ جــرس الهــاتف في مكان ما من الجزيرة عشر، أو إحدى عشرة، أو اثنتي عشرة مرّة. قطعت الاتصال ثم نقرت على الأرقام مجدداً.

رنّ الهاتف في مكان ما اثنتي عشرة مرة مجدداً من دون أن يجيب أحد.

– "اللعنة!"

قطعت الاتصال ووضعت سماعة الهاتف على السرير، وشعرت أن جسدي توتّر بالكامل نتيجة الإحباط. نهضتُ وبدأت أذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً. تناولت سماعة

الهاتف، وطلبت الرقم مجدداً.

لا جواب.

- "ارفعي سماعة هاتفك اللعينة!"

مـــاذا أفعل؟ هل أتّصل بكلوديل وشاربونيو لأعطيهما الرقم؟ هل أتّصل برايان؟ يُحـتمل كثـيراً أن يكـون الثلاثة مشغولين تماماً بهذه العملية المشتركة التي يعملون عليها، لذلك لن يتوفّر لديهم الوقت للاتصال بأرقام هاتفية.

قطعت الاتصال، وتناولت مفاتيحي، وأسرعت إلى الطابق السفلي. تناولت جهاز الكمبيوتر المحمول من صندوق سيارتي. عند عودتي إلى غرفة النوم رأيت آن جالسةً علـى السـرير وقـد شبكت ذراعيها فوق صدرها، وانشغلتْ بتحريك قدمها صعوداً ونزولاً. راقبتني حينما بدأت بتشغيل الجهاز، لكن من دون أن تُصدر أيّ تعليق. نقرتُ على أرقام الهاتف في برنامج التصفّح.

لم أحصل على نتيجة. اقترح برنامج التصفح أن أدقّق في تهجئتي، أو أن أحاول نقر كلمات أخرى. "كيف تتهجّى رقماً، أيها الأحمق الجاهل؟"

جرّبت برنامج تصفّح آخر، ثم واحداً آخر. لم تظهر أية نتائج، لكن ظهرت نفس النصائح المفيدة السابقة.

- "ما الجدوى منك أيها الجهاز؟"

تناولـتُ سـماعة الهـاتف مجدداً، نقرتُ رقماً آخر، وطلبت أحد الأشخاص، ثم استعلمتُ عن أمرٍ معيّن.

لا. لم يستطع أحد إلى الآن تتبّع المكالمة التي وصلت يوم الأربعاء إلى المختبر. لـمَ لا؟ تتطلّـب هذه الأمور الكثير من الوقت. حسناً! دوّن هذا الرقم، وانظر إن كنتَ تستطيع الحصول على نتيجة.

رميـت سـماعة الهـاتف على السرير ثانية، وتوجّهت إلى الخزانة، ثم تناولت قفـازَي، وأغلقت الدُّرجَ ثانيةً. انشغلتُ بارتداء الجزء الأيمن من القفازين، لكنّ الجزء الآخـر سـقط مني. انحنيتُ لالتقاطه، لكنني أوقعته ثانية، وما لبثت أن رميته باتجاه الحائط. تناولتُه مجدداً، ثم أدخلت فيه يدي اليسرى.

تطلّعـتُ لأكتشـف أن آن تحـدّق بـي، لكـنها حافظـت على وضعِ ذراعيها المتشابكتين، بينما ارتسمت ملامح الاستمتاع على محيّاها.

سألت آن بصوت يشبه صوت السيد روجرز: "هل تقدّم لنا الآن طبيبتنا الشرعية عرضاً من عروض نوبات الغضب؟"

- "أتظنّين أن ذلك كان عرضاً لنوبة غضب؟ ضايقيني فعلاً لترَي وجه غوريّلا".

- "لم أشاهدكِ تقدمين عرضاً لغرابة الأطوار منذ أن ضبطتِ بيتي مع وكيلة السفريات".

اضطررت للابتسام، وقلت: "كانت وسيطةً عقارية، وكانت تتمتّع فعلاً بمؤخرة سمينة".

- "دعيني أخمّن. إننا لا نستمتع برسائلنا الهاتفية، أليس كذلك؟"

- "لا. إننا لا نستمتع".

لخّصتُ لها قصة المكالمات الهاتفية التي تلقّيتها من السيدة غالانت، أو بالانت، أو تالانت.

- "أتعنين تلك التي أثارت قضية ديفا داكاو".

لم أجبها. تابعت آن بصوت صبور تتميّز به مديرات المدارس: "يُحتمل أن تكون هذه السيدة اللطيفة قد خرجت لتشتري ميتاموسيل الأسبوعية. اتّصلت هذه السيدة مرتين، ولا شيء يمنعها من الاتصال للمرة الثالثة. إذا لم تتّصل فيمكنك مكالمتها في ما بعد لأن الرقم معكِ. أعتقد أن لديك في وسط المدينة معارف باستطاعتهم مساعدتك على إيجاد صاحب الرقم الهاتفي من بين قائمة المشتركين. آه! تستطيعين إيجاد الاسم والعنوان من الدليل الموجود بين يدَيْ أيّ مشترك، هذا إذا كان لديكِ الرقم".

لم أستطع إخفاء اضطرابي وأنا أقول: "قالت المرأة يا آن إنها تعرف من توفي، وسبب الوفاة. تستطيع هذه المرأة أن تجعل التحقيق علنياً إذا كان ما تقوله صحيحاً. يُحتمل ألاّ يكون كلامها صحيحاً بالطبع. أريد أن أتكلّم معها قبل أن أجعل كلوديل ينطلق بالتحقيق باتجاه خاطئ. إنك محقة، يتعيّن عليّ بذل بعض الجهود كي أتحدّث معها بنفسي، لا سيما أنها اتّصلت بي لا بالشرطة".

- "لديّ سؤال آخر لكِ".

رفعت يديّ في إشارةٍ تشجعها على المتابعة.

- "ما هي خطتكِ لتثبيت أزرار سترتك؟"

نزعت قفازَي، ورميتهما باتجاهها.

دخلت إلى موقف عمومي في ذلك الحي القديم للمرة الثانية ذلك الأسبوع. تلبّدت الغيوم الرمادية اللون المائلة إلى الزرقة، بينما استعد الهواء لاستقبال ثلوج

لم تسقط بعد.

بدأت بتثبيت أزرار سترتي المقلنسة: "هيا، لننطلق!"

- "وما هي الجهة التي سنقصدها؟"

- "سنذهب إلى هوتيل دوفيل".

انطلـق صوت آن المخنوق من خلال وشاحها المصنوع من وبر الأرانب: "هل سنحجز غرفةٍ لنا هناك؟"

- "بل سنقصد السيتي هول. إنها على بُعد أربعة مبان فقط".

تشـرف السـيتي هول في مونتريال على تقاطع جاك كارتييه. بنيت هذه القاعة الفخمـة علـى الطراز الفيكتوري من الحجر والنحاس، ويعود تاريخ بنائها إلى الفترة الممـتدة ما بين العام 1872 والعام 1878. ويبدو أن المهندس الذي صمّمها قد عمل بجهـد كبير، فالمبنى يتميّز بالسَقف السندي وهو يأخذ طابعاً باريسياً، وفيه الكثير من الأعمـدة. كمـا أن هـناك الكثير من الأروقة والأفاريز، والنوافذ الناتئة، والشرفات. بالإضافة إلى وجود قبة وساعة.

أُصـيب مبنى هوتيل دوفيل بحريق كبير عام 1922، لكنه بقي سليماً من الناحية الإنشـائية. خضعت القاعة لعملية تجديد، وهي مكان مفضّل هذه الأيام بالنسبة للسكان والزائرين على حدّ سواء، بحيث باتت تُعتبر أحد أروع معالم مونتريال.

قالـت آن عندما بدأنا بتسلّق الدرج الأمامي: "لا يمكن للمرء أن يخطئ بين هذه القاعة وبين قاعة مدينة كلوفر".

أشرتُ بيدي باتجاه شرفة تظلّل الباب الأمامي: "أترين تلك الشرفة؟"

أومـأت آن موافقة بالإيجاب. فتابعت أقول: "ألقى شارل ديغول من تلك الشرفة خطبته الشهيرة، أو السيئة السمعة، التي قال فيها: "لتعِش كيبيك حرة".

- "متى ألقى تلك الخطبة؟"

- "ألقاها في العام سبعة وستين".

- "وماذا حصل بعد ذلك؟"

- "أحبّها الانفصاليون كثيراً".

يبقى هوتيل دوفيل المركز الإداري الرئيسي للمدينة، برغم وضعه الحالي بصفته مكاناً يجذب السياح. إنه، على ما آمل، مكان وجود المعلومات التي أبحث عنها.

شعرنا، آن وأنا، برائحة الدفء المنبعث من مشعاعات التدفئة، والممتزج برائحة

رطوبـــة الصوف. رأينا أمامنا مركز الاستعلام الموجود في الردهة. تطلّعتْ الموظفة نحـــوي عــندما اقتربت منها. بدت المرأة في حوالى العشرين من عمرها، وقد رفعت شعرها الأشقر، الأمر الذي أضاف عدة بوصات إلى طولها. بدأت أشرح لها ما أريده، وبـــدا كأنها تكتم تثاؤبها. أشارت المرأة إلى لائحة جدارية قبل أن أنتهي من شرحي. تضـــمّ هـــذه اللائحة أسماء المكاتب ومواقعها. أصدرت سواراتها البلاستيكية أصواتاً، فيما قالت: "هل تريدين مكتب استعلامات مونتريال؟"

قلت لها: "شكراً لكِ".

تبعتني آن في طريقي إلى مكتب دليل الهاتف وقالت: "أعتقد أنه كان بإمكانها أن تكون أقل اهتماماً، لكن ليس من دون جرعة عالية من الليثيوم".

وجدنـــا فور دخولنا إلى مكتب معلومات مونتريال نسخةً أكبر سناً، وأثقل وزناً، لكنها بالتأكيد أكثر وداً من المرأة الأولى. حيّتنا المرأة بمزيج مألوف في مونتريال من اللغتين الفرنسية والإنكليزية.

– "مرحباً".

شرحت لها ما أريده باللغة الفرنسية.

أنزلـــت المرأة نظارتيها المعلقتين بشريط حول عنقها، ووضعتهما على صدرها، وأجابت باللغة الإنكليزية.

– "إن كـــان لديك عنوان في المدينة، فبالإمكان إجراء بحث مسحي يشمل الكثير من الأرقام".

غدوت مشوشة الأفكار قليلاً.

– "يعطيـــنا البحـــث المسحي أرقام قطع الأرض، والأهم في هذه الحالة هو رقم قطعة الأرض. وإذا استخدمت الرقم تستطيعين تفحّص تاريخ ملكية قطعة الأرض في مكتب تسجيل الأراضي في كيبيك، والكائن في دائرة التسجيل".

– "وهل يتواجد المكتب هنا؟"

– "إنه في قصر العدل، الطابق الثاني، في الغرفة رقم 2175".

دوّنت عنوان المبنى الذي يقع فيه مطعم البيتزا على ورقةٍ، وناولتها للمرأة عبر الطاولة.

– "لن يستغرق هذا وقتاً طويلاً".

صحّ توقّع المرأة، ففي غضون عشر دقائق عادت مع الأرقام. شكرتها، وانطلقت

ثانية، أنا وآن.

تقـــع غرف محاكم مونتريال الثلاث إلى الغرب مباشرة من السيتي هول. انطلقنا عـــبر شـــارع نوتـــردام مسرعتين، استطلعت آن بعينيها واجهات صالات العرض، والمقاهـــي، ومـــتاجر الثياب النسائية. توقّفت قليلاً لتربّت على رقبة حصان، وتأملّت كثـــيراً بجمـــال قصر راميزاي، وضحكت على السيارات التي جرفتها جانباً جرافات الثلوج.

تحمل السيتي هول القليل من الشبه من الناحية الهندسية مع دور المحاكم الحديثة، عدا عن كونها بناية، لكن آن لم تعلّق على سحر هذه الأخيرة. تناولت هاتفي الخليوي قـــبل أن ندخـــل إلـــى قصر العدل، وطلبتُ رقم هاتف السيدة غالانت، أو بالانت، أو تالنت.

لا نتيجة.

وجـــدت قصـــر العـــدل كما كان يوم أدليتُ بشهادتي، أي أنه يغصّ بالمحامين، والقضاة، والصحفيين، ورجال الأمن، وبالناس الذين تبدو على محياهم إمارات القلق. امتلأت الردهة بالفوضى المنظمة، وبدا أن كل وجهٍ يريد أن يكون في أي مكان آخر.

اســـتقلّيت المصـــعد مـــع آن للوصول إلى الطابق الثاني، ثم توجّهنا مباشرة إلى الغـــرفة رقم 2175. شرحت مهمتي عندما حان دوري لكاتب أسود اللون، وجهه أشبه بإناء الفخار.

قال إناء الفخار: "هناك رسم".

- "كم؟"

أخبرني.

ناولت إناء الفخار المبلغ، وناولني وصلاً بدوره.

- "يسمح لك هذا بالبحث طيلة النهار".

قدّمت له رقم العقار، ورقم المساحة.

عـــندما تفحّـــص إنـــاء الفخار الورقة، رفع بصره نحوي، ثم دفع نظارتيه ذات الإطار الأسود إلى ما فوق أرنبة أنفه بإصبعه السمينة والقصيرة.

- "هـــذه الأرقـــام قديمـــة جداً. يصعب تفحّص أي شيء يعود إلى ما قبل العام 1974 بواسطة شبكة الإنترنت. يتطلّب هذا البحث وقتاً طويلاً، ويتوقّف ذلك على عدد مرات بيع العقار".

- "هل أستطيع تحديد أسماء الذين امتلكوا المبنى؟"

أومــأ الــرجل، ثــم رفع الورقة بيده: "تسجّل الحكومة المحلية كل صكوك نقل الملكية. ماذا يحتوي هذا المكان في الوقت الحاضر؟"

- "يحــتوي المبــنى علــى وحدات سكنية في الطوابق العلوية، ويضمّ محلات تجارية في الطابق الأرضي. إن العنوان الذي يهمني هو مطعم بيع شرائح البيتزا".

هــزّ إناء الفخار رأسه: "إذا كان العقار ملكية تجارية، فلن تعرفي نوعية العمل التجاري لذلك المكان، إلا إذا قدّم المالك هذه المعلومات".

- "كيف يمكنني أن أعرف؟"

- "يُحــتمل أن تعرفي هذه المعلومة عن طريق البيانات الضريبية، أو لربما عن طريق رخص مزاولة التجارة".

- "هل أستطيع معرفة أسماء المالكين السابقين؟"

أومأ إناء الفخار. تذكّرت، بطريقة غير منطقية، *دون هو*، والفقاقيع الصغيرة.

قلتُ: "هذه بداية على الأقل".

دلّني إناء الفخار على موقع غير مشغول لجهاز كمبيوتر: "إذا احتجتِ لشيء قبل العام 1974، فباستطاعتي أن أشرح لك كيفية استخدام السجلات".

تقدّمــت نحــو جهــاز الكمبيوتر، ونزعت سترتي، ثم علّقتها على ظهر المقعد، وتبعتني آن. التفتّ نحوها بعد أن علّقت رباط حقيبتي فوق السترة. "لستِ مضطرة لأن تجلسي لتراقبيني وأنا أنقر على لوحة المفاتيح، وأنقّب في السجلات القديمة".

- "لا مانع عندي".

- "صــحيح. لكــن وســائل التســلية التي قطعتِ ألفاً ومايتي ميلٍ لأجلها ليست موجودة في مكتب التسجيل هذا".

- "لكــن هــذا أفضــل مــن تحضير الطعام، وتقديم الأطباق المثلجة للعمليات الجراحية والمآتم".

- "ألا تفضلّين القيام بجولةٍ للتسوّق؟"

- "فلتذهب جولة التسوّق إلى الجحيم".

لاحظــت أن آن تمرّ بفترة هبوط شديد في معنوياتها، لذلك افترضت أن جلوسها قبالتي أثناء عملي لن يخفّف عنها.

- "اذهبــي إلــى الكاتدرائــية، وابحثي عن مكان تأكلين فيه، وسأتّصل بك على

هاتفك الخليوي عندما أنتهي من العمل".

- "ألن تشعري بالإحباط والغضب الشديد؟"

وضــعتُ يــدي على كتفها قائلة: "اذهبي وتسوّقي مع الأثرياء، فعملكِ قد انتهى هنا".

مضــت ثــلاث ســاعات ولم أزل منهمكة بالعمل. استغرقني البحث في شبكة الإنترنــت أربعين دقيقة، وتساءلت سبعة وثلاثين مرّة عمّا أفعله في هذا المكان. أنتج هــذا البحــث ثلاث صفحات من المعلومات حول مالك المبنى الحالي. استغرقتني مدة تقارب دهراً من الزمان لمراجعة أكداس الصكوك.

بدا إناء الفخار مهذباً وقدّم لي الكثير من المساعدة، وتكرّم بأخذ مبالغ مالية مني من أجل تصوير كل معاملة فور اكتشافها.

اكتشــفت عــدة أشياء في سياق بحثي هذا. تبيّن لي أن كلوديل محقّ بشأن عمر المبــنى. تبيّن لي أيضاً أن قطعة الأرض كانت تُستخدم لتكون جزءاً من فنــاء سكك ســي أن أن، وذلــك قبل إنشاء البناء عليها. تغيّرت ملكية المبنى عدة مرات منذ ذلك الحين. انشغلت بمراجعة نسخ مجموعتي عندما استوقفني أحد الأسماء.

إننــي أعــرف هذا الاسم. لماذا؟ هل هو سياسي محلي؟ هل هو مطرب؟ حدّقت بالاســم، وحاولت أن أتذكّر ما يعنيه لي. هل هو شخصية تلفزيونية؟ هل مرّ معي في قضيةٍ عملت فيها؟ هل هو شخص أعرفه؟ لاحظت أن تاريخ نقل الملكية يعود إلى ما قبل قدومي إلى مونتريال، إذاً لماذا يقرع هذا الاسم ناقوساً في ذاكرتي؟

أخيراً تعرّفت على الاسم.

- "يا للروعة!"

حشرتُ أوراقي المطبوعة ونُسخي المصوّرة في حقيبة يدي، ثم تناولت سترتي، وانطلقت خارجةً.

الفصل 13

اكتسى درج المبنى والسياج المحاذي له في الخارج طبقة رقيقة من الثلج، وزاد حجم الأعمدة التي تصطف على جانبي الأرصفة والشوارع. لم أكترث بالثلج المتساقط. اتّصلت بكلوديل ما إن أصبحت في الخارج.

أخبرتني عاملة الهاتف في مركز شرطة مدينة مونتريال أن كلوديل ليس موجوداً. سألت عن شاربونيو، فأجابتني أنه في الخارج هو الآخر.

– "الدكتورة برينان من قسم الطب الشرعي تتكلّم معكِ. هل تعرفين متى يرجع أحدهما؟"

أجابتني بصوت ينمّ عن عدم الاكتراث: "لا. هل جربّتِ الاتصال بهما عن طريق جهاز الإخطار الهاتفي؟"

– "أعطيني رقميهما من فضلك؟"

أعطتني الرقمين المطلوبين. اتّصلت بكل واحد منهما، وحوّلت هاتفي الخليوي ليكون صفحة رقمية لرجلَي التحري. لم يكن عندي أمل كبير بالحصول على استجابة فورية. أستبعدُ أن يترك كلوديل، على الأخص، عمليةً بوليسية كبيرة ليتّصل بي بشأن قضية ليس لديه اهتمام كبير بها.

حاولت مجدداً أن أتّصل بالسيدة غالانت، أو بالانت، أو تالنت. لا جواب.

جهدت كثيراً لتهدئة نفسي، لذلك أجريت اتصالاً مع آن. أخبرتني أنها منشغلة بشراء بعض الزينة من متجر متخصص ببيع لوازم عيد الميلاد.

اقترحت آن أن نتناول الغداء في مطعم *لو جاردن نيلسون*، وبدأتْ بإعطائي العنوان. قاطعتُها: "أعرف أين يقع المطعم".

مرّت فترة صمت، سألتني بعدها: "هل كان بحثك عقيماً؟"

– "أعتقد أننا وجدنا شيئاً. أراكِ قريباً".

سرت منحنية بسبب تساقط الثلج، وأسرعتُ نحو مكان يدعى جاك كارتييه، وهي

مساحة كبيرة مخصصة للمشاة محاذيةً للنهر، تمتدّ من شارع نوتردام باتجاه شارع الشعب. تصطف على جانبَي هذه الباحة المطاعم، والمقاهي، ومحلات القمصان القصيرة الأكمام الرخيصة الثمن، ومحلات التذكارات. يعجّ هذا المكان بالحياة في الأيام التي يكون الطقس فيها معتدلاً. أتقاسمُ هذه الباحة اليوم مع حفنة من السيّاح، وفنان واحدٍ من فنّاني الأرصفة، بالإضافة إلى كلب صيد صغير، من نوع *تيريبيه*، كان واقفاً قرب عمود للإنارة.

غطّت رقاقات الثلج معالم بلاط الشوارع ولوحاتها، والعمود التذكاري الذي يخلّد أمير البحر نيلسون، وهو رجل إنكليزي وجّه ضربةً مؤلمةً للفرنسيين في معركة *ترافلغار*. وهو لم يناصر الانفصاليين يوماً. استطعت أن أرى سوق *بونسيكور* بقبابه الرمادية اللون، وراء الباحة الأشكال الباهتة، وهو المكان الذي كان بمثابة قاعة المدينة إلى أن أُهملت في ما بعد.

إنها كيبيك التي تضمّ مجتمعين منعزلين توأمين، أحدهما فرنسي كاثوليكي، والآخر إنكليزي كالفاني. تصارعت اللغتان والثقافتان في هذه المقاطعة منذ استيلاء البريطانيين على مونتريال في العام 1760. ويُعتبر ميدان جاك كارتييه عالماً مصغراً لما يحتويه من اللغات المتعددة التي تعبّر عنها حجارة مبانيه.

يقع مطعم *لو جاردن* في منتصف المسافة الممتدة من الجهة الغربية للباحة. يتميّز هذا المطعم بشرفاته المطلّة على السوق، والتي تظلّلها ستائر ذات لون أزرق مشرق. يضمّ المطعم أيضاً باحة مظلّلة مزودة بسخانات تعمل على الأشعة ما تحت الحمراء، وهو الأمر الذي يُبقي مطعم *حسناء مونتريال* مفتوحاً لعدة أشهر في السنة.

لم تكن هذه الفترة من السنة تسمح بتشغيل هذا المطعم. تطلّعت إليّ آن من فوق قائمة الطعام المتوفرة، وتابعتني بنظرها عندما عبرت القاعة باتجاهها.

نزعت سترتي المقلنسة فتناثرت منها رقاقات الثلج، ثم قلت لها: "سيسقط الثلج بالفعل".

- "هل سيصمد؟"
- "يصمد الثلج دائماً في مونتريال".
- "ممتاز".

وضعت جهاز هاتفي الخليوي وأشرت عليها بالسكوت.

ملأت شابةُ حسناء كوبَينا بالماء. طلبت آن بعض فطائر فورستيير المحلاة وكوباً

مـــن الشـــراب. طلبت من جهتي بعض فطائر أرجنتويل وعلبة من الكولا المخصصة للحمية. سألتها عند انصراف النادلة: "هل اشتريتِ أشياء ثمينة؟"

تُعتـــبر آن متســـوّقةً مـــندفعة حتى عندما تكون غير سعيدة، لذلك لم تتأخّر عن عرض مشترياتها أمامي.

كـــان بيـــن هذه المشتريات كنزةً صوفية ذات لون برتقالي مائلٍ للحمرة، وآنية بروفانســـية ملوّنة باليد، وأخيراً رأيت ستة وشاحات مزيّنة من الساتان الأحمر، ذات عـــروات معدنـــية. أومأت إلى الوشاحات وقلت: "يا لها من خيارات مستغربة لزوجةٍ تعيش حياة متحررة".

أعادت آن تغليف هذه الوشاحات وقالت: "أنوي تقديمها كهدايا".

أحضرت النادلة المشروبات التي طلبناها. ارتشفت الكولا، وفرشتُ منديلي على الطاولـــة، ثـــم وضعت عليه أدوات الأكل. وضعت الشوكة في مكانها، وغيّرت اتجاه الملعقـــة والســـكين. غـــيّرت كذلك اتجاه الشوكة. تفحّصت هاتفي الخليوي لأتأكّد من اشتغاله. تناولت المزيد من الكولا. أصلحت براحتَيْ يديّ وضعَ أطراف غطاء المائدة. مسّدت شراريب الغطاء، وتناولتُ الهاتف، ثم وضعتُه مجدداً على الطاولة.

رفعت آن حاجبها معبّرة عن حيرتها، وسألتني: "هل تنتظرين مكالمةً هاتفية؟"

– "سبق لي أن تركت رسالتين لكلوديل وزميله".

– "هل ستخبرينني بما اكتشفتِه حتى الآن؟"

تناولت النسخ المصورة والأوراق المطبوعة من حقيبتي، ثم وضعتها على جانب غطاء المائدة.

– "ســـأوفّر عليكِ سرد تفاصيل قصة قطعة الأرض هذه. جرى تشييد المبنى في العـــام 1901، وامتلكها رجل يدعى إيف ساريو. استُخدم المبنى لأغراض سكنية في ذلك الوقت. ورث جاك، وهو ابن ساريو، هذه العمارة في العام ثمانيةٍ وعشرين. ورث إيـــف، أي ابن جاك، هذا المكان في العام تسعةٍ وثلاثين. باع إيف ساريو الابن ملكيته هذه في العام 1947، إلى إيريك إيمانويل غراتون، أي في نفس السنة التي أصبح فيها الطـــابق الأول مـــن المبنى تجارياً. شغلت شركة مطبوعات صغيرة هذا المكان حتى العـــام 1970. توفّي إيريك إيمانويل غراتون في العام 1958، فورثت زوجته ماري المكان منه. توفّيت ماري في العام ثلاثة وستين، وهكذا انتقلت ملكية المبنى إلى ابنهما جيل. أقدم جيل غراتون على بيع ملكيته هذه في العام 1970".

- "ألا توجد خاتمة لهذه القصة؟"

- "باعها إلى نيكولو كاتانيو".

أوحت لي تعابير وجهها أن هذا الاسم لا يعني شيئاً بالنسبة إليها. فكرّرت قولي مضيفة: "نيك كاتانيو، الملقّب بالسكين".

اتّسعت العينان الخضراوان نتيجة الدهشة: "أتعنين رجل المافيا؟"

أومأتُ مؤكدة.

- "السكّين؟"

أومأتُ مجدداً.

- "يفسّر هذا تحريكك المهووس لأدوات مائدتك؟"

- "لا أعرف الكثير عن هذه العصابة الإجرامية، لكنني سمعت الكثير عن نيكولو على مدى السنين".

- "وهل تنشط المافيا في هذا المكان؟"

- "إنها تنشط منذ بداية القرن".

- "ظننت أن راكبي الدراجات وحدهم هم الذين ينشطون في هذا المكان".

- "إنهم ينشطون فعلاً، وهم الآن مصدر تسلية في المدينة، لكن راكبي الدرّاجات هم عنصر واحد فقط من عناصر عالم الجريمة المنظمة في مونتريال. وتشكّل المافيا، وعصابة الطرف الغربي، وملائكة الجحيم، ما يسمّى الاتحاد".

- "أتعنين أنه يماثل الوكالة، الناشطة في نيويورك؟"

- "بالضبط".

- "وهـل يـتوافق أبناء شبه الجزيرة المشمسة مع شبيبة شبه الجزيرة المشمسة الواقعة ما وراء الحدود الجنوبية، أم أنهم أقرب إلى رجال الجزيرة؟"

- "أتقصدين أن الأمر يشبه وضع إيطاليا ضد صقلية؟ لست مطلعة على تفاصيل شـجرة العـائلات، لكنني أعرف أن مونتريال شكّلت في وقتٍ من الأوقات فرعاً من فروع مدينة نيويورك".

- "أتقصدين عائلة بونانو؟ أذكر أنني قرأت كتاباً عن هذه العائلة ذات يوم".

أومـأت بالموافقة: "كانت المنظمة في مونتريال بقيادة رجل يدعى فيك كوتروني الملقّب بالبيضة. أعتقد أن كوتروني قد مات في منتصف أعوام الثمانينيات".

ألقيت نظرة على هاتفي الخليوي. وجدته شغالاً، لكن لم تصل إليه أية رسائل بعد.

سألتني آن: "ما هي عصابة الطرف الغربي؟"

- "إنها إيرلندية في غالبيتها".

- "أي أنهم من أقاربك".

- "تؤلف نحن الإيرلنديون فرقة المشاة في جيش الرب".

- "إنكم تشبهون، وبالترتيب العكسي بالنسبة للنشاط، الشعراء والمترددون على الحانات".

- "إننا يقظون".

- "وما هي الأعمال التي يتعاطى الاتحاد فيها؟"

- "يتعاطى الاتحاد بالدعارة، والقمار، والمواد الممنوعة. ويحدّد هذا التنظيم أشياءً مثل أسعار المخدّرات، والكميات التي ينبغي استيرادها، وأسماء المشترين المحظوظين. ويُعتقد أن شبكة كوتروني تنغمس في تهريب ما قيمته ملايين الدولارات من المخدرات إلى السوق الأميركية، وذلك على مدى الأعوام. يلجأ هذا التنظيم إلى غسل هذه الأموال عن طريق إنشاء مشاريع تجارية مشروعة".

- "ليس هذا بالنمط المستغرب حسب ما أعرف".

- "إنه نفس النمط الذي تتبنّاه عصابات راكبي الدراجات. يتعيّن عليهم تدريسه في معاهد إدارة الأعمال".

وصلت النادلة في تلك اللحظة حاملةً معها الطعام الذي طلبناه. ألقيت نظرة أخرى على الهاتف. سمعت نفس الأزيز الخافت، لكن من دون وصول أية رسائل.

مرّت لحظات متوترة قلت بعدها: "دعينا نعود إلى موضوع المبنى. اشترى نيك الملقّب بالسكين المكان في العام 1970، وحافظ على ملكيته هذه لمدة عشر سنوات".

- "وما علاقة كل هذا بالهياكل العظمية التي تعملين عليها؟"

- "أتحدّث هنا عن المحترفين لا عن الهواة يا آن. يُحتمل أن يكون أي شخص مدفوناً هناك في القبو".

- "ألم نسرح بعيداً جداً في تخيلاتنا؟

- "يتعرّض الناس للاعتداءات يميناً وشمالاً هذه الأيام".

- "أتقصدين الفتيات المراهقات؟"

- "الحـــياة رخيصـــة جـــداً بالنسبة لهؤلاء العابثين الذين يديرون نوادي العراة، وأماكن الدعارة".

فكّـــرت أنهـــم يستهترون بحياة النساء على الأخص، وتذكّرت بغتةً تلك المومس الراقدة الآن في مستشفى نوتردام.

ركّـــزت آن علـــى فطائرها حتى أتت عليها، وقالت على الفور: "من كان يشغل الطابق الأرضي عندما امتلك *السكّين* البناية؟"

- "لم تتوافر لديّ هذه المعلومة".

- "من اشترى المبنى في ذلك الوقت؟"

تفحّصت أوراقي المطبوعة.

- "اشترى ريتشارد ساير هذا المبنى في العام 1980، وما زال ساير يمتلك هذا المبنى بحسب السجلات الرسمية".

- "وماذا يحتوي الطابق الأرضي في الوقت الحاضر؟"

- "يحوي هذا الطابق أربعة محلات تجارية منفصلة".

- "هل تشمل هذه المحلات مطعم البيتزا؟"

- "أجل".

- "أين يعيش السيد ساير".

عدت ثانيةً إلى أوراقي المطبوعة.

- "يعيش في نوتردام دي غرايس".

- "وكم يبعد هذا المكان عن مونتريال؟"

- "إنها ضاحية تقع إلى الغرب تماماً من وسط المدينة".

جمُـــد كـــوب الشراب الذي تحمله آن في الهواء. وارتفعت راحة يدها الأخرى صوب الأعلى، كما حدث في مطبخي هذا الصباح.

- "إذاً انطلقي إلى هناك".

- "تتحدّثين وكأنك خبيرة في أمور التحريات آني".

تلقّيـــت نظرة ساخطة من آن، وما لبثت أن قالت: "هاكِ خطوتكِ التالية. اتّصلي بساير. أقترح عليك شيئاً أفضل من هذا، ما رأيك بزيارة مفاجئة لمنزله بما أنه يسكن في مكان قريب؟ ما زلت أعتبر أن كاغني ولاسي المثال الأقرب إلينا. دعينا نجد حلاً

لهذه القضية".

اتجهت عيناي إلى الهاتف الموجود قرب صحني. لم يظهر على شاشته الصغيرة أي شـــيء غـــير اسمي والوقت. اتّضح لي أن كلوديل وشاربونيو لم يجيبا على ندائي لهمـــا. رفعت بيدي علبة الكولا، أما آن فرفعت كوب شرابها. تلاقى كوبانا في الهواء فتردّدت أصداء التلاقي في القاعة. قلت لها: "تقصدين بحثنا الأثري".

شـــربت آن آخر قطرة باقية من شرابها وعلّقت: لكن مع تعديل بسيط وهو أننا ننقّب بحثاً عن التراب بدل أن ننقّب فيه".

يقـــع نوتردام دي غرايس، وهو حيٌّ سكني هادئ، على بعد دائرتيين من وسط المدينة. لا يمكننا مقارنة هذا الحي مع وست مونت الإنكليزي المترف، ولا مع نظيره الفرنســـي أوترمونـــت، لكن يمكننا القول بأنه حيّ جميل. ونستطيع تصنيف هذا الحي على أنه يخص الطبقة الوسطى، لأنه يُعتبر مكاناً مناسباً لتنشئة الأولاد وتربية الكلاب.

يعـــيش ريتشـــارد ســـاير فـــي مـــنزل مـــن طبقتين مبني بالقرميد الأحمر في كورونايشـــن، يبعد مسافة قريبة جداً عن حرم *لويولا* التابع لجامعة *كونكورديا*. وصلنا بعد عشرين دقيقة، وأمضينا خمس دقائق أخرى في تفحّص المكان.

لَفَـــت نظـــري وجـــود شرفة أمامية للمنزل تظلّلها ستائر باهتة اللون، ولاحظت وجـــود باحتين صغيرتين من الجهتين الأمامية والخلفية للمنزل. كما شاهدت طريقاً لا تؤدي إلى مكان معيّن، وسيارة فورد فالكون زرقاء اللون، مركونة في باحة المنزل.

علّقت آن: "لا يكلّف السيد ساير نفسه عناء استخدام الرفش".

تعوّد مالكو المنازل في مونتريال في كل شتاء أن ينظّفوا مداخل بيوتهم بأنفسهم، أو أن يســـتأجروا شركة، أو أحد فتيان الحي للقيام بهذه المهمة. يبدو أن ساير لم يلجأ إلى أيّ من هذين الحلّين. بدأ الثلج في هذه الأثناء بالتراكم فوق الممر، مضيفاً طبقات جديدة إلى الثلج الذي تساقط سابقاً، والذي بلغت سماكته بوصتين.

تعيّـــن علينا، أنا وآن أن ننتبه جيداً لخطواتنا بينما كنا نتقدّم باتجاه الدرج، وإلى الشـــرفة بعـــد ذلـــك. ضغطتُ زر الجرس فتردّدت أصداء رنانة في مكان عميق من المنزل.

لم يفتح أحد الباب حتى بعد مرور دقيقة. ضغطت الجرس مرةً ثانية، ولم أسمع شيئاً سوء أصداء رنين الجرس.

كـــادت آن تتعثر عندما قالت: "يبدو أن ساير معاق جسدياً، ولا بد من أن يكون أشد الناس بخلاً على هذا الكوكب".

- "لعله ينفق أمواله على أشياء أخرى".

- "خطـــرت ببالـــي فكـــرة مفرحة، وهي أن يكون هذا المغرور فوق يخته في باربادوس بينما نكاد نُقتل على الدرج، في محاولة منا لشقّ طريقنا إلى مدخل بيته".

قلت: "لكن سيارته هنا".

التفتت آن: "أعتقد أنه لا يُنفق أمواله على العجلات المبهرجة".

بـــدأت بـــرفع يدي كي أضغط على الجرس مجدداً، لكن الباب فُتح بغتةً في تلك اللحظة. ظهر أمامي رجلٌ من خلال زجاج باب الألومينيوم الخارجي.

لـــم نلحـــظ علامات الارتياح على الرجل، لكن لم تكن ملامحه هي التي أقلقتنا. بدأنا، أنا وآن بالتراجع عن الشرفة.

الفصل 14

وقف الرجل القصير والنحيل، ذو الشعر الأبيض المائل إلى الصفرة، والشاربين الرماديين الكثيفين، يتفرّج علينا. كان الرجل يضع نظارتين ملطّختين بالشحوم، ذات سلسلة معلّقة في عنقه. ولم يكن الرجل يرتدي شيئاً سوى النظارتين والسلسلة.

تبدّلت نظرة الرجل العابسة إلى نظرةٍ تطفح بالرضا عن الذات عندما شاهدَنا أنا وآن، أثناء تراجعنا المترنّح عبر شرفته، ثم عادت ملامحه لتنمّ عن الشراسة مرة أخرى.

- "أنا كاثوليكي!"

تزحلقتُ، واستقر حذائي مشكلاً زاوية مع الجليد المتجمع. أمسكت آن، التي كانت واقفة بقربي، السياج واستدارت على عقبيها باتجاه الدرج. صرخ الرجل ثانية: "أنا كاثوليكي!"

كاثوليكي!

توقّفت في مكاني حين تذكّرت أن هاري استخدمت هذه الحيلة نفسها في ما مضى، لكنها كانت ترتدي ثيابها.

- "لسنا من المبشّرين، ساير".

تلاشى عبوس الرجل، ثم ما لبث أن فرض نفسه ثانية حين قال: "وأنا لست بي وي هيرمان".

بدا هذا الاسم غريباً عندما تلّفظ به بلهجته الفرنسية الخاصة. أسرعت لتناول حقيبتي الشخصية.

لَكَمَ ساير الباب بقبضة يده وقال: "انصرفا!"

تناولتُ من حقيبتي إحدى بطاقات التعريف الخاصة بي، فيما تابع الرجل يقول: "وإياكما أن تتركا منشوراتكما اللعينة".

- "لسنا مبشّرتين".

استوعبت آن ما يجري، فأسرعت بالامساك بالسياج، والتقدّم باتجاه المنزل.

تجمّـدت النظارتان الوسختان باتجاه رفيقتي، وزحف شبح ابتسامة فوق الشفتين المجعدتين، ثم عبس ساير مجدداً. قالت آن هذه المرة بأسلوبها المعهود: "ماذا تظنين يا تمب؟ لا يبدو لي مخيفاً كما يحاول أن يوهمنا".

كرّر ساير تحذيره بشأن المنشورات، وفتحت آن فمها للرد.

قاطعتُ هذه المحادثة قائلة: "سيد ساير، إنني أقوم بجزء من تحقيقٍ يتعلّق بالمبنى الذي تملكه، ويتعيّن عليّ طرح بعض الأسئلة بشأن عمارتك".

أعـاد سـاير انتباهه باتجاهي، وسألنا: "ألستما جزءاً من الجيش الذي يريد إنقاذ روحي؟"

- "سيدي، إننا هنا لمناقشة موضوع المبنى الذي تملكه".

- "هل تعملان مع بلدية المدينة؟"

تردّدت قليلاً قبل أن أجيب: "نعم".

لا يـبعد قولي هذا عن الواقع، ذلك أنني عملت مع سلطات المقاطعة سابقاً، كما أن ساير لم يطلب التحقّق من هويتي".

- "هل اشتكى عليّ أحد المستأجرين؟"

- "ليس على حد علمي".

أومأ ساير برأسه باتجاه آن: "وهل تعمل رفيقتك مع البلدية كذلك؟"

- "إنها معي".

- "تبدو هذه المرأة جميلة".

- "نعم. لكنني مضطرة يا سيدي أن أطرح عليك بعض الأسئلة".

فـتح ساير الباب الخارجي، فتقدّمت أنا وآن ودخلنا إلى المنزل. أظلمتْ الردهة الصغيرة ما إن أغلق ساير الباب الداخلي. بدا الهواء حاراً وجافاً، وانتشرت في المكان رائحة الدخان، بالإضافة إلى رائحة الطبخ التي انتشرت في المنزل الذي بدا من دون تهوئة.

بـدا أن الـرجل نسي تماماً أنه عارٍ، لكنه نظر إلى آن بطرف عينه وقال: "أنتِ جميلة بالفعل".

قالت آن مقترحة على الرجل: "ألا تريد وضع غطاء على جسدك؟"

أجـاب سـاير بالإنكلـيزية: "ظننـتكما من جمعية واتش تاور. لا يفقه هؤلاء

الأشخاص أن الله قد وضع جزرةً أمام أعين الناس، لكنهم يتركونك وشأنك إذا ما كنتِ عارية، أو إذا كنتِ كاثوليكية".

قادنـــا ســـاير خلال الأبواب الزجاجية، وأومأ باتجاه غرفة جلوس موجودة على يميننا قائلاً: "سأغيب دقيقة".

انطلق يتسلّق الدرج الذي يتوسّط البهو واضعاً قدماً على درجةٍ، ليتبعها بعد قليل بـــالقدم الأخرى، بينما أمسك سياج الدرج بيده التي تظهر منها عروقه الزرقاء اللون. بـــدا بياض جسده بلون بياض بطن الضفدع وسط الخشب الداكن اللون الذي غُطّيَ به الدرج، بينما غطّى الشعر الأسود جسمه.

ســـمعنا صوت البلاستيك يطقطق عندما جلسنا أنا وآن على جهتين متقابلتين من أريكة ذات قماشٍ مطرز. أنزلت زمّام سترتي المقلنسة وخلعتها، لكن آن لم تخلع شيئاً من ملابسها.

- "لم أشاهد شيئاً شبيهاً بهذا في كاغني ولايسي".

ابتســـمت لها ابتسامة عريضة، ثم سمحت لعينيّ القيام بجولة في أرجاء المنزل. لاحظت في الجهة المقابلة للأريكة مقعداً مخصصاً للاسترخاء، ومقعداً بذراعين مغطّى بغطـــاء مـــن البلاســـتيك. شاهدت إلى اليمين منصةً، وموقداً طُلي باللون البني، كما شـــاهدت إلـــى اليسار منصةً وُضع عليها أرغن صغير، وجهاز تلفزيون كبير الحجم، بالإضـــافة إلى مقعد ذي ذراعين رديء الهيئة. وُضع الكرسي قرب شاشة التلفزيون، لكن هذا المقعد ليس مغطّى بغطاء بلاستيكي.

ســـاد هدوء مخملي في أنحاء المنزل. تساءلت ما إذا كان هذا الرجل العجوز قد أضاف أغطية الفينيل على قطع الأثاث، أم أنه تركها عليها عندما استلمها. شككت أن تكون هناك سيدة ساير في هذا المنزل. لم أرَ أية تماثيل، أو صوراً فوتوغرافية، أو أية تذكارات لإجازات سابقة. لاحظت أن منافض السجائر ممتلئة بالكامل وتفيض بأعقاب السجائر. شاهدت أيضاً رزماً من مجلتَي بلاي بوي وناشيونال جيوغرافيك موضوعة قرب الموقد.

لاحظـــتُ أن آن منشغلة بتفحّص المكان مثلي. قلت بصوت خافت: "باستطاعتك امتلاك المكان بكامله. أعتقد أن ساير قد وقع في غرامك".

ردّت عليّ هامسةً: "أعتقد أن لا جدوى من هذا الرجل".

- "قلتِ لي سابقاً إنك تحبين الحياة ذات الوتيرة السريعة".

- "هذا الرجل الهزيل هو في غاية الضعف فعلاً".

رحت أتساءل عمّا إذا كانت تتحدّث عن هوبالونغ أو عن ساير، لكنني لم أسألها. سمعنا وقع أقدام بعد لحظات قليلة، وظهر ساير ثانية منتعلاً حذاءً رياضياً، وقميصاً مزخرفاً أخضر اللون، وسروالاً صوفياً فضفاضاً رمادي اللون.

- "أتريدان شراباً أيتها الفتاتان؟"

رفضنا هذا الدعوة، فعاد يقول: "ألا تأخذان رشفةً رائعة في هذا اليوم المثلج؟"

- "لا، شكراً لك".

- "دعوني أعرف إذا غيرتما رأيكما".

مشى ساير متثاقلاً نحو المقعد الذي تعوّد أن يسترخي عليه، ثم انحنى وجلس بارتياح، وما لبث أن عبقت خلفه موجة عاتية من عطر أولد سبايس. خاطب ساير آن قائلاً: "لديك شعر رائع جداً أيتها الشابة".

ردّت آن: "شكراً لك".

بدت ملاحظته صحيحة. شاء حظ آن السعيد أن يكون شعرها كثيفاً أشقر اللون، بالإضافة إلى استعدادها لتركه طويلاً. لم يكن شعرها طويلاً في الوقت الحاضر، لكنه يبقى قابلاً لاكتساب المزيد من الطول. اعتدت في السابق أن أصارحها بهذه الحقيقة، مع أنني كنت أجد صعوبة في بعض المرات في ذلك، لكن هذا اليوم لم يكن من بينها.

قال ساير، وكان يطلق كلماته وسط نفثات دخان قصيرة: "إنكِ طويلة القامة. هل أنت متزوجة؟"

- "أجل".

- "دعيني أعلم إذا ما ساءت أمور زواجك".

التفت ساير نحوي قائلاً: "أنا مولع بالشقراوات".

أردت أن تسير الأمور باتجاه رسمي، فقلت: "سيد ساير..."

- "كيف تجدين لغتي الإنكليزية؟"

- "ممتازة".

بدت إنكليزيته جيدة، مع أنه كان يشدّد على مقاطع كلماته. أشار ساير بذقنه إلى ناحية الموقد، وقال: "إنني أواظب على القراءة بحماس بالغ".

أفشلت محاولتي البدء في تحقيق رسمي حين سألته: "ألا تزعجك مناظر النساء العاريات الموجودة بين النصوص؟"

أحدث ساير صوتاً كالصفير، لكنني اعتبرته نوعاً من الضحك: "أنا متأكّد من أن

تلك المرأة هجومية جداً".

- "إنها آني أوكلي بذاتها".

نهضت من مكاني، وأعطيته صفحاتي المطبوعة: "إنها سجلات تدلّ على أنك تملك ذلك المبنى".

رفع ساير الصفحات المطبوعة حتى أصبحت على بعد بوصات من وجهه، واستمرّ يقرأ لمدة تقارب الدقيقة. ثم قال وكأنه يتنفس كلماته: "نعم. إنها ملكي".

- "هل أصبحت ملكك منذ العام 1980؟"

ناولني الأوراق المطبوعة ثانية وقال: "إنها بمثابة عذاب خالص بالنسبة لي".

تناولت الأوراق المطبوعة منه وعدت إلى مقعدي، ثم سألته: "هل اشتريت هذا العقار من "نيكولو كاتانيو"؟"

- "أجل".

- "هل تعرف لماذا أقدم السيد كاتانيو على بيعه؟"

- "لم أسأل عن السبب لأن العقار كان معروضاً للبيع".

- "ألا يُعتبر هذا سؤالاً ضرورياً عند الإقدام على استثمار كبير؟"

- "هل يوجّه هذا السؤال حتى إلى نيكولو كاتانيو؟"

وجدت أن ساير محق في هذه النقطة.

- "أيمكنني أن أسألك عن وجهة استخدام الطابق الأرضي وقت شرائك المبنى؟"

لم يتردّد ساير في الإجابة: "استُخدم الطابق الأرضي ليكون مخبزاً اسمه لو بولانجيري لوغانو. أُخلي المكان قبل أن يصبح ملكي".

- "كيف شُغل الطابق الأرضي بعد المخبز؟"

- "قسّمته، فأصبح يضمّ أربع محلات في ذات المكان. وجدت أن هذا التدبير أقل كلفة".

- "هل كان مطعم البيتزا أحدها؟"

- "يدعى لو بيتزا باراديز إكسبرس".

- "متى افتتح هذا المطعم؟"

نفث ساير الدخان من شفتيه وأجاب: "إنه يعمل منذ العام 2001. أرى أنه من الأنسب أن يسمى مطعم شعر الفئران والصراصير بالشرائح. لا تعرف هذه الأعراق اللعينة شيئاً اسمه النظافة الصحية، حتى لو رأوها أمامهم".

لفظ ساير كلمة أعراق بطريقة مشددة وتابع: "لكني لا أشتكي من ماتوب. إنه يدفع الإيجار في الوقت المحدد تماماً".

عرفتُ من كلوديل اسم المستأجر يوم إيجاد العظام: "هل سعيد ماتوب هو المستأجر الحالي".

أدخل ساير إصبعه في أذنه وبدا بتحريكها بشرود. تابعتُ سؤالي: "هل تعرف أسماء المستأجرين قبل مجيء السيد ماتوب؟"

– "أستطيع تذكّر أسماء المستأجرين السابقين بالطبع. أتذكّرهم واحداً واحداً. هل أبدو لك رجلاً يحتاج للمساعدة في حياته؟"

يكوّن المرء توقّعاته نتيجة الأفكار المسبقة الشائعة، وأعتبر نفسي مذنبة بالرغم من أنني أكره الاعتراف بهذا الواقع. افترضت أن ذاكرة ساير ليست سريعة بسبب تقدمه في السن، لكنني بدأت بتغيير نظرتي هذه بسرعة، لأن هذا الرجل العجوز لا يمكن اعتباره سخرية لأحد.

– "لا، سيدي..."

– "مرّ معي مستأجرون أكثر عدداً من الشعر الذي تحمله تلك الشقراء في رأسها الجميل".

ألقى ساير نظرةً سريعة على آن، فأحنت آن رأسها الجميل، واسترخت في جلستها.

أكمل ساير: "كان المكان صالون عناية بالأظافر قبل أن يصبح مطعم بيتزا. صاحب هذا الصالون كان رجلاً فييتنامياً يدعى تروانغ. وظّف هذا الرجل نصف دزينة من الصبايا الصغيرات السن لطلاء الأظافر في هذا الصالون. أعتقد أنه لم ينجح كثيراً في عمله، لأنه لم يستمرّ فيه أكثر من سنة أو سنتين".

– "ومن استأجره قبل ذلك؟"

– "أحببت الشابات اللواتي كن يقمن بطلاء الأظافر لشبههن بالألعاب الصينية الصغيرة. اعتدن تغطية أسنانهن عندما يضحكن".

– "وماذا كان المكان قبل أن يصبح صالوناً لطلاء الأظافر؟"

– "كان المكان مكتب رهن قبل أن يصبح صالوناً لطلاء الأظافر. يدعى مالكه مينارد".

مدّ ساير إصبعاً ظهرت العقَد فيها: "ستيفاني، أو سيبستيان، أو سيلفيان، أو شيئاً

يشبه هذه الأسماء. اعتاد الرجل شراء وبيع الخردة. أعتقد أنه كان ناجحاً في عمله هذا لأنه استمرّ فيه تسع سنوات، أي منذ العام تسعة وثمانين، إلى العام ثمانية وتسعين".

أجريت بعض الحسابات في ذهني وسألته: "وهل بقي المكان خالياً لمدة من الزمن بعد إقفال مكتب الرهن وفتح الصالون؟"

- "بقي خالياً لعدة أشهر فقط".

- "وماذا كان المكان قبل مكتب الرهن؟"

- "دعيني أتذكّر. استخدم المكان ما بين عامَي ثمانين وتسعة وثمانين، متجر حقائب، وملحمة، وشيئاً يشبه وكالة سفريات. يتعيّن عليّ العودة إلى سجلاتي لأزودك بالتواريخ والأسماء".

- "افعل ذلك من فضلك يا سيدي".

تضيّقت عينا ساير من وراء نظارتيه الوسختين: "هل تسمحين أن أسألك لماذا تطرحين كل هذه الأسئلة أيتها السيدة الأنيقة؟"

توقّعت أن يطرح ساير هذا السؤال، ودُهشت لأنه لم يطرحه في وقتٍ أبكر من هذا. ماذا يمكنني أن أقول له؟ وما هي الأشياء التي يجب أن أخفيها عنه؟

- "وجدت أشياء في قبو المبنى الذي تملكه. ويجري الآن تحقيق فيها".

إن كنت قد توقّعت ردة فعل، فإنني لم أحظَ بشيء منها، ولم يسألني الرجل عن الجهة التي تقوم بالتحقيق.

تابعت حديثي: "هل لي أن أسألك عن مدخل قبو مطعم البيتزا؟"

- "هناك درج كان يؤدي في السابق إلى باب على مستوى الرصيف، لكن معالم ذلك المدخل ضاعت نتيجة عمليات التجديد".

- "هل يمكن الوصول إلى هذا القبو من مكان آخر في المبنى؟"

هزّ ساير رأسه: "لم يُستخدم القبو منذ سنين عديدة. يبقى المدخل الوحيد للوصول إليه هو باب مخفيّ موجود في الكرابر".

التفت الرجل نحو آن وقال لها: "اغفري لي لساني غير المهذّب".

- "إنه مرجع تاريخي مرموق".

- "من؟"

- "أتحدّث عن توماس كرابر".

تبادلت نظرات الاستغراب مع ساير.

- "إنه مخترع مانع تسرّب الماء الصامت، والذي يخلو من الصمامات".

مرّت فترة صمت.

- "حصـــل شـــخص آخـــر علـــى بـــراءة الاختراع، لكن كرابر يبقى مخترع المرحاض".

كيف حصلت آن على هذه المعلومة؟ أطلق ساير ضحكة بدت لي كأنها من بنات أفكار كرابر.

- "هـــل تقدميـــن على تضحية من أجلي. دعي زوجك يخسر امتيازاته معكِ إذا شعرتِ أنك مهانة، اتّصلي بريتشارد ساير العجوز".

- "تشبه صلاحيتك وضع مؤشر السرعة في سيارتي".

نهـــض ســـاير بعد أن تلقّت قدماه مساعدة من يديه الاثنتين، ثم قال: "يستغرقني الأمر عدة دقائق كي أبحث بين ملفاتي. أتريدان بعض الشراب؟"

رفضت مع آن عرضه مجدداً.

ظهـــر ســـاير بعـــد نصـــف ساعة لينتزع ورقة من دفتره ذي الشريط اللولبي، فنهضت واقفةً، وكذلك فعلت آن.

- "مـــا رأي السيدتين بالبقاء لتناول الغداء؟ أستطيع أن أطلب طعاماً إلى منزلي، ولعلنا نستطيع أن نأكل بعض الآنخيلادا والمارغريتا".

قلت له: "هذا لطف كبير منك، لكنني أعمل في الوقت الحاضر، ولست في زيارة اجتماعية".

- "أصبحتما تعرفان منزلي".

ارتديـــت ســـترتي بينما قادنا ساير إلى البهو. أعطيته بطاقتي عندما وصلت إلى الباب، وقلت: "لا تتردّد بالاتصال بي إذا خطر على بالك أمر ما".

ناولني ساير ورقته: "حسب ما أذكر فإن هؤلاء حملوا لي من الأذى مثلما حمله حساء الفطر".

- "شكراً لك سيد ساير".

قـــال الرجل بصوت خافت يخلو من المرح: "قُتل شخص ما، لكن لا علاقة لي بذلك".

لم يذكر ساير شيئاً عن لو جورنال، ولهذا افترضت أنه لم يقرأ المقالة: "ما الذي يدعوك للاعتقاد أن شخصاً قُتِل؟"

- "أخبرني ذلك التحري عن الأشياء التي وُجدت في ذلك القبو".

اتّضح لي أن كلوديل قد أجرى مقابلة مع ساير، وها هو يبعدني الآن عن دائرة التحقيق مجدداً، سحقاً له!

- "هل ما تقوله صحيح؟"

- "إنه سافل، مغرور، وحقير".

- "أتتكلّم عن التحري كلوديل؟"

- "تصرّف ذلك السافل وكأنني لا أتمتّع بالذكاء، لكنني لم أقل له شيئاً".

- "أخبرني، سيد ساير، ما الذي حصل بحسب اعتقادك، كي يُدفن ثلاثة أشخاص في قبوك؟"

- "لا بد أن شراً ما قد حدث هناك قبل أن أمتلك المكان".

- "كيف يمكنك أن تكون متأكّداً إلى هذه الدرجة؟"

انطلق صوت الرجل العجوز بصوت حاد: "هل التقيتِ نيكولو كاتانيو ذات يوم؟"

هززت رأسي بالنفي.

- "إذا انتبهي على حياتك".

الفصل 15

كشّـرت العاصـفة عن أنيابها، وشمّرت عن ساعديها، ومضت بعبثها، وها هي النتـيجة تـبدو في تراكم الثلوج على ارتفاع قدمين. لم تتلفّظ آن بأية كلمة ونحن في طريقنا إلى السيارة، وراقبتني أثناء اتصالي ببريدي الصوتي من دون أن تتدخّل.

لم تصل أية رسائل.

حاولت أن أطلب رقم السيدة غالانت، أو بالانت، أو تالنت. لكن لا جواب.

اتّصلت لأتحقق من انتهاء تتبع مكالمتها الهاتفية للمختبر يوم الأربعاء، ومن ربط الرقم الذي أعطته يوم الخميس باسمٍ، أو بعنوان ما، فوجدت أنهم ما زالوا يعملون على ذلك.

- "اللعـنة!" لمـاذا لا يعطونني الاسم الموجود في الدليل الذي يقابل الرقم الذي أعطيـتهم إيـاه؟ إنهم يستطيعون مقارنة هذا الاسم مع الاسم الذي يجدونه عند انتهاء تتبعهم للمخابرة. هل يتقصّدون رفض كل الطلبات المقدمة من الذين يعملون في مجال التحري؟

رميت هاتفي الخلوي في حقيبتي، وتناولت مكشطة من المقعد الخلفي للسيارة ثم خرجت ونظّفت زجاج النوافذ، ثم رجعت إلى مكاني وراء عجلة القيادة، وأغلقت الباب بقوة.

شغّلت محرّك السيارة، وبدأت بتحريكها إلى الأمام وإلى الخلف. انطلقت بالسيارة بسـرعة فـور توفر الاحتكاك اللازم للعجلات مع الطريق واستطعت المناورة لتجنّب الحاجـز الحجري لجانب الطريق. تمسّكت بعجلة القيادة بكل قوتي، وسرت بالسيارة بـبطء شـديد إلى الأمام. بذلت كل جهد ممكن كي أرى الطريق من خلال غطاء من الثلج الأبيض. لم تخرق آن الصمت إلا بعد أن اجتزنا تقاطع شارعين.

- "نسـتطيع البحـث فـي الجـرائد القديمة كي ننتقي الأخبار المتعلقة بالفتيات المفقودات".

- "بالإنكليزية أو بالفرنسية؟"

- "ألا تكتب الصحف هذه الأخبار باللغتين؟"

تركّز انتباهي الآن على البقاء على مسارات السيارات التي سبقتني وأنا أجيبها: "ليس بالضرورة. لكن هناك عدة صحف ناطقة بالفرنسية هذه الأيام، ولا شك أنها كتبت عن عدد لا يحصى من هذه الأخبار على مدى السنوات".

انزلقت السيارة إلى ناحية اليسار. تمسّكت بعجلة القيادة فاستقام اتجاه السيارة.

- "نستطيع البدء بالجرائد الإنكليزية".

- "لكن ما هي الفترة التي سيشملها بحثنا؟ إن تاريخ المبنى يرجع إلى بداية القرن الماضي".

تفوّق الثلج على سرعة المسّاحات، فاضطررت إلى أن أضع الجهاز المقاوم للتجمّد في سرعته القصوى.

- "أظهر اختبار الأشعة فوق البنفسجية احتمال أن يعود تاريخ العظام إلى وقت لا يتعدّى تاريخ المبنى. لا أستطيع تقصير الفترة أكثر من ذلك".

- "حسناً، لن نبحث في أرشيفات الجرائد".

- "سيستغرق البحث طيلة فصل الشتاء إذا لم نحدّد اللغة أو الإطار الزمني. أعرف أنه تمّ العثور على الفتيات هنا، لكن ذلك لا يعني أن عملية الاختفاء قد حدثت هنا".

اجتزنا نحو تقاطع آخر، وسألت آن: "ماذا بشأن ذلك الزر؟"

أجبتها بحدة أثناء انشغالي بحركة العجلات الخلفية: "ماذا بشأن ذلك الزر؟"

فكّت آن وشاحها واسترخت بطريقة أوحت لي أنها ستتجاهلني للوقت الحاضر.

لعبتُ دور كلوديل مع شخصية تمب التي تمثّلها آن بجانبي: "آسفة".

طالت فترة الصمتَ، واتّضح أن كسر هذا الصمت يعود لي.

- "أعتذر. إن القيادة وسط العواصف الثلجية تجعلني متوترة. ما هي فكرتك عن الزر؟"

سكتت آن للحظات إضافية، وكأنها تلومني على عدم فهمي لها، لكنها أعادت توضيح اقتراحها: "لعلك تستطيعين التحدث إلى خبير آخر. حاولي الحصول على المزيد من المعلومات".

ضغطت عدة مرات على المكابح كي أوقف السيارة، بعد أن شاهدت امرأة

متقدمة في السن وهي تمشي مع كلب مسنّ. لاحظت أنهما ينتعلان أحذية عالية، وأنهما ينحنيان أمام الثلج. تطلّعت نحو آن. يُحتمل أن أتمكّن من جمع المزيد من المعلومات. ضغطت على دواسة الوقود ببطء، فتقدّمت بالسيارة نحو التقاطع، وانعطفت يساراً.

يـــا إلهـــي! بالطبع أستطيع جمع المزيد من المعلومات. رحت أتساءل عن سبب تجاهلـــي لـــلأزرار، وتقبّلي لوجهة نظر كلوديل بالنسبة لعمرها. ألا يُحتمل أن يكون مرجعه في متحف ماكورد مجرد مبتدئ. اجتاحني فجأة دافع للحصول على رأي آخر.

- "يا لكِ من عبقرية يا آني".

- "إذاً انطلقي".

انتظرت آن في السيارة، أما أنا فانطلقت نحو المختبر. وأجريت مكالمةً سريعة، ثم تناولت الأزرار. لدى عودتي وجدت آن تصغي إلى أغنية لزاكاري ريتشارد، كانت تذاع من محطة فرنسية محلية.

- "ما هو موضوع الأغنية؟"

- "امرأة ما تدعى مارجولاين".

- "أظن أنه مشتاق إليها".

- "هذا ما يقوله".

- "هل هو فنان محلي؟"

- "إنه من كاجون، لويزيانا، ذلك الجزء من العالم الذي تنتمين إليه".

اســترخت آن في مقعدها وأغمضت عينيها: "يستطيع هذا الفتى أن يؤلف أغنية عني ويغنيها في أي يوم يشاء".

استغرقتنا العودة إلى المركز القديم ضعف المدة المعتادة. أشارت عقارب الساعة إلى ما بعد الخامسة بقليل، لكن الليل أرخى سدوله، فأُضيئت مصابيح الشوارع، وبدأت المحـــلات بالإقفال، وأسرع المشاة بالعودة إلى منازلهم وقد أحنوا رؤوسهم، وضغطوا بصدورهم على حقائبهم وأكياسهم.

غادرنا بولفارد رينيه لافسكيو، ودخلنا شارع بيري متجهين إلى نهايته الجنوبية، ثــم انعطفــنا غرباً وسرنا ببطء في شارع لا كوميون. تقاطعت على التلة إلى يميننا الطــرقات الضيقة التي تميّز فيا مونتريال. وشاهدنا إلى يسارنا مارشيه بونسيكورس، وبافــيون جاك كارتييه، ومركز العلوم في مونتريال، وبدا نهر سان لورانس بصفحة مــياهه الملــتمعة باللون الأسود، كأنه قطعة جليد من الآبنوس. قالت آن: "إنه جميل،

ويبدو كأنه توندرا قطبية بطريقة ما".

- "أتعنين بلاد الرنة المشرقة؟"

تـــزدحم أرصفة ميناء هذا النهر بالسفن طيلة الأشهر التي لا يتكوّن الجليد فيها، وتراها حينها تزيّن جوانب النهر. وترى راكبي الدراجات، والمتزحلقين، والمتنزهين، والسياح، يملأون المتنزهات والساحات المجاورة. بدت ضفة النهر ساكنة ومظلمة هذا المساء.

وصـــلت إلـــى دو يوفـــيل، فانعطفت نحو شارع جانبي صغير، وركنت السيارة مقـــابل مبـــنى الجمارك القديم. تبعتني آن في وقت كنت أجهد بالتقدم نحو أسفل التلة، ومضت مترنحة وهي تتبع المسار الذي اتبعته.

تطلّعـــت عبر النهر، ولفتتني الحدود غير الواضحة لمبنى هابيتات 67. شيّد هذا المبنى ليكون مركز المعرض العالمي، ويشكّل هذا المجمع كتلة من المكعبات الهندسية التـــي تـــتحدّى فـــن التوازن الدقيق. تشكّل باحات وطرقات الهابيتات متعةً في فصل الصيف، لكنها دعوة إلى التجمّد في فصل الشتاء.

يعيش آندرو رايان في الهابيتات. دارت في ذهني مجموعة لا حد لها من الأسئلة التـــي أثّرت على تركيزي. أين رايان؟ ما هي مشاعره؟ وما هي مشاعري؟ ماذا قصد بكلمـــته عندما قال إنه يتوجّب علينا التحدث؟ حسناً! أنا موافقة. عن أي شيء علينا أن نتحدّث؟ أعن الارتباط أم عن التنازلات أم عن النهاية؟

دفعـــت كل هذه الأسئلة جانباً، لأن رايان يعمل على مهمة بوليسية، ومن المؤكد أنه لا يفكّر الآن بأي شيء يتعلّق بي.

وصـــلنا إلى شارع لا كوميون، ودخلنا بناية مشيّدة بالحجر الرمادي ذات تصميمٍ حديـــث جـــداً، وتتميّز بزواياها الكثيرة. لاحظت اللافتة الكبيرة التي تغطي برجاً من أبراج هذه البناية. جاء في اللافتة: "هنا ولدت مونتريال".

نفضـــت آن الثلج من ملابسها فتتطاير على بلاطات الأرض الخضراء، وسألت: "ما هذا المكان؟"

- "إنه بوينت كاليري، وهو متحف مونتريال للآثار والتاريخ".

شـــاهدت وجه رجل يرتفع عن طاولة دائرية موجودة في نهاية الردهة. لاحظت أن هذا الوجه متجهّم وشاحب، كما أن ذقنه يحتاج إلى حلاقة. ارتدى الرجل معطفاً من مخزونات الجيش. وما لبث أن هبّ واقفاً وأشار إلى لافتة: "آسف، المتحف مقفل".

- "لديّ موعد مع الدكتورة موسّو".

بدت الدهشة على وجه الرجل: "اعطني الاسم من فضلك".

- "تمب برينان".

طلب الرجل رقماً، وتفوّه بعدة كلمات، ثم أعاد سماعة الهاتف إلى مكانها.

- "الدكتورة موسّو موجودة في القبو. هل تعرفين الطريق؟"

- "نعم، شكراً لك".

عبرنا الردهة وتقدّمت آن أثناء عبورنا لمدرج صغير، ثم نزلنا بضع درجات حديدية. دخلنا إلى قاعة طويلة وضيقة، مزودة بأضواء غير قوية، ولاحظت أن جدران القاعة وأرضيتها مبنية بالأحجار بكاملها.

قالت آن: "أشعر كأنني أليس وهي تطارد صانع القبعات في النفق".

- "شهد هذا الموقع بالذات بناء أول مستوطنة في مونتريال. يُظهر المعرض كيفية تطور المدينة وتغيّرها عبر القرون الثلاثة الماضية".

ضربت آن بقفازيها على جدار بارز من الأرض: "أتعنين أن هذه هي الأساسات الأصلية؟"

أشّرت لها صوب النهاية البعيدة للقاعة: "لا، لكن الجدار قديم. يقع هذا الممر تحت شارع دو يوفيل حيث ركنتُ السيارة. إن ما ترينه شارعاً الآن كان مجمّعاً للمياه المبتذلة، وقبل ذلك كان نهراً".

تردّد صوت في الفراغ عكسته الأحجار والجدران الإسمنتية: "تمب؟ هل أنت تمب؟"

- "نعم، أنا هي".

- "من هنا".

همست آن: "من هي موسّو هذه؟"

- "إنها عالمةُ آثار متفرغة".

- "أراهن أن هذه المرأة تمتلك أزراراً".

- "إنها تمتلك أزراراً كثيرة".

انشغلت مونيك موسّو بالعمل في إحدى الخزائن الزجاجية الكثيرة المنتشرة على جانبَي الممر، والتي تتفرّع عن القاعة الرئيسية. لاحظت وجود عربة معدنية صغيرة إلى جانبها تحتوي على آلة تصوير، وعدسة مكبرة، وجهاز كمبيوتر محمول، وملفاً للأوراق، بالإضافة إلى عدة كتب.

أســرعت موسّو، فور رؤيتها لنا، بإعادة شيء ما إلى الرف، ثم أغلقت الخزانة وأقفلتها، وأنزلت نظارتيها اللتين تشبهان نظارتي هاري بوتر، إلى صدرها، وأسرعت لتلاقينا.

– "صباح الخير تمب. كيف حالك؟"

قبّلت موسّو خدّيّ، ثم تراجعت إلى الوراء وابتسمت لي، وأبقت يديها على أعلى ذراعَيّ.

– "هل أنتِ بخير يا صديقتي؟"

أجبتها بالإنكليزية قبل أن أعرّفها على آن: "أنا بخير".

هزّت موسّو ذراع آن بشدة: "أنا سعيدة جداً لأنني التقيتك".

تراجعت آن إلى الخلف، وقد ذهلت للعاصفة التي اجتاحت يدها: "وأنا كذلك".

بــدت المرأتان كأنهما من جنسين مختلفين. تتميّز آن بطولها وبشعرها الأشقر، بينما لا يتعدّى طول موسّو الأربعة أقدام وإحدى عشرة بوصة، وهي ذات شعرٍ أسود ومــتجعد. التفّــت آن بوشاح من وبر الأرانب زهري اللون، بينما لبست عالمة الآثار قميصــاً صبيانياً ضيقاً كاكيّ اللون، وسروال جينز أسود اللون، وانتعلت حذاءً كالذي يســتخدمه الحطابون. لاحظت أن مجموعة كبيرة من المفاتيح تتدلّى من إحدى عُرى حزامها.

قلت لها: "أشكرك على موافقتك على مقابلتي في يوم الجمعة المثلج هذا".

تركت موسّو آن والتفتت نحوي، ثم وثبت مثل شخص أتعبته سرعة عدوه: "وهل يتساقط الثلج الآن؟"

التقيت مونيك موسّو قبل عقدٍ من الزمان، وكان ذلك بعد وقت قليل من حضوري الأول إلـــى مونتريال. عملت مع هذه المرأة على مدى سنين عديدة، فهمتُ خلالها أن طاقتها لم تأتِ من دافع لا شعوري. إن حماسة هذه المرأة تأتي من محبتها للحياة ومن شـــعور عميق بالواجب. إذا أعطيتَ هذه المرأة مالجاً فستكون على استعداد كي تحفر نيو إنجلند بكاملها. قلت لها: "يتساقط الثلج بكثافة".

– "يا للروعة! بقيت تحت الأرض طويلاً هذا اليوم بحيث أنني فقدت اتصالي مع العالم الخارجي. وكيف يبدو المنظر في الخارج؟"

– "إنه شديد البياض".

دوّت ضحكة موسّو بحجم يفوق حجمها: "إذاً أخبريني. ماذا بشأن الأزرار".

وصفت لها الهياكل العظمية، والقبو الذي اكتشفت فيه. تكلّمتْ وقد بدت حريصة على وضع علامة تعجب أمام كل لفظة: "رائع! دعينا نلقي نظرة".

مــددت يــدي إلى حقيبتي وتناولت كيس زيبلوك. رفعت موسّو نظارتيها اللتين تشبهان تلك الخاصة بهاري بوتر، وتفحّصت الأزرار، ثم راحت تقلّب الكيس الصغير بين يديها. مرّت دقيقة كاملة.. ومرّت دقيقة أخرى.

تبادلت مع آن نظرات ذات مغزى، ثم رفعت موسّو عدسات دائرية نحوي.

- "هل أستطيع أن أخرجها من الكيس؟"

- "بالطبع".

فتحــت موسّــو زمّام الكيس، وحرّكت الأزرار حتى أصبحت فوق راحة يدها. مشــت صــوب العــربة وهناك تفحّصت كل زر بمساعدة العدسة المكبرة. دحرجت الأزرار مســتخدمة طــرف إصــبعها، دققت بها قليلاً، ثم وضعتها، وتفحّصتها مرة أخرى. لاحظت أن تعابير وجهها تزداد عمقاً مع كل حركة وخطوة تقوم بها.

تبادلت مع آن نظرةً أخرى. بدا لي أن الفحص الذي تقوم به موسّو سيستمرّ إلى الأبد. سمعت موسّو تقول فجأة: "هل تعذرانني دقيقة واحدة؟"

أومــأت برأســي، وسرعان ما انطلقت موسّو مسرعةً بعد أن تركت زرّين من الأزرار الثلاثة فوق عربتها.

خــيّم صمت مخيف فوقنا، أما في الخارج فاستطعنا سماع صوت بوق متقطع. أشــعرني الانتظار بتوتر شديد. لماذا كل هذا الاضطراب؟ ما هو الشيء الذي لاحظته موسّو يا ترى؟

عــادت عالمــة الآثار بعد فترةٍ حسبتها دهراً، ثم تناولت الزرّين اللذين تركتهما علــى العربة لتعاود تفحّصهما من جديد. رفعت رأسها أخيراً، وظهرت عيناها بحجم كبير وراء نظارتيها.

- "هل فحصت انطوانيت ليجو هذه الأزرار؟"

- "أحضر أحد رجال التحري هذه الأزرار إليها لتفحّصها في متحف ماكورد".

- "هل شعرت ليجو أن هذه الأزرار تعود إلى القرن التاسع عشر؟"

- "أجل".

- "إنها محقة".

شــعرتُ بهبوط شديد في قلبي. مشت موسّو نحوي، ورفعت راحتها، ثم حرّكت

زرّين من الأزرار بطرف قلمها.

– "هذان الزرّان هما إسترلينيان فضيان، وقد أنتجهما صائغ مجوهرات وساعاتي يدعى ر. ل. كريستي".

– "أين؟"

– "في أدنبرة، اسكتلندا".

– "متى؟"

– "في وقتٍ ما بين عامَي 1890 و1900".

– "هل أنتِ متأكّدة؟"

– "كنــت متأكّدة عندما تعرّفت على إنتاج كريستي، لكنني تفحّصتها مجدداً كي أزداد تأكّداً".

أومأت برأسي، وشعرت بتوتر منعني من أن أعلّق بشيء.

قلّبــت موسّو الزر الثالث بقلمها وقالت: "لكن هذا الزر مجرد تقليد، وتقليد سيئ بالفعل".

حدّقت فيها بشرود، فناولتني موسّو العدسة، وأشارت إلى أحد زرّي كريستي، ثم تحرّك قلمها باتجاه الزر المزيّف: "قارِني هذا الزر، مع هذا".

ظهــرت ملامح وجه المرأة المرسومة على زر كريستي بكل وضوح. ظهرت العيــنان، والأنــف، ولفــائف الشعر، وبالمقابل ظهرت ملامح هذه المرأة على الزر المزيف بشكل غير محدد المعالم.

قلّبت موسّو الزرّين: "لاحظي الأحرف الأولى المحفورة إلى جانب كل عين".

بــدا الفــرق واضــحاً حتى بالنسبة للهواة. حفر كريستي أحرفه بحركات ناعمة ومتتابعة، بينما حُفر حرف S على الزر المزيّف بسلسلة من حركات الحفر المتقاطعة.

شــعرت بالإرباك الشديد كاد أن يصل بي إلى حدّ المفاجأة. تبيّن لي في ما بعد أنها أقل إثارة من المفاجأة التي تنتظرني صباح يوم الاثنين.

الفصل 16

يحتلّ منزلي الطابق الأرضي من عمارة قليلة الارتفاع مؤلفة من أربعة طوابق. ويضـــمّ المنزل باحةً مركزية. إنه عبارة عن غرفتَي نوم، وحمامين، وغرفتي معيشة وسفرة. يضمّ المنزل أيضاً مطبخاً صغير الحجم نسبياً، وبهواً.

هناك أبواب فرنسية في قاعة طويلة تمتدّ ما بين المدخل الأمامي وغرفة السفرة، وهـــي تتواجد مقابل المطبخ تماماً، وتنفتح على باحةٍ صغيرة تحاذي الباحة المركزية. وتتواجد أبواب فرنسية أخرى من غرفة المعيشة، تؤدي إلى بقعة عشبية صغيرة.

اعـــتدت أن أزرع في فصل الصيف بعض الأعشاب الطبية بمحاذاة العشب، أما فـــي الشـــتاء فأكتفـــي بمراقبة تراكم الثلج على السياج الخشبي الأحمر اللون، وعلى أغصان الصنوبر الموجودة ضمنها. تبلغ مساحة حديقتي خمسة ياردات مربعة، وهي مساحة غير مألوفة في شقة تقع في وسط المدينة.

خيّمـــت تلك الليلة مشاعر الخطر والتهديد على تلك الباحة الداكنة الصغيرة. ولم يخفّـــف مـــن شعوري هذا مرور سيارة الدورية التي أمر بها رايان بين حينٍ وآخر. ذكّرنـــي وجود تلك الرقعة التي وضعها على الباب بذلك الزائر غير المدعو، وبنقطة دخولـــــه التي اختارها. ما هي الخيارات الأخرى التي امتلكها ذلك الرجل؟ أريد أن أعترف أن وجود آن في منزلي هو أمر يدعوني للارتياح.

تناولـــت مع آن وجبة طعام تايلاندية سريعة. نظّفت المكان بمساعدتها، وتنامت مشاعر الغضب في داخلي وأنا أقوم بكنس الغرف وتنظيفها.

غفوت مجدداً، لكن أفكاري لم تتوقّف عن التصارع. هل أقدم أحد المدمنين على انتهاك حرمة منزلي؟ يبدو لي هذا احتمالاً غير وارد. هل قام به شخص بحاجة ماسة إلـــى المال للخروج من مأزق وقع فيه، ثم أقدم على التخريب عندما لم يجد أموالاً؟ لا أعـــتقد أن أي مجـــرم قد يصل إلى هذا الحد من الاضطراب. لكن، ماذا لو كان الذي حصـــل هـــو مجرد عرضٍ لتخويفي؟ هل كان ذلك الشخص مجرد أحمق تلقّى أوامر لصرف انتباهي عن أسرار أشرارٍ بقيت في الخفاء مدة طويلة، بهدَف توجيه رسالة لي

مفادهـــا *إننا نعرف أين تعيشين*؟ وهل أن ما حصل هو مجرد انتقام اجتماعي مجرم له علاقة بقضية تتعلّق بي مباشرة؟ ما هو مغزى وجود الأزرار؟ لماذا لم يرّد كلوديل أو شاربونيو على اتصالاتي بهما؟

أين هو رايان؟ ولماذا لم يتّصل بي؟ هل أقدمت على شيء خاطئ؟ بالطبع فعلت.

جالت آن على لا فوبورغ صباح السبت، أما أنا فتحدّثت مع الرجل الذي سيصلح لـــي زجـــاج منزلي. أحضر الرجل لوح الزجاج الجديد، وامتلأت ثلاجتي بالأطعمة، وأصبح المكان نظيفاً بشكل مقبول، وكل ذلك بحلول الظهيرة.

لم يساعدني لاوعيي بتفسير بعض الأشياء التي لا يمكنني تجاهلها، وذلك لأسباب لـــم أفهمهـــا. تشـــمل هـــذه الأشياء الأدوية التي يصفها الأطباء، ومجلات ناشيونال جيوغرافـــيك، بالإضـــافة إلى الكتب العلمية التي تصدرها الأكاديمية الأميركية لعلوم الطب الشرعي، ودليل الهاتف. مهلاً، لا يستطيع المرء أن يتأكّد.

انتهيت من تناول بعض شطائر البندورة والجبنة مع آن، فانصرفت إلى جمع كل دلـــيل هـــاتف وجدتـــه فـــي البيت، ووضعتها كلها إلى جانب جهاز الكمبيوتر الذي أســـتخدمه. تناولت اللائحة التي أعطاني إياها ساير. احترت من أين أبدأ لتحديد أسماء المستأجرين. هل أبدأ بتسلسل رجعي، أم أبدأ من البداية؟

اخترت البدء مع أوائل المستأجرين في لائحة ساير. ظهر اسم متجر للحقائب ما بيـــن عامَـــي 1976 و1982 فـــي نفس مكان مطعم البيتزا الذي يملكه ماتوب حالياً. امتلكـــت امـــرأة تدعى سيلفي فاسكو هذا المتجر. طلبت الرقم الوارد في لائحة ساير مقـــابل اســـمها. ردّ على المكالمة طالب جامعي يعيش في حي فقير من المدينة يدعى ماك جيل. قال الطالب إن لا فكرة لديه عمّا أتحدّث عنه.

لـــم أجـــد فـــي جهاز الكمبيوتر عندي، ولا في دليل الهاتف، اسم سيلفي، لكنني جمعـــت ســـبعة أســـماء س. فاســـكو منهما. وجدت أن رقماً واحداً منها هو في حالة انقطـــاع، ولـــم ألـــقَ أية إجابة من رقمين آخرَين. أوصلني اتصالي الرابع إلى مكتب محـــامٍ، أمـــا الأرقـــام الثلاثة الأخيرة فكانت لنساء لم يكن من بينهن اسم سيلفي، ولم يعرفن امرأةً من عائلة فاسكو تحمل اسم سيلفي أو سيلفيا. رسمت دائرة حول الرقمين اللذين لم يجيبا، ثم تابعت بحثي.

عرفـــت أن ملحمـــة تدعـــى ملحمة ليهايم كانت تشغل المكان الذي شغله مطعم البيـــتزا، وذلـــك في الفترة الممتدة ما بين العام 1982، والعام 1987. كتب ساير اسم أبراهام كوهين ثم وضع إلى جانبه الحرفين س. ب.

وجدت في الصفحات البيضاء عشرات من أسماء كوهين في مونتريال وحولها.

تحتمل هذه الأسماء أيضاً طرق تهجئة مختلفة، بما في ذلك كووين، كوهين، كوهن، وغيرها.

رائع!

وجدت في الصفحات الصفراء ملحمة تدعى ملحمة ليهايم في هامبستيد، لكن لم يجبني أحد عندما طلبت رقم الملحمة. عدت إلى لائحة ساير. وجدت اسمَيْ باتريك أوكلمان، وإيليا فابيان، من ضمن لائحة المستأجرين عند ساير، وذلك ابتداءً من العام 1987 إلى العام 1988. كتب ذلك الرجل العجوز كلمة سفر إلى جانب اسميهما.

لم أجد اسم أوكلمان في أيّ دليل عندي. وجدت اسم إيليا فابيان مقابل عنوان في أمهيرست. رفع شخص السماعة بعد الدّقة الأولى.

عرّفت بنفسي وسألت ما إذا كنت أتكلم مع إيليا فابيان، وكان ذلك صحيحاً. سألت ما إذا كان الشخص الذي يتكلّم معي هو نفسه إيليا فابيان الذي أدار وكالة سفريات في شارع القديسة كاترين، في أواخر سنوات الثمانينيات. أجابني رجل بصوت متعَب: "نعم".

سألته إن كان أوكلمان وشريكه استخدما، أو زارا، قبو ذلك المكان خلال فترة استئجارهما له. امتزج التعب الظاهر في صوت الرجل مع بعض الكراهية وهو يسألني: "هل قلتِ لي إنك تعملين مع القاضي الشرعي؟"

– "نعم، يا سيدي".

– "يا إلهي. هل مات أحد هناك؟ هل اكتشفتم جثةً في القبو؟"

احترت ماذا أقول للرجل.

– "إنني أحقّق حول بعض العظام التي وجدت مدفونة تحت الأرض".

– "أوه، يا إلهي!"

– "قد تكون هذه العظام قديمة العهد جداً".

– "يا إلهي! يشبه الأمر ما حدث في فيلم المتطهّر. لا، لا، ماذا كان اسم ذلك الفيلم عن الفتاة الصغيرة؟ أعني ذلك الفيلم الذي بُني فيه منزل فوق مقبرة؟ نعم، تذكّرت. إنه الروح الشريرة".

– "سيد فابيان..."

– "لست متفاجئاً بالنسبة للقبو. ألقيت أنا وباتريك نظرة ذات مرة على ذلك المكان البائس الذي تفوح منه رائحة العفونة، المليء بمياه المجارير الوسخة، ولم نطأ ذلك المكان ثانية. كان جلدي يقشعر عندما أفكر بكل تلك المخلوقات الزاحفة والمتوالدة

المتواجدة تحت قدمي. زخر ذلك القبو بكل أنواع الحشرات والزواحف، والآن ها أنتِ تخبرينني أنكم وجدتم جثثاً مدفونة هناك".

لاحظت أن فابيان شدّد كثيراً على مقاطع كلمتَي الزاحفة والمتوالدة.

- "هل استخدمتَ ذلك القبو للتخزين؟"

أحسست أن الرجل يقشعّر عندما أجابني: "العياذ بالله".

شعرت أن الرجل مفرط الحساسية ليكون منظم رحلات سياحية. سألته: "هل كانت وكالة سفرياتك متخصصة بمنطقة معينة من العالم، يا سيد فابيان؟"

- "نظّمت برامج سياحية إلى أماكن مقدسة من العالم، وذلك بالاشتراك مع باتريك. كانت تلك الحقبة سوقاً رائجة للرحلات الدينية. أغلقنا الوكالة بعد ثمانية عشر شهراً".

- "أتعني باتريك أوكلمان؟"

- "أجل".

- "أين هو السيد أوكلمان الآن؟"

- "متوفّى".

انتظرت فابيان ليعطيني بعض التفاصيل الإضافية، لكنه لم يفعل.

- "هل لي أن أسأل كيف ومتى توفّي شريكك؟"

- "توفّي تحت عجلات حافلة، وصودف أنها كانت حافلة سياحية".

سمعت شيئاً يشبه الأنين قبل أن يتابع الرجل: "حدث ذلك في ستوي، فيرمونت، منذ أربع سنوات. سحقت العجلات رأسه مثل ثمرة ناضجة..."

- "شكراً لك سيد فابيان. سأتّصل بك إذا احتجت إلى معلومات إضافية".

قطعت الاتصال. استبعدت أن يكون فابيان وأوكلمان مرشحَين محتملين ليكونا قاتلين دائمين، لكنني وضعت خطاً تحت الرقم، وكتبت عدة ملاحظات.

وجدت أن الاسم التالي هو س. مينارد. دوّن ساير كلمة مكتب رهنيات إلى جانب ذلك الاسم، كما دوّن: من العام 1989 حتى العام 1998".

وجدت أربع صفحات تحمل أسماء مينارد في دليل مونتريال الهاتفي، وكان من بين هؤلاء ثمانية وسبعون اسماً حملوا اختصار الاسم الأول س.

بعدما أنجزت اثنين وأربعين اتصالاً قرّرت أن هذه المهمة تعود لرجل تحريات، وهكذا انتقلت إلى الاسم التالي. شغل فان لوك تروانغ صالون عنايةٍ بالأظافر بين عامَي 1998 و1999.

لـــم يكـــن البحث عن هذا الاسم متعِباً كما كان الحال مع مينارد، لكن ورد 227 اســـمَ تروانغ في الصفحات البيضاء وحدها. لم أجد من بينها اسم فان لوك، بينما ظهر أمامي اسمان يبدآن بحرف ف.

لـــم يكـــن فان لوك من بين هذين الاسمين الأخيرين. ولم يعرف أحدهما شخصاً يدعى فان لوك سبق له أن أدار صالون عناية بالأظافر.

بدأت العمل على بقية الأسماء في لائحة أسماء تروانغ. تكلّم الكثيرون من الذين اتّصـــلت بهـــم القليل من الإنكليزية، أو الفرنسية. وجدت أن الكثيرين منهم كانت لهم علاقـــة بصالونات العناية بالأظافر، لكنهم لم يسمعوا عن صالون يقع في المبنى الذي يملكه ساير. أوشكتُ على الاتصال بتروانغ رقم تسعة وعشرين عندما قاطعني صوت شخص: "هل وجدتِ شيئاً؟"

وقفت آن عند الباب، ولاحظت أن الظلام خيّم على الغرفة من دون أن أنتبه.

– "وجدت الكثيرات من سيدات على أتم الاستعداد للعناية بأظافري".

شعرت بالإحباط، فأسرعتُ إلى إطفاء جهاز الكمبيوتر.

تشاركت مع آن في تحضير شرائح اللحم المقلية، والبطاطا، بالإضافة إلى الهليون. حدّثـــتها عـــن فـــترة بعد الظهر التي بقيت من دون نتيجة. شاهدنا بعد الغداء فيلمين عن المفتش كلوزو، لكننا لم نضحك كثيراً. أوينا إلى الفراش في وقت مبكر من تلك الليلة.

حاولـــت الاتصـــال بملحمة ليهايم عند ظهر يوم الأحد، ولم أحصل على نتيجة. أفلحـــت فـــي الاتصال عند الثانية من بعد الظهر. أجابني صوت يشبه مزماراً بنغمة واحدة: "مرحباً".

عرّفت بنفسي. قال الرجل إنه يدعى هاري كوهين.

– "هـــل هي ملحمة ليهايم ذاتها التي كانت تقع في شارع القديسة كاترين خلال سنوات الثمانينيات؟"

– "أجل. إنها هي. امتلكها والدي في ذلك الوقت".

– "واسمه أبراهام؟"

– "أجل. غادرنا المكان في العام سبعة وثمانين".

هل لي أن أسأل عن السبب؟"

– "إننا نموّن زبائن يتّبعون نظاماً غذائياً محدداً، ووجدنا أن هذا الحي هو أنسب لعملنا".

– "أعلـــم أن سؤالي التالي سيبدو غريباً، سيد كوهين، لكن هل تعلم شيئاً عن قبو

موجود في ذلك المبنى؟"

- "تواجـد مدخل القبو في ملحمتنا. لم نخزّن أي شيء هناك، ولا أتذكّر أن أحداً قد دخل ذلك القبو، أو خرج منه".

- "هل كان من الممكن أن يستخدم مستأجرون آخرون ذلك القبو للتخزين؟"

- "لـم نكن لنسمح لأي شخص استخدام متجرنا. إن مدخل القبو الوحيد كان من خلال الحمام. أبقى والدي ذلك الباب موصداً بالأقفال طيلة الوقت".

- "هل تعرف سبب قيامه بذلك؟"

- "أعرف أن والدي حريص جداً في أمور الأمن".

- "ولماذا هو كذلك؟"

- "ولد أبي في أوكرانيا في العام 1927".

- "بالطبع".

شعرت بالارتباك، وتحيّرت بما يجدر بي أن أطرحه من أسئلة.

- "هل تعرف أسماء المستأجرين الذين سبقوك، أو الذين أتوا من بعدك؟"

- "لا".

- "بقيتَ في ذلك المكان لمدة ست سنوات تقريباً. هل فعلتَ أي شيء على وجه التحديد دفعك للمغادرة؟"

أحسسـت بـبعض الـتردد بصوت كوهين حين قال: "أصبح ذلك الحي... غير مريح".

- "من أية ناحية تقصد؟"

- "دكتورة برينان، إننا ننتمي إلى الشاباد - لوبافيتش الذين هم غاية في التشدد. لا يفهمنا الناس دائماً، حتى في مونتريال".

شكرت كوهين، ثم قطعت الاتصال.

توجـد شجرة بيسية من الفصيلة الصنوبرية في حوض حجري إلى جانب الباحة المركـزية. اعـتاد الوكيل الذي يعتني بالمكان أن يزين هذه الشجرة بالأضواء عندما يحـل شهر كانون الأول. ليس هناك من حل وسط عند هذا الوكيل وينستون، وهو لا يرضى أن تبقى الشجرة بيضاء فإما أناقة كاملة، أو لا شيء بالمرة.

يسـتمتع هرّي بالمكان كثيراً. يمضي بيردي ساعات من وقته وهو ملتفٌ حول نفسـه قـرب المدفـأة، ينقّل بصره ما بين ألسنة اللهب وبين معجزة وينستون وسط

الثلوج. أمضيت وقتي برفقة آن في حالة استرخاء طيلة فترة ما بعد الظهر يوم الأحد ذاك، تماماً كما يفعل بيردي. أمضينا فترات طويلة قرب المدفأة، وأسندنا رأسينا على وسادتين، معرّضين كواحلنا للدفء المنبعث من المدفأة. تذمّرت من كلوديل ورايان أثناء تناولنا لأعداد لا حصر لها من أكواب القهوة والشاي. اشتكت آن من طوم بدورها. ضحكنا طويلاً من حالة الحرمان التي نعاني منها.

ساعدتني الساعات التي أمضيتها بالتحدّث مع آن، وكذلك سيل الكلمات التي تفوّهت بها، على فهم مدى عمق التعاسة التي تشعر بها آن. أيقنت أن مزاحها وجولات تسوّقها ما هي إلا محاولة منها للتظاهر أن كل شيء على ما يرام. تمنّيت أن تتبرّج، وأن ترفع الكلفة من أجل أن تستمرّ بحياتها. هيا يا آن افعلي ذلك من أجل عائلتك وأولادك. افعلي هذا من أجل خاطر تمب.

تعرف آن كيف تحافظ على هدوئها على الدوام. اكتشفت أن حزنها العميق مقلقٌ للغاية. صلّيت وابتهلت كي لا يكون حزنها دائماً. فكّرت أثناء حديثنا بقول أشياء تشجّعها، أو تريحها، أو تسلّيها على الأقل. بدا لي أن كل الأشياء التي قلتها لها مبتذلة ومستهلكة. اكتفيت في النهاية بإظهار دعمي لها، لكنني شعرت بخوف حقيقي على صديقتي.

تبادلت مع آن الحديث عن الذكريات التي جمعتنا. تذكّرنا تلك الليلة التي سبحنا فيها عاريتين في البحيرة. وتذكّرنا الحفلة التي وقعتُ فيها على الأرض. تذكّرنا أيضاً تلك النزهة التي قمنا بها على الشاطئ والتي ضاع خلالها ستيوارت لبعض الوقت، وكان في الثانية من عمره حينها، واليوم الذي حضرتُ فيها الحفلة التي غنّت فيها كاتي وأنا ثملة. تحدّثنا عن السنة التي ظهرت فيها ثملة في كل مناسبة، وأمام كل الناس.

تفحّصنا أثناء محادثتنا هاتفينا الخليويين بحثاً عن رسائل محتملة. وصلت رسائل كثيرة من طوم، لكن لم تصل رسالة واحدة من رايان.

أصرّت السيدة غالانت، أو بالانت، أو تالنت على عدم الرد بالرغم من اتصالي بها بين الحين والآخر. بدا لي أنها مصرة على عدم الاتصال بي مجدداً. تطرّقنا بالحديث إلى أزرار كلوديل بين الفينة والأخرى. لم تقدّم لنا مونيك موسّو أي رأي بخصوص عمر، أو مغزى، الزر المزيّف. رسمت مع آن عدداً لا حصر له من الاحتمالات المفترضة. لم يبدُ لنا أياً منها افتراضاً منطقياً، ولم يقدّم لنا بيردي أية معلومات تفيدنا بهذا الخصوص.

أقنعت آن مساء الأحد أن تردّ على مكالمة من طوم. تناولت آن بعدها الكثير من الشراب، لكن بهدوء تام.

الفصل 17

تركــتُ آن تغــطّ في نومها، وغادرتُ المنزل متوجّهة إلى المختبر صبيحة يوم الاثنين، لكن بعد أن تركت لها رسالة أطلب منها أن تتّصل بي حالما تستيقظ. لم أتوقّع اتصالاً منها قبل حلول الظهر.

أحسســت بعدم قدرتي على الرؤية فور مغادرتي للمرآب. بدت السماء صافية، وقــد أرسلت الشمس أشعتها الساطعة فوق الثلج الذي تراكم في عطلة نهاية الأسبوع. انتشــر مرة أخرى أسطول المدينة من جرافات الثلج، فانفتحت كل الطرقات في وسط المديــنة. بقيت الشوارع الجانبية إلى الشرق من وسط المدينة صالحة للمرور، بالرغم مــن وجود السيارات المدفونة بالثلج حتى أسطحها، والمركونة على جانبَي الطرقات. بدت السيارات مثل أفراس متجمدة وسط أنهار من الحليب.

مــررت بين الحين والآخر بأشخاص محبَطين يريدون التوجه إلى أعمالهم، وقد انهمكــوا بجــرف الــثلج برفوشهم، بينما بدت أنفاسهم المتقطعة أشبه بصوت عوادم ســياراتهم التي غطى الثلج نصفها. وجدت أن الشوارع الفرعية المحيطة بالمختبر، ما تــزال مســتحيلة العبور، وهكذا ركنت سيارتي في مرآب عام يقع في تقاطع شارعَي ويلفــريد وديروم. عبرت باتجاه مدخل المبنى الخلفي، وشققت طريقي ما بين حواف الــثلج، مــررت حول جرافة ثلج صغيرة ما زالت أنوارها الكهرمانية تلتمع في الجو البلوري.

تــردّدت أصــداء خطواتــي بقوة، وسحقتُ حبيبات الثلج بقدمي. رأيت من بعيد شاحنات القطر وهي توقظ المقيمين بأصواتها القوية التي تكاد تخرق رؤوسهم. حثّتهم هــذه الشــاحنات القاطــرة علــى النهوض من أسرّتهم، وعلى المسارعة إلى تحريك سياراتهم.

وجدت مفاجأة اليوم الأولى بانتظاري عندما بدأت أتحقّق من بريدي الصوتي.

يُعتبر ميشال شاربونيو رجلاً ضخماً لا يتناقص حجمه مع مرور السنين. يمتلك الــرجل رقــبةً ثخيــنة، ووجهاً ممتلئاً، وشعراً مدبباً يضفي عليه منظر كرة تحيطها

الأسلاك الكهربائية. يتمتّع شاربونيو بذوقٍ يميل نحو الألبسة المصنوعة من البوليستر، والألبسة الرخيصة الثمن، وذلك على عكس كلوديل الذي يفضّل ارتداء الملابس الحريرية والصوفية الفاخرة. ارتدى شاربونيو هذا اليوم قميصاً بلون برتقالي محروق، وبنطالاً أسود اللون، وربطة عنق بدت شديدة الزركشة ذات ألوان متعددة. ارتدى الرجل سترةً غير مناسبة ذات ألوان بنية داكنة، وخطوط متصالبة. جلس شاربونيو على كرسي، ثم نزع معطفه ووضعه فوق حضنه. لاحظت وجود ندبة خفيفة على خدّه الأيسر، ولاحظ شاربونيو أنني أتفحّصه.

- "كان عليكِ أن تري الرجل الآخر".

ابتسم ميشال، لكنني لم أبادله ابتسامته.

- "آسف لأنني لم أردّ عليك. اشتركت مع كلوديل في عملية استدراج تجار مخدرات، وتمّت عملية القبض عليهم يوم الجمعة. أفترض أنك علمتِ بها".

استبعدت مع آن كل أنواع الجرائد خلال عطلة الأسبوع، وفضّلنا مشاهدة أفلام الفيديو والأفلام القديمة عبر قناة السينما: "لا. لم أستمع للأخبار".

- "استعدّ الفريق المكلّف لهذه المهمة منذ أشهر عديدة".

تركته يمضي بحديثه، فتابع يقول: "أقدمت بعض المؤسسات الصيدلانية على تهريب مادة الإيفيدراين المقلدة. تستخدم هذه المادة في إنتاج الميتامفيتامين. خُزّنت هذه المواد في كيبيك وأنتاريو، وكانت تُنقل بالشاحنات عبر كندا إلى جنوب خط العرض ثمانية وأربعين".

انحنى شاربونيو إلى الأمام، ووضع مرفقيه على رجليه وسمح ليديه بالاسترخاء، ثم أكمل قائلاً: "اعتاد هؤلاء الأغبياء تزويد تجار موجودين ما بين هاليفاكس وهيوستن. استطعنا اعتقال ثلاثة وأربعين منهم ووضعناهم في السجن يوم الجمعة، وألقينا القبض على أحد عشر غيرهم يوم السبت. وأتوقّع أن يتمكّن الكثير من المحامين الحصول على موكلين كثر لهم".

- "هل اشترك آندرو رايان في هذه العملية البوليسية؟"

ابتسم شاربونيو وحرّك رأسه قائلاً: "حتى لو كان الرجل من رجال تحري كيبيك، فهو يبقى أسطورة".

إن تبسيط الأمور بالقول بوجود بعض التنافس ما بين شرطة كيبيك وبين شرطة مونتريال، يشبه قولنا بوجود بعض القضايا العالقة ما بين الإنكليز والإيرلنديين.

تناولت قلماً وبدأت أرسم مربعات داخل مربعات: "وما هو السبب الذي يدعوك لهذا القول؟"

استرخى شاربونيو في مقعده، ورسم بيديه رقم 8 في الهواء: "كاد رايان يفقد حياته في صباح يوم السبت، ومع ذلك رأيته في تلك الليلة بارداً مثل قطعة ثلج، وشاهدته يغازل صبيةً لا تكاد تبلغ نصف عمره، وقد ظهر عليها القليل من الثياب والكثير من البشرة الناعمة. كم يبلغ عمر رايان، خمسة وأربعون؟ سبعة وأربعون؟ لكن تلك الحسناء ما تزال طرية العود".

قسّمت مربعاً كنت أرسمه، ولم أكترث.

– "هذه الشابة الصغيرة متعلّقة به، وأنا أظن أن الرجل سيعطي الأمر استحقاقه".

حافظت أنا ورايان على سرية علاقتنا، بل كنا أكثر من سرّيين. ولم يكن باستطاعة شاربونيو معرفة أننا على علاقة غرامية مع بعضنا. علّقت من دون اكتراث: "أهي متعلقة به؟"

هزّ شاربونيو كتفيه: "رأيتهما معاً من قبل".

– "أحقاً؟"

تابع شاربونيو من دون أن يعرف مدى تأثير كلماته على مسامعي: "دعيني أتذكّر متى كان ذلك؟ هل كان ذلك في آب/أغسطس؟ نعم، في شهر آب. بدا الطقس أكثر حرارة من قارب موز".

انطلق إصبع سمين باتجاهي وهو يقول: "جئت إلى هنا لأستوضح عن قضية، لكنك كنت بعيدة في الجنوب. كان عليّ أن أدلي بشهادتي، علماً أن التحقيق الأولي في هذه القضية قد جرى في أوائل آب/أغسطس. رأيت رايان مع ملكة الرقص هذه بعد مغادرتي لقاعة المحكمة. نعم، كان ذلك في الأسبوع الأول من آب".

عدت بالذاكرة إلى الأسبوع الأول من آب. غادر رايان إلى شارلوت بعد أن تلقّى مكالمة هاتفية عاجلة. قيل له إن ابنة أخته تعاني من مشكلة، ثم رجع فجأة إلى كندا.

رميت القلم من يدي، وأحنيت رأسي.

– "اتّصلتُ بك نهار الجمعة، يا سيد شاربونيو، لأنني اكتشفتُ معلومات مهمة تتعلّق بالهياكل التي وجدت في قبو مطعم البيتزا".

تراجع شاربونيو إلى الخلف ومدّ قدميه قائلاً: "إنني أصغي".

– "حصلت على رأي آخر في موضوع الأزرار التي وجدها سعيد ماتوب".

نظر شاربونيو نحوي بشرود، وسألني: "أتقصدين صاحب مطعم البيتزا؟"

- "إنه الرجل الذي عثر على الهياكل العظمية".

- "إن السّباك هو الذي عثر عليها في الواقع، لكن ذلك لايهم. اعترف ماتوب أنه وضع الأزرار الفضية الثلاثة في جيبه أثناء عملية جمع العظام".

- "صحيح".

- "أخذ زميلك الأزرار إلى متحف ماكورد لتقييمها".

- "قالت السيدة التي تعمل هناك إنها قديمة".

- "إنك تقصد أنطوانيت ليجو، لقد كانت محقّة جزئياً".

- "أوه! أحقاً؟"

- "تقول مونيك موسّو التي تعمل في بوانت كاليري إن اثنين فقط من الأزرار يعودان إلى القرن التاسع عشر، أما الزر الثالث فهو مزيف".

- "وماذا يعني هذا الكلام؟"

- "لم تقل لنا".

- "إلى أي تاريخ يعود الزر المزيف؟"

- "لم تستطِع تحديد عمره بالضبط، لكنها شكّكت بقيمته".

- "حسناً. إذاً يُحتمل أن لا تكون الأزرار مترافقة مع العظام، ولن نستطيع استخراج الكثير من المعلومات منها".

- "هل سمعتَ عن رجلٍ يدعى نيكولو كاتانيو؟"

- "أتعنين نيك السكّين؟ ومن لم يسمع به؟"

- "تعود ملكية البناية التي تحوي مطعم ماتوب للبيتزا إلى ريتشارد ساير حالياً. اشترى ساير هذا المبنى من نيكولو كاتانيو".

- "أحقاً؟ متى كان ذلك؟"

- "حدث ذلك في العام 1980".

هبّ شاربونيو واقفاً على قدميه، ثم سألني: "ما هي المدة التي امتلك خلالها كاتانيو المبنى؟"

- "عشر سنوات".

ارتسمت ملامح العبوس على شاربونيو.

- "هل يعني هذا الأمر شيئاً، أيها التحري؟"

- "هذا محتمل".
- "أعرف أن كاتانيو متورّط في هذه الجريمة".

بدأ شاربونيو بتمسيد إبهام يده اليمنى.

- "ما الذي تخفيه عني؟"

بدا شاربونيو متردّداً للحظة، ثم تراجع قليلاً وقال: "حدثت اضطرابات كثيرة هنا فـي أواخـر أعوام السبعينيات. تصارعت عصابتا الكالابرية والصقلية مع بعضهما. انتهى الصراع على السلطة هذا باغتيال زعيم يدعى باولو فيولي".

- "ماذا بعد؟"
- "تسلّم زعيم جديد السلطة".

سـمعت صـوت هـاتف يدق في الطرف الآخر من القاعة، ثم دقّ هاتف آخر، وهاتف أخر أيضاً. عرفت أن لامانش يجمع رجاله للاجتماع الصباحي.

- "ماذا بعد؟"
- "انفصل الزعيم الجديد عن جماعة البونانو في نيويورك، وأقام علاقات ما بين جماعته في مونتريال، وجماعة كاروانا/كونتريرا".

تعمّدت التطلع إلى ساعتي: "وماذا تريد أن تقوله لي؟"

هزّ شاربونيو كتفيه: "كانت معركة وحشية قُتل فيها بعض الشبان".

- "بالإضافة إلى بعض الفتيات، لربما؟"

هزّ شاربونيو كتفيه مجدداً: "لم تذكري شيئاً عن صدمة ظاهرة على العظام التي تدرسينها".

- "لم أجد أي أثر لصدمة. هل ستتحدّث مع زميلك؟"

لمس شاربونيو أذنه، وابتعد ببصره عني، ثم أعاده نحوي. تردّد للحظة، وبدا لي أنه وصل إلى نوع من القرار الشخصي.

- "تحدّث لوك مع ساير".
- "أعرف هذا".
- "أظن أنه لم يخبرك عن هذا اللقاء".
- "لا".
- "كان من الأجدر بنا أن نخبرك".
- "لكان ذلك لطفاً منكما".

- "ذلك العجوز لم يذكر كاتانيو أبداً".
- "لعل ذلك يعود لمهارات زميلك الاجتماعية".
- "هل عرفتِ شيئاً آخر؟"

أخـبرته عـن لائحـة المسـتأجرين التي زوّدني ساير بها. أخبرته كذلك عن الاتصالات الهاتفية التي أجريتها.

- "إذاً من أحببتِ أكثر الملكة، أم الرجل ذا الشعر الملتف والقبعة؟"
- "رجال الشاباد – لوبافيتش لا يعتمرون البايوت أو الستريميل".
- "إنني أمازحك قليلاً فقط يا دكتورة. أتعتقدين أن أحدهم متورّط؟"
- "أتسألني رأيي؟"

أومأ شاربونيو، فوقفت وأنا أقول: "أستبعد ذلك".

نهـض شاربونيو بتثاقل، ووضع معطفه على إحدى ذراعيه، ثم تناول ورقةً من جيبه: "يُفترض أن أعطيك هذه".

تضـمّنت الورقة رقم الهاتف الذي تركته السيدة بالانت، أو غالانت، أو تالنت، واسم آلبان فيشر، وعنوان منزل في كاندياك.

- "أهذه نتيجة المكالمة التي جرى تتبّعها؟"
- "أومأ بالإيجاب".
- "هل يزعجك أحدهم هذه الأيام؟"
- "أتعني رجلاً غير ذلك الذي تسلّل إلى بيتي؟"

توتّر وجه شاربونيو فجأة: "أوه، أحقاً؟"

هل كان من الخطأ إبلاغه بهذا؟

- "الأمر بسيط على أية حال. رتّب رايان مراقبة دائمة لمنزلي".

تطلّعت إلى الورقة التي أعطاني إياها شاربونيو، وقلت: "اتّصلت هذه المرأة بي، وادّعت أنها تعرف شيئاً عن العظام التي وجدت تحت مطعم البيتزا".

- "ماذا؟"
- "لـم أفهم ما تعنيه هذه المرأة. قالت لي إنها تعرف ماذا جرى في المبنى الذي يمتلكه ساير".
- "دعينـي أعـرف مـا تقوله هذه المرأة فور تحدثك معها. وإذا لم تتمكّني من الاتصـال بهـا اليوم فسأقصد منزلها. دعيني أعلم إذا ما ضايقك أحد يا دكتورة. إنني

جادّ بهذا".

تــردّد شاربونيو مرة أخرى، لكن تردّده امتدّ هذه المرة لفترة أطول. قال بعدها: "لا تدعـــي لوك يضايقك. أعرف أنه سيتحسّن، وأعرف أنه هو الآخر لا يرضى بأن يضايقك أحد. يمكنك أن تأخذي ذلك على محمل الجد".

شـــكّكت في قوله هذا. على أي حال، نجحت في اجتياز حقل الألغام الذي مثّلته المحادثـــة مع شاربونيو، لذلك كان عليّ أن أكون جاهزة لمفاجأتي التالية، إلا أنني لم أكن كذلك.

وجـــدت الأطـــباء الخمســـة منشغلين في محادثة جادة عندما وصلت إلى غرفة الاجــتماعات. تمتمـــتُ باعـــتذار بسبب تأخري، وسرعان ما ناولني لامانش صورة فوتوغرافية عبر الطاولة.

جـــرى توزيع ثلاث عمليات تشريح قبل وصولي. حصل بيليتييه على المدمنين اللذيـــن وجـــدا في محطة مترو ليونيل غرولكس، بينما أخذت مورين راكب الدراجة الهوائية الذي سحقته شاحنة الإطفاء.

قلّبت الورقة، ثم ألقيت نظرة سريعة على الحالتين الأخيرتين. وُجد رجل مقتولاً، وقد وُضع وجهه باتجاه الأرض، في طرف مونتن رويال لشارع درموند.

اسم الضحية: غير معروف.

وجدت امرأة مقتولة في سريرها.

اسم الضحية: لويز بارنت.

تاريخ الولادة: 1943/6/18.

معلومات أخرى: اشتباه بجريمة قتل.

انتقلـــت ببصـــري إلى السطر التالي، لكنني شعرت بهبوط في قلبي أشبه بهبوط صخرة.

الفصل 18

بدأ صوت لامانش بالتباعد شيئاً فشيئاً، وتقلّص حجم الغرفة من حولي. دسستُ يدي في جيب المعطف الذي ارتديه أثناء عملي في المختبر، ثم تناولتُ الورقة التي سلّمني إياها شاربونيو.

يا إلهي! تطابق العنوان الذي ظهر نتيجة تتبّع مصدر المكالمة الهاتفية مع العنوان الموجود في ملّف القضية. أسرع لامانش بالتلّفظ بالعنوان بينما كنت أتطلّع إليه: "لويز بايرنت".

بالانت. غالانت. تالنت. بايرنت.

عصَرَتْ صدري أمواج من التوتر.

- "من وجدها؟"

تطلّع الجميع نحوي، وبدت دهشتهم واضحة لحماستي. تناول لامانش تقرير الشرطة من دون أن يتلفّظ بكلمة واحدة.

- "وجدتها كلوديا باستيلو، وهي ابنة أخت الضحية".

- "وماذا حدث؟"

تابع لامانش القراءة بصمت للحظات قليلة، ثم قال: "تعوّدت السيدة باستيلو التحدث بانتظام مع والدتها. تتقاسم والدتها، روز فيشر، نفس المنزل في كانديك مع شقيقتها الضحية، لويز بايرنت".

مضى لامانش بوصف الحقائق المتعلقة بالموضوع. "لاحظت باستيلو في عطلة نهاية الأسبوع أن مكالماتها الهاتفية بقيت من دون إجابة، لذلك ذهبت هذا الصباح لتتحقّق من السبب، فوجدت خالتها ميتة في سريرها".

يا إلهي! كنت أحاول الاتصال مع بايرنت في نفس الفترة التي كانت فيها ابنة أختها تحاول الاتصال بها!

- "وهل روز فيشر بخير؟"

أنهـــى لامـــانش قراءة تقرير البوليس، ثم قال: "لا يقول التقرير شيئاً بخصوص أحوال السيدة فيشر. أفترض أن السيدة ما تزال حيّة لأنها ليست في طريقها إلى هنا".

- "وما هو سبب الوفاة؟"

علمت أن سؤالي هذا كان سؤالاً غبياً بمجرد نطقي به. تطلّع لامانش نحوي من فوق إطار نظارتيه، وقال: "هذا هو سبب معالجتنا لموضوع السيدة بايرنت".

بدأت الأسئلة تثور في رأسي.

هــل ما حصل هو نتيجة مؤامرة، أم مجرد صدفة مروعة؟ هل قُتلت بايرنت، أم أنهــا ماتــت نتيجة أسبابٍ طبيعية؟ هل لموتها علاقة بالمكالمات الهاتفية التي أجرتها معـــي؟ هل أن لويز بايرنت هي ذاتها التي كلّمتني بالفعل؟ هل أقول شيئاً ما، أم يتعيّن علـــيّ الامتـــناع عـــن قـــول أي شيء؟ نظرت إلى الصندوق الذي كُتب عليه النطاق القانوني للشرطة.

شرطة مونتريال.

قـــرّرت الانـــتظار حتى أفرغ من التحدث مع ضبّاط التحقيق، أو إلى أن يفرغ لامانش من تشريحه للجثة. تابع لامانش كلامه: "دكتورة سانت آنجلو، تولي من فضلكِ قضية السيد الذي وجد ميتاً تحت الدرج".

أشّرت سانت آنجلو على لائحتها.

قال لامانش: "سأتولّى تشريح جثة السيدة بايرنت عندما تصل إلى هنا".

وضع لامانش كلمة لي بجانب اسم لويز بايرنت. ما هي إلاّ لحظات حتى انتهى اجتماع العمل، فنهض الجميع وبدأوا بالخروج من الغرفة. لم أضيّع دقيقة واحدة عندما عدت إلى مكتبي قبل أن أطلب رقم هاتف رايان. أجابني عند الدقة الأولى.

- "من سيتولّى قضية لويز بايرنت؟"

قال رايان: "أجل، من المريح أن أسمع صوتك. أجل، إن الطقس أدفأ هذا اليوم. أجل، كانت نهاية أسبوع سيئة".

- "كيف كانت عطلة نهاية الأسبوع بالنسبة إليك؟"

- "سيئة جداً".

- "هل تقول ذلك بسبب العملية البوليسية الكبيرة؟"

- "انتهى كل شيء".

- "هل أطلقوا سراحك أخيراً؟"

- "أجل".

انتظرت قليلاً، لكنه لم يعطِني المزيد من التفصيلات. سألته: "من سيتولّى قضية لويز بايرنت؟"

سمعت أصواتاً في الغرفة على الطرف الآخر، فاستنتجت منها أن رايان موجود على بعد طوابق قليلة تحتي.

قلـت متابعةً الموضوع: "وجدت امرأة في كاندياك تبلغ الستين من عمرها ميتة في سريرها هذا الصباح. من سيتولّى القضية؟"

- "إنك تتحدّثين معه أيتها الفتاة".

- "إذاً لم يمنحوك وقتاً لتستريح".

- "يبدو أنني اشتقت لهذا المكان".

- "هل وجدتَ من يساعدك؟"

مـات زميل رايان نتيجة حادث تحطم طائرة قبل سنوات قليلة، بينما كان يرافق سجيناً أثناء نقله من جيورجيا إلى مونتريال. عمل رايان لوحده منذ ذلك الوقت متنقلاً من مهمة خاصة إلى أخرى.

- "يبدو أن جاذبيتي خارقة".

- "أيرجع ذلك إلى عطر ما بعد الحلاقة الذي تستخدمه".

- "أحب التحليق بمفردي".

- "لماذا اعتُبرت قضية بايرنت اشتباه بالقتل؟"

- "أظن أن موتها بدا مثيراً للريبة".

- "يا لك من معربد يا رايان".

- "كانت فيك بصحة جيدة، ولم تكن مسنةً. لم نجد مدفأة معطلة، ولم نلاحظ أي أثرٍ لتسرب الغاز، أو غاز أول أوكسيد الكربون. لم يكن لديها ماضٍ مع الاكتئاب، ولا رسـالة تـتحدّث عن انتحار. ذهبت شقيقة فيك التي تبلغ الرابعة والستين من عمرها أدراج الرياح. اختفت. تعتقد شرطة كاندياك أنها ذهبت في نزهة".

- "يقوم لامانش بالتشريح صباح اليوم".

تخيّلت رايان وهو يحتضن الهاتف بكتفه، وقد وضع قدميه على الطاولة.. تخيّلته في سريري.. ثم تخيّلته يتبختر مع ملكة من ملكاته.

- "وجـدت ابـنة شقيقة فيك جثتها. تدّعي هذه المرأة أن ليس من عادة أمها أن

تغادر من دون إبلاغها".

- "روز فيشر".

سمعت خشخشةَ أوراق قبل أن يؤكد لي: "لقد حزرت".

- "هل تحاول إيجادها؟"

- "نعم سيدتي".

- "ومن هو آلبان فيشر؟"

مرّت فترة من التردد: "أستطيع أن أعرف من هو. لكن لماذا؟"

- "هــل تتذكّر المرأة التي اتّصلت بي لتحدّثني عن الهياكل التي وجدت في قبو مطعم البيتزا؟"

- "نعم".

- "هــل تتذكّر أنني اعتقدت أن اسمها هو بالانت، أو غالانت، أو شيء من هذا القبيل؟"

- "أجل".

- "إن منزل روز فيشر في كاندياك هو مصدر المكالمتين".

- "بايرنت".

- "بدا هذا الاسم غامضاً بسبب التشويش في خط الاتصال".

انطلق رايان مخمّناً: "هل أن حساب الهاتف يحمل اسم آلبان فيشر؟"

- "نعم".

- "هل اسم آلبان موجود في الدليل؟"

- "انتظر لحظة".

وضــعت ســماعة الهاتف جانباً، وتناولت دليل الهاتف، ووضعت إصبعي على الأســماء التي تبدأ بحرف ف. أعرف أن إيجاد اسم محدد لا يتطلّب الكثير من الذكاء. وجدت أن آلبان فيشر موجود من ضمن مشتركي منطقة كاندياك.

- "إنه موجود هنا".

- "لم تخبر ابنة الأخت أحداً بما جرى. قالت لي إن المرأة عاشت لوحدها. أعتقد أنني سأتّصل بها".

- "سأتّصل بك مجدداً حالما ينتهي لامانش من مهمته".

- "يُحتمل أن تكون قد ماتت نتيجة نوبة قلبية عادية".

- "يُحتمل".
- "تحدث مثل هذه الأشياء على الدوام".
- "تُعتبر النوبات القلبية ثاني أبرز سبب للوفيات".
- "هل أنت متأكّدة من أن القلب لا يأتي في المرتبة الأولى؟"
- "لا".
- "هل ظهر شيء جديد؟"
- "نعم، ظهر شيء في واقع الأمر".

أخبرته عن الزر المزيف. سألني ماذا يحمل من أهمية، فأخبرته أن لا فكرة لديّ. أخبرته بعد ذلك عن نيكولو كاتانيو.

مرّت فترة صمت بدا لي صوت رايان مختلفاً بعدها، ولربما كان أشد قسوة بطريقة ما.

- "لا يعجبني هذا يا تمب. إن الحكماء يقدّرون الحياة مثلما يقدّرون خيوط الحرير. انتبهي لنفسك".
- "إنني أفعل هذا على الدوام".
- "هل أصلحتِ النافذة؟"
- "نعم".
- "اشتقت إليكِ في عطلة نهاية الأسبوع التي مرّت".
- "هل تقول الحقيقة؟"
- "هل ما زالت صديقتك في منزلك؟"
- "نعم".
- "سنتحدّث عندما تغادر".
- "صديقتي لا تعضّ".

مرّت فترة صمت طويلة، لكن رايان خرقها: "دعيني أعرف ما يقوله لامانش. اتّصلي بي إذا لم أكن هنا".

عرّجت على غرفة التشريح قبل أن أبدأ بتحليل الهيكل الثالث. وضع بيليتيه أول ضحية من ضحايا الانهيار على الطاولة رقم واحد، بينما وضع لامانش جثة لويز بايرنت على الطاولة رقم اثنين.

وصــلت بايرنــت وهــي مرتدية عباءة فضفاضة. رأيت عباءة النوم هذه فوق الطاولــة. لاحظــت أن عباءة الفانيلا الطويلة الزهرية اللون مزينة بالورود الحمراء. رأيت أيضاً أزراراً لؤلؤية صغيرة تنتشر على طوق العنق المطرز.

أرجعتنــي ذاكرتي إلى الماضي. رأيت جدتي ترتاح على سريرها، وقد انتعلت خفيها الإسفنجيين، ووضعت فنجان البابونج على الطاولة.

انــتقل بصــري نحو الجسد المسجى أمامي. بدت بايرنت صغيرة الجسم ودقيقة الملامــح علــى ذلك اللوح الفولاذي المليء بالثقوب. رأيتها وحيدةً جداً، وغارقة في الموت. شعرت بوخزة من الأسى تخترقني، لكنني حاولت التغلب عليها.

قلّــب لامــانش رأس المــرأة الميتة. فتح فكّيها، وأسبل أحد كتفيها. بدا ظهرها متجعداً، أما أسفل ظهرها فكان متورّداً.

ضــغط لامانش بإصبعه على الجسد الذي فرّت ألوانه منه. لم يظهر البياض في مكــان نقطة الضغط. سمح لامانش للجسد أن يعاود استقراره على ظهره، ثم رفع اليد الخالية من علامات الحياة. شاهدنا تقشراً رفيعاً جداً يتفكّك من طبقة ما تحت البشرة.

- "ألاحــظ انعداماً ثابتاً للّون، وحدوث التيّبس الناتج عن الوفاة، وبالكاد بدأ تحلّل الجلد".

حامــت نظراتــي حــول جثة بايرنت، بينما انشغل لامانش بتدوين ملاحظاته. لاحظــت أن عضــلات المرأة بدأت تذوي، وبدا شعرها رمادي اللون، أما جلدها فبدا شــاحباً إلــى حد الشفافية. لاحظت أيضاً ثدييها المتدليين على صدرها الذي بانت منه العظام، ولفت انتباهي بطنها الذي بدأ بالتحول إلى اللون الأخضر. سألتُ لامانش: "كم من الوقت مضى على الوفاة برأيك؟"

- "لــم ألاحظ تداخل الدهون مع العضلات، ولا أي انتفاخ باستثناء بعض العفن. أعتقد أن المنزل كان دافئاً، لكنه ليس حاراً جداً. سأقوم طبعاً بتفحّص محتويات المعدة، وسوائل العين عندها، لكنني في هذه اللحظة أستطيع أن أقول إن ثمانية وأربعين ساعة إلى اثنتين وسبعين ساعة قد مرّت على الوفاة".

اجتاحتني وخزة ألمٍ أخرى. خذلتُ هذه المرأة يوم الأربعاء. اتّصلت بي مرة ثانية يوم الخميس، وها هو لامانش يقدّر أن وفاتها قد حدثت يوم الجمعة، أو السبت.

لاحظت وجود خط رفيعٍ أبيض اللون في منطقة بطنها.

- "يبدو أنها خضعت لعمليةٍ جراحيةٍ ما".

انطلــق لامانش ليخطّ أثر الجرح هذا على الرسم الذي أعدّه، فيما تحولّت عيناي نحــو وجــه بايرنــت. لاحظــت أن عينيها كانتا نصف مفتوحتين، لكن أربطة داكنة غطتهما.

تســترخي عضــلات أجفــان العيون عند الوفاة في العادة، ويتسبّب هذا الأمر بانكشــاف القرنيتيــن، وهــو الأمر الذي يسمح بحدوث جفاف الأنسجة الظهارية، أما تصــلّب الأنســجة فهــو أمر طبيعي. أعطت هذه التغيرات بايرنت المظهر الرهيب لشخصٍ قُتل بالأمس على الطريق.

انحنيــت لأتفحّــص أسنان بايرنت. بدت الأسنان نظيفة بالرغم من بعض البلى، وبعــض التغــيّر فــي اللون. ظهر كذلك بعض التورم، أو الانتفاخ في اللّثة. يبدو أن أسنانها كانت في وضعٍ جيد.

بــدأت بالــنهوض ثانية عندما لفت انتباهي شيء يتواجد ما بين القاطعة الجانبية اليمنى وبين الناب. اقتربت أكثر، وتأكّدت من وجود شيء هناك.

تناولت عدسة تُمسك باليد من الدّرج ثم عدتُ إلى الطاولة. بدت التفاصيل أوضح تحت التكبير، فقلتُ: "دكتور لامانش. ألقِ نظرة على هذه".

الفصل 19

دار لامانش حول الطاولة وناولته العدسة المكبرة. تفحّص أسنان بايرنت، ثم قال من دون أن ينتصب بقامته: "إنها ريشة".

قلت موافقة: "أجل".

استخدم لامانش الكلاّب لانتزاع الريشة، ووضعها في قارورةٍ بلاستيكية. فتح بعد ذلك فكّي بايرنت، وتفحّص أسنانها الخلفية. جاء صوته مخنوقاً بسبب الكمامة: "لا أرى ريشة أخرى".

- "هل نستخدم جهاز لوما لايت الضوئي؟"

التفتَ إلى تقنية التشريح وقال: "ليزا، من فضلك".

تناولت ليزا الجهاز من الخزانة، ثم نقلت بايرنت إلى عربةٍ ذات عجلات، وقادت العربة إلى الباب الثاني الذي يؤدي إلى غرفة الأشعة السينية. لاحظتُ عندما انضممت إليهما أن ليزا جلبت عباءة بايرنت الفضفاضة، ونشرتها فوق طاولة الأشعة السينية.

وضعنا، أنا ولامانش، نظارات بلاستيكية مظلّلة باللون البرتقالي، بينما ثبّتت ليزا جهاز اللوما لايت، وهو مصدر ضوء متناوب يتألّف من صندوق أسود، ومن سلك أزرق اللون معزّز يتألّف من ألياف ضوئية. يمكّننا هذا الجهاز من رؤية أي أثر لدليل لا يمكن للعين المجردة أن تراه.

سألت ليزا: "هل أنتما مستعدان؟"

أومأ لامانش بالإيجاب. وضعت ليزا نظارتيها هي الأخرى، وضغطت على زر الجهاز الضوئي.

بدأ الطبيب بتفحّص عباءة بايرنت. ومضَتْ هنا وهناك شعيراتٌ مثلما تضيء الأسلاك الدقيقة. التقطت ليزا هذه الشعيرات بملقط خاص ونقلتها إلى قارورة بلاستيكية.

عاد لامانش لتفحّص الجثة مجدداً فور انتهائنا من فحص العباءة. زحف الضوء

ببطء فوق قدمي بايرنت ورجليها. تفحّص الضوء العظم العاني بأشكاله المتموجة، وكذلك منطقة البطن، والقفص الصدري، والصدر. وأضاء الضوء أيضاً الفجوة الموجودة أسفل الرقبة. لم يلتمع شيء ما عدا شعيرات قليلة أخرى. قلت: "تبدو هذه الشعيرات متطابقة مع شعر الرأس".

قال لامانش موافقاً: "أجل".

لم نجد شيئاً في يديْ بايرنت وأظافرها، وكذلك بالنسبة لعينيها، ومنخريها، وأذنيها.

دخلت الحزمة الضوئية بعد ذلك الفجوة المظلمة لفم تلك المرأة.

قالت ليزا وسط الظلمة: "مرحباً".

التمع أحد أضراسها فوق اللثة مثل الفوسفور، فقلت: "ليس ذلك بالشعرة".

انتزعت ليزا ذلك الشيء اللامع بالكلاّب.

عملنا لمدة ثلاثين دقيقة وسط الظلمة، ومع ذلك لم نحصل إلا على شعرتين إضافيتين فقط. بدت الشعرتان دقيقتين ومتموجتين، أي مثل شعر الضحية تماماً.

أضاءت ليزا الأنوار ثانية. عدت أنا ولامانش إلى غرفة التشريح. فتح لامانش القارورة البلاستيكية التي تحتوي على الضرس، وتفحّص محتوياته تحت العدسة المكبرة. بدا لي أن عقداً من السنين مضى قبل أن يتكلّم.

- "إنها جزء من ريشة أخرى".

تبادلت أنا ولامانش النظرات، وخطرت على أذهاننا نفس الشكوك. ظهرت ليزا مع السيدة بايرنت مجدداً في تلك اللحظة. مشى لامانش باتجاه الجثة، وتبعتُه. أمسك بذلك النسيج بإحكام، ثم قلب شفة المرأة العليا. بدا السطح الداخلي طبيعياً. قلب شفة بايرنت السفلية، فاستطعت رؤية تمزقات أفقية تشوّه اللحم الناعم. تمركز كل تمزق مع موقع قاطعة سفلية.

فتح الجرّاح جفني بايرنت الأيسرين مستخدماً إبهامه وسبابته. انتقل بعد ذلك إلى الجفنين الأيمنين. ظهرت على العينين بثرات، ونقاط حمراء دقيقة، بالإضافة إلى لطخات تدلّ على التصلّب على الملتحمة.

دارت صور رهيبة في ذهني وقلت: "إنه الاختناق".

تصوّرت هذه المرأة وحيدةً في سريرها، في منزلها الذي ظنّته آمناً، واعتبرته ملاذها، ثم يظهر شبح يتسلّل في الظلمة. تخيّلت الأصابع وهي تلتفّ حول رقبتها،

فتحرم رئتيها الأوكسجين، وتجعل قلبها ينبض رعباً.

- "ينجم نزيف البثور عن أشياء عديدة يا تمبرنس. ويدل ظهوره على شيء أكبر من تفجّر الشعيرات الدموية".

قلت: "إنها الأشياء التي تنتج عن تزايد مفاجئ في الاحتقان الوعائي في الرأس".

قال لامانش: "أجل".

قلت: "كما يحدث في حالة الخنق".

- "يحـــدث نـــزيف البثور أيضاً نتيجة السعال، العطس، والتقيؤ، وفي حالة بذل الجهد عند التغوّط، وكذلك نتيجة المخاض..."

- "أشك أن هذه المرأة كانت على وشك أن تلد طفلاً".

تابع لامانش الكلام، واستمرّ بتفحّص عنق بايرنت مستخدماً إصبعه: "... يحصل ذلـــك إذا دخل جسم غريب مسبباً الانسداد، أو سد مجرى الفم، أو انتفاخ بطانة مجرى الهواء".

- "هل ترى علامات تدل على هذه الأمور التي ذكرتها؟

رفع لامانش عينيه باتجاهي، وقال: "إنني بدأت بالكاد فحصي الخارجي".

- "يُحتمل أن تكون قد خُنقت".

قال لامانش وكأنه يحدث نفسه: "ليس هناك أية خدوش، ولا أظافر متكسرة، ولا أية علامة تدل على العنف، أو على مقاومة للدفاع عن النفس".

بدأت أعبّر عن الأفكار كما وردت على ذهني: "يُحتمل أن تكون قد اختنقت أثناء نومهـــا باســـتخدام وســـادة. لا تخلّف الوسادة أية علامة، كما أن الوسادة تفسّر وجود الريش في فمها والجروح في شفتها".

- "لا يُعتبر نزيف البثور الشديد نادراً في الجثث التي يكون الرأس فيها منخفضاً عن مستوى بقية الجسم".

- "توحي الزرقة في ظهرها وكتفيها أنها ماتت ووجهها نحو الأعلى".

انتصـــب لامـــانش قائلاً: "وعد التحري رايان بتجهيز صور مسرح الحادثة بعد ظهر هذا اليوم".

تشـــابكت نظراتـــنا للحظة. أنزلت كمامتي بعدها، وأخبرت لامانش قصة السيدة بايرنت. حدّقت العينان المسنّتان في عينيّ، ثم قال لي: "أقدّر كثيراً أنك أثرت موضوع اتصال الضحية بك أمامي. سأبذل مجهوداً إضافياً عندما ابدأ بالفحص الداخلي".

لـــم تكن عبارته هذه ضرورية. أعرف أن لامانش سيكون شديد التدقيق في حالة السـيدة بايرنـت، تماماً كما هي حاله مع كل جثة تفحّصها، سواء أكانت تعود لرئيس وزراء، أم للصٍ صغير. يرفض لامانش الاعتراف بشيء اسمه الموت الذي لا يُعرف سببه.

* * *

فتحـت الكيس الذي يحتوي على البقايا التي استخرجت من المنخفض الثاني في قـبو مطعـم البيتزا، وكانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف. انتزعت عند الساعة الحاديـة عشرة والنصف العظام من كفنها الجلدي، وانتزعت طبقة التراب، والدهون الـناتجة عـن تحلّل العضلات، ورتّبت كل ذلك بطريقة تسمح بتشريحها على طاولة التشريح. أكملت عند حلول الساعة الثالثة والأربعين دقيقة الجردة والفحص.

يعود الهيكل الذي أُعطي الرقم 38428، لأنثى بيضاء، يبلغ طولها خمس وستين إلى ثمانٍ وستين بوصة، ويرجّح أنها ماتت بعمرٍ يتراوح ما بين الثامنة عشرة والثانية والعشـرين. لم يكن اعتناء هذه الفتاة بأسنانها جيداً، ولم تخضع لعملية ترميم الأسنان. لاحظت كسراً شُفي تماماً في عظمة الكعبرة ليدها اليمنى. وظهرت على جمجمتها عدة أضرار حدثت بعد الوفاة، ولم تظهر صدمات عند وقت وفاتها أو حوله.

تبيّن لي أن استنتاجاتي الأولية كانت صحيحة. ظهر أن الفتاة هي أكبر سناً بقليل من الفتاتين الأخريين، وفي ما عدا ذلك فهي تماثلهن بشكل مقلق.

كنت منهمكة بتدوين آخر ملاحظاتي القليلة عندما سمعت باب المكتب الخارجي يُفـتح ويُغلـق. ظهـر لامانش بعد لحظات قليلة. أوحت لي تعابير وجهه أنه لم يأتِ ليخبرني عن تضخّم جديد للأوعية الدموية.

– "وجـدت فائضـاً من الهيموغلوبين الخالي من الأوكسجين في الدم الوريدي، الأمر الذي يدلّ على الازرقاق الذي ينتج عن نقص الأوكسجين في الدم".

– "إنه يدل على الاختناق".

– "أجل".

– "هل هناك شيء آخر؟"

– "لا توجد أشياء غير مألوفة بالنسبة لامرأة في عقدها السابع من الحياة".

– "إذاً هناك احتمال بأن تكون قد تعرّضت للاختناق".

– "أخشى أن يكون هذا احتمالاً وارداً".

– "هل لاحظت أية جروح؟"

هزّ لامانش رأسه: "لا توجد أية كسور، ولم أشاهد دليلاً على حدوث نزيف، وما من علامات تدلّ على خدوش أو مخالب. لم ألاحظ وجود نسيجٍ تحت أظافرها، ولا أي شيء يدل على المقاومة".

– "يُحتمل أن تكون المرأة هوجمت أثناء نومها، أو لعلها تعرّضت للتخدير".

– "سأطلب إجراء فحص كامل للسموم".

فُتح الباب الخارجي مجدداً ثم انغلق ثانية. سمعت وقع أقدام خفيفة تعبر المكتب الخارجي. كان رايان يقوم بعمله المعتاد كتحرٍ ذلك اليوم. ارتدى قميصاً قطنياً، وبنطال جينز، وسترة فضفاضة داكنة اللون مزودة برُقَعٍ عند المرفقين.

تبادل لامانش ورايان تحية الصباح، وتبادلت مع رايان إيماءات التحية. أطلع لامانش رايان على تفاصيل ما اكتشفه. وسأل رايان: "ما هو وقت الوفاة؟"

– "هل وجدتَ أيّ دليل على آخر وجبة لها؟"

– "رأيت صحناً، وملعقة، وفنجاناً في الرف المخصص للصحون. شاهدت علبة حساء فارغة في سلة النفايات، وبعض خضار الحدائق".

– "فرغت محتويات المعدة تماماً. ويُحتمل أن يكون ذلك قد حدث في غضون ثلاث ساعات من استهلاك الحساء".

– "تقول ابنة الأخت إن السيدتين تعوّدتا تناول العشاء في حوالى السابعة، وكنّ يذهبن للنوم حوالى التاسعة أو العاشرة".

رفع لامانش إصبعه: "هذا إذا كان الحساء عشاءها وليس غداءها. لا تنسَ أن الفيزيولوجية المعدية تتغيّر بشدة. يستطيع التوتر العصبي، وبعض الأمراض الأخرى، أن تؤخّر عملية إفراغ المعدة".

تذكّرت الصوت المضطرب الذي سمعته على الطرف الآخر من الخط. بدا توتر بايرنت واضحاً حتى على بعدِ المسافة.

– "سأحصل على تفويض قضائي يسمح لي بالاطلاع على المكالمات الهاتفية".

وضع لامانش يديه خلف ظهره: "لكن حالة التحلل توحي باحتمال حصول الوفاة يوم الجمعة. والآن ماذا أحضرتَ لنا أيها التحري؟"

تناول رايان ظرفاً بنيّ اللون من جيب سترته، ثم وزّع صوراً ملونةً على الطاولة. أعادتنا الصور التي تبلغ قياساتها 5X6 بوصات إلى يوم لويز بايرنت الأخير.

شاهدنا المنظر الخارجي للبيت المؤلف من طابق واحد، والمشيّد من الأحجار البنية الفاتحة اللون. شاهدنا الممرات الخالية من الجليد، والشرفة الأمامية، والنافذة المزينة بأسلاك المصابيح المتعددة الألوان. شاهدنا أيضاً الباب الخشبي الأزرق اللون. بدا إكليل من الزهر يحمل عبارة عيد سعيد! مكتوبة على رقعة قماش مخملية، وبدت في الصورة الباحة الخارجية، وهي الباحة التي وُضعت فيها مجسمات بلاستيكية لغزلان الرنة. كما ظهرت في صورة الباحة الخلفية المغلقة مزلجةٌ لطفلٍ تتكئ على الجانب البعيد لسياج معدني متشابك. رأينا شرفةً اسمنتية خالية من الجليد، بالإضافة إلى رفشٍ مخصص لجرف الثلج.

تفحّصت، أنا ولامانش، الصور من دون أن نتبادل كلمة واحدة. أظهرت الصور القريبة للبابين الأمامي والخلفي مقابض وأقفال لم تتعرّض للتلف. تفحّصت صورة للمطبخ التقطت من الجهة اليمنى، وأخرى التقطت من الجهة اليسرى. بدا في الصورتين موقد غاز، وثلاجة، وطاولة مغطاة تحوي حوضاً لغسل الصحون من الفولاذ الذي لا يصدأ، بالإضافة إلى لوحة خشبية تستخدم لتقطيع اللحم لا تستند إلى أي دعامة. ظهرت في الصورة أيضاً ملعقة واحدة، وكوباً كبيراً، ومقلاة، موضوعة كلها على الرف المخصص للصحون.

قلت: "يبدو المطبخ مرتباً".

قال رايان موافقاً: "لا يوجد شيء خارج مكانه، ولا توجد علامات تدل على الكسر والخلع. ولا توجد علامات تدلّ على وجود عدة أشخاص".

سأل لامانش: "هل كانت الأبواب موصدة؟"

– "تظنّ باستيلو أنها كانت موصدة، لكنها لا تستطيع أن تؤكّد ذلك".

– "أتعني ابنة الأخت؟"

أومأ رايان: "تلقّت باستيلو مكالمة هاتفية على هاتفها الخليوي ما إن وصلت إلى مدخل بيت والدتها. تتذكّر أنها واجهت مشكلة في فتح الباب، لكنها ظنّت أن ذلك يرجع إلى حملها الهاتف الخليوي بيد بينما تفتح الباب بالأخرى. إنها تعترف أنه لو كان الباب مفتوحاً فلربما أقفلته عن غير قصد، ثم فتحته مرة ثانية".

سأل لامانش: "هل البيت مجهز بنظام أمني للحماية؟"

هزّ رايان رأسه بالنفي، ثم تناول صورة فورية من جيبه وناولها إلى لامانش. مرّر لامانش الصورة لي.

أظهرت الصورة الفورية امرأة بدينة ذات شعر مشمشي اللون تتجاوز الستين من عمرها، وبدا أنها تضع مساحيق تجميل من ماركة بولوك.

سألتُ: "هل هي روز فيشر؟"

أومأ رايان بالإيجاب. أعدت الصورة إليه، ثم عدت إلى صور مسرح الجريمة. فــي إحدى الصور بدت أريكة ومقعد مزدوج، وفي صورة أخرى ظهرت نافذة عليها ستائر مطرزة. بدت في الصورة أيضاً ستائر أفقية وقفص لطائر موضوع على حاملة معدنية مزخرفة. تذكّرت فوراً سماع صوت خفق الأجنحة على الجهة الثانية من الخط عندما كانت بايرنت تتّصل بي. سألت باشمئزاز: "أي نوع من الطيور هو؟"

– "إنه ببغاء".

إنــه مثل الطائر الذي تقتنيه كاتي، كانت هذه الأصوات بالذات هي التي حاولت معرفة طبيعتها عبر الهاتف.

– "من يعتني به؟"

تطلّع رايان صوبي بنظرة فيها الكثير من الاستغراب، وأجاب: "باستيلو".

سأل لامانش: "هل ظهرت شقيقة الضحية؟"

– "أتعني روز فيشر؟ لا".

– "ماذا تستنتج من هذا؟"

– "تقــول باســتيلو إن والدتها وخالتها تحبّان الانطلاق بجولات عبر الطرقات، لكنهما تعلمانها بخطة تحرّكهما في العادة".

قلت مخمنة: "لكي تطعم ذلك الطائر".

أومأ رايان بالإيجاب.

سأل لامانش: "هل اعتادت السيدتان أن تستقلاّ سيارة؟"

– "كانــتا تســتقلاّن سيارة فيشر. إنها من نوع بونتياك غراند بري طراز العام أربعة وتسعين".

– "هل هذه السيارة مفقودة الآن؟"

– "إنهــا غــير موجــودة في منزل فيشر. أصدرتُ مذكرة بحث عن السيارة. سيلاحظ أحد ما رقم التسجيل إن كانت موجودة".

سألتُ: "من هو "آلبان فيشر؟"

– "إنــه زوج فيشــر. كــان يعمــل كمحاسب ضرائب، ومات في العام أربعة

وتسعين. لم تكلّف روز نفسها عناء تغيير الاسم في دليل الهاتف".

- "هل تشك باستيلو بنيّة أحد الأشخاص بإيذاء والدتها أو خالتها؟"

- "تقول باستيلو إنهما على خصام مع أحد الجيران بشأن إيقاف سيارة جيب في الطريق المخصصة لهما، وهي تصرّ على أن نتحقّق من الأمر مع ذلك الشخص".

سألتُ: "هل توحي باستيلو بالثقة؟"

أومـأ رايان باتجاه لامانش: "أشك في قدرة رجال الطاولة المستديرة في بيركلي على استخدامها، لكنها تبدو لي صادقة بما فيه الكفاية. يقول دوك إننا أمام جريمة قتل، لذلك سأبدأ بالبحث عن خلفية هذه السيدة".

دخـل لامـانش ورايان في حالة صمت مطبق بينما تابعت استعراض مجموعة الصور. شاهدت صورة رواق، وغرفة نوم، وحمام، ثم وجدت صورة لحمامٍ ثانٍ، لكنه أصغر قليلاً من الحمام الأول. كما ظهرت صورة خزانة مصنوعة من خشب القيقب، ومنضدة، وسرير ذي أعمدة جانبية... وجثة.

رقـدت لويـز بايرنت على فراش ذي لون زهري فاتح متكومة كطفلة. استلقت وأدارت وجهها نحـو الباب، وألقت ذراعها اليمنى باتجاه الأعلى، بينما تدلّى رأسها بشـكل غريـب علـى وسادة متجعدة. بدت في الصورة عيناها السوداوان وحاجباها المتقوسان، وتدلّت خصلات من شعرها الأشيب فوق وجهها.

ظهر لحاف زهري اللون مطوي بعناية إلى جانب طرف السرير. ظهرت أيضاً وسادة ثانية فوق اللحاف المطوي. لاحظت أن هذه الوسادة هي دون غطاء، فطرحت سؤالاً لم أوجّهه لأحد بالتحديد: "هل حركت باستيلو الجثة؟"

- "تقول إنها وجدت خالتها غائبة عن الوعي، فحاولت أن تعيد وعيها إليها".

- "هل لمست الوسادة؟"

- "إنها لا تتذكّر أنها فعلت".

اسـتطعت أن ألاحـظ زوجاً من الأخفاف موضوعاً بترتيب تحت السرير، كما لاحظـت وجود زوج مطوي من النظارات، وكوباً كبيراً، وقارورة بلاستيكية تحتوي على حبوب أدوية. سأل لامانش: "هل هذه القارورة هي التي أُرسلت إلينا؟"

- "أجل. إنها تحتوي على ثلاثين حبة، وتمّت تعبئتها يوم الأربعاء الماضي. إنها تنقص ثماني حبوب".

- "هل عرفت محتويات الكوب الكبير؟"

– "كـــان يحتوي على الماء. عبأته باستيلو عندما فشلت بإيقاظ خالتها. تقول إنها شعرت بالذعر، ولم تعرف ما الذي يتعيّن عليها عمله".

– "هل وجدت الكوب فارغاً؟"

– "إنهـــا تظـــنّ ذلك. يجب أن نتذكّر أن باستيلو ليس الأكثر ذكاء من بين أفراد عائلتها".

سأل لامانش: "هل وجدت أدوية غير تلك التي أحضروها مع الجثة؟"

– "وجدت فيوكس، وهو دواء لالتهاب المفاصل وقد أعطيتك إياه. تبقى مجموعة الأدويـــة المعـــتادة لخزانة الأدوية مثل الكالسيوم، الأسبرين، مستحضر أتش. وجدت أيضـــاً أنـــبوباً نصف فارغ من نيوسبورين، بالإضافة إلى الأدوية التي تباع من دون وصفة طبية، مثل أدوية الحساسية".

سألتُ: "هل هناك شيء غير طبيعي بالنسبة لوجود الكوب في غرفة النوم؟"

– "تقول باستيلو إن شخير أمها يصل إلى حد لا يطاق، أما نوم بايرنت فهو من الـــنوع غير العميق، لذلك فهي لا تضع رأسها على الوسادة قبل أن تتناول حبتين من الآمبـــيان مع كوب شاي الأعشاب الذي تتناوله. لم تستطع باستيلو أن تتأكّد ما إذا كان قد بقي شيء من الشاي في الكوب، وتضيف أنها لربما اعتقدت أن الكوب كان يحوي بقية من الشاي فأقدمت على إفراغه".

قلتُ: "لعله من الصواب أن نحصل على ذلك الكوب".

أومأ رايان برزانة: "نعم سيدتي".

شـــعرت أن خدّي قد توردا، إذ من البديهي أن يكونوا قد جلبوا ذلك الكوب. قال لامانش: "نستطيع إجراء تحليل لعاب بايرنت الذي سال على غطاء الوسادة، لكن ذلك لن يكون مفيداً من الناحية العملية".

قلتُ: "يسيل لعاب السيدات المسنات عادةً".

وافق رايان: "من المعروف أنهن يفعلن ذلك".

ســـأل لامانش: "هل وجدت أي شيء يدل على الوقت الذي نامت فيه روز فيشر في بيتها لآخر مرة؟"

وجّـــه رايـــان إصبعه باتجاهي: "وجدنا السرير مرتباً، وكانت عباءة النوم معلقة على كلاّبة في باب الحمام. لم نجد كوباً على طاولة سريرها".

لـــم يخطر على ذهني أيّ جواب سريع. أضاف رايان: "قالت باستيلو إن والدتها

اعتادت أن تخلد للنوم بعد خالتها".

أمضينا دقيقة كاملة نتفحّص الصور قبل أن يتوجّه رايان بالحديث إلى لامانش.

– "ما هو رأيك أيها الطبيب؟ هل نحن أمام جريمة قتل؟"

أصلح لامانش من وقفته، لكنه أبقى يديه وراء ظهره، وقال: "تابِع تحقيقاتك أيها التحري. أعتقد أن الأمر يثير الاشتباه. سأعلمك بنتيجة فحص السموم حالما تنتهي".

أمضيت مع رايان عدة لحظات أخرى في تفحّص الصور الفورية. شعرت بثقلٍ شديد يضغط على معدتي. كسرتُ جدار الصمت المخيّم قائلة: "أعتقد أنها قُتلت".

جـــاء رد رايـــان مفعمـــاً بالحساسية: "يبدو أن لامانش ليس مقتنعاً بالكامل بهذه الفرضية".

– "أجرت بايرنت مكالمات هاتفية مدعية أنها تمتلك معلومات عن الفتيات الثلاث المقتولات، ثم وُجدت بعد أربعة أيام ميتةً في سريرها وهي تحتفظ بريش وسادتها في فمها".

– "ليس من المستغرب أن تموت السيدات المسنات".

– "أين شقيقتها إذاً؟"

– "هذا هو اللغز".

– "ماذا أرادت بايرنت أن تقول لي عن العظام؟"

– "إنه لغز آخر".

طرفـــت عيـــنا رايـــان، أمّا أنا فأحسست أن معدتي تنقلب، وأنها استقرّت على جانبها. أخذتُ نَفَساً عميقاً وسألته: "ما خطبنا يا رايان؟"

تطلّع رايان نحوي بعينين زرقاوين تماثلان زرقة خليجٍ في جزر الباهاماس.

تصـــارع فريقان من الأفكار في رأسي. الفريق الأول يؤيد مواجهته بتواجده مع تلك الحسناء التي رآها شاربونيو معه، لكن الفريق الثاني نصحني بإبقاء الأمر لنفسي. للحظـــة، فاز الفريق الثاني، فمن الحكمة الاحتفاظ بهذا الأمر لنفسي. بعدئذٍ اكتشفت أن للحكمة استثناءاتها.

– "ذكر شاربونيو هذا الصباح شيئاً غريباً أمامي".

– "إذا كنتِ تقصدين إطلاق النار الذي حدث يوم السبت، فأنا أقول لك إنه لم يكن بالأمر المهم كثيراً".

– "رآك في قاعة المحكمة في شهر آب/أغسطس الفائت".

ابتسم رايان ابتسامة صبيانية: "إنني رجل مكدّ في عملي".

- "كان ذلك في الأسبوع نفسه الذي غادرتَ شارلوت فيه".

أطلــق رايــان ضحكة خافتة وردّ قائلاً: "ذهبت إلى نوفا سكوتيا لمعالجة مشكلة عائلية".

يا لعمق المياه الساكنة!

- "لم تكن لوحدك".

- "ليس الأمر كما تظنّين".

- "وما هو الشيء الذي أظنّه بالفعل؟"

بدأت ابتسامة رايان بالتلاشي، ثم استعادها قليلاً، ولمستْ أطراف أصابعه خدّي. تــناول الصور الموضوعة على الطاولة، ثم وضعها في المغلّف وناولني إياه. تبادلنا النظرات لوقت طويل، ثم قال لي فجأة: "أنا أحبّك، وأنتِ تعلمين ذلك".

نظــرت إلــى حذائي، بينما تصارعت المشاعر في صدري، ثم أغمضت عينيّ. ســمعت صوت باب المكتب الخارجي يُفتح، ثم سمعت صوته ثانية. فتحت عينيّ لأجد أن رايان قد غادر المكان. لم تحدث أشياء مهمة في الأيام الثلاثة التالية. بعدئذٍ ارتكبت غلطتي الأولى.. وتبعتها الثانية... تبعتها غلطتي الثالثة.

الفصل 20

مضــت عــدة أيام ولم تظهر أية حالة وفاة تتطلّب فحصاً من عالمٍ انثروبولوجيا متخصــص. لم تظهر أيضاً أية بقايا متحللة في شاحنات مقفلة. ولم تُكتشف جثث في عليّة أي منزل، ولا أيّ جزء مقتطع من جثة.

حاولــت يوم الثلاثاء الاتصال بالمزيد من الأشخاص الذين يحملون اسمَيْ مينارد وتروانغ، ثم اطّلعت على تقارير عن القضايا التي تتطلّب درساً، واطّلعت على البريد الإلكتروني، والمراسلات الأخرى. تعوّدت آن النوم في تلك الأيام حتى الساعة الثانية، واســتمتعتْ بســماع أغاني الأوبرا، وبمشاهدة المسلسلات التلفزيونية. لم تحدّثني آن كثــيراً، مع أنني أخذت إجازة من العمل في المختبر في فترات بعد الظهر لكي أكون معهــا. كانت آن تتناول الكثير من الشراب في فترات الغداء، وتدّعي أنها تشعر بتعبٍ كبــير، قبل التوجّه للنوم عند الساعة العاشرة. رحتُ أتساءل عن التعب الذي يشعر به شخص يصحو لثماني ساعات فقط، من دون أن يفعل شيئاً.

يجتمع الحرفيون من جميع أنحاء المقاطعة في شهر كانون الأول/ديسمبر من كل عــام، كي يبيعوا مصنوعاتهم، وذلك في صالة الفنون والحرف في كيبيك. أيقظت آن في ظهيرة يوم الأربعاء، واقترحت عليها أن نقوم معاً بزيارة تسوّق ميلادية لمعرض الفنون والحرف، فرفضتْ اقتراحي. لكنني أصرّيت عليها بالذهاب.

وجدنــا حشداً كبيراً من الناس في معرض بونافينتشر. اشتريت وعاءً مصنوعاً مــن الســيراميك اعتزمتُ إهداءه إلى ابنتي كاتي. اشتريت أيضاً غليوناً محفوراً من خشب السنديان كي أقدّمه إلى بيتي، كما اشتريت وشاحاً من صوف اللاما، واعتزمت إهداءه إلى هاري. اخترت إهداء طوقين جلديين رائعين إلى بيردي وبويد، وهما الهرة والكلب اللذان يقيمان مع بيتي في المنزل. اخترت الطوق ذا اللون المشمشي للهرة، أما الكلب الصيني فاخترت له اللون الأخضر الداكن.

شــاهدت معرضاً عُرضت فيه منسوجات حريرية جعلت رايان يقفز إلى ذهني. هل أشتري له ربطة عنق؟ لم يكن هناك تنزيلاتٍ على هذه المنسوجات.

تنقّلت آن ببطء وتكاسل ما بين مكان وآخر، فأظهرت بذلك مستوى النشاط الذي تــبديه مجموعــة فئران المختبر الرائدة. اشتريت لها بعض الحلوى، ووضعت على رأسي قبعات مضحكة، حتى إنني جرّبت وضع طوقٍ للكلاب حول عنقي. حاولت آن إبداء اهتمامها، لكنها سرعان ما كانت تعود إلى حالة عدم الاستجابة، فتتصرّف كأنني لستُ موجودة معها. لم يُفلح أي شيء بتسليتها، كما امتنعت عن شراء أي شيء.

لاحظت أن الاكتئاب الذي شعرت به آن قد وصل إلى عمقٍ أكبر من عمق خندق ماريانا. احتضنتُها عدة مرات طيلة ذلك اليوم، وأسمعتها الكلمات التي تريحها، إلاّ أنها لم تبادلني الأحاديث، وهو أمر مستغرب منها.

تناولــنا العشاء، لكن آن لم تمسّ طبق السوشي إلا قليلاً، وركّزت بدلاً من ذلك علـــى تناول الشراب. ادّعت آن أنها متعبة جداً ما إن وصلنا إلى المنزل، لذلك فضّلت الانسحاب إلى غرفتها.

لـــم يســـبق لـــي أن رأيت صديقتي بهذا الإحباط، لذلك صعُب عليّ تقدير مدى خطورة حالتها. أدركت وجود خطب ما، لكن ما هي حدود قدرتي على التدخل؟ تمنّيت أن يذهـــب عـــنها ســـوء المزاج هذا من تلقاء نفسه. نمتُ تلك الليلة، وحلمت أن آن موجودة على شاطئ مظلمٍ وموحش.

وجـــدت في بريدي الإلكتروني صباح يوم الخميس نتائج اختبارات الكربون 14 التـــي أجراها آرثر هوليداي. حدّقت في السطر الذي يحتوي على الموضوع، فتجمّدت أصابعي على لوحة المفاتيح. لماذا أشعر بالتردّد، مع العلم أنني كنت متلهفةً للحصول على التقرير؟

يـــبدو أن الجـــواب كـــان بديهياً جداً. لم أرغب حقيقةً بالتأكّد من تلك الوحشية الحقودة التي تعرّضت لها شابات بريئات. لم أرغب بأن أعرف أن حياة شابات، بالكاد تجـــاوزن ســـن الطفولة، قد قُضي عليها. تساءلت من قضى على أعمارهن؟ هل هو شـــخصٌ مهووس جنسياً من الذين يشبعون شهواتهم عن طريق فرض الإذعان بالقوة فقط، أم أنه أحد الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات عقلية، ويحملون آلة تصوير فـــيديو، والذيـــن يضطرون بعد ذلك إلى التخلص من الدليل؟ ألا يُحتمل أن يكون أحد التافهين غير الطبيعيين الذين ينظرون إلى النساء بصفتهن أشياء يمكن التخلص منها، ويحسُـــن أن يـــتخلّص المرء منهن بعد تعريضهن لمعاملةٍ منحرفة؟ علمت أن كل هذه الاحتمالات واردة الآن.

تمنّيـــت أن يكون كلوديل على صواب. أردتُ أن يعود تاريخ هذه العظام لزمنٍ

طويـــل مضى. وتمنّيت أن تكون هذه العظام لفتيات دفنتهن عائلاتهن الثكلى في حقبة أخـــرى. أدركــت فـــي نفس الوقت شيئاً غير هذا. أدركت أنه يتوجّب عليّ مواجهة الحصول على الدليل، هذا إذا كنا ننوي المساعدة في التعرف على الضحايا.

أخـــذتُ نَفَســاً عمـــيقاً، ونقرت زر التحميل، ثم فتحت ملّف الأكروبات. اشتمل الإرســـال علـــى خمس صفحات: رسالة الغلاف، وتقرير تحليل الكربون الإشعاعي، وثلاثـــة رســـوم بيانـــية توضـــح طريقة قياس أعمار الكربون الإشعاعي مع الأعوام الزمنية. تطلّعت على الأعمار التي تمّ قياسها من الكربون المشع المعتاد، ثم تنقلت بين منحنـــيات القـــياس، فـــتفجّرت الاحتمالات في ذهني. طبعت التقرير، وأسرعت إلى المختبر.

وجـــدت لامانش في مكتبه، واكتشفت أنه قد وضع شجرة الميلاد فوق الفوضى الموجودة على طاولة مكتبه، أو ربما تكون مساعدته قد قامت بذلك.

قرعت الباب بهدوء مستخدمةً مفاصل أصابعي. رفع لامانش رأسه إلى الأعلى، وقال: "ادخلي يا تمبرانس من فضلك. هل سمعتِ الأخبار؟"

نظرت نحوه باستغراب، فتابع يقول: "وجدت هيئة المحلفين أن السيد بيتيت مذنب بكل الأحوال".

- "متى؟"

- "البارحة".

- "أبهذه السرعة؟"

تطلّع لامانش إلى الأوراق التي أحملها بيدي: "عندما اتّصلت المدعية العامة قالت إنهـــا مـــتأكّدة أن شهادتك ستكون حاسمة في هذه القضية. أعتقد بالتأكيد أن ذلك ليس سبب وجودك هنا".

- "حصلتُ على نتائج اختبارات الكربون 14".

علّق بدهشة: "جاءت النتائج بسرعة".

لم أشأ أن أذكر له الكلفة الإضافية بل قلت: "إن ذلك المختبر فعّال جداً".

نهـــض لامـــانش وانضمّ إليّ حيث كنت أجلس إلى طاولة بيضاوية الشكل قرب طاولته. نشرتُ الأوراق المطبوعة، وانحنينا لتفحّصها.

بـــدأت بالحديـــث: "هـــناك عنصران مهمان، النشاط الإشعاعي لمادة معيارية، والنشـــاط الإشعاعي لنموذج مجهول. سبق لنا أن ناقشنا ظاهرة التجارب النووية التي

أُجريــت فــوق سطح الأرض، وتأثيراتها على مستويات الكربون 14. وإذا أردنا أن نبسّط هذه الظاهرة دعنا نفترض أن القيمة المعيارية للكربون 14 في العام 1950 هي مــئة فــي المــئة. إذا وجدنا أية قيمة تفوق هذه النسبة فإنها تمثل الكربون الناتج عن القــنابل، أو الكربون الحديث، لذلك فإن وجود هذا النوع من الكربون يدل على تاريخ وفاة أحدث من العام 1950".

أشّــرت علــى آخــر رقم موجودٍ تحت العمود المسمى العمر القياسي للكربون المشع، وتابعت القول: "تبلغ نسبة الكربون القياسي المشع العائدة للهيكل رقم 38428 120.5 بنسبة خطأ تساوي خمسة بالمئة".

– "أي أنها نسبة مئوية أعلى من مئة بالمئة للكربون الحديث".

– "أجل".

– "هل هذا يعني أن الفتاة توفيت بعد العام 1950؟"

– "أجل".

– "هل نستطيع تحديد طول المدة بعد العام 1950؟"

– "تتطلّب هذه المسألة الكثير من الحذر. تصاعدت نسبة الكربون القياسي المشع إلــى نسبة 190 بالمئة عندما حُظرت التجارب النووية في الجو في العام 1963. لكن إذا بلغت نسبة الكربون المشع مستوى عالياً، يمكن أن يظهر القياس هبوطاً حاداً. وإذا افترضــنا أن نسبة الكربون القياسي المشع قد بلغت قيمتها مئة وعشرين بالمئة، فإنها تــدلّ على نقطة ما في المنحنى التصاعدي، أي عندما تزايدت مستويات الكربون، أو أنها تدلّ على نقطةٍ في المنحنى التنازلي عندما تتناقص هذه المستويات".

– "وما هو مغزى هذا الكلام؟"

– "إنه يعني احتمال حدوث الوفاة في أواخر الخمسينيات، أو في أواسط أو نهاية الثمانينيات".

شحُب وجه لامانش بشكل ملحوظ.

أشرت إلى الأرقام العائدة للهيكلين اللذين يحملان رقمَي 38426 و38427، وقلت: "يبدو الأمر أسوأ هنا. إن النسبة الحالية للكربون القياسي المشع تبلغ حوالى مئة وسبعة بالمئة".

– "يا إلهي".

– "يعود تاريخ وفاة الفتيات إلى وقتٍ متأخر مثل أوائل الخمسينيات، أو إلى وقت

قريب مثل أوائل التسعينيات".

- "هل ستبلغي السيد كلوديل بهذه النتائج؟"

شعرت بنوعٍ من الانفعال وقلت: "أوه، نعم".

مدّ لامانش أصابعه ولمس شفته السفلى بها، ثم قال: "إذا كانت الفتيات قد اختفين خلال السنوات العشرين الماضية، فمن الممكن أن تكون أسماؤهن قد دخلت في ملفات جهاز الكمبيوتر. يتوجّب أن نرسل هذه البيانات إلى سي. بي. آي. سي".

أشار لامانش إلى مركز معلومات الشرطة الكندية، وهو المركز الذي يماثل أن. سي. آي. سي، أي المركز القومي لمعلومات الجرائم الموجود في الولايات المتحدة.

إن مركـــز ســـي. بـــي. آي. سي، الذي تديره وكالة أر. سي. أم. بي الكندية، ومركز أن. سي. آي. سي، الذي يديره مكتب التحقيقات الاتحادي. يُعتبران بمثابة دليلٍ على الكومبيوتر للمعلومات، ويحتويان على تواريخ السجلات الجنائية، ومعلومات عن اللاجئين غير الشرعيين، بالإضافة إلى الممتلكات المسروقة، كما يتضمّنا معطياتٍ عن الأشـــخاص المفقودين. وُضعت قاعدتا البيانات هاتين بتصرف الهيئات المولجة بحفظ القوانين، بالإضافة إلى الهيئات القضائية الأخرى، وذلك على مدار الساعة، وطيلة أيام السنة.

وضـــع لامـــانش يده على كتفي ما إن نهضنا، وقال: "يتعيّن علينا تكريس أنفسنا لهذا العمل يا تمبرانس، كي نصل إلى حقيقة ما جرى".

كرّرت بنفس درجة مشاعره: "أوه، أجل".

تكلّمت مع كلوديل بعد ثلاثين ثانية عندما عدت إلى مكتبي. لكنه لم يساهم بالكثير في هذا الحديث.

- "ليس بهذه السرعة".

رحـــت أردّد علـــى مســـامعه ببطء شديد يصلح لتعليم اللغة الفرنسية: "ثلاثة.. ثمانـــية.. أربعة.. اثنان.. ستة، أنثى... بيضاء... العمر ما بين ستة عشر إلى ثمانية عشر عاماً... الطول ثمانٍ وخمسين إلى اثنين وستين بوصة".

جاء صوت كلوديل حاداً بما يكفي لحصد القمح: "وحالة الأسنان؟"

- "ليس هناك ترميم، لكني أخذت بالطبع صوراً بالأشعة السينية لما بعد الوفاة".

- "هل تتحدّثين عن العظام التي كانت موجودة في الصندوق؟"

- "نعم".

- "ماذا بعد".

- "ثلاثـــة.. ثمانية.. أربعة.. اثنان.. سبعة. أنثى، بيضاء. يتراوح العمر ما بين خمـــس عشـــرة إلـــى سبع عشرة سنة. ويتراوح الطول ما بين أربع وستين إلى سبع وستين بوصة. ليس هناك من عملٍ على الأسنان".

- "هل تتحدّثين عن العظام التي أُخذت من الحفرة الأولى؟"

- "نعم".

- "تابعي".

- "ثلاثة.. ثمانية.. أربعة.. اثنان.. ثمانية. أنثى، بيضاء، يتراوح عمرها ما بين ثماني عشرة إلى عشرين سنة، ويتراوح الطول ما بين خمس وستين إلى ثمانٍ وستين بوصة. لاحظت وجود كسرٍ اكتمل شفاؤه في منطقة الكعبرة".

- "ماذا يعني هذا؟"

- "كسرتْ معصمها الأيمن قبل عدة سنوات من حدوث الوفاة. تحدث الكسور في منطقة الكعبرة عندما تنبسط اليدان لحماية الجسم من سقطة ما".

- "هل تتحدّثين عن العظام التي استخرجت من الحفرة الثانية؟"

- "نعم".

- "ألا تحمل الهياكل أية صفات مميزة؟"

- "كان أحدها قصيراً، بينما يوجد كسر في ذراع هيكلٍ آخر".

- "إننا نضيّع وقتنا إذا تبين لنا أن وفاة الفتيات قد حدثت في الخمسينيات".

- "يُحتمل أن لا توافقك عائلات الضحايا على هذا الرأي".

- "أعـــتقد أن أقرباء الضحايا، في حال وجودهم، سيكونون متفرقين، أو مضى وقت على وفاتهم".

- "أقدم الجناة على تعرية الفتيات قبل دفنهن في القبو".

- "إذا كانت الفتيات مرتبطات مع كاتانيو، فلربما كن مومسات".

أخذتُ نَفَساً عميقاً. يبدو أن الرجل قد ذهب بعيداً في تخيلاته.

- "أجـــل، مـــن المحتمل أن يكّن مومسات ومذنبات بالخطايا الناتجة عن الجهل والحاجـــة. يُحتمل أن الفتيات قد فررن من بيوتهن، ووقعن بخطايا مفاهيمهن الخاطئة، وحظّهن العاثر. ويُحتمل أيضاً أنهنّ فتيات بريئات لعبت بهن يد الأقدار التي انتزعتهن

مــن حياتهــن من دون ذنب. أعتقد يا سيد كلوديل أنهن يستأهلن شيئاً أفضل من قبر منسي في قبو تفوح منه رائحة العفن، وذلك بغض النظر عن طبيعتهنّ. لم نستطع مد يــد العــون للفتــيات عند موتهن، لكن لربما نستطيع حماية فتيات أخريات من تلقي المصير نفسه في المستقبل".

فــرض كلوديل فترة صمت، قبل أن يقول: "قلتِ سابقاً إن الهياكل لا تحمل آثاراً للعنف".

تجاهلــت ملاحظته هذه، وترددت في إبلاغه أنني أعرف كل شيء عن زيارته لمــنزل ســاير، لكنني قلت له: "اكتشف كلانا... أن ريتشارد ساير هو صاحب البناية حالــياً. اكتشــفتُ أيضاً أن مالك البناية السابق هو نيك كاتانيو، وأن الفترة التي امتلك البناية فيها تقترب كثيراً من أحد المجالات التي حددها الكربون 14".

مــرّت فترة صمت طويلة وثقيلة، ثم سألني: "هل تدركين المجالات التي يفتحها أمامنا تحليلك هذا؟"

أدركــت هــذا جيداً. أجبته: "سأعيد فحص العظام لأتأكّد إذا ما كان هناك شيء إضافي يمكنني مساعدتك به".

- "سيكون ذلك مفيداً".

عاد خط الهاتف ليرسل نغمته المعهودة.

اعتبرتُ كلوديل، على مدى السنوات الماضية، رجلاً عنيداً ومتصلباً في أفكاره، لكنني لم أرفض مواقفه بصورة قاطعة. بدا أن هذه القضية ستهدّد بعكس اتجاهي هذا. قمــت بزيارة سريعة إلى الطابق السفلي لأتناول كوباً من القهوة. بعدئذٍ هاتفتُ آن لكي أدعوهــا، علــى عجل، أن نتناول الغداء معاً. لكنها اعتذرت، كما كنتُ أخشى تماماً. أخبرتها عن نتائج اختبارات الكربون 14.

- "خذي وقتك مع العظام يا تمب، أما أنا فسأبقى هنا".

- "حسناً، لكن دعيني أعرف إذا ما غيّرتِ رأيك، فأنا مستعدّة للتغيير".

أنهيــتُ الاتصال، ورتّبت طاولتي للعمل، والطاولة الجانبية للمختبر، ثم نشرتُ الهــياكل العظمــية كلهــا على الطاولات. ظهر مارك بيرغيرون عندما كنت منهمكة بتفحّص العظمة الكبرى لساق الفتاة التي وجدت في صندوق الدكتور إنرجي.

إن قلتُ إن بيرغيرون هو رجل فريد المظهر، فذلك يشبه قولي إن الكعك المحلّى يحــتوي على قدرٍ كبير من السكر. يبلغ طول بيرغيرون ست أقدام وثلاث بوصات،

ويحافظ جسده على انحناء دائم، أما وزنه فيقارب المئة وستين باونداً، لكنه يحافظ مع ذلك على رشاقة وتناسق طائر اللقلاق عندما يحاول عبور مجرى مائي.

يشغل بيرغيرون مركز طبيب الأسنان الشرعي في كيبيك. بقي هذا الطبيب لمدة ثلاثيـــن عامـــاً يعمل على إصلاح وتعبئة فراغات أسنان الأحياء من أيام الاثنين حتى الخمـــيس، أمـــا أيـــام الجمعـــة فخصّصـــها لفحص أسنان المتوفين. تبادلنا التحيات، وعبّرت له عن دهشتي لرؤيته في المختبر في يوم الخميس.

- "سأنشغل بالمشاركة في عرسٍ لقريب لي، وسأتّجه غداً إلى أوتاوه".

مشى بيرغيرون نحو الخزانة، وتناول معطف مختبرٍ من حمالة الثياب وارتداه. بدا المعطف مثل ملاءة سرير معلّقة على فزّاعة غير محشوة. مدّ بيرغيرون يده باتجاه الهياكل العظمية: "وما هذه؟"

- "وجدناها في قبو مطعم البيتزا".

- "هل مات أصحابها بسبب نوعية الطعام؟"

- "لا أعتقد ذلك؟"

- "هل ماتوا منذ زمنٍ بعيد؟"

- "كل ما أعرفه هو أنهم ماتوا بعد العام 1950. هل لديك اقتراح ما؟"

أصلح بيرغيرون ياقة المعطف ومسّد شعره الأجعد. يمتلك الرجل شعراً غريباً، فعدا عن كون الشعر أشيب وأجعد، فهو يبدأ على بعد ميلٍ من حاجبيه. يدع بيرغيرون شعره ينمو طويلاً جداً بعكس الموضة السائدة، بحيث يتطاير حول رأسه.

- "توحـــي اختبارات الكربون 14 أن الوفاة قد حدثت إمّا خلال الخمسينيات، أو خلال الثمانينيات والتسعينيات".

مشى بيرغيرون نحو أحد الأدراج، وتناول مصباحاً صغيراً يعمل على البطارية، ثم أمسك بالجمجمة التي كانت في صندوق الدكتور إنرجي، وبدأ بتفحّص أسنانها.

- "ألاحظ إهمال صحة الأسنان هنا. هل نزعتِ ضرساً طاحناً ليكون عيّنة؟"

أومأت بالموافقة.

- "أفترض أنك طلبت أخذ صورة بالأشعة السينية أولاً".

فتحتُ مظروفاً بنياً يعود لملف قضية الهيكل الذي يحمل الرقم 38426، ثم أدخلت عشر شرائح صغيرة في الصندوق الضوئي. تفحّص بيرغيرون هذه الصور. التمعت شـــعرة مـــن الطرخشـــقون تحت الضوء الفلوري. لمس إحدى صور الأشعة السينية

بطـــرف إصبعه النحيلة قائلاً: "ليس هناك أشياء مهمة عدا التلف الشامل. لاحظت ناباً مائلاً في الجهة العليا اليمنى".

سألته: "هل تستطيع تقدير العمر".

- "ستة عشر عاماً، ولربما ثمانية عشر".

- "هذا ما اعتقده أنا أيضاً".

انتقل بيرغيرون إلى الهيكل الذي يحمل الرقم 38428.

- "وجد هذا الهيكل العظمي ملفوفاً في كفن جلدي".

- "هل تعرّضت الجثة للتشريح؟"

صدمني سؤاله فقلت: "ماذا تعني؟"

- "لاحظت هذه الحزوز على عظمة الصدغ. هل من الممكن أن تكون قد حدثت أثناء سحب الجمجمة؟"

- "لم أفكر بهذا الأمر من قبل".

حملنا الجمجمة إلى منظار التشريح. تفحّصت العلامات أثناء تكبيرٍ منخفض، ثم أثناء تكبيرٍ أعلى. انغمس بيرغيرون بأفكاره.

- "يُحـــتمل أن تكـــون هـــذه عينات بيولوجية قديمة، أو هياكل عظمية لغرض التعلـــيم. ويُحـــتمل أن يكـــون أحد الأشخاص قد احتفظ بها من قبيل الفضول، ثم فقد اهتمامه بها بعد ذلك، أو أنه قرّر أن الاحتفاظ بها هو أمر محفوف بالمخاطر".

فكّرتُ بما قاله الطبيب، ولم أعتقد أن ما قاله هو حالة بعيدة الاحتمال.

- "لـــم ألاحـــظ وجـــود فجوات مثقوبة، ولا أجزاء من أسلاك، ولم أجد معالجة كيميائية، أو تعديل ميكانيكي. لم تُجمع هذه العظام لأغراض العرض".

بدت العلامات الصدغية بعد تكبيرها مثل أودية، أو منخفضات بشكل V. تواجد بعضها بشكلٍ متوازٍ مع فتحة الأذن، بينما تبعثر بعضها الآخر حول زواياها. وتوحي عملـــية القطـــع الدقـــيق على الأطراف، بوجود التلف بعد أن أصبحت العظمة جافة، وخالية من اللحم.

- "لـــم تحدث هذه العلامات نتيجة استخدام مبضع جراحي. إنها واسعة جداً في مقاطعهـــا العرضية. ويبدو أن ترتيبها عشوائي بدرجة أكبر مما توقّعت حدوثه نتيجة عملية تشريح. أعتقد أنها نتجت عن عملٍ حدث بعد الوفاة".

ســـيطرت علـــيّ فكرة غريبة، وبدأت هذه الفكرة تفرض نفسها في ذهني. لماذا

تــأخذ هــذه الحزوز شكل الحرف V؟ لا يُعتبر هذا الشكل معتاداً في حالة التلف، أو التآكل الطبيعي.

نظــرت إلى الأعلى. انكبّ بيرغيرون على الطاولة الثانية ليتفحّص أجزاء الفك العائدة للهيكل العظمي الذي يحمل الرقم 38427.

أشرت إلى ظرفٍ أصفر اللونِ إلى جانب العظام: "ستجد الأسنان العلوية في ذلك الملف".

نشر بيرغيرون صور الأشعة السينية للأسنان في صندوق الضوء.

- "يُحــتمل أن تكــون الضــحية أصــغر سناً بقليل، أي ما بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة".

- "هل ترى أي شيء له أهمية خاصة؟"

هــزّ بيرغيرون رأسه، فتحرك شعره الأجعد. أرجعت كسرات فك الهيكل الذي يحمل الرقم 38427 إلى مكانها، وعاد بيرغيرون ليتفحّص الهيكل رقم 38428، ثم رفع الجمجمة ووجّه مصباحه الصغير نحوها.

بدا صوت بيرغيرون متلاشياً: "هناك شيء في هذه..."

- "ماذا؟"

رفــع بيرغيرون الجمجمة ليتفحّص الفك، وصوّب ضوء المصباح نحو الأسنان السفلى.

- "أجل".

تركت المنظار لأنضمّ إليه.

- "ماذا؟"

- "يكفي هذا لينزع شكوكَكِ بشأن تواريخ الوفاة".

ناولني بيرغيرون الجمجمة والمصباح الصغير.

الفصل 21

- "اقلبي الجمجمة قليلاً، ثم حرّكي الضوء إلى الأمام وإلى الوراء، فوق الطواحن".

نفّذتُ ما أمرني به بيرغيرون.

- "هل ترينَ لمعاناً بين ثنايا طبقة الميناء؟"

لم ألاحظ شيئاً.

- "أزيحي حزمة الضوء قليلاً".

وجدت أن بيرغيرون على صواب، لاحظت أن اللمعان كان خفيفاً لكنه حقيقي، ولاحظت أيضاً أنه موجود في أسفل الأضراس.

- "ما هذا؟"

- "إن لم أكن مخطئاً فإن الطواحن قد عولجت بالحفر، وبوضع مادة لسد الفجوات".

رفعت نظري فوجدت بيرغيرون يحرّك المنظار. لم يكن الرجل مزاجياً بالتأكيد في حركته.

- "إن مادة سد الفجوات هذه هي طبقة رقيقة من مادة صمغية بلاستيكية، توضع فوق أسطح الطواحن التي تقوم بعملية المضغ. تطلى هذه المادة وكأنها سائل، ولا تمضي دقيقة حتى تتصلّب لتشكل حجاباً واقياً".

- "وما هو الهدف من ذلك؟"

- "إنها مادة تمنع النخر، أي تسوّس الأسنان".

دسّ بيرغيرون الفك الأسفل للهيكل العظمي الذي يحمل الرقم 38428، تحت عدسة المجهر، وحدّق من خلالها، وعدّل درجة التركيز.

- "نعم أيتها السيدة. إنها مادة سدّ الفجوات".

بدأ بصيص الأمل يتحرّك في صدري.

- "متى وُضعت هذه المواد التي تسدّ الثقوب موضع الاستخدام".

أجابني بيرغيرون من دون أن ينظر نحوي: "توفّرت أولى هذه المواد بشكل تجاري، وقدّمت لأطباء الأسنان في أوائل السبعينيات. وانتشرت بشكل واسع منذ الثمانينيات".

تزايدت حركة بصيص الأمل في صدري. من غير المحتمل إذاً أن يكون موت الفتاة ذات الكفن الجلدي قد حصل في أعوام الخمسينيات! إذا أجرينا بعض الاختزال سنجد أن وقت الوفاة يقفز نحو أواخر الثمانينيات!

حاولت أن أُبقي صوتي هادئاً، وسألته: "ما هو مدى انتشار هذه المواد؟"

- "كانت منتشرة جداً، لسوء حظ العاملين في حقل الطب الشرعي. ينصح معظم أطباء الأسنان بوضع هذه المادة فور بروز الطواحن الدائمة. زاد في انتشارها أيضاً البرامج المستندة إلى المناهج المدرسية في معظم الولايات الأميركية، وذلك منذ عشرين سنة على الأقل. وتُعتبر كندا متخلفة قليلاً في هذا المجال، لكن هذه المواد لقيت انتشاراً واسعاً هنا منذ أواسط الثمانينيات".

أطفأ بيرغيرون الضوء الذي يستخدم الألياف البصرية، وركّز اهتمامه الآن على الفتاة التي وُجدت في صندوق الدكتور إنرجي: "لم تساعد المواد التي تسدّ الفجوات هذه الشابة كثيراً، فلديها من التسوّس أكثر ممّا لدى الفتاة الأخرى".

- "إذاً ذهبت هذه الفتاة إلى طبيب الأسنان مرة واحدة، ثم امتنعت عن متابعة الاهتمام بأسنانها".

- "إنه نموذج غير نادر بالنسبة لمن يتركون منازلهم ويتّجهون إلى الشوارع. يهتمّ الأهل بصيانة أسنان أولادهم طالما هم في المنزل، ثم يغادر الأولاد إلى الشوارع، حيث تضطرب الأنظمة الغذائية والصحية لديهم، وتعاني أسنانهم نتيجة لذلك".

- "كم بلغتْ من العمر؟"

عاد بيرغيرون إلى الطاولة التي تحمل الضوء، وتفحّص صور الأشعة السينية لأسنان الفتاة التي تحمل الرقم 38428.

- "يبدو أنها أكبر قليلاً من الأخريات. سأقدّر عمرها ما بين الثامنة عشرة والحادية والعشرين".

لاحظت مجدداً أن تقديرات بيرغيرون كانت متوافقة مع ما لاحظته أنا من خلال

دراستي لهذه العظام.

- "هل هناك دليل على وجود تلك المادة عند الفتاتين الأخريين؟"

أعاد بيرغيرون تفحّص أسنان الفتاتين اللتين تحملان رقمَي 38426 و38427. وبدا أنهما لم تتلقّيا هذا العلاج.

- "من المؤسف أن أياً منهما لم ترمّم أسنانها. أعلميني إن كنت أستطيع تقديم أية مساعدة أخرى لك".

- "ساعدتني كثيراً".

انطلقت بأقصى سرعتي نحو مكتبي واتّصلت بكلوديل.

عرفت أن كلوديل وشاربونيو مرتبطان بمقابلةٍ، لذلك لا يمكنني مقاطعتهما. تركت رسالة لهما أطلب منهما الاتصال بي بأسرع ما يُمكن. رجعت إلى مختبري، وتناولت قطعة متكسرة من الفك الذي تركه بيرغيرون قرب المجهر. لاحظت أثناء إرجاعي لهذه القطعة إلى ملف الرقم 38427 شقاً دقيقاً على النتوء المفصلي للفك الأيمن.

عدت إلى المجهر.

وجّهت حزمة الألياف البصرية، بعد إمالتها قليلاً، نحو العظمة، فوجدت شقّين إضافيين على الفرع الصاعد من الفك، وأخدوداً صغيراً جداً على زاوية الفك. تفحّصت بعد ذلك القسم الأيسر من الفك، فلم تظهر أية شقوق ولا أخاديد. تفحّصتُ الجمجمة، ولم تظهر أية شقوق ولا أخاديد.

تفحّصت كل الكسرات المتناثرة التي اقتطعت من عظام الخد الأيمن، وتمكّنت بمساعدة هذا الضوء من ملاحظة ستة أخاديد سطحية يبلغ طول الواحد منها حوالى الخمسة ميليمترات. لاحظت أنها منتظمة على شكل ثلاث مجموعات، تتألّف كل مجموعة منها من أخدودين.

رزح همّ آخر في ذهني، فزدت قوة تكبير المجهر. لاحظت أن هذه الشقوق والأخاديد بدت مختلفة عن تلك العائدة إلى الهيكل رقم 38428، مع أنها غير طبيعية بشكل واضح. أخذت هذه الشقوق والأخاديد شكل الحرف V، لكنها كانت أضيق بكثير في عرضها المقطعي، بالإضافة إلى أنها بدت أكثر دقة عند أطرافها. إنها تشبه العلامات التي يتركها مبضع جراحي على عظمة حيّة.

استرخيتُ في مقعدي، وبدأت أفكر بمغزى هذه الظاهرة. أعدت في ذهني تركيب

كـــل القطـــع التي تؤلف الجمجمة، ووصلت أجزاء الفك. تبيّن لي أن الشقوق تركّزت حول فتحة الأذن.

ماذا يجري بحق الجحيم؟ هل هي صدفة؟ أم عمل شرّير؟

لاحظـــت وجـــود شاربونيو بينما كنت أهّم بتفحّص جمجمة الفتاة التي كانت في صندوق الدكتور إنرجي وفكّها. وقف شاربونيو خلف النافذة التي تشرف على حوض الغسيل. أشرت إليه بدخول مكتبي. نزعت قفازَي، وغسلت يديّ، ثم عبرت القاعة.

وجـــدت شاربونيو جالساً جلسته التقليدية في الكرسي المواجه لطاولتي، وقد مدّ رجلـــيه وأرخى كتفيه. ارتدى لهذا اليوم سترة بلون التوت البري اللامع، مثل اللمعان الذي تتمتّع به تلك المادة التي تسدّ ثقوب الأسنان.

- "هل السيد كلوديل منشغل باجتماع مع لجنة نوبل هذا الصباح؟"

خفّـــض شـــاربونيو ذقـــنه، وأغمـــض عينيه، وفتح راحتَي يديه، ثم قال: "ماذا تقصدين؟ ألا أكفي أنا؟ إن لوك مشغول بالفعل".

- "هل يأخذون قياساته عند إرمينيغيلدو زينا؟"

نظـــر شـــاربونيو إلـــيّ وكأنني تكلّمت باللغة الأتروسكية، فأوضحتُ له: "هناك يصنعون البذلات".

كتم شاربونيو ابتسامة عريضة كانت على وشك الظهور على شفتيه، وقال: "إنه منهمك بتفحّص لائحة المستأجرين التي أعطاه إياها ساير".

ارتفع حاجباي نتيجة الدهشة: "أحقاً؟"

- "اتّصل أوتييه هاتفياً".

لا بد أن لامانش تحدّث مع رئيس المحققين، ولا بد أن هذا الأخير أمره بالتحقيق جدياً في قضية قبو مطعم البيتزا.

- "يبدو أنه لم يكن هناك الكثير من الحبور في ما قاله أوتييه. أليس كذلك؟"

- "لوك يعتبر التعليقات وكأنها إرشادات مقترحة".

شرحت له الأشياء التي اكتشفها بيرغيرون.

- "هل بيرغيرون مقتنع أن تلك المادة هي مادة سدّ الفجوات؟"

- "بالتأكيد. أعتقد أن هذا هو ما يسميه الصحفيون التعزيز المستقل للوقائع".

- "نستطيع القول إذاً إن واحدة على الأقل من الضحايا قد توفّيت في السبعينيات، أو في وقت لاحق".

- "وضعت اختبارات الكربون 14 مدة الوفاة في نطاقين، الأول في الخمسينيات، أما الثاني فكان الثمانينيات".

- "أعتقد أنه يجب علينا التركيز على الثمانينيات".

- "أعتقد أن هذا هو ما نفعله".

- "هل تتكلّمين عن الفتاة ذات المعصم المكسور؟"

أومأتُ بالموافقة: "إنه الهيكل الذي كان ملفوفاً بكفنٍ جلدي".

هبّ شاربونيو واقفاً: "يا له من سافل! سأدخِل معطياتها إلى الحاسوب على الفور".

لم يكد شاربونيو يخرج من الباب حتى رنّ الهاتف. كان آرت هوليداي هو الذي يتّصل من فلوريدا.

- "هل حصلتِ على تقرير الكربون 14؟"

- "نعم، وشكراً لك. أقدّر لك تحويله إليّ بهذه السرعة".

- "إننا نهدف لإرضاء زبائننا، لكن اسمعيني، فلربما لديّ شيء آخر لكِ؟"

كنت قد نسيت عرض هوليداي لإجراء اختبارات إضافية.

- "ما زالت اختبارات تحليل نظائر السترونتيوم في مرحلة الاختبار بالنسبة لأغراض التحقيقات، لكننا استطعنا تطبيق هذه التقنية على قضايا في الطب الشرعي. استطعنا في إحدى الحالات أن نحدّد الموطن الأصلي لستة غزلان ذات ذيول بيضاء. استخدمنا القرون في هذه الدراسة مع علمنا بالطبع أن هذه الغزلان لا بد أن تأتي من إحدى ولايتين. عرفنا أننا نتعامل مع منطقتين جغرافيتين منفصلتين من ناحية النظائر، واستطعنا الانطلاق من هذه المعلومة لقياس المجموعات الرئيسية في الاختبار. سهّل هذا الأمر مهمتنا إلى حد كبير".

تعلّمت على مدى السنين أن من المستحيل أن أحمل آرت هوليداي على التعجيل في عرض ما لديه. إنه يفرض عليك أن تسير مع سياق كلامه، وأن تستمع جزئياً إلى التفاصيل، وذلك قبل أن تركّز على الاستنتاجات التي يقدّمها.

- "إننا نحرز نتائج طيبة في تفحّصنا لأنماط الهجرة والاستيطان، وذلك بالنسبة للساكنين القدامى في مناطق معينة".

ذكّرني كلامه هذا بأمر يتعلّق بالآثار، فسألته: "هل مجموعتك هي التي تقوم بتحليل المكتشفات القديمة في ولاية أريزونا؟"

- "تعـــود هذه المدفونات إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر. إننا نعرف أن عملـــية البـــناء والاســـتيطان في بعض القرى الهندية الأكبر حجماً قد استغرقت عدة أجـــيال. سكن مئات من الناس في هذه القرى، وهناك احتمال بأن يكون هؤلاء خليطاً مـــن السكان القدامى وبعض المهاجرين الذين أتوا من الخارج. إننا نحاول أن نوضح هذا الأمر".

- "هل باستطاعة اختبار تحليل نظائر السترونتيوم أن يفصل القادمين الجدد عن الساكنين القدامى للمكان".

- "أجل".

بدأت الأفكار تحوّم في ذهني من جديد، فسألته: "هل تستطيع هذه التقنية أن تحدّد أين عاش هؤلاء؟"

- "إنهـــا تتمكّـــن مـــن ذلـــك إن كان لديك عينات مرجعية. يمكن لعملية تحليل الســـترونتيوم، في بعض الحالات، أن تحدّد منطقة ولادة شخصٍ ما كان قد انتقل من مـــنطقة جغرافية معينة إلى منطقة أخرى. يستطيع هذا التحليل، بالإضافة إلى ذلك، أن يحدّد المكان الذي أمضى فيه ذلك الشخص السنوات الست الماضية من حياته".

وصـــلت الأفكـــار إلى سرعتها القصوى. تناولت قلماً وورقة وقلت: "أريدك أن تعود إلى الوراء، وتبدأ من البداية. ولا أريدك أن تستخدم كلمات تحمل أكثر من ثلاثة مقاطع".

- "توجـــد أربعـــة نظائـــر مســـتقرة لمـــادة السترنتيوم، وهناك نظير واحد هو سترونتيوم 87، ينتج عن التفكّك الذي يتعرّض له عنصر الروبيديوم 87. يبلغ نصف عمر هذا العنصر 48.8 مليار سنة.

- "إنه أبطأ بكثير من الكربون 14".

- "إنه أبطأ بكثير من كلبيَ العجز سباد".

- "سباد؟"

استرسل آرت في شرحه من دون أن يكترث للتشوش الذي أحدثته عندي إشارته إلى سباد: "تظهر طبيعة تكوين الأرض في أميركا الشمالية تغيّرات كبيرة في عمرها. ســـأعطيك مثالاً هنا: يتراوح عمر قشرة سطح الأرض ما بين أقل من مليون سنة في هـــاواي، وما يزيد قليلاً عن أربعة مليارات سنة في بعض أنحاء المقاطعات الشمالية الغربية لكندا".

- "هل يفسّر هذا الأمر الفروقات في قِيَم السترونتيوم في تربة وصخور المناطق المختلفة؟"

- "نعم. لكن مثل هذه الفروقات تنتج أيضاً عن تغييرات في تركيب طبقة الصخور".

- "عندما تستخدم عبارة قيمة، هل تعني نسبة السترونتيوم بالنسبة لنظيره المستقر؟"

- "تماماً. إن نسبة السترونتيوم 87 بالنسبة لنظيره السترونتيوم 86، هي الأمر المهم هنا، وليس المستوى المطلق لكل واحد منهما".

سمحت له بإكمال شرحه.

- "سأعطيك مثالاً آخر وهو الحمم البازلتية، والأحجار الجيرية، والرخام، وهي تتميّز جميعها بنسب سترونتيوم منخفضة. نعرف بالمقابل أن نسب السترونتيوم في الحجر الرملي، والصخر الصلصالي، والغرانيت، هي أعلى عادةً، بينما تكون هذه النسب في حدها الأقصى في المواد الطينية".

- "وهكذا نرى أن الفروقات في الأعمار الجيولوجية، وتركيب الطبقات الصخرية هي المسؤولة عن التغيّرات في نسب نظائر السترونتيوم في مختلف المناطق الجغرافية".

- "بالضبط. لكن علينا ألاّ ننسى أمراً واحداً وهو أنه نظراً لطبيعة النِسَب التي يصعب تذكّرها مع وجود تلك الكسور العشرية، فإننا نلجأ عادة إلى مقارنة نسبة سترونتيوم سبق قياسها مع النسبة العامة لعنصر السترونتيوم في الأرض بكاملها. إذا كانت النسبة التي سبق قياسها هي أكبر من تلك النسبة العامة للأرض، فستعطينا قيمةً إيجابية. وإذا كانت أصغر من النسبة العامة، فستعطينا قيمة سلبية".

- "وما علاقة كل هذا مع تحديد المكان الذي وُلد فيه الإنسان؟"

- "تعرف أن السترونتيوم هو معدن ترابي وقلوي، وهو مشابه من الناحية الكيميائية للكالسيوم".

ربطتُ هذه المعلومات في ذهني: "تمتصّ النباتات السترونتيوم من التربة والماء. تأكل العشبيات النباتات، وهكذا بالنسبة لباقي عناصر السلسلة الغذائية".

- "أنت ما تأكله".

- "إذاً يقوم تركيب نظير السترونتيوم الموجود في عظام الكائنات الحية وأسنانها

بإظهــار تركيــب الســترونتيوم في الوجبات الغذائية التي تناولتها في فترة تكوّن هذه العظام".

– "أرى أنك فهمتِ العملية بكاملها".

– "اعتادت جدتي أن تقلق بشأن السترونتيوم الموجود في طعامها".

– "لم تكن جدتك الوحيدة في ذلك. خضعت عملية التغيّر البيولوجي للسترونتيوم للدراســة بشــكل شامل في سنوات الخمسينيات. ويعود ذلك لخوف الناس من دخول سترونتيوم 90 المشع إلى الأجسام بسبب الاختبارات السطحية للأسلحة النووية".

بدأت الأمور تتّضح أكثر فأكثر.

– "إنك تقول إن السترونتيوم يدخل في عظام الإنسان، وفي أسنانه مثل الكالسيوم تماماً".

– "صحيح".

– "يــتمّ استبدال الكالسيوم في الهيكل العظمي البشري على مدى دورة تستغرق ست سنوات تقريباً".

– "أجل".

– "وهكــذا إذاً يُظهــر الســترونتيوم الموجود في العظام طبيعة الوجبة الغذائية للشخص على مدى ست سنوات من حياته، وهذا ما يفعله تماماً الكالسيوم الموجود في العظام".

قال آرت: "يتراوح المدى ما بين ست وثماني سنوات".

– "لكــن مستويات الكالسيوم لا تتغيّر في طبقة الميناء من الأسنان مثلما يجري في العظام. تبقى طبقة الميناء ثابتة ما إن تتكوّن".

– "ويصــحّ الشــيء نفســه بالنسبة للسترونتيوم، وهكذا تستمرّ طبقة الميناء في الأســنان بإظهــار تركيــب نظير السترونتيوم ذاته الذي يدخل إلى الجسم أثناء تكوّن الأسنان، وذلك عن طريق الوجبات الغذائية".

– "وهكذا إذا غادرت فتاة ما المكان الذي ولدت فيه وانتقلت إلى مكان آخر أثناء فــترة تكــوّن أسنانها، فستتغيّر عندها مستويات السترونتيوم الموجودة في أسنانها عن تلك الموجودة في عظامها، فيما تبقى هذه المستويات متشابهة إذا بقيت في مكانها".

– "هذا صحيح تماماً. توحي قِيَم السترونتيوم الموجودة في الميناء بمكان الولادة وفترة الطفولة المبكرة. وتوحي القِيَم الموجودة في العظام بمكان الإقامة خلال السنوات

الأخيرة من عمر الإنسان".

صعقتني فكرة طرأت على ذهني: "ألا يأتي طعامنا عن طريق الشبكات الوطنية والعالمية في هذه الأيام؟"

- "إننا نشرب المياه الآتية من مصادر محلية. إننا نفعل هذا غالباً على الأقل".

- "هذا صحيح. أخبرني الآن ماذا فعلتَ بالعيّنات التي أرسلتها لك".

- "قمنا بطحنها بعد أن أزلنا عنها كل المواد الغريبة الأخرى. أقدمنا بعدها على فصل السترونتيوم باستخدام طريقة تبادل الأيونات في التصوير الكروماتي. حلّلنا السترونتيوم ونظّفناه باستخدام القياس الطيفي للكتلة عن طريق التحويل إلى أيونات باستخدام الحرارة. جمعنا بعد ذلك نِسَب السترونتيوم عن طريق الجمع المتعدد للتحليل الديناميكي..."

- "آرت".

- "نعم؟"

- "ماذا وجدتم؟"

- "وجدنا أن إحدى فتياتك قد تجولت كثيراً في عدة أماكن من هذا العالم".

الفصل 22

- "تابِع".

- "دعينا نتحدّث عن الأسنان أولاً. تتطابق قِيَم السترونتيوم الموجودة في الأسنان لدى اثنتين من فتياتك".

- "أيّ فتاتين منهما؟"

سمعتُ حفيف أوراقٍ في الطرف الآخر.

- "دعينـــي أتأكّد... الفتاتان اللتان تحملان رقمَيْ 38426 و38427. أتوقّع أن تتراوح معدلات قِيَم السترونتيوم في وجباتهما الغذائية بين تسعين وما فوق، وبين مئة وخمســة ومـــا فـــوق. لاحظـــت مـــع هذا أن الفتاة رقم 38428 متميزة من الناحية الإحصـــائية. يوحي تركيب نظير السترونتيوم الموجود في عيّنة أسنانها، أنها تناولت فـــي طفولتها وجبات غذائية تحمل معدل قيمة سترونتيوم يتراوح ما بين خمسين وما فوق، وبين ستين وما فوق".

- "هـــل يعني ذلك أن الفتاة رقم 38428، لم تولد في نفس منطقة ولادة الفتاتين الأخريين؟"

- "هذا صحيح".

- "هل تستطيع أن تقول لي أين وُلدت إذاً؟"

- "يـــبدأ التشـــويق هـــنا. تلقّينا في السنة الماضية قضية بقايا مبعثرة كانت في برميل، وُجد في قبو منزل أحد المدمنين على المخدرات في ديترويت. عرفت الشرطة أن هـــؤلاء الضحاياء كانوا شركاء تاجر المخدرات الذي يمتلك المنزل، لكنها أرادت جمع عظام كل ضحية على حدة.

لـــم يجـــرِ الضـــحايا ترميمات لأسنانهم، وكانوا كلهم من السود، وفي منتصف العشـــرينيات مـــن أعمـــارهم، ويتميّزون بنفس الحجم تقريباً. عرفنا أن أحد الضحايا الـــثلاث وُلد في شمال وسط كاليفورنيا، بينما كان الآخر من كنساس، أما الأخير فكان

من مواطني ميتشيغان المحليين.

لـــم تكن لدينا مجموعات بحث رئيسية في المناطق الثلاث العائدة لهذه القضية، وهكـــذا كان علينا أن نستنتج التركيب النظائري للسترونتيوم، الذي تناوله الضحايا في وجـــباتهم الغذائية، من طبيعة تكوين الأرض في كل منطقة. وتعيّن علينا بعد ذلك أن نعود للعظام المختلفة في البرميل. هل ما زلتِ معي؟"

- "أجل، ما زلت معك".

- "إن شخصـــاً أمضـــى طفولته في شمال ووسط كاليفورنيا، لا بد أن يمتلك قِيَم سترونتيوم تتراوح ما بين ثلاثين وما فوق، وبين ستين وما فوق. لاحظي أن القِيَم التي وجدت لدى الفتاة رقم 38428 تقع في هذا المجال بالضبط".

سمعت حفيف الأوراق التي قلّبها آرت، وبقيتُ لحظةً كالمأخوذة.

- "هل يعني هذا أن فتاتي هي من كاليفورنيا؟"

- "إنه يعني أن هذا الاحتمال موجود. يبدو لي أن هذه هي نقطة انطلاق ممتازة، هذا إن لم يكن لديكِ واحدة أفضل. يبقى احتمال أن تكون من منطقة أخرى تتميّز بنفس خصائص طبيعة تكوين الأرض فيها".

- "ماذا عن الفتيات الأخريات؟"

- "عالجـــنا قضـــيةً مـــنذ سنوات قليلة تتعلّق ببقايا مختلطة استخرجت من قبرٍ جماعـــي في فييتنام. امتلك الجيش هوية جنديين، لكنه أراد أن تُفصل عظام كل جندي علـــى حدة. قال لنا الجيش إن أحد الجنديين نشأ في شمال شرق فيرمونت، أما الآخر فكان من يوتاه".

لم يعطِني آرت فرصة مقاطعته.

- "دلّتـــنا دراســـة تركيب نظير السترونتيوم للمياه الجوفية التي أجريناها قرب سانت جونزبوري في فيرمونت، على أن القِيَم المقترحة كانت في حدود أربعة وثمانين ومـــا فـــوق، وبين أربعة وتسعين وما فوق. توافق فحص قِيَم السترونتيوم لأسنان أحد الجنود مع هذا النطاق تماماً".

- "أتعني الجندي الذي سكن في فيرمونت".

- "أجـــل. يـــبدو أن فحـــص أسنان الفتاتين 38426 و38427 قد أعطى نتائج متطابقة مع هذا النطاق".

- "أتعني أن الفتاتين هما من سكان فيرمونت؟"

- "لا تقفزي إلى الاستنتاجات. تمتدّ تكوينات الطبقة الصخرية نفسها حتى كيبيك. إن مـــا أقترحه هو أن قِيَم السترونتيوم للفتاتين الأخريين، تتطابق مع تلك التي يمكنني توقّعها من الأشخاص الذين ولدوا في تلك المنطقة، أي حيث وُجدتْ البقايا".

- "أتعني منطقة مونتريال؟"

- "أجـــل. دعينا الآن ننتقل للحديث عن العظام. لاحظت أن قِيَم السترونيوم في أسنانهما تتشابه مع هذه القِيَم في عظامهما".

- "أتعني أنهما لم تبتعدا كثيراً عن موطنهما الأصلي؟"

- "صحيح. لكن الفتاة رقم 38428 لها شأن آخر".

انتظرت بصبر.

- "إن قِـــيَم السترونتيوم في عظامها هي أعلى من قِيَم السترونتيوم في أسنانها، وأكـــثر مـــن ذلـــك، لاحظـــت أن قِـــيَم السترونتيوم في عظامها تتشابه كثيراً مع قِيَم السترونتيوم للفتاتين 38426 و38427".

- "أتعني الفتاتين اللتين بقيتا في منطقتهما؟"

- "أجل".

استغرقني الأمر عدة لحظات لاستيعاب هذه المعلومة.

- "هـــل تـــريد أن تقـــول إن الفتاة رقم 38428 قد نشأت في مكان معيّن، لكنها أمضت آخر الأعوام القليلة من حياتها في مكان آخر".

- "يبدو الأمر هكذا".

- "وإنها ربما نشأت في شمال وسط كاليفورنيا".

- "أو في منطقة مشابهة لها من حيث النظائر".

- "لكن مع احتمال أن تكون قد انتقلت إلى كيبيك، أو فيرمونت".

- "أو إلى منطقة مشابهة لهما من حيث النظائر".

لم أستطِع تأجيل إبلاغ هذه المعلومات هاتفياً لشاربونيو.

- "هذا رائع يا آرت".

- "إنـــنا نهـــدف لإرضـــاء زبائنـــنا. دعينـــي أعلم عندما تتعرّفين على هويات السيدات".

شـــعرت بإثارة كبيرة إلى درجة أنني طلبت الرقم الخطأ، وتعيّن عليّ النقر على الأرقام مرة ثانية. اكتشفت أن شاربونيو كان خارج مكتبه، وكذلك الأمر مع كلوديل.

وهل تواجدا يوماً حينما احتجتهما؟

تركت لهما رسالة صوتية مع عاملة الهاتف، ثم تركت رسالة رقمية على جهاز الاتصال الرنان لدى شاربونيو، وعدت إلى مختبري.

أخذت جمجمة الفتاة التي وُجدت في صندوق الدكتور إنرجي وفكّها إلى المجهر، لكنني توقّعت الأشياء التي قد أكتشفها.

رأيت خمسة أخاديد دقيقة، اثنتان منها في الجهة العليا من القناة السمعية الواقعة علـــى العظمـــة الصـــدغية، أما الثلاثة الباقية فهي في المنطقة الخلفية لتلك المنطقة. أجريـــت تكبيراً لهذه الأخاديد فبدت مشابهة لتلك الموجودة عند الفتاة رقم 38427. لم أستطِع رؤية أي شيء على الفك، أو على العظام القحفية الأخرى.

يا إلهي! أيّ رعبٍ تعرّضت له هذه الفتيات؟

اتّصـــلت بـــي آن عند الساعة الواحدة والخمس عشرة دقيقة. بدا صوتها كسولاً وهادئاً. اعتذرتْ لي عن كونها رفيقة سيئة طيلة الأسبوع الذي مضى، ثم أخبرتني أنها تفكّر بالمغادرة. وقالت إنها لا تريد أن تُثقل على ضيافتي أكثر من ذلك. أكّدت لها أنها لا تُـــثقل علـــيّ مطلقاً، وأضفتُ أنني أستمتع برفقتها كثيراً. أيقنت أن قرارها ذاك كان نتـــيجة مزاجها الحالي، لكنني شجّعتها على التفكير بالبقاء حتى تستطيع اختيار مكان أفضل لتذهب إليه.

اتّصل بي شاربونيو عند الساعة الواحدة والأربعين دقيقة.

- "إن البرد هنا يماثل ذلك الموجود في القطب الشمالي".

لم تكن كل تعابير شاربونيو تكساسية المصدر.

- "هل أجريت بحثاً في مركز سي. بي. آي. سي؟"

- "أجل".

سمعت صوت خربشة ورق السلوفان.

- "أجريـــت البحث على هاتين القضيتين بطريقتين، لأننا لا نعرف إذا ما كانت الفـــتاتان اللـــتان لم تستخدما مادة سدّ الفجوات قد توفّيتا قبل الفتاة التي استخدمت هذه المادة. طلبت البحث أولاً عن كل الفتيات المختفيات في سنوات التسعينيات".

- "تبدو هذه خطوة على الطريق الصحيح بالنظر إلى نتائج الكربون 14".

- "أتـــت بعض الأسماء قريبةً من النطاق الذي نبحث فيه، لكننا لم نحصل على

نتيجة أكيدة تماماً".

بدا شاربونيو وكأنه يأكل شيئاً يشبه الكراميل أو التوفي.

- "لجـأت بعد ذلك للطريقة الثانية، فأبقيت تاريخ الاختفاء مفتوحاً. حصلت على ما توقّعته، وذلك من دون معطيات الأسنان، ومن دون تفاصيل، ومن دون تواريخ".

- "هل وجدتَ الكثير من الأسماء؟"

- "تكاد اللائحة تصل حتى بومفوك الشرقية".

- "ماذا بشأن الفتاة رقم 38428؟"

- "حصـلت على كل المعطيات التي تعود إلى ما قبل العام 1980. لاحظت أنه إذا أدخلـنا المعصم المكسور بالحسبان ستتقلّص اللائحة. حصلت عند ذلك على أسماء قليلة تقترب من المواصفات التي نبحث عنها، لكنني لم أجد لها أي صلات بذلك المكان. سيساعدنا تحديد المكان الذي عاشت فيه الفتاة".

- "ماذا لو قلنا إنها عاشت في شمال وسط كاليفورنيا؟"

- "أجل، أي شيء من هذا القبيل".

- "أنا جادة".

توقّف شاربونيو عن المضغ، وقال: "أنتِ تمزحين".

أخبرت شاربونيو الأشياء التي عرفتها من آرت هوليداي، لكن بعد أن بسّطت له الكيمياء الحيوية، وفيزياء الأرض.

- "سيصدُم لوك حالما يعرف".

- "يتعيّن عليك أن ترسل مواصفاتها إلى ما وراء الحدود الجنوبية".

- "سأرسلها إلى مركز أن. سي. آي. سي. اعتبري أن ذلك قد تم فعلاً. سأرسل هذه المواصفات إلى شرطة ولايَتَي فيرمونت، وكاليفورنيا".

- "لكن هذا سيُحدث ضجة".

- "لا ضيرَ من ذلك".

- "ما عدا صدمة زميلك".

ضحك شاربونيو: "سأبلغه أنك قلتِ هذا".

- "هناك شيء آخر".

- "أبلغيني بما عندكِ".

وصفت له الحزوز والأخاديد.

- "أتظنّين أن هذه العلامات هي نتيجة استعمال مبضع جراحي؟"

- "أو نتيجة استخدام شفرة حادة دقيقة الحافة".

- "هل تتحدّثين عن الهياكل العظمية الثلاث جميعها؟"

- "أجل، لكن العلامات على الهيكل المكفّن تختلف قليلاً عن تلك الموجودة على الهيكلين الآخرين".

- "بماذا تختلف؟"

- "ليست بالدقّة نفسها، كما لاحظت وجود عمليات قطع أكثر على الأطراف".

- "هل يعني ذلك أن آلةً أخرى قد استُخدمت؟"

- "هـــذا ممكن، ويحتمل أيضاً أنها حدثت بعد جفاف العظمة. يبقى احتمال آخر، وهـــو أن لا تكون هذه العلامات نتيجة عملية قطعٍ أو حز على الإطلاق، أي أن تكون نتيجة عمل حرفي يشبه علامات التقطيع، لكنها حدثت بعد الوفاة".

- "أيُعقل أن تكون هذه خدوشاً نتجت عن عملية جرٍ أو دحرجة، أو أي شيء من هذا القبيل؟"

- "هذا محتمل".

- "لا تبدين مقتنعة".

تخيّلت الجماجم، بما فيها من فكوك، في ذهني: "يبدو لي أن هناك نمطاً معيّناً... تحيط هذه العلامات بفتحة الأذن اليمنى".

- "عن أيّ هيكل تتحدّثين؟"

- "أتحدّث عن الهياكل الثلاثة".

- "ألا توجد علامات في أمكنة أخرى؟"

- "لا".

- "يا إلهي! أتعتقدين أن أحدهم كان يقطع الآذان؟"

عبرت هذه الفكرة في ذهني.

- "لا أعرف".

أمضيت بقية فترة ما بعد الظهر مع فتيات قبو مطعم البيتزا، وذلك بعد أن أبلغت لامـــانش بما علمته من آرت هوليداي. تعوّدت أن أفكر بهنّ بهذه الطريقة، أي فتياتي فتياتي الضائعات.

أعـدت فحـص كل عظمة، وكل كسرة عظام، وكل سن. درست صور الأشعة السـينية للأسـنان، وللعظـام الأخـرى. أعدت فحص التربة، وانكببت على دراسة الأزرار.

أظلمـت الـنوافذ وهـدأت القاعات في الوقت الذي انتهيت فيه. أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة والعشرين دقيقة، ولم أكتشف أي شيء جديد على الإطلاق.

أغمضـت عينـيّ، وشعرت بالحزن لفشلي باكتشاف أسماء الفتيات، كما شعرت بالغضـب بسبب فشلي في إقناع كلوديل. اجتاحني إحباط كبير أيضاً بسبب فشلي في إدراك معـنى وجـود الأزرار، وشـعرت بالذنـب نتيجة فشلي بملاحظة وجود آثار الحزوز قبل اكتشاف بيرغيرون لها.

لمـاذا لم ألاحظ هذه العلامات؟ تذكّرت أنني قوطعت عدة مرات، وأدركت أنني كنت أعمل على هذه القضية من جوانب عدة، وأن العلامات كانت غير مرئية تقريباً، لكن كيف أغفل عن ملاحظة شيء بمثل هذه الأهمية؟

فشـلٌ هنا، فشلٌ هناك، وفشل في كل مكان، وما من قطرة نجاح واحدة. تذكّرت فشلي مع آن، وتذكّرت فشلي مع رايان. صرخت من دون وعي: "رايان".

– "نعم".

فتحـت عينيّ، ورأيت رايان واقفاً قرب الباب وقد ألقى معطفه على كتفه وحمله بإصبعه. وقف رايان يتأمّلني، ووجهه يحمل تعابير لم أستطع تفسيرها. رفع رايان يده وفتح راحته، ثم قال: "أعرف. ستقولين ماذا تفعل هنا؟ صحيح؟"

بدأت بالكلام، لكن رايان قاطعني.

ابتسـم ابتسـامة عريضة وقال: "إنني أعمل في الطابق السفلي هنا. إنني رجل شرطة كما تعلمين".

أصلحت من جلستي، وأبعدت شعري إلى ما وراء أذنيّ، ثم سألته: "ألديك أخبار عن لويز بايرنت؟"

– "لا".

– "هل تمكّنت من إيجاد روز فيشر؟"

اختفت الابتسامة العريضة: "لا. لست مرتاحاً لاختفائها".

– "أتعتقد أنها ميتة؟"

– "إنها في الرابعة والستين من عمرها، ومضى أسبوع كامل على اختفائها".

- "أي نوع من السفاحين المتوحشين يقدم على قتل امرأة مسنّة؟"

اعتــبر رايان كلامي نوعاً من البلاغة: "هل ما زالت المراقبة الإضافية مستمرة في بيتك؟"

لو أنه يأتي لزيارتي، لعلم باستمرارها: "نعم. هل تلمّح إلى أنني مسنّة؟"

- "أريدك أن تتيقّظي كثيراً يا تمب".

- "إنني بالكاد أغمض عينيّ هذه الأيام يا آندي".

تجاهل رايان ملاحظتي هذه.

- "سأعرج على منزل فيشر. فكرت أنك ربما ترغبين بمرافقتي".

رغبــت بمرافقــته فعلاً، لكنني مددت يدي باتجاه الهياكل العظمية وقلت: "إنني مشغولة جداً".

ظهرت ابتسامة صبيانية أخرى على شفتيه: "لن تستطيع الهياكل التحرّك إلى أي مكان".

احترت مجدداً بما يُفترض بي القيام به: مواجهته، أم تجنّب الصدام معه. لم أقرّر أي شيء محدّد، تاركة لرايان زمام المبادرة، سواء بمعالجة المشكلة أو بالتهرب منها.

- "هل تعوّدتَ طرح الأسئلة على نفسك يا رايان؟"

- "بالتأكيد. ماذا حدث لأليس كوبر؟"

- "أعني طرح أسئلة مهمة".

- "هل تعنين أسئلة مثل، ماذا كانت تفعل أليس كوبر؟"

- "أنا جادة".

جاء صوت رايان هادئاً وواثقاً: "أنا جاد أيضاً. هل تريدين مرافقتي؟"

فلتذهــب كــل العلاقات إلى الجحيم، وليذهب رايان إلى الجحيم. اكتمي آلامك، وركّــزي علــى مهمتك يا تمب. خلعت معطف المختبر الذي كنت أرتديه، ووضعت مفاتيحي في حقيبتي الصغيرة، ثم انتزعت معطفي من حمالته: "دعنا ننطلق".

ســرت، أنا ورايان، وسط ازدحام شديد، لكن الجو في السيارة كان مريحاً مثل اســتراحة حية ملتفة حول نفسها. لم نتبادل الحديث. تقافزت صور مألوفة إلى ذهني. تخيّلــت رايــان علــى الشاطئ، وتخيّلت نفسي مع رايان في غواتيمالا. تخيّلت رايان أخيراً في سريري. و.. تخيّلت رايان مع حسنائه الفاتنة.

لمســتْ يــد رايــان ركبتي في إحدى المرات، فانطلقت شرارة الرغبة لتخترق

جسدي. أغمضت عينيّ، وجهدت كي أستعيد السيطرة على نفسي. أخذت نَفَساً عميقاً. كانـــت عضلات عنقي قد توتّرت مثل أوتار غيتار مشدودة في الوقت الذي وصلنا فيه إلى كاندياك.

شـــاهدنا الســـتائر مسدلةً وراء كل نافذة من نوافذ منزل روز فيشر. لاحظنا أن ضوءاً أصفر يتسلّل من وراء إحدى الستائر.

انعطف رايان بالسيارة وأطفأ المحرك: "اسمعي".

- "ماذا؟"

- "لا أتذكّر أنني تركت أي مصباح مضاء".

- "هل ما زال المكان مغلقاً؟"

فـــتح رايـــان باب السائق من جهته: "لا فائدة من إحاطة المكان بالشريط. انتهى رجـــال استعادة مسرح الجريمة من عملهم قبل أيام عديدة، لذلك نزعوا الشريط. ابقَي هنا".

انـــتظرت عـــدة لحظـــات قـــبل أن أتبعه من خلال الطريق المؤدية إلى المدخل الأمامي والشرفة. ما زال الإكليل في مكانه، يتمنّى الأعياد السعيدة للجميع.

قـــرع رايان جرس الباب، فتردّدت أصداؤه الخافتة في المكان، وفي تلك اللحظة لفحـــت الرياح وشاحي. قرع رايان على الباب مجدداً. مرّت الثواني بطيئة، وعصفت الرياح ثانية. انهمرت من عينيّ دمعة وحيدة، فأنزلت قبعتي إلى مستوى أدنى.

بـــدأ رايـــان يبحث في مجموعة المفاتيح التي يحملها مستخدماً مصباحاً صغيراً يعمل على البطارية. في الوقت نفسه أضيء نور في غرفة المعيشة. أصدرت الأقفال أصـــواتها، ورأيـــت مقـــبض الباب يدور دورته.. انفتح الباب قليلاً، وتسلّل وجه من فتحته.

كان آخر وجهٍ توقّعت رؤيته.

الفصل 23

- "من أنتما؟"

بــدت الكلمــات نديّــةً ومثقلةً بالعواطف، وكأن شخصاً يتلفظ بها، وفمه مليء بالحبوب.

أبرز رايان شارته. فقالت المرأة بصوت مليءٍ بالخوف: "هل أنتما من الشرطة؟"

- "هل نستطيع الدخول يا سيدة فيشر؟"

- "أين لويز؟ أين أختي؟"

يا إلهي! إنها لا تعلم.

كلّمها رايان بصوت هادئ يوحي بالطمأنينة: "نودّ التحدث معك بهذا الشأن".

اتّســعت فــتحة الباب. شاهدتُ وجهاً يشبه اليقطين بشكله، وبشدة انحنائه قرب منطقة الفم.

- "انتظرا قليلاً".

أُقفــل الباب. وفي تلك اللحظة، لفحت الرياح القارسة ياقتي ووشاحي، فأخفضت وجهــي، وحرّكت قدمي. شعرت بثقل الوضع لأنني سأتولّى ورايان مهمة نقل الأخبار الســيئة، ولا شــك أن كلماتنا ستغيّر حياة روز فيشر إلى الأبد. كرهتُ المشهد الذي أوشكُ على رؤيته، لأنه ليس من ضمن مهماتي في العادة. أرتاح عادةً لأن هذه الأمور ليست من ضمن مهماتي، لكنني أكرهها كثيراً عندما تصبح كذلك.

فُــتح الــباب مجــدداً بعد دقائق قليلة، ودخلت برفقة رايان إلى المنزل. استقبلنا الدفء المنتشر في البيت، وجعلني أشعر بدفء وجهي ونعومته مرة أخرى.

لم تكن روز فيشر امرأة بدينة، لكنها لم تكن هزيلة أيضاً. أضفى صباغ شعرها السيئ على وجهها مسحة من مظهر المهرج، ولم تساعدها الكمية الكبيرة من مساحيق التجميل التي وضعتها على وجهها في تحسين مظهرها.

- "أين شقيقتي؟"

مــلأ الخــوف وجهها، لكن اضطرابها خفّ قليلاً. بدا فمها طبيعياً برغم بعض التجاعيد وأحمر الشفاه.

تــزايد شعوري بالكآبة. يا إلهي، هذه المرأة وضعت طقم أسنانها الاصطناعية، ووضعت مساحيق التجميل، لتظهر أمام غرباء.

وضع رايان يده على كتف فيشر: "هل نستطيع الجلوس؟"

ارتفعت يد صغيرة وسمينة لتغطي فمها الشديد الحمرة: "يا إلهي. هل حدث شيء للويز؟"

تحولــت عيناها المثقلتان بكحل الأهداب باتجاهي وأضافت: "أتيتما لتخبراني أن شيئاً قد حدث للويز. أين هي؟"

قاد رايان فيشر إلى أريكةٍ في غرفة المعيشة، وجلس بجانبها. تحرّك في الزاوية بــبغاء ذو ذيــل رمــادي وأصفر، وخدين من اللون البرتقالي الفاقع، ثم راح يسقسق ويصفّر ستة ألحان من مقطوعة إديل وايز.

جلســت إلــى يسار السيدة فيشر، وأمسكت بيدها السمينة. أحنى رايان ذقنه في إشارة فهمتُ منها أنه يجدر بي أن أتكلّم أولاً.

قال الببغاء: "مرحباً"، وكرّر هذه الكلمة، ثم سقسق مجدداً.

- "نحمل إليكِ أخباراً سيئة يا سيدة فيشر".

أغمضت السيدة فيشر عينيها، ثم شبكت أصابعها مع بعضها وشدّت عليها.

- "أنا آسفة لإبلاغك أن شقيقتك قد توفيت".

سمعنا سقسقة الببغاء مرة ثانية، ومرةً ثالثة.

راحت فيشر تحرّك رأسها إلى الأمام ثم إلى الخلف، وأغمضت عينيها بشدة إلى درجــة جعلــتهما تغرقان في المساحة الدهنية المحيطة بهما. وانطلقت مع كل أرجحةٍ لرأسها نغمةٌ عالية وحادة من حنجرتها، قبل أن تختنق وراء طقم أسنانها المثبت بدقة.

أحطت كتفَي المرأة بذراعي، وكرّرت قولي: "أنا آسفة".

تابعــت فيشر عويلها، واستمرّ الكحل فوق أهدابها والصباغ الذي يظلّل عينيها، بالسيلان مختلطين مع بودرة الخدين ذات اللون البرتقالي والزهري الفاتح.

التزم الببغاء الصمت.

ربّــت رايــان علــى كتف فيشر الأيمن. تشابكت نظراتي مع نظراته، وعكست أعيننا الحزن الذي شعرت به. ألقى الببغاء نظرةً على سيدته، ورفع تاج رأسه، ثم جمّد

رأسه على زاوية مقدارها خمس وأربعين درجة.

استمرّت ساعة المنضدة بترديد دقات الثواني. حاول الببغاء أن يردّد نغماتٍ قليلة من لحن معروف، ثم توقّف عن المحاولة. واستمرّت فيشر بالنحيب، وهزّ رأسها.

مرّت دقيقة... اثنتان. بعدئذٍ تسلّل رايان إلى خارج الغرفة، وعاد بعد قليل حاملاً معه علبة مناديل ورقية.

مــرّت ثــلاث دقائق... ثم بدأ النحيب الرهيب يتلاشى تدريجياً، وأرسل الببغاء صوت سقسقته: "أحبّك، أحبّك".

فتحت فيشر عينيها الغائرتين، وأدارت رأسها نحو الطائر قائلة: "أنا أيضاً أحبّك أيها الملاك الصغير، تيت آنج".

رفع الملاك الصغير رأسه لكنه لم يقل شيئاً.

قالــت لــنا بصوت خافت: "تحبّ أختي هذا الطائر الساذج. أعني أنها... كانت تحبّه".

قــدّم رايان لها علبة المناديل الورقية. أخذت فيشر بعضها ثم التفتت إليّ، كانت الأصباغ قد سالت من وجهها مثلما تسيل كتلة من البوظة الملونة على أرض موحلة.

- "من أنتِ؟"

- "أنا الدكتورة تمبرانس برينان. أعمل مع المحقق الجنائي".

ظهر لون وجه فيشر الأبيض من تحت أصباغ المهرجين.

- "أظن أن وفاتها نتجت عن نوبة حساسية، صحيح؟"

- "لم يتّضح سبب الوفاة بعد".

مســحت فيشر الفوضى التي سالت على وجهها، ثم قالت: "ما كان يجدر بي أن أترك لويز وحدها في أوقات كآبتها".

ثم انهارت على مقعدها.

سألها رايان بلطف: "هل كانت شقيقتك مريضة؟"

تكــوّر جسدها الضخم على بعضه: "عانت من حساسية شديدة، ومن صفيرٍ في تنفسها، كما أن عينيها كانتا تؤلمانها، بالإضافة إلى رشحها الدائم. لم أتخيّل أبداً..."

اندفعت فيشر بنوبة عفوية أخرى من العويل. أمسكت عدة مناديل ورقية وناولتها إياها.

قلــت لهــا بألطف صوت ممكن: "أعلم أن هذا أمر فظيع بالنسبة لك، وأنا آسفة

لأنني مضطرة أن أطرح عليك هذه الأسئلة. حاول الكثيرون إيجادك هذا الأسبوع. أتمانعين بإبلاغ التحري رايان أين كنتِ؟"

- "اشتركت مع لويز في محترف السيراميك في بوينت أو بيكس. ظننّا أننا سنتسلّى لو تعلّمنا كيفية صنع الفخاريات..."

بدأ صدر فيشر بالارتفاع والهبوط مرة أخرى، فيما تابعت: "... اعتدنا المكوث في بي وبي، والخروج للتسوّق بمناسبة عيد الميلاد في منطقة شارليفو".

- "لماذا لم ترغب شقيقتك في الذهاب معك؟"

أومأت فيشر، فتجمّع القسم الأعلى من ذقنها فوق القسم السفلي منه. بدا كما لو أن حنجرة فيشر أطبقت على بعضها حين قالت: "أصرّت لويز على أنها ستكون بخير. قالت إنها إذا احتاجت لأي شيء فسوف تتّصل بكلوديا، ابنتي، هاتفياً. يا إلهي القدير! هل علمتْ كلوديا بالخبر؟"

- "نعم سيدتي. قلقتْ كلوديا كثيراً عليك".

- "كان علينا أن نخبرها، لكن عندما قرّرت لويز البقاء في المنزل، لم نعتقد أن هذا أمر ضروري. تجادلني كلوديا على الدوام حول قيادتي السيارة في فصل الشتاء. إنها تعاملني كأنني عجوز خرقاء، وتريدني أن أمكث في المنزل على الدوام".

سألها رايان: "متى عدتِ من شارليفو؟"

- "قبل وقت قصير من وصولكما. ظننت أن لويز موجودة في الكنيسة. إن نوادي ألعاب الحظ تفتح في مساءات أيام الخميس. شعرت أنني متعبة من قيادة السيارة، فقرّرت أن أترك لها رسالة وأخرج".

أخذت فيشر في استخدام المناديل الورقية واحدةً بعد أخرى. وتابعت: "لاحظت أن سرير لويز غير مرتب، وهذا أمر مستغرب منها".

بدأ ذلك الصدر السمين بالعلو والهبوط ثانية.

- "دعيني أحضر لك القليل من الماء".

ملأت الكوب من صنبور المياه في المطبخ، بينما استمرّ رايان بالتحدث مع فيشر في غرفة المعيشة. استمرّ الببغاء بالسقسقة، أو بتأدية مقطع من أغنية، بين الحين والآخر.

عرجّت قبل رجوعي على غرفة لويز بايرنت. لاحظت أن المشهد قد تغيّر قليلاً عمّا هو في الصور التي شاهدتها سابقاً. خلا السرير الآن من غطائه فظهرت بقعة في

المكان الذي أسلمت روحها فيه، كما بقيت وسادة واحدة في مكانها عند طرف السرير.

رجعت إلى غرفة المعيشة، وناولت فيشر كوب الماء. حدّق بي رايان وهزّ رأسه قليلاً، مشيراً إلى أن فيشر كانت مضطربة جداً بحيث لا يمكننا استجوابها أكثر من ذلك. قال رايان: "سأتّصل بابنتك حالاً".

أحدثت فيشر صوتاً متقطعاً أثناء شربها، فيما تابع رايان يقول: "سنتحدّث غداً عندما تكونين أفضل حالاً".

- "متى يمكنني رؤية لويز؟"

نظر رايان نحوي: "نستطيع ترتيب هذه المشاهدة إذا كنت ترغبين بذلك".

ارتعشت شفتا فيشر، وانهمرت الدموع ملتمعةً على خديها: "ما أفظع عيد الميلاد هذا!"

ضغطتُ على يد المرأة: "ما أصعب أن نخسر شخصاً نحبه".

- "يتعيّن عليّ تنظيم المأتم".

- "أنا متاكدة أن كلوديا ستساعدك كثيراً".

- "أعرف ما هي الأشياء التي كانت سترغب لويز فيها".

قلتُ: "هذا جيّد".

- "اعتدنا أن نخبر بعضنا كل شيء".

لا بدّ أن هذا أمر جيّد. وصلت كلوديا في غضون دقائق قليلة، لكن بقي لديّ سؤال واحد قبل مغادرتي: "سيدة فيشر، هل تعوّدت شقيقتك أن تنام على وسادة من الريش؟"

- "لا، مطلقاً. عانت لويز من حساسية شديدة".

- "هل تنامين أنتِ على وسادة من ريش؟"

تجهّم وجه فيشر: "يا إلهي. لماذا؟ هل كانت وسادتي على سرير لويز؟"

التقت عيناي بعينَيْ رايان.

قلت لرايان ما إن انطلقت السيارة: "يبدو أنها سيدة لطيفة".

- "والأهم هو أنها تعرف كيف تعيش".

- "لا عجب إذاً أن أحداً لم يشاهد سيارتها".

- "لم يكن من السهل مشاهدتها لأنها ركنتها وراء حمامات بي وبي في بوينت أو

بيكس".

ساد الصمت أثناء تحرك السيارة، لكننا لاحظنا وسط أضواء الشوارع تناثر بعض الأغصان المقطوعة من الأشجار، والتي كانت ترتطم بجانب السيارة. وصل رايان في غضون دقائق قليلة إلى بون فيكتوريا. أصدرت عجلات السيارة أصواتاً تشبه أصوات فرك إطار لوحٍ كبير من الزجاج. بدا نهر سان لورانس من تحتنا مثل صفحة سوداء ساكنة.

قلت بتجهم: "ماتت بايرنت مقتولة".

- "يبدو الأمر كذلك".

- "ماتت بواسطة وسادة فيشر".

- "يستطيع خبراء الأنسجة مقارنة الريش".

- "تسلّل لعينٌ لا قلب له إلى البيت، وتناول وسادة من سرير فيشر، استخدمها ليخنق بايرنت".

- "هذا، في الوقت الذي نعتبر فيه أنها ماتت نتيجة تناول الآمبيان".

- "كيف يستطيع أحدهم اقتحام البيت من دون ترك دليل وراءه؟"

- "أعتزم مناقشة ذلك مع فيشر لاحقاً".

- "وباستيلو".

- "وباستيلو أيضاً".

- "أتعتقد أن فيشر عرفت بموضوع مكالمات بايرنت الهاتفية معي؟"

- "إنه موضوع آخر للحديث".

لم تتضمّن محادثتنا أي شيء غير هذا الموضوع.

حسناً! لم أرغب بالتفكير في روز فيشر، ولا بلويز بايرنت، ولا برايان، ولا بآن، أو حتى بفتياتي الضائعات. أسندت رأسي إلى ظهر مقعدي. أغمضت عينيّ وشغلتُ ذهني بالتفكير في استنباط عبارات لوصف الصمت المخيّم في السيارة.

إنه يشبه صمت قبرٍ مغلق، أو قل إنه يشبه صمت مكتبة مهجورة في قبو من أقبية الفاتيكان. إنه صمت ثقب أسود في أقصى طرف من أطراف مجرةٍ لولبية، أو قل إنه يشبه صمت ببغاء أجفلَ لتوه.

أنزلني رايان قرب مكان توقف سيارتي.

- "هل أنت مستعدة ليوم غدٍ؟"

- "ماذا تعني؟"

- "أتودين مكالمة روز فيشر؟"

- "متى؟"

- "سأتّصل بك هاتفياً حالما أتشاور مع باستيلو".

أشـــارت عقـــارب الســـاعة إلى السابعة والخمس والثلاثين دقيقة عندما وصلت بســـيارتي مـــن المختبرات إلى وسط المدينة. وجدت آن تغطّ في نومها، وكان الكوب الزجاجي الزهري قرب أنفها، بينما وضعت كتاباً فوق صدرها، أما بيردي فربض إلى جانبها.

حضّرت آن بعض الطعام المشوي، وتبادلنا الحديث أثناء إعدادها صلصلة كثيفة لمـــرقة اللحـــم، بينما انهمكتُ أنا بخلط طبق من السلَطَة. تحدّثت آن عن كتابها أثناء تناولـــنا للعشـــاء. قالت إن موضوع الكتاب كان الموت. وجدت آن أن منظور الكاتب لهذا الموضوع مفيد جداً. قلت لها إن اختيارها لهذا الموضوع غير موفق.

- "لماذا هذا الاهتمام المرعب بالموت؟"

- "تبدين مثل آني هال".

- "وأنت تتصرّفين مثل وودي آلن".

فكّرت آن للحظة ثم قالت: "يتعيّن على الإنسان أن يتغيّر إذا أراد المضي قدُماً".

- "إلى أين يتحرّك، وكيف يتغيّر؟"

- "يتغيرّ جوهرياً".

- "عمّ تتحدّثين؟"

- "أتحدّث عن الأدوار".

رنّ جـــرس هاتفـــي أثناء انشغالي بالتفكير بهذا التعليق الغامض من جانب آن. وجدت كاتي على الطرف الآخر من الخط.

- "مرحباً أمي".

- "مرحباً عزيزتي. أين أنتِ؟"

- "أنا في قرية شارلوت، لكنني سأتوجّه إلى البيت غداً".

- "هل كانت امتحاناتك جيدة؟"

- "طبعاً. أتّصل بك الآن لأتأكّد من حضورك إلى شارلوت في الثاني والعشرين من هذا الشهر".

ماذا هنالك في الثاني والعشرين من الشهر؟

- "تصادف حفلة هانا، حفلة ما قبل الزواج؟ ألم تعدي بمساعدتي؟"

أيّ أبله ومعتوه يستطيع تخطيط حفلة زواج قبل عيد الميلاد مباشرة؟

- "سأكون هناك بالطبع".

- "أنا أعتمد على سنوات خبرتكِ الطويلة".

- "يا لكِ من ذكية!"

- "أرسلت إليك عدة رسائل بالبريد الإلكتروني. أرسلت أشياء مثل "هووه! هووه! هووه! إنه موسم الأعياد.. وأشياء مشابهة. إنني أتوق إلى الاستفادة من خبرتك في الأنثروبولوجيا. سيساعدني ذلك على الشعور بالسكون".

- "لماذا تريدين أن تشعري بالسكون؟"

- "ذلك يساعدني على الدراسة".

- "آه!"

بدا صوت كاتي وكأنه عالق بالدبق: "أحبكِ، يا أمي. عليّ قطع الاتصال الآن".

- "لِمَ العجلة؟"

- "إنه موسم الأعياد".

- "هووه. هووه. هووه".

- "حافظي على هذه الفكرة".

انطلقت لأبحث عن آن ما إن قطعت الاتصال. وجدتها منغلقة على ذاتها، ولم تزوّدني بأية شروح تجعلني أقتنع. أحسستُ أنها استفادت من فرصة اتصال كاتي بي حتى تجلس بمفردها.

خلعت ثيابي، وغسلت وجهي، ومشطت شعري، ونظّفت أسناني بخيط الحرير، لكنني بقيت قلقةً كل الوقت بشأن وعدي الذي قطعته لكاتي. شغلتُ نفسي كثيراً بقضية لويز بايرنت وفتياتي من قبو مطعم البيتزا إلى درجة أنني كدت أنسى عيد الميلاد فعلياً، ونسيت حفلة هانا بالكامل.

هل أستطيع حل لغز هذه القضية في غضون أسبوع، أم أنني سأضطر إلى جعل فتياتي ينتظرن حتى انتهاء فترة الأعياد؟

رجعت إلى غرفتي، سارعت إلى ضبط المنبّه، لكنني توقّفت. هل حدّد لي رايان موعداً ليقلّني بسيارته؟ تذكّرت أنني سألته، لكنني لم أستطِع تذكّر جوابه.

كانـــت عقارب الساعة تشير إلى العاشرة والنصف، لعله في المنزل الآن. نقرت علـــى الـــزر السريع الخاص برايان. رُفعت سماعة الهاتف بعد دقّتين فقط، وأجابني صوت أنثوي: "نعم؟"

اخترقتنـــي صـــاعقة تسلّلت إلى معدتي وصدري. قلت: "أريد التحدث مع آندرو رايان من فضلك".

سألني الصوت الفتي والأنثوي: "من يتّصل؟"

- "الدكتورة برينان".

مضى الصوت الفتي والأنثوي الحاد يقول: "أنتِ! لماذا لا تتركينه وشأنه؟"

- "عذراً؟"

- "توقّفي عن سلبه لبّه".

- "هل دانييل هي التي تتكلّم؟"

مـــرّت فـــترة صـــمت طويلة، وتسارعت الأفكار في ذهني. هل قلت لها الاسم الصحيح؟

- "هل من أتكلّم معها هي ابنة أخت التحري رايان؟"

أطلقـــت الفـــتاة صـــوتاً كالشخير: "تقولين ابنة أخته؟ هل هذا ما قاله لكِ؟ وهل صدّقته؟ إنك أغبى ممّا كنت أعتقد سابقاً".

أطبقتْ عليّ الحقيقة كأنها نصل مقصلة.

- "هل لكِ أن تتركيه وشأنه؟"

بقيتُ فترة من الوقت وأنا أصغي لصوت الاتصال المقطوع.

الفصل 24

بعـد أن أمضيتُ معظم الليلة وأنا أعاني من الأرق، ومن انخفاضٍ في معنوياتي أكثر مما عانته آن، تمكّنت من التمتع بفترات من النوم المتقطع.

قارب الليل على الانقضاء، وقبل استيقاظي حلمت أنني أسير مع رايان وسط نفق طويـل ومظلم. ما إن بدأنا بالحديث، بدأ رايان بالابتعاد عني رويداً رويداً حتى أصبح جسـده مـثل ظل باهت في الطرف الآخر من النفق. حاولت أن أتبعه، لكن ساقيّ لم تسـاعداني علـى ذلك. صرخت المرة تلو الأخرى، لكنه لاذ بالصمت. مرّ شيء ما بقربـي وسـط الظلام، شيء أشبه بعنكبوت جاف أو بجانح خفاش. حاولت أن أرفع ذراعـي، لكـن أبت هذا الذراع التحرّك. لامس ذلك الشيء خدّي، فحاولت أن أصل إليه... استيقظت لأكتشف أن بيردي يلعق وجهي.

اتّصـل بي سيد النفق بينما كنت أمضغ رقاقات الذرة، والخبز المحمّص. قرّرت أن أتوجّـه معه إلى كاندياك كما كان مقرراً، لأنني أردت أن أتحدّث مع روز فيشر. بعدئـذٍ سـينتهي كل شيء بيننا، ليسيطر عليّ الحزن، ولأقضي الكثير من الليالي من دون أنْ أذوق فيها طعم النوم. يا لكثرة ملكات الرقص الحسناوات!

فكّرت كثيراً، لكنني قرّرت عدم مواجهة رايان في موضوع المرأة الموجودة في بيـته. تعرّضـت للخيانة ذات مرة، فغضبت وأثرت الكثير من الجدال. وجّهتُ عندها الكثـير مـن الاتهامـات المصحوبة بالدموع، وسمعت الإنكارات العنيفة، ثم سمعت الاعترافات التي تفتّت القلب. لن أكرّر ما حصل أبداً. دعم بيردي قراري هذا.

– "هل نمتِ جيداً يا شمسي؟"

– "نمت مثل صخرة بركانية".

– "اصطحبتْ باستيلو فيشر لزيارة الكاهن عند الساعة العاشرة. اقترحتْ عليّ أن نأتي إلى المنزل عند الحادية عشرة. هل أمرّ لاصطحابك عند العاشرة والنصف؟"

سمعت شيئاً يشبه صوت عود ثقاب، ثم صوت نفث دخان.

- "سأكون في منزلي".

اتّصل بي كلوديل هاتفياً عندما كنت منهمكة بتجفيف شعري.

لم يكلّف كلوديل نفسه عناء إلقاء التحية كعادته، كما أهمل الأسئلة التقليدية عن الصحة، أو عن حسن سير الأمور. تنساب اللغة الفرنسية كالحرير من معظم الأفواه، لكنها تتدحرج من فم كلوديل مثلما تتدحرج كميات من البطاطا عبر منحدر. قال: "اقترح عليّ التحري شاربونيو أن أتّصل بك، بالرغم من أنني لا أفهم سبباً لذلك. ليس لديّ معطيات أرفعها إليك".

- "ماذا تعني؟"

- "لم يسفر تفحّص لائحة المستأجرين عند ساير عن أية نتيجة. لم أحصل على شيء من سي. بي. آي. سي، ولا من أن. سي. آي. سي أيضاً. ولم يأتِني أي شيء من فيرمونت، أو من كاليفورنيا".

- "ألم تكشف أية حالة عن شخص مفقود تقارب مواصفاته مواصفات ضحايا القضية التي ندرسها؟"

- "هناك حالة فتاة من كاليفورنيا كانت تعاني كسر في المعصم. تقارب طول هذا الفتاة مع الحد الأدنى لمدى الطول عند فتياتكِ".

- "كم كان طولها؟"

- "خمسة أقدام وأربع بوصات".

شعرت بشيء يشبه سريان الكهرباء في جسدي.

- "إن طولها قريب جداً من المواصفات التي أمامنا. متى أُعلنَ عن اختفائها؟"

- "اختفت عام خمسةٍ وثمانين".

- "إذاً أين المشكلة هنا؟"

- "كانت الفتاة في الرابعة عشرة من عمرها"

تطوّر التيار ليحدث شيئاً كقصف الرعد.

- "بدا لي أن الهيكل ذا الكعبرة المكسورة قد اقترب من سن العشرين".

تخيّلت عظام الفتاة التي وجدت في كفن جلدي، والتي سدّ طبيب أسنانها جذر ضرسها الطاحن، وهو الذي ظهر في صورة الأشعة السينية لأضراسها: "يُحتمل أن تكون في الثامنة عشرة من عمرها، لكن لا يمكن أن تكون في الخامسة عشرة".

- "هذا هو رأيي تماماً".

- "لـــيس بالضرورة أن يكون تاريخ الاختفاء هو تاريخ الوفاة. هل علمتَ شيئاً آخر؟"

- "تختفي عشرات الفتيات كل سنة".

حذّرنـــي صـــوتٌ في داخلي أن أقطع الاتصال قبل أن يعاني كلوديل من صدمةٍ مباشرة أخرى.

لا يعطي جرس الباب عندي رنّة عادية، بل يعطي صوت تغريد الطيور. انطلق الجرس بالتغريد في تلك اللحظة بالذات.

- "أودّ الحصـــول على تقرير مطبوع عن كل أنثى اختفت في كيبيك على مدى العشرين سنةٍ الماضية، من اللواتي تراوحت أعمارهن ما بين الخامسة عشرة والثانية والعشرين".

- "إنـــك تتحدّثين عن عشرات الفتيات، لكن تبيّن لنا أن معظمهن يغادرن منازل عائلاتهـــن ثم يرجعن إلى أمهاتهن وآبائهن، وذلك بعد أن يتعبن من الأكل والنوم على أرصفة الشوارع".

- "يساعدني كثيراً أن أعرف من لم تعد منهن".

سمعت المزيد من صوت التغريد الصادر عن الجرس.

- "يا سيدتي، ..."

- "حضر التحري رايان، سأقفل الخط".

- "آندرو رايان؟"

- "إننا ذاهبان لمقابلة شقيقة لويز بايرنت".

- "أتعنين السيدة التي توفّيت في كاندياك؟"

- "نعم".

- "هل هي السيدة نفسها التي حاولت التحدث معك مراراً عبر الهاتف؟"

- "اتّصلت بي السيدة بالفعل".

- "وماذا أرادت أن تقول؟"

- "أعتزم اكتشاف هذا الأمر بالتحديد".

- "ومتى ظهرت شقيقتها؟"

- "البارحة".

- "أين؟"

- "ظهرت في منزلها".
- "وأين كانت تلك العجوز من قبل؟"

أجبته بصوت فيه الكثير من البرودة: "كانت في بوان أو بيكس. أود الحصول على ذلك التقرير حالما يجهز".

- "سأبذل جهدي".
- "شكراً لك".

يا له من أحمق!

أسرعت إلى الحمام، فوجدت أن جانباً واحداً من شعري يبدو مقبولاً، بينما كان الجانب الآخر متدلياً على شكل لفافات مبللة بالماء. أسرعت لأتناول مجفّف الشعر. سمعت المزيد من صوت تغريد الجرس الذي أصبح أكثر حدة.

- "رائع".

اكتفى بيردي بالمراقبة من مكانه قرب المدخل. نهض الهر فور سماعه صوتي ومدّ رجله إلى الوراء، ثم تحرّك. لم يتبقَ لديّ وقت كافٍ كي أترك رسالة إلى آن. أرجعت مجفّف الشعر إلى مكانه، وتناولت قبعتي ثم انطلقت.

وقف رايان ينتظرني في الرواق الخارجي، ولاحظت أن وجهه قد احمّر من البرد. وضع رايان نظارتيه البنّيتي اللون، وارتدى سترة فضفاضة. انطلقت الأفكار الجميلة في مخيلتي من عقالها. استمرّت تلك المكالمة الهاتفية بالإمساك بخناق عواطفي، لكن الرغبات أخذت لها نهجاً معاكساً.

ظهرت ابتسامة رايان الكبيرة: "هل أيقظتك يا حلوتي؟"

حاولت أن أُبعد العدائية عن صوتي: "لم توقظني".

- "هل بدأنا بطبع حاد هذا الصباح؟"
- "هل بدأنا بالتدخين هذا الصباح؟"

دسّ سيجارته في المنفضة المليئة بالرمل الموجودة قرب الباب: "إنها انتكاسة ثانوية".

صفعني البرد في الخارج وكأن انفجاراً جليدياً قد حدث لتوه. ظهرت أشعة الشمس خجولة في سماء زرقاء صافية. رأيت سيارة رايان مركونة دون اهتمام في المنعطف. دخل رايان إلى السيارة، والتفت إليّ، ثم رفع نظارتيه الشمسيتين إلى ما فوق رأسه. ظهر هلال داكن اللون تحت كل عين لازوردية من عينيه.

- "ما الذي يشغل بالكِ؟"

لم أقل أي شيء.

- "يبدو الاضطراب عليك".

لم أقل أي كلمة، وبدا الصمت أثقل هذه المرة. ابتسم رايان، لكن التوتر ظهر في فكّه وحول عينيه: "أظن أنك غير سعيدة معي".

- "أعـرف أنـك تعتبر نفسك كنزاً ثميناً يا رايان، لكن لديّ أشياء أخرى غيرك لأفكر بها".

وأكملت في سرّي: وغير ابنة أختك أيضاً. شعرت بحساسية مفرطة.

سألني رايان: "أتريدين أن نتحدّث؟"

شعرت بصعوبة السيطرة على صوتي بعد الآن، فقلت له: "أريد أن ننطلق".

هذا ما حصل. وساد الرحلة صمت ثقيل.

فتحـت كلوديـا باسـتيلو باب المنزل في كانديلك بعد أن قرعنا الجرس للمرة الأولـى. حيّيـتها بحرارة رداً على ابتسامتها المصطنعة. شاهدت روز فيشر جالسة لوحدهـا وهـي تحدّق من خلال الستائر الأفقية. ارتدت هذه السيدة فستاناً من الحرير الصـناعي الأخضـر اللون الموشى بالورود. رفعت روز شعرها البرتقالي اللون إلى الخلف بواسطة مشط ذي مشابك بلاستيكية. لاحظت أن مساحيق التجميل التي تضعها كانت أكثر من تلك التي استخدمتها في الليلة الماضية. انشغل الملاك الصغير تيت آنج بأداء مقطع من أغنية الأخ جون.

لـم تـتحرك فيشر عندما دخلنا إلى غرفة المعيشة. وعندما سمعت صوت ابنتها التفتت نحونا. بدت مذهولةً كأنها تحاول أن تتذكّر من عسانا نكون.

- "إنه رجل الشرطة، والمحقق الجنائي".

انسحبت باستيلو بعد أن أنهت تقديمها الذي لم يكن دقيقاً بالكامل، جلستُ ورايان إلى جانب فيشر. أشار الشرطي للمحقق الجنائي كي يبدأ بمطالعته.

- "سيدتي، آمل أن يكون مزاجك أفضل هذا اليوم".

أومأت فيشر، وبدا أنها فعلت ذلك من دون وعي تقريباً.

- "أتسـاءل يا سيدة فيشر عن بعض المكالمات الهاتفية التي أجرتها شقيقتك مع مختبري".

نظرت العينان الرماديتان باتجاه الأسفل: "متى؟"

- "كلّمتني في الأسبوع الماضي".

ركّزت فيشر نظرتها نحو الأرض وقالت: "كلّمتكِ بشأن أي موضوع؟"

- "السيدة بايرنت..."

- "لم تتزوّج لويز أبداً".

- "تحدّثت الآنسة بايرنت عن مبنى يقع في شارع القديسة كاترين".

أطبقت الأصابع الثخينة على بعضها ثم عادت وانفتحت.

- "قالت إنها قلقة بشأن بعض الحوادث التي جرت هناك".

تزايد تململ فيشر بشكل ملحوظ.

- "قالت شقيقتك إنها تشعر بمسؤولية أخلاقية تدفعها إلى تزويد السلطات ببعض المعلومات".

تطلّعت فيشر إلى الأعلى واتّسعت العينان في ذلك الوجه المصبوغ بطريقة غير موفقة.

- "كلّمتني مرتين، فهل تعرفين السبب؟"

- "لم أعتقد أنها أقدمت على ذلك بالفعل".

- "ما هي المواضيع التي أرادت شقيقتك مناقشتها معي؟"

وصلت باستيلو في تلك اللحظة بالذات، وجلست على كرسي كان بقرب الأريكة، وانتقل الببغاء من السقسقة إلى إصدار نغمات قصيرة، وعالية، وصاخبة.

صرخت باستيلو: "تيت آنج".

انتقل الببغاء لأداء سلسلة من الصرخات القوية.

- "توقّف!"

قـــال الببغاء عبارة طائر جميل باللغتين الإنكليزية والفرنسية، ثم بدأ بالبحث في محتويات وعاء البزور. شرحت باستيلو لنا: "إنه يقلّد صوت جهاز كاشف الدخان. تعلّم هـــذا المعـــتوه تقليد هذا الصوت عندما بقي لوحده في أحد أيام عطلة نهاية الأسبوع، وعندما فرغت بطاريات الجهاز".

قلت: "إنه موهوب جداً، وثنائي اللغة".

بدا لي أن باستيلو لا تحب هذا الطائر، إذ قالت: "إنه مجرد طائر غرّيد".

- "إنه ثلاثي اللغة".

نظرنا جميعاً نحو فيشر. انطلق صوت فيشر بشكل متقطع: "إنه يتكلّم الإنكليزية، والفرنسـية، ولغة الببغاوات. اعتادت لويز أن تضحك لهذا، لأنها كانت تعمل مترجمةً كما تعلمين".

- "لا يا سيدتي، لم أكن أعلم".

أومأت فيشر والتقى جزءا ذقنها.

- "عملـت على ترجمة الكتب من الفرنسية إلى الإنكليزية، ومن الإنكليزية إلى الفرنسية".

أجبتها: "يبدو أن عملها كان صعباً جداً".

ثـم التفتُّ نحو باستيلو وقلت: "سألت والدتك عن مكالمات هاتفية أجرتها خالتك مع مختبري قبل أن تموت بوقتٍ قصير".

- "هل هناك رابط بين الأمرين؟"

- "لم نتأكّد بعد".

- "هل توحين لي أن موت خالتي قد لا يكون طبيعياً؟"

قال رايان: "إننا عازمون على استكشاف كل احتمال".

صرخت بصوت يشبه صوت الطائر: "هل تشكّون بنا؟"

بدا صوت رايان مطمئناً بما فيه الكفاية: "بالطبع لا. نريد بكل بساطة أن نعرف ماذا كان يدور في ذهن خالتك".

التفـت رايـان كي يتحدّث إلى فيشر: "هل تعلمين ما الذي كانت ترغب الآنسة بايرنت بإبلاغه للدكتورة برينان؟"

أومأت فيشر، فتشابكت حُزم من ألوان ضوء الشمس في خدها.

تبرّع تيت آنج بأداء مقطع من مسرحية كاملوت.

أخـذت روز فيشر نَفَساً عميقاً، ثم قالت: "أقامت لويز في شارع القديسة كاترين لمـدة سـبع عشرة سنة تقريباً. أقنعتها أن تمكث عندي عندما توفّي زوجي في العام أربعـة وتسـعين. قلـت لها إن المبنى الذي تسكنه هو بناء كبير، وهناك الكثير من المحـلات التجارية في ذلك الشارع، كما أن هناك الكثير من الناس الذين يقطنون في الشقق المجاورة. شعرت أنني لا أتحمّل تلك الضجّة المحيطة بالمكان، لكن لويز أحبّت المكـان. امتلكت أختي شقةً مطلةً على الشارع تضمّ غرفتي نوم. أحبّت شقيقتي النظر من خلال النافذة أثناء عملها في مكتبها، ولطالما لقّبت نفسها بمتطفّلة الحي".

سألتها بإلحاح: "ما هو نوع المحلات التجارية التي تشغل العمارة؟"

- "تواجدت مجموعة متكاملة من المحلات. امتلكت سيدة متجراً لبيع حقائب السفر، بالإضافة إلى ملحمة، إلى أن فتح ذلك الرجل مكتباً للرهنيات".

تطلّعت فيشر باتجاه الأرض، وقالت: "لم تحبّه لويز في الواقع... لم تكن تحبّه أبداً".

- "ماذا كان اسمه؟"

- "يبدأ اسمه بحرف م. ربما كان ماينارد. اعتبرته لويز أميركياً.. لا أذكر، لأن هذا حدث منذ سنوات طويلة".

إنه ستيفان مينارد، وهو رجل ورد اسمه في قائمة ساير. إنه الرجل الذي استأجر محلاً في عمارة ساير من العام تسعة وثمانين حتى العام ثمانية وتسعين.

- "لماذا لم تكن شقيقتك تحبّ هذا الرجل؟"

- "لا تفهمني بطريقة خاطئة. اعتادت لويز أن تحبّ كل الناس، لكن مشاعرها تجاه ذلك الرجل لم تكن طيبة".

تطلّعت فيشر نحو باستيلو، وأومأت هذه الأخيرة.

- "رأته ذات ليلة يحمل فتاة نائمة بين ذراعيه. قالت لويز إنه بدا وكأنه يحمل طفلاً إلى سريره"

- "وهل كان يحمل طفلاً؟"

- "كان يحمل فتاة مراهقة".

- "هل كانت ابنته؟"

- "قالت لويز إنه أخبرها بأنه نادم على عدم الزواج وعدم إنجابه للأطفال. تمتّعت لويز ببراعة في حمل الآخرين على التحدث معها بصراحة، بحيث أنها كانت قادرة على حملك على إخبارها قصة حياتك بأكملها بعد لقائك معها بخمس دقائق".

تزايدت ضربات قلبي: "هل من شيء آخر؟"

- "حدث أن رأت شقيقتي فتاة تهرب من مكتب الرهنيات. انطلق ذلك المسترهن مسرعاً نحو الشارع وجرّها ثانية إلى داخل محله".

- "متى حدث ذلك؟"

أساءت فيشر فهم سؤالي: "حدث هذا في وقتٍ متأخر من الليل".

نظرت إلى رايان. بدا متوتراً مثلي.

- "كتمـــت لويز هذه الحادثة في دخيلة نفسها حتى انتقلت للسكن معي، وإلى أن بدأ ضميرها يؤنبها، فأخبرتني بما رأت".

- "هل تكلّمت شقيقتك مع المسترهن بشأن هاتين الحادثتين؟"

أومأت فيشر: "قالت لويز إنها استفسرت عن الفتاتين عدة مرات، لكن ليس على الفور، وهي فعلت ذلك بطريقة حاذقة. أخبرتني أن ذلك المسترهن واظب على تفادى الإجابـــة عن أسئلتها، ثم أصبح عدائياً جداً بالنسبة للموضوع برمته. اضطرت شقيقتي إلى التخلي عن استفساراتها بسبب موقفه هذا".

رفعت فيشر نظرها وركّزته على عينيّ.

- "ظلّــت لويز تتعذّب بشأن ضرورة إبلاغ الشرطة، وكما تعلمين... كي يبادر أحدهــم للـــتحقق مـــن هاتين الحادثتين. طلبت منها أن تهتمّ بشؤونها، وأن لا تتورّط بشيء".

- "هل جرت هاتان الحادثتان قبل العام 1994".

أومأت فيشر: "هل تعتقدين أنني أسديت نصيحة سيئة لشقيقتي؟"

سقسق تيت آنج قبل أن ينطلق بتغريده.

الفصل 25

تـــابع رايـــان استجوابه لروز فيشر، فيما بقيت باستيلو تحوّم في جوارنا. تسلّلتُ إلـــى الخارج، وأجريتُ اتصالاً هاتفياً مع كلوديل. فوجئت عندما رفع كلوديل السماعة بعد الرنّة الثانية. كرّرت على مسامعه القصة التي روتها فيشر.

– "استقصيت عنه أثناء عملي على التحقق من لائحة مستأجري ساير".

– "ألا يمتلك سجلاً قضائياً؟"

– "لم يسبق لذلك الرجل أن بصق في الشارع، رسمياً على الأقل".

– "هل ما زال متواجداً في مونتريال؟"

– "إنه يمتلك منزلاً في بوان سان شارل".

– "وماذا يعمل الآن؟"

– "إنه لا يعمل على حدّ علمي".

– "أدار ميـــنارد مكتـــب الرهنـــيات مـــن العام تسعة وثمانين حتى العام ثمانية وتسعين. ماذا كان يعمل قبل ذلك؟"

مرّت فترة صمت قصيرة، ثم قال: "السجلات ليست واضحة بهذا الخصوص".

– "أتقول غير واضحة؟"

– "تنتهي سجلاته عند العام ثمانية وتسعين".

– "ماذا تعني بذلك؟"

– "لا تحـــتوي السجلات الرسمية أي شيء بخصوص ستيفان مينارد في فترة ما قبل العام 1989".

– "ألا تضمّ السجلات شهادة ميلاد، أو جداول ضريبية، أو حتى سجلاً طبياً له؟ ألا تضمّ شيئاً على الإطلاق؟"

مـــرّت فـــترة صـــمت. فعدت لأقول: "تعتقد روز فيشر أن شقيقتها قالت لها إن مينارد كان أميركياً. هل أرسلت الاسم إلى ما وراء الحدود الجنوبية للبلاد؟"

انتظرت كلوديل ليتكلّم، وعندما لم يفعل قلت: "سأتّصل بالسيد أوتييه لأخبره أننا حصلنا على معلومات جديدة قد توصلنا إلى نتائج معينة".

يتعيّن عليك شرح افتقادك للحماسة لرئيس المحققين الجنائيين يا سيد كلوديل!

رجعــت إلـــى غرفة المعيشة بعد انتهائي من المكالمة الهاتفية. بقيت أراقب ما يجري بهدوء بينما أمضى رايان ثلاثين دقيقة في استجواب فيشر.

تســبّبت الدمـــوع، التـــي انهمرت أثناء غيابي، بنشر الفوضى في مستحضرات التجميل الموجودة على وجه فيشر. حطّم الكرب المخيّم على فيشر قلبي، ولاحظت أن وضع باستيلو مختلف تماماً. بقي ظهرها مستقيماً، وبقيت نظراتها مركزة، وخالية من التعاطف مع الحزن الذي تشعر به والدتها. أقدمت هذه المرأة الأصغر سناً على وضع ساق على ساق بين وقتٍ وآخر، كما أقدمت على شبك ذراعيها فوق صدرها، أما في الأوقات الأخرى فقد جلست ساكنة، ومن دون إطلاق أية تعليقات.

انـــتهى رايـــان أخيراً، فنهضنا، ثم كرّرنا أسفنا لفيشر وابنتها، وغادرنا المكان. اقترح رايان فور عودتنا إلى السيارة أن نتناول بعض الشطائر.

- "لا، شكراً لك".

اختارت معدتي هذه اللحظة بالذات لتدمدم.

- "سأعتبر ذلك نقضاً أيضياً لقرارك عدم تناول الغداء".

لـــم ينـــتظر رايان انتهاء الجدال. قاد السيارة نحو موقف سيارات لافلور، وهي المطـــاعم التـــي تعادل مطاعم المأكولات السريعة في الولايات المتحدة. استدار حول السيارة وفتح لي الباب، ثمّ انحنى وأطلق إشارة بيده الأخرى.

لِمَ كل هذا التظاهر؟ أنا جائعة!

تشـــتهر مطـــاعم لافلور بالمقالي والنقانق المحضّرة على البخار. يعرف قاطنو مونـــتريال أن معـــدلات الكوليســـترول تسجّل ارتفاعاً كبيراً عندهم بسبب تناول هذه الأطعمة، إلا أنهم يتناولون الطعام في لافلور بين حين وآخر.

لـــم تمضِ دقائق قليلة حتى جلستُ ورايان إلى طاولة سطحها من الفورميكا، ولم يفصل بيننا سوى أربع قطع من النقانق، وعشرين باونداً من المقالي.

رنّ هاتفي الخليوي فور بدئي بتناول قطعة النقانق الثانية. لم يكلّف كلوديل نفسه عناء إلقاء التحية.

- "الحق معكِ".

كدت أختنق. هل يعترف كلوديل فعلاً أنني على حق بأمرٍ معيّن؟

تساءل رايان عمّا يحدث، وبسط ذراعيه مستفسراً. مددت يدي باتجاهه.

– "تقول بطاقة هوية السيد ستيفان مينارد عند ولادته إنه ستيفن تيموثي مينارد، وإن والديه، جينيفياف روز كورنيو وسايمون تيموثي مينارد، هما من سكان فيرمونت".

– "تتذكّر فيشر هذه الأمور بشكل صحيح".

– "عمل والدا مينارد في التعليم، كما أنهما كانا يبيعان منتوجات حديقتهما من الخضار. تقع تلك الحديقة على بعد خمسة عشر ميلاً خارج سان جونزبوري. توفّي الوالد في العام سبعة وستين، أي عندما كان ابنه في الخامسة من عمره. وتوفّيت الوالدة في العام اثنين وثمانين".

– "كيف انتهى مينارد في كندا؟"

– "جاء بطريقة شرعية، لأن والدته ولدت في مونتريال. انتقلت بعد ارتباطها مع مينارد إلى فيرمونت، حيث تزوّجت هناك، وأصبحت مواطنة أميركية. اعتادت جينيفياف روز زيارة عائلتها في موطنها، وحدث أن وُلد الصغير ستيفن في إحدى تلك الزيارات".

– "هل يمتلك مينارد جنسية مزدوجة".

– "أجل".

– "لكنه لم يسكن بشكل دائم في كندا حتى العام تسعة وثمانين، صحيح؟"

– "ورث مينارد المزرعة التي تضمّ حديقة الخضار عندما ماتت والدته في العام 1982. تبلغ مساحة المزرعة حوالى 12000 متر مربع، وتحتوي بيتاً يضمّ غرفتَي نوم".

أجريت حساباً سريعاً في ذهني: "ذلك يعني أنه كان في العشرين من عمره".

– "أجل".

انهمك رايان بإضافة الخل إلى طبق البطاطا المقلية، لكنه كان يصغي بانتباه شديد.

– "هل بقي مينارد في فيرمونت؟"

– "يدقّق شاربونيو في هذا الأمر مع شرطة سان جونزبوري. تأكّدت من جهتي أن جدّي مينارد قتلا في حادث سيارة في مونتريال في العام 1988".

- "دعني أخمّن. ورث مينارد من جدّته وجدّه منزل كورنيو، فقال وداعاً لفيرمونت، ثم عدّل طريقة لفظه لاسمه، وتوجّه شمالاً".

- "امتلك الرجل منزل كورنيو في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1988".

- "يقع ذلك المنزل في بوان سان شارل. أليس كذلك؟"

قرأ لي كلوديل العنوان.

أومأت لرايان كي يناولني قلماً، فدونت العنوان على منديل ورقي.

- "هل يسكن وحده؟"

- "لا تدلّ السجلات على أن أي شخص آخر يسكن هناك".

سألته: "هل يمتلك مينارد سجلاً عدلياً في الولايات المتحدة".

- "يعتبر الرجل نموذجاً للاستقامة، في ما عدا حالة واحدة نتجت عن قيادته السيارة تحت تأثير الكحول، وذلك عندما كان في السابعة عشرة من عمره".

أحسست أن موقف كلوديل المتعجرف يؤثّر كالعادة على مزاجي.

- "اسمعني جيداً، دأبنا حتى هذه اللحظة على التركيز على الضحايا، وعملنا على القضية بدءاً من آخرها. يتعيّن علينا الآن أن نفكّر في الذين وضعوا الضحايا في القبو".

- "هل تعتقدين أن مينارد هو مَن دفنهم هناك".

- "هل تمتلك أفكاراً أفضل يا سيد كلوديل؟"

بادرنا إلى قطع الاتصال الواحد تلو الآخر.

مررّت المعلومات التي حصلت عليها من كلوديل إلى رايان أثناء تناولي لقطعة النقانق الثانية. لم يُظهر رايان أمامي أية شكوك تتعلّق بمينارد، ولعله أبقاها لنفسه. بعد قليل دسّ الأوراق المشمعة التي غلّفت وجبتنا في العلبة الكرتونية وقال: "لا بد أن مينارد هو في الأربعينيات من عمره هذه الأيام".

- "وبقي من دون مدخول معلنٍ منذ سنوات عديدة".

- "نعرف أنه يمتلك عدة عقارات في فيرمونت وكيبيك".

قلت له: "ولديه الكثير من الأقارب المتوفين".

اتّصل بي شاربونيو على هاتفي الجوّال عندما وصلت السيارة إلى الرصيف الموجود أمام منزلي.

- "كيف تسير الأمور أيتها الدكتورة؟"

- "إنها تسير سيراً جيداً".

– "أجريت بعض التحريات المهمة مع جيران رجلنا، صاحب الحدائق الخضراء. يبدو أنه تخرّج من الجامعة".

– "أين؟"

– "تخرّج من جامعة فيرمونت، وهو من خريجي دفعة العام 1984. أرسلت لي تلك السيدة اللطيفة التي تعمل في مكتب التسجيل صورته الموجودة في كتاب الجامعة السنوي. يبدو الفتى كأي ولدٍ تفخر به والدته. يظهر في الصورة شعر الفتى الكثيف، وبعض النمش في وجهه، وقد وضع نظارتي كلارك كنت، وابتسم على طريقة دوني أوزموند".

– "وهل شعره أحمر اللون؟"

– "يبدو مثل أوبي بنظارتيه تلك. ستعجبين بما سأقوله لك. حصل الدكتور مينارد على درجة بكالوريوس فنون في علم الإنسان، الأنثروبولوجيا".

– "هل تمزح؟"

– "تبدو القصة أكثر تشويقاً هنا. أكمل مينارد تخصّصه العالي، والتحق ببرنامج الماجستير في علم الآثار في مكان يدعى... انتظري وجدته. يدعى شيكو".

تزايدت ضربات قلبي إلى حدها الأقصى.

– "هل تعني جامعة ولاية كاليفورنيا في شيكو؟"

هزّ رايان رأسه مستفسراً بسبب حدّة نبرتي.

– "نعم، لكنها مكان بعيد بالنسبة لفتى يسكن في فيرمونت".

ذكّرت شاربونيو باختبارات نظير السترونتيوم التي أجراها آرت هوليداي على الهياكل العظمية.

– "توحي نسَب السترونتيوم الموجود في الأسنان العائدة للفتاة التي كانت في الكفن الجلدي أنها نشأت في شمال وسط كاليفورنيا، ألا تذكر؟"

– "صحيح".

– "تقع شيكو في شمال وسط كاليفورنيا".

– "يا للروعة!"

– "تذكّر أيضاً أن نسَب السترونتيوم الموجودة في عظام تلك الفتاة توحي باحتمال تمضيتها السنوات الأخيرةِ من حياتها في فيرمونت".

– "يا للّعين!"

– "ماذا عرفت أيضاً؟"

– "يبدو أن منحة مينارد لم تسمح له بالمتابعة، فاضطر إمّا لترك الجامعة، أو أنه تعرّض للطرد بعد إكماله سنة واحدة من البرنامج. لم يحصل الفتى على شهادته".

– "وأين ذهب بعد ذلك؟"

– "ظهـر في مزرعة والدته في فيرمونت في شهر كانون الثاني/يناير من العام ستة وثمانين".

– "إذا كـان الفـتى قـد ترك جامعته في شيكو بعد إكماله سنة أكاديمية واحدة، فمعـنى ذلك وجود ثغرة ما بين نهاية فصل الربيع الدراسي في العام خمسة وثمانين، وشهر كانون الثاني/يناير من العام ستة وثمانين. أين كان طيلة هذه الفترة؟"

– "سأجري بعض المكالمات الهاتفية مع شيكو".

– "بماذا انشغل مينارد بعد عودته إلى فيرمونت؟"

– "زرعَ الخضـار علـى ما أظن، واعتمدَ على الممتلكات التي ورثها. لم يدفع الرجل اشتراكات الضمان الاجتماعي، ولم يسدّد ضرائبه".

– "هل تكلّمت مع السكان هناك؟"

– "نجحت في حمل اثنين من جيرانه على تذكّره. لاحظت أن معظم السكان في تلـك المـنطقة قدمـوا إليها بعد مغادرة مينارد، لكن بعض الرجال المسنين يتذكّرون جينيفـياف روز وابـنها. يبدو أن والدته كانت سيدة قديرة، استطاعت أن تُبقي ولدها تحت سيطرتها".

– "ألم تتزوّج كورنيو ثانية؟"

– "لا، أبداً. ظلّت أماً وحيدة. يتذكّر بعض الناس أن مينارد كان ولداً هادئاً، ولم يكن يـتجول كثـيراً. لم يشارك ذلك الفتى بنشاطات رياضية، أو بنشاطات مدرسية من خارج المـنهج الدراسـي. يتذكّر شخص واحد على الأقل أنه رآه خلال السنة الأولى التي تلت عودتـه من شيكو. ويبدو أن الرجل أولع باتخاذ مظهر غريب في الفترة التي قضاها بعد تخرجه من الجامعة، لأنه عاد بلحية طويلة، وخصلات شعرٍ متدلية حول رأسه".

– "إنها فيرمونت".

– "ماذا تعنين بذلك؟"

– "إنهم أناس محافظون. هل قال لك الجيران أشياء أخرى؟"

– "لـم يقولـوا الكثـير. يبدو أن مينارد كان منعزلاً بعض الشيء، ولم يجازف بالخروج من منزله إلا لشراء حاجياته، أو من أجل الحصول على وقود لسيارته".

- "تحدّث مع أشخاص في شيكو. اكشف النقاب عن كل شيء يتعلّق بهذا الرجل. أريدك أن تجهّز لي لائحة عن كل أنثى بلغ عمرها ما بين الخامسة عشرة، والخامسة والعشرين اختفت في تلك المنطقة أثناء تواجد مينارد فيها".

- "هل أنتِ ميالةٌ حقاً إلى ربط مينارد مع الهياكل التي وجدت في قبو مطعم البيتزا؟"

- "إنه النموذج التقليدي؛ والدة مسيطرة، وفشل في تحقيق الطموحات، رجل وحيد، يعيش في مكان منعزل".

- "لا أعرف ماذا أقول".

- "اربط المعلومات مع بعضها يا شاربونيو. دُفنت ثلاث فتيات في قبو عقار استأجره مينارد لمدة تسع سنوات. يوحي تاريخ الكربون 14 بتزامن حدوث الوفيات مع فترة استئجار مينارد للمكان. أعتقد أن لويز بايرنت امتلكت ما يكفي من الأسباب التي تدفعها لتكلّمني هاتفياً مرتين".

عمدت إلى التلخيص من أجل رايان وشاربونيو على السواء.

- "بحسب ما قالته شقيقة بايرنت، فإنها أرادت أن تخبرني أنها رأت مينارد مرة وهو يحمل فتاة مراهقة غائبة عن الوعي، ويتّجه بها نحو متجره. راقبته في مناسبة أخرى وهو يجرّ فتاة هاربة إلى متجره. جرت الحادثتان في وقت متأخر من الليل".

قال شاربونيو: "لكن بايرنت متوفاة الآن".

نظرت نحو رايان الذي بدا مهتمّاً بكل كلمة.

أكّدت قوله: "وبايرنت متوفاة الآن".

- "أوضحي حدود عملك إذاً، لأنه يُحتمل أننا سنعمل على نفس المستوى".

- "يبدو الأمر كذلك".

- "هل رايان معك؟"

- "نعم".

- "دعيني أتكلّم معه".

ناولت رايان سماعة الهاتف، ثم راقبته أثناء إصغائه إلى شاربونيو. حافظت على هدوء تعابير وجهي بالرغم من أن أعصابي كانت مشدودة. لم تظهر على وجهي الصدمة التي واجهني شاربونيو بها. كتمت الألم الذي تسبّب لي به شاربونيو يوم الاثنين. كما كتمت العذاب الذي تسبّبت لي به المكالمة الهاتفية التي أجريتها الليلة الماضية.

أقسمتُ على أن أُبقي مسافةً ما بيني وبين رايان، لكن الخيوط بدأت بالترابط. بدا لي أن التداخل الموجود ما بين قضيتَي بايرنت، وبين التحقيقات بخصوص قبو مطعم البيتزا، سيجعل من الانفصال المهني في ما بيننا لَمراً مستحيلاً. عزمت على أن أتصرّف بإيجابية. سأقوم بمهمتي، وعندما تنتهي سأتمنّى التوفيق لرايان، ثم أمضي في طريقي.

ضحك رايان تلك الضحكة المعتادة بين الرجال الذين يتبادلون نكاتاً حول النساء: "نعم، إنها كذلك".

ثار جنون الارتياب عندي. إنها ماذا؟ وعن أي امرأة يتحدّثان؟

انسي الأمر يا برينان. ركّزي اهتمامك على القضية، وحافظي على كل طاقاتك مصــوبة بذلــك الاتجــاه. تخيّلت العظام في قبورها المنسية والمجهولة، بينما انشغل ميــنارد بالشــراء والبــيع في متجره الكائن فوقها؛ يتاجر بالإلكترونيات مقابل صفقة مخدرات، ويشتري ممتلكات الآباء التي ورّثوها لأبنائهم الذين يبيعونها آسفين. تخيّلتُ ميــنارد فــي فيرمونت وهو يزرع البازيلاء والبطاطا. وتخيّلت مينارد في كاليفورنيا وهو مكبّ على دراسته ستروفر، وبينفورد، وبويكسترا، وفاغان. تقدّمت فكرة واضحة المعالم في رأسي محاولةً الاستحواذ على انتباهي: شيكو.

أدار رايان المنديل الورقي لكي يقرأ عنوان مينارد: "... لقد دوّنته عندي".

تقع شيكو في شمال وسط كاليفورنيا. أعرف ذلك تماماً. إذاً لماذا يثير اسم مكان ما كل هذه الضجة في ذهني؟

لم يكن الأمر بهذه البساطة، لا بد أن هناك سبباً آخر يفوقه أهمية. ما هو؟

قال رايان: "هذا يكفي".

قال شاربونيو شيئاً.

- "أجل. نستطيع الضغط على السنجاب لنعرف كيف يستجيب".

قطــع رايــان الاتصــال، وناولني هاتفي الجوّال، ثم سألني: "هل تودّين إجراء محاورة مع هذا الرجل؟"

- "أتعني مينارد؟"

أومأ رايان بالإيجاب.

- "بالتأكيد".

بدا لي أن تلك الفكرة الغامضة في ذهني قد تراجعت قليلاً.

لم نعرف أننا مراقبان عندما غادرت المطعم برفقة رايان.

الفصل 26

تجعلني خارطة مونتريال أفكّر بقدمٍ، يشكل الكاحل فيها مطار دورفال بالإضافة إلـــى ضواحي الجزيرة الغربية، بينما تشير أصابع هذه القدم نحو الشرق. ينحدر عقب القــدم نزولاً باتجاه فلاف سان لوران. وتشكّل فردون الباطن السمين لهذا العقب، أما بوان سان شارلز فتشكّل ورماً صغيراً في إبهام تلك القدم.

تنتهـــي الـــبوان بقـــناة لاشين، وتمتدّ حتى ساحات سكة الحديد الكندية. تقع فيو مونـــتريال وميناؤها إلى جهة الشرق. سكن البوان في البداية العمال المهاجرون الذين عملوا في تشييد جسور مونتريال، لهذا السبب نجد أسماءً تعكس حضوراً إيرلندياً قوياً، مـــثال علـــى ذلك شارع سان باتريك، وسوليفان، ودبلن، ومولينز. أصبح كل ذلك من التاريخ، أما اليوم فغالبية سكان البوان هم من الفرنسيين.

انعطـــف رايـــان إلـــى شارع ولينغتون بعد أقل من عشرين دقيقة على مغادرته لافلـــور. ويُعتبر ولينغتون الشريان الرئيسي لتلك المنطقة، وهو يمتدّ من جهة الشرق حـــتى الغـــرب. مررنا أمام متاجر بيع اللوازم الرياضية، وصالونات الوشم، وبمتجر أقمشـــة أم أتـــش غروفر الذي يشكّل معلماً من معالم ولينغتون منذ عقود من الزمن. انتشرت هنا وهناك مقاهٍ جميلة تتوسّط ذلك الشارع.

توقّـــف رايان قليلاً حيث يلتقي شارع دبلن مع الجهة اليسرى لشارع ولينغتون. هـــناك تنتشر مجموعة من الأبنية المشيّدة على الطراز الفيكتوري على يمين الشارع. بدت تلك الأبنية غير متناسبة، ومبنية بطريقة مستغربة بسبب كثرة ألوانها، لكنها تتميّز بأعمـــال خشـــبية مزخرفة، وأقواس قرميدية، وبألواح الزجاج المثبتة داخل إطاراتها. اســـتطعت أن أقـــرأ اســـم الدكتور جورج هال محفوراً على قطعة زجاج غير شفافة وُضعت فوق أحد الأبواب الأمامية.

لاحظ رايان أنني أحدّق فيها، فقال لي: "إنه شارع الأطباء. شيّدت أبنيته مجموعة مـــن الأطـــباء الأغنياء في القرن التاسع عشر، فقد أراد هؤلاء الحصول على مساكن فخمة. تغيّرت الأمور قليلاً منذ ذلك الحين".

- "هل ما تزال هذه المنازل بيوتاً خاصة؟"
- "أعتقد أنها مقسّمة الآن إلى شقق".
- "أين يقع شارع دي سيباستوبول؟"

أدار رايان رأسه نحو اليسار: "إنه شارع مكتظّ مثل جحور الأرانب، فيه الكثير من الطرق المسدودة، والطرق ذات الخط الواحد. أعتقد أن سيباستوبول يلامس طرف ساحات سكة الحديد".

شاهدت معلماً تاريخياً من خلال زجاج نافذة السيارة، وذلك ما إن انعطف رايان نحو شارع دبلن.

- "ما هو بارك مارجوريت بورجوي؟"
- "يا سيدتي الدكتورة، ها أنت تشيرين إلى واحدة من أكثر سيدات كيبيك شعبية. إنها الأخت ماجي التي أسّست المدارس لتعليم الفتيات الصغيرات في القرن السابع عشر، كانت فكرتها ممتازة، وقد استفادت منها كيبيك في ذلك الوقت. أسّست هذه الأخت أيضاً أبرشية راهبات نوتردام. أقدمت الكنيسة منذ سنوات قليلة على رفع درجتها إلى رتبة قديسة".

سألتُ: "وما هي فائدة اللوحة؟"

- "في أواسط الستينيات أعطى مئات من البورجوازيين مساحات مهمة من شبه الجزيرة الصغيرة هذه للراهبات. لكن بدأت الراهبات ببيع الأراضي شيئاً فشيئاً. تغطي بوان سان شارل حالياً مساحةً كبيرة من هذه المنطقة، لكن مدرسة المدينة الأساسية وبعض أقسام المزرعة، والتي تقع أمامنا مباشرة، قد أصبحت متحفاً هذه الأيام".
- "أتعني مايزون سان غابريال؟"

أومأ رايان.

بدت عملية جرف الثلج سطحية في تلك المنطقة. بقيت الأرصفة مغطاة بالثلوج وبدت تحتها معالم السيارات التي طُمر بعضها في الشوارع. قاد رايان السيارة ببطء، وأبقاها إلى أقصى يمين الطريق كي يُفسح في المجال للسيارت الآتية في الاتجاه المعاكس. بدأتُ بأخذ جردة بالأبنية المحيطة بنا أثناء تقدمنا أكثر فأكثر في البوان.

لاحظت أن هندسة الأبنية كانت خليطاً من الطرازات التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، والقرن العشرين. يبدو أن معظمها قد شيّد للفقراء من أبناء الطبقة العاملة. اصطفّت المباني ذات الطبقتين على جانبي الكثير من الشوارع، وهي البيوت

المشـيّدة بالحجر القرميدي الأحمر، والتي تفتح أبواب مداخلها على الأرصفة مباشرة. لاحظـت أن بعـض المباني الأخرى قد شيّدت بالأحجار الكلسية غير المنحوتة جيداً. بدت معظم البيوت بسيطة للغاية، بينما زيّنت بيوت أخرى بالأفاريز على أسطحها، أو بالأسطح المستعارة، أو بالنوافذ البارزة من السقوف الخشبية المنحوتة المائلة.

تداخلـت مع هذه البيوت القديمة المبنية على الطراز السائد في القرن الماضي، منازل بثلاث طبقات، أو ست طبقات، شيّدت في السنوات الأولى من هذا القرن. فضّل أصـحاب هذه المنازل التراجع عن الطرقات، الأمر الذي سمح بإنشاء حدائق صغيرة فـي الـباحات الأمامية. أنشأ هؤلاء أيضاً مداخل مظللة لبيوتهم، وأقدموا على تلبيس الجـدران الخارجـية بالأحجار الصفراء، أو البنيّة اللون، أو تلك التي هي بلون جلد الظباء، ولم ينسوا إنشاء أدراج خارجية ملتفة تصل إلى شرفات الطبقات الثانية.

مـررنا قبل وصولنا إلى مدخل مايزون سان غابريال بعدة أبنية ضخمة، مكوّنة مـن أربع طبقات، تعود إلى ما فترة ما بعد الحرب. تتميّز هذه البيوت الكبيرة بمداخل مظللـة بالإسمنت أو البلاستيك. اتّضح أن تركيز مهندسي هذه البيوت القبيحة الشكل كـان منصباً على المنفعة أكثر منه على الجمالية. ويبدو أنهم تأثّروا كثيراً بفكرة فينغ شوي أي تأثيرات الخير والشر في البيئة.

بعد عدد من الالتفافات انعطف رايان نحو اليمين لنشاهد شارع دي سيباستوبول يمتدّ أمامنا. امتدّت إلى يسارنا ساحات سكة الحديد، والتي بدت نصف مخبأة بالأسيجة وبالنـباتات المتعرشـة الدائمة الخضرة، والتي يبلغ ارتفاعها ست أقدام. استطعت أن أرى عربات الشحن التي علاها الصدأ في الباحة، برغم الأغصان المتشابكة.

اسـتعدّ رايان لإيقاف السيارة فسمعت انسحاق الثلج تحت عجلاتها. أجريت مع رايان جولة بصرية حول المكان، لكن بصمت.

امـتدّت فـي طريقنا سلسلة من البيوت المبنية بالحجر القرميدي الأحمر، والتي تتّكـئ علـى الرصيف. بدا كأن هذه البيوت الصغيرة المتهالكة تحتضن بعضها طلباً للدعم، أو للدفء.

استطعت أن أرى ثغرةً وراء هذه البيوت المتهالكة، ثم لاحظت خليطاً من الأبنية الإسـمنتية التي حملت جدرانها الخارجية رسومات ملونة. شاهدنا إلى يميننا مستودعاً رث الهيئة يحيط به سياج شبه متهدم. وقف كلبٌ هجين وراء السياج، ولاحظ وجودنا. انتصبت الأشجار العارية من خلال خطوط الطاقة الكهربائية، وتجمّع الثلج المجروف سـابقاً على جانبي الطريق وقد اتسخ بالسخام. بدا شارع دي سيباستوبول مثل الكثير

من الشوارع الأخرى في البوان. شعرت، بالرغم من هذا، أنه أكثر كآبةً وأكثر عزلةً. انبسطت إلى يسارنا ساحات سكة الحديد الشاسعة وغير المأهولة، وامتدّ خلفنا الطريق الوحيد الذي يسمح بمرور العربات إلى المخرج.

تفحّصت طول هذا المجمع، وشعرت بإحساسٍ عميق من التوجس.

أومـأ رايان باتجاه صف البيوت: "هذا هو مجمع سيباستوبول، والذي بنته سكة حديد غراند ترنك في أعوام الخمسينيات من القرن التاسع عشر".

- "يبدو أن سكة الحديد الكبرى لم تكترث كثيراً للناحية الجمالية".

تناول رايان المنديل الورقي من جيبه وتفحّص العنوان، ثم تقدّم قليلاً كي يستطيع رؤيـة رقم أول بيت في المجموعة. توقّف الكلب عن النباح، ووضع مخالبه الأمامية على السياج، ثم اكتفى بمراقبة تقدمنا.

- "ما هو الرقم؟"

قرأه رايان لي.

- "لا بد أن المنزل بعيد من هنا".

بـدأ رايان يتقدّم باتجاه المنازل الأخرى، وتولّيت أنا مهمة قراءة العناوين. دلّت أرقـام البيوت على أننا لم نذهب بعيداً بما يكفي، لكن أول بيتٍ إسمنتي أظهر لنا أننا ذهبنا بعيداً جداً.

قلت مقترحةً: "لعل ذلك المنزل يقع في آخر الرصيف، وراء تلك الباحة الخالية".

أرجع رايان السيارة من أمام عدة منازل ثم أوقفها أمام آخر بيت في المجموعة. بـدا لنا شبح بالكاد تمكّنا من رؤيته من خلال الأشجار العارية من الأوراق، وأشجار الصنوبر الكثيفة.

تناول رايان قفازيه من المقعد الخلفي: "هل أنتِ مستعدة؟"

- "أنا مستعدة".

وضـعت قفازي وخرجت من السيارة. انطلق الكلب بالنباح ما إن سمع صوت إغلاق أبواب السيارة.

تقدّم رايان لمسافة ستة أقدام وراء الجدار الخارجي لآخر بيت من البيوت. مشى فـوق طـريق مكسـو بالجلـيد. مـلأت الفضاء الغصون المليئة بالأوراق الإبرية، والأغصـان العاريـة من أوراقها، وأحدث ذلك تأثيراً يشبه ذلك الذي تحدثه الأنفاق. امتلأ الجو برائحة الصنوبر، ودخان الفحم، والروائح العضوية. سألت بصوت خافت:

"ما هذه الرائحة؟"

أجابني رايان هامساً: "إنها رائحة روث الخيول، وهذا الكلب المسّن يحرس اصطبل الخيول".

- "هل هي نفس الخيول التي تجرّ العربات في شوارع مونتريال القديمة؟"
- "إنها هي ذاتها".

استنشقت مرة أخرى.

صحيح، لكن لا بد من وجود شيء آخر هناك.

شققت طريقي مع رايان بكل حرص فوق طريق غير مستوية. تسارعت أنفاسنا، ورفعنا ياقاتنا لندرأ البرد القارس عنا.

تأخذ الطريق إلى اليسار منعطفاً حاداً قبل الوصول إلى مسافة عشر ياردات من سيباستوبول. وجدنا نفسينا أمام عمارةٍ مبنيةٍ بالقرميد وقد عدَتْ عليها عوامل الزمن. توقّفنا لنقرأ الأرقام الصدئة الموجودة فوق الباب.

قال رايان: "لقد نجحنا".

لاحظت أن مدخل العمارة مظلّل، أما الباب فقديم وغير مصقول، لكنه محفور ومزخرف. لاحظت أيضاً أن النوافذ معتمة، بدا بعضها أسود اللون، وبعضها الآخر أبيض اللون، نتيجة الجليد والثلج الذي حملته الرياح إليها.

تناثرت أغصان العريش اليابسة فوق السطح وعلى الجدران، وشاهدت عتبة خشبية ساقطةً من إطارها. بدت أشجار الصنوبر أكثف هنا، الأمر الذي ألقى ظلالاً كثيفة على المنزل وباحته الصغيرة. دُهشت عندما شعرت أن شعيرات صغيرة ارتفعت في مؤخرة رقبتي. أخذتُ نَفَساً عميقاً، وجهدت لأهدئ من روعي. تقدّم رايان نحو الباب، وتبعتُه.

لاحظت أن الجرس مصنوع من النحاس الكليل، وهو من النوع القديم الطراز الذي يُصدر صوتاً عندما يُدار المقبض في اتجاه عقارب الساعة. مد رايان يده وأدار المقبض، فتردّد صوت الجرس في مكان ما داخل البيت.

انتظر رايان دقيقة كاملة قبل أن يقرع الجرس للمرة الثانية. دوّت أصوات الأقفال بعد ثوانٍ عدة، وما لبثت مفصّلات الباب أن صرفت لينفتح مقدار أربع بوصات.

مدّ رايان شارته من الفتحة، وسأل بالإنكليزية: "السيد مينارد؟"

لم ينفتح الباب أكثر مما هو عليه، ولم أستطع رؤية الشخص الموجود وراءه.

كرّر رايان: "هل أنت ستيفن مينارد؟"

سأل الرجل بلهجة أميركية مُشددة: "ماذا تريد؟"

تـــابع رايـــان بالإنكليزية: "نحن من الشرطة يا سيد مينارد. نرغب في التحدث إليك".

- "أتركوني وشأني".

تحرّك الباب باتجاه إطاره، إلاّ أن رايان أسرع لدفعه إلى الخلف. فعل ذلك بخفة الأرنب الأميركي.

- "هل أنت ستيفن مينارد؟"

لفظ الرجل اسمه على الطريقة الفرنسية: "اسمي ستيفان مينارد. من أنتما؟"

صــوّب رايـــان إصبعه باتجاهي: "إنها الدكتورة تمبرانس برينان، وأنا التحري رايان. نرغب في أن نتحدّث معك قليلاً".

لم أستطع أن أتبيّن صاحب الصوت، حتى ذلك الوقت، لكن الصوت بدا لي جافاً وضعيفاً: "ارحلا".

- "لن نرحل إلى أي مكان يا سيد مينارد. إذا تعاونتَ معنا فلن تأخذ أسئلتنا أكثر من دقائق قليلة من وقتك".

امتنع مينارد عن الإجابة.

بـــدت نـــبرة رايان قوية كالفولاذ المقوّى: "وإلا سنضطر إلى إجراء المقابلة في مركز الشرطة".

- "تباً!"

انغلق الباب، وسمعنا صوت سلسلة، ثم انفتح الباب ثانيةً.

دخل رايان فتبعته. لاحظت أن أرضية المنزل مغطاة ببساط مشمع، أما الجدران فكانـــت ملونـــة، الأمر الذي أضاف المزيد من العتمة للغرفة الخالية من النوافذ. تشبّع الهـــواء برائحة كرات مكافحة العث، وأوراق الجدران القديمة، والأقمشة العفنة، وقد أضيء الرواق الصغير بمصباح صيني صغير. وقف مينارد وراء الباب واضعاً إحدى يديه على المقبض، وضغط بالأخرى فتّاحة رسائل نحاسية على صدره.

أقفـــل ميـــنارد الباب ثم التفت نحونا، وعندها لمحته للمرة الأولى. يقارب طول ســـتيفن ميـــنارد الستة أقدام وأربع بوصات. بدا لي أنه أغرب رجل رأيته في حياتي

بســبب وجهــه المليء بالنمش، ورأسه الأصلع الشبيه برأس الضفدع. يحمل الرجل ملامح رجل متعب في الأربعينيات من عمره، أو ملامح رجل مقبول الهيئة في الستين من عمره.

سأل مينارد مجدداً: "ماذا تريدان؟"

بدأ رايان بفك زمام سترته: "هل نستطيع أن نجلس؟"

هز الرجل كتفيه: "كما تريدان".

قادنـــا مينارد إلى غرفة استقبال معتمة قليلاً مثلما هي حال الرواق. رأينا ستائر حمـــراء داكـــنة، ومكتباً من خشب الماهوغاني، وطاولات للقهوة، وطاولات صغيرة أخرى. لاحظت أن الجدران مكسوّة بورق جدران ذي لون زهري داكن، وقطع أثاث بلون التوت البري المعتم.

وضـــع الـــرجل فـــتّاحة الرسائل النحاسية على المكتب الخشبي، ثم تهالك على الأريكـــة، ووضع رجلاً فوق الأخرى. خلعتُ سترتي، وجلست على الكرسي الموجود إلى يمينه. تجوّل رايان في الغرفة وأضاء الثريا المتدلية من السقف، كما أضاء زوجاً من المصابيح المصنوعة من الكريستال والنحاس يحيطان بالأريكة. سمحت لي الإنارة الإضافية بإجراء تقييم أفضل للرجل الذي يسكن هذا المنزل.

لـــم يكن ستيفن مينارد أصلع قليلاً فقط، لكن رأسه خلا بالكامل من الشعر، حتى مـــن شعر اللحية، كما افتقد الرجل للأهداب. افتقد الرجل وجود الشعر في جسمه كما فـــي رأسه. أعطته هذه الخاصية نعومةً، ومظهراً شاحباً بشكل غريب. رحت أتساءل إذا مـــا كان افتقاد مينارد للشعر هو مجرد حالة وراثية، أو أن هذه الحالة كانت ضرباً من الموضة الغريبة المقصودة.

رفـــع رايـــان كرســـي وندسور من جانب طاولة المكتب الخشبية ووضعها أمام ميـــنارد. أوحـــت لغة جسده أنه لا يميل إلى الهدوء. جلس رايان وأسند مرفقيه على ركبتيه، وانحنى إلى الأمام حتى أصبح على بعد ياردة من وجه مينارد.

انتعل مضيفنا الذي لم يرحب بنا خفّين، وبنطال جينز، وكنزةٍ صوفية رُفع كمّاها إلى ما فوق المرفقين. تراجع مينارد من أمام رايان. أنزل كمي كنزته حتى معصميه، ثم رفعهما مجدداً، وعدّل وضع نظارتيه، ثم جلس منتظراً.

- "سأكون صادقاً معك يا سيد مينارد لأنك أثرتَ اهتمامنا".

- "أنا..."

- "فهمــت أنــك أميركـــي، إذاً لن يكون التكلم بالإنكليزية معضلة بالنسبة إليك، صحيح؟"

انثنت ذقن مينارد قليلاً، لكنه لم يتكلّم أبداً.

- "قال لنا ريتشارد ساير إنك أدرت مكتباً للرهنيات منذ سنوات قليلة في عمارته الواقعة في شارع القديسة كاترين".

رقّت شفتا مينارد وأصبحتا كالخيط، وظهر تغضنّ مكان وجود حاجبيه.

- "ألديك مانع إذا ما طرحت عليك بعض الأسئلة حول هذا الموضوع؟"

مرّر مينارد يده فوق فكّه، وعدّل مكان نظارتيه مرة أخرى.

- "كـــان عملاً ناجحاً جداً، كم سنة استمرّ؟ تسع سنوات؟ أنت ما زلت شاباً، ما الذي دفعك إلى إقفال مكتب الرهنيات؟"

- "لم أكن مجرد مسترهِن. تاجرتُ بالمقتنيات الثمينة".

- "أيمكنك أن تشرح لي هذا بتفصيل أكثر؟"

- "ســـاعدت هواة جمع هذه المقتنيات على إيجاد تلك التي يصعب العثور عليها، مثل الطوابع، النقود المعدنية، ومجسمات مصغرة للجنود".

ســـبق لـــي أن رأيـــت رايان أثناء استجوابه المشتبه بهم. أجاد الرجل استخدام الصـــمت، فهو ينتظر إلى أن ينتهي المشتبه به من إعطاء جوابه، لكنه بدلاً من طرح سؤال آخر، يعمد إلى التطلع عالياً والانتظار. لجأ رايان حالياً إلى هذا الأسلوب.

بلع مينارد ريقه، وانتظر رايان.

تمتم مينارد: "كان عملاً قانونياً".

ظننت أنني سمعت صوت باب يُفتح ويُغلق في مكان ما من البيت.

- "تعقدت الأمور كثيراً، وبدأ العمل بالتراجع، كما أن مدة الإيجار أشرفت على الانتهاء، فقرّرت عدم التجديد".

- "ماذا تعني بأن الأمور تعقّدت؟"

- "تعقدّت فحسب. اسمع، إنني مواطن كندي، ولديّ حقوقي".

- "إنني أطرح عليك بعض الأسئلة فحسب، يا سيد مينارد".

لم يعد يسهل على مينارد أن ينظر إلى عيني رايان بشكل مباشر، فتنقّل بنظراته ما بين يديه ورايان، ثم نظر إلى الأسفل".

سمح رايان بفترة صمت طويلة أخرى قبل أن يطرح سؤاله التالي: "لماذا تحولّت

إلى دراسة علم الآثار؟"

- "عمّ تتحدّث؟"

- "ماذا حدث في شيكو؟"

ومضــت فكــرة فــي ذهني. لكنني لم أتتبّعها. عدّل مينارد من وضع نظارتيه مجدداً، ثم سأل: "هل لديك مذكرة استجواب؟"

قال رايان: "لا يا سيدي".

نقــل مينارد نظراته في هذا الوقت إلى ما فوق كتف رايان الأيسر، فالتفتنا نحو الاتجـاه الذي نظر إليه. وقفت امرأة عند مدخل الغرفة امرأة ذات قامة طويلة، نحيلة. لاحظــتُ أن بشــرتها ذات لــون أصفر شاحب، أمّا شعرها فقد ضمّته بجديلة سوداء طويلة. خمّنت أن عمرها يتراوح ما بين أواسط وأواخر العشرينيات.

تضــيّقت عيــنا ميــنارد أكثر فأكثر. توتّرت المرأة بشكل واضح حتى بدا أنها أجفلــت. ضــمّت هــذه المرأة ذراعيها حول خصرها، ثم أسرعت مختفيةً بعيداً عن أنظارنا.

هــبّ ميــنارد واقفــاً على قدميه، وهو يقول: "لن أجيب عن أية أسئلة إضافية. تستطيع أن تلقي القبض عليّ، أو أن تغادر منزلي".

نهض رايان ببطء شديد.

- "هل هناك من سبب يدعونا لإلقاء القبض عليك يا سيد مينارد؟"

- "لا، بالطبع".

- "حسناً".

أقفل رايان زمّام سترته، وارتديت أنا سترتي، وبدأت أمشي نحو الرواق. وقفتُ قلــيلاً قرب طاولة المكتب، ولاحظت وجود فتّاحة الرسائل. رأيت بطرف عينيّ رايان وهو يحدق بمينارد.

- "ســنفعل كما تريد الآن أيها السيّد، لكننا إذا اكتشفت أنك تخفي معلومات عنا، فسوف أتأكّد من أنك ستندم على ذلك".

رفع مينارد عينيه هذه المرة نحو رايان، ووقف الاثنان وجهاً لوجه.

أدرت ظهري لهذه المواجهة المباشرة، ووضعت فتاحة الرسائل في محفظتي؟

الفصل 27

بـدأ رايـان باجتياز آخر منعطف في شارع دي سيباستوبول: "إلى أين أخذتك أفكارك؟"

- "لو عادت محاكم التفتيش إلى مزاولة نشاطاتها، فستكون وريثها الأول".

- "سأعتبر ذلك بمثابة إطراء. ما هو انطباعك بشأن مينارد؟"

- "جعلني الرجل أشعر بالتوتر. هل تعتقد أن فقدانه لشعره هو حالة مرضية؟"

هزّ رايان رأسه علامةً على النفي: "استطعت أن ألاحظ حزوزاً في فروة رأسه".

- "لماذا يقدم أي رجل على حلاقة شعره، وانتزاع كل شعرة من جسمه؟"

- "قد يكون من معجبي تيلي سافالاس؟"

- "وهل سيقدم على نزع الشعرات من كامل جسمه؟"

- "لربما، كي يوفّر في كلفة الشامبو".

- "رايان".

- "هل يتمرّن الرجل على السباحة ليشترك في المسابقات الأولمبية القادمة؟"

لم أقدّم إجابة عن سؤاله هذا.

- "لا أعرف، أيكون ذلك من فعل مزيّن غافل، أم بسبب القمل؟ أم هل تراه نوع من الخوف المرضي من الشعر؟"

- "هل لاحظتَ غرابة تصرفات تلك المرأة؟"

- "أعتقد أنها لم تظهر لتعرض علينا تناول الشاي".

- "بدت مرتعبة".

هزّ رايان كتفيه: "لربما، ولربما تعارض هذه السيدة وجود ضيوف غير مدعوين في بيتها".

- "قال لي كلوديل إن السجلات لا تظهر شخصاً آخر يسكن في ذلك البيت. من تظنّها تكون؟"

- "أعتزم معرفة من هي".

أخبرته بأمر فتّاحة الرسائل.

- "إنها مصادرة غير قانونية".

قلت موافقةً: "أجل".

- "سيستبعد القاضي الأخذ بأية معلومات تأخذينها منها".

قلت موافقةً للمرة الثانية: "أجل، لكن قد تفيدنا البصمات بالتعرف على هوية تلك المرأة".

- "هذا أمر محتمل".

- "اسمع. فعلت ذلك من دون تفكير. رأيت الفتّاحة على الطاولة. تصوّرت أن المرأة قد أمسكت بها من قبل، فاستعرتها فقط."

- "آه!"

- "سأُرجعها".

- "لا أشك بذلك أبداً".

قاربت الشمس المغيب، فأصبح زجاج السيارة الأمامي معتماً قليلاً بسبب الثلج المالح، ونصف الذائب، والذي قذفته باتجاهنا السيارات التي تسير أمامنا. استسلمت للصمت، بينما ركّز رايان على قيادة السيارة.

بدأنا بعبور قناة لاشين كي ننعطف باتجاه دي لامونتان. قلت لرايان: "لعلها ستفسّر لنا سر الأزرار القديمة".

- "هذا محتمل".

خطرت فكرة على ذهني بغتة.

التفتّ نحو رايان وقلت: "الزر المزيف".

- "أتعتقدين أن مينارد كان يساعد زبائنه الذين يجمعون التحف، عن طريق قيامه بصناعة بعض الأشياء بنفسه؟"

- "ربما ظنّ أننا نحقّق في هذا الأمر، ولعله توتّر كثيراً لهذا السبب".

قال رايان: "يبقى ذلك احتمالاً وارداً".

خطرت على ذهني فكرة أخرى.

- "يُحتمل أن مينارد قد عثر على الهياكل العظمية، لكنه أبقى الأمر لنفسه معتقداً أنه سيتمكّن يوماً ما من بيع الهياكل إلى بعض الذين يجمعون الأشياء الثمينة. إنني

متأكّدة أنه لا يُسمح بالمتاجرة بالعظام البشرية في كندا".

- "إنه احتمال آخر".

استرخيت في مقعدي: "يخبرني حدسي أن الأمر يتعدّى ذلك بكثير".

- "سأعرف ما إذا كان الرجل يعيش وحيداً أم لا".

- "إنني متأكّدة من أن مينارد لم يكن سعيداً لرؤيتنا".

- "الدفء الذي نضح منه أشبه بذلك الذي ينضح من غرف التشريح. تذكّرت الآن.. إلى تريدين أن تذهبي؟"

- "أريد التوجه إلى المختبرات".

أجريت اتصالاً مع شقتي كي أتأكّد من برنامج آن، لكنني لم أتلقَّ جواباً. تركت لها رسالة لتتّصل بي حال عودتها.

* * *

بعد مضي عشرين دقيقة كنت أجلس خلف مكتبي.

وعد رايان بأخذ فتّاحة الرسائل إلى قسم التحقيقات القضائية. قال لي إنه سيتّصل بي إذا ما استطاع ذلك القسم فك الأسرار الكامنة فيها، أو إنه سيكلف التقني الموجود في المختبر أن يتّصل بي.

أصرت آن منذ أن تعرّفت عليها على أنها تكره ألوان الأطعمة الهندية. اتّصلت بها ثانية كي أقترح عليها تناول طعام العشاء في مطعم لا ميزون دي كاري، وكنت متأكّدة من أن طبق لحم الحمل المنكّه بالكاري سيغيّر رأيها، لكنها لم تجِبني. تركت رسالة ثانية.

وجدت ورقتين مطبوعتين فوق دفتري. أعدّ كلوديل الورقة الأطول، والتي ترد فيها أسماء الفتيات المفقودات في كيبيك، ووردت في اللائحة الأقصر التي أعدّها شاربونيو أسماء الفتيات اللواتي اختفين في شمال وسط كاليفورنيا.

بدأت العمل على اللائحة الأولى.

عملت على الأسماء واحداً واحداً، واستبعدتُ منها أسماء الفتيات اللواتي لا تتوافق مواصفاتهن مع الهياكل التي وجدت في قبو مطعم البيتزا. بدأت أشعر بالصداع في الوقت الذي وصلت فيه إلى اسم مانون فيوليت.

تتميّز مانون فيوليت بوجود نابٍ مائل في الجهة اليمنى من فكها الأعلى، وبأنها لم تجرِ أية عمليات ترميم لأسنانها. تابعت العمل وسط شعور غامر من الإثارة.

تميّزت الفتاة التي جُمعت عظامها في صندوق الدكتور إنرجي بوجود ناب مائل في فكّها الأعلى، ولم تخضع لأية ترميمات في أسنانها. قرأت التفاصيل وبالكاد استطعت التنفس.. اختفت مانون فيوليت قبل تسع سنوات بعد أن غادرت منزلها الكائن في لونغ ويل، ثم استقلّت الباص قاصدة وسط المدينة. تنتمي فيوليت إلى الجنس الأبيض، وقد بلغت الخامسة عشرة سنة من العمر عند اختفائها.

أصابتني المعلومة التالية بوخزة في الصدر. يبلغ طول مانون فيوليت ثمانٍ وخمسين بوصة. اللعنة!

قدّرت أن طول قامة فتاة الدكتور إنرجي يبلغ اثنين وستين بوصة. هل من المعقول أنني أخطأت بتقديراتي بهذا القدر؟

قصدت المختبر لأتحقّق.

لا، ففتاة الدكتور إنرجي قصيرة القامة، لكن ليس إلى هذا الحد. قدّرت أن الفتاة التي تحمل الرقم 38426 كانت طويلة جداً، حتى لو احتسبنا عامل الخطأ.

ماذا بشأن الفتاة رقم 38427؟ قدّرت أن عمرها يتراوح ما بين الخامسة عشرة، والسابعة عشرة، وأن طولها يتراوح ما بين أربع وستين، وسبع وستين بوصة. تناولت الجمجمة ثم تفحّصت الأسنان. رأيت في الأسنان النموذج المثالي الذي يبحث عنه طبيب تقويم الأسنان.

عدت إلى القائمة.

استرحت من عملي بعد مضي ساعة، ولم أحصد سوى الإحباط. أكره أن أعترف أن كلوديل كان على حق. لم أجد حالات تتوافق مع المواصفات التي نبحث عنها، فلو توافق الطول يختلف العمر. وإذا توافقت مواصفات العمر والطول مع أحد الهياكل، أكتشف أن الأصل العرقي، أو إحدى الخصائص الأخرى، تستبعد الفتاة المرشحة من الحسبان.

بحثت عن فتاة عانت من كسر في الكعبرة اليمنى. لم أجد أي فتاة من كيبيك قد عانت من هذا الكسر، لكنني وجدت فتاة واحدة من كاليفورنيا عانت منه.

أشار كلوديل إلى فتاة من كاليفورنيا في إحدى محادثاتنا السابقة. تفحّصت المعطيات الواردة عنها.

قدّم ليونارد ألكسندر روبنسون إلى مكتب الشريف في مقاطعة تهامة، تقريراً عن شخص فُقد في العام 1985. جاء في التقرير أن آنجيلا، وهي ابنة روبنسون، وتبلغ

أربعـــة عشـــر عاماً وتسعة أشهر من العمر، وبيضاء اللون، غادرت منزلها في ليل الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول/أكتوبر، ولم يرها أحد بعد ذلك. قال أصدقاء آنجيلا أنها كانت تنوي الذهاب إلى حفلة عن طريق التنقلات المجانية.

ســـبق لآنجيلا روبنسون، آنجي، السقوط عن أرجوحة عندما كانت في عمر الثامنة، الأمر الذي تسبّب بكسر في معصمها الأيمن. بلغ طول آنجي خمس أقدام وبوصتين.

رجعت إلى المختبر لأدقّق ثانية في المعطيات التي توصّلت إليها بنفسي. اكتشفت أن آنجـــي روبنســـون هي من الصغر في السن بحيث لا تتوافق مع الفتاة ذات الكفن الجلدي، كما أنها قصيرة جداً لتكون تلك الفتاة.

شـــعرت بالإحـــباط، وبلـــغ الصداع في رأسي حداً من القوة بحيث يستطيع هزّ المســـلة الذهبية في مدينة أوغدين. لكن، ماذا لو عاشت آنجي وقتاً أكبر بعد اختفائها؟ أما كانت ستتقدّم بالسن، وتكتسب بعض السمنة؟

بدا أن عقلي اللاواعي يوجّهني باتجاه معين مرة أخرى.

مـــاذا؟ أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة والعشر دقائق، فقرّرت أن أنهي عملي لهذا اليوم. رجعت إلى مكتبي، وحاولت الاتصال بآن، لكنني لم أحصل على جواب مجدداً. أوشـــكت على وضع السماعة في مكانها حينما طرق شخص على بابي. ارتدى شاربونيو بنطالاً من البوليستر وحذاء ثقيلاً من الطراز الذي يستخدمه رعاة البقر: "مرحباً دكتورة".

– "مرحباً".

– "كنـــت في طريقي إلى الخارج، وفكّرت أن أمرّ بك وأعطيك آخر المعلومات المتوافرة".

حاولت أن أفك رموز كلماته بما بقي لي من مقدرة على التفكير.

– "آخر المعلومات المتوافرة؟"

ســـحب شـــاربونيو بقايا زهرية اللون من فمه، تفحّصها، ونظر إلى الأعلى، ثم انحنى يبحث عن سلة النفايات الموجودة في المكتب.

ناولته منديلاً ورقياً، فلفّها بها وقذف بها إلى سلة النفايات.

– "أخبرنـــي رايان عن زيارتكما وكر مينارد في دي سيباستوبول. يبدو أن هذا الرجل خطر جداً".

– "أجل".

بدأت أفرك جبهتي ببواطن أصابعي.

- "هل تعانين من صداع؟"

أومأت بالإيجاب.

- "حاولي أن تتناولي بعض الأطعمة الحارة بالتوابل. إنها تفيدني".

- "شكراً لك".

- "لا أحمـــل الكثـــير مـــن الأخبار من جهتي. لم أجد سجلاً قضائياً لمينارد في كاليفورنيا، لكنني وجدت توبيخاً واحداً وجّه له في سجله الأكاديمي، وبالرغم من ذلك لم يتأثّر ذلك المحتال. تسجّل في السنة الثانية في شيكو".

- "ثم ماذا؟"

- "لم يظهر في تلك الجامعة".

توقّفــت عــن فرك جبهتي: "أتعني أن مينارد دفع القسط الجامعي، وتسجّل في الصفوف، ثم اختفى؟"

- "نعم".

- "لكن لماذا؟"

هــز شــاربونيو كتفه: "لم يستجب ذلك المحتال للنداءات التي طالبته بالحضور. اختفى فحسب".

- "ألم يفسخ عقد إيجاره؟ ألم يُقفل حساباته؟"

- "إنني أسعى إلى التحقق من هذه الأمور".

- "أين كان قبل حضوره إلى فيرمونت في كانون الثاني/يناير؟"

ابتسم شاربونيو ابتسامة عريضة: "إنني أعمل على ذلك أيضاً".

وجدت منزلي مظلماً عند وصولي. رأيت بيردي نائماً فوق الأريكة. رفع رأسه، ثم فتح عينيه وأغمضهما.

ناديتُ: "آن".

لــم أســمع أي استجابة. مطّ بيردي جسمه، ثم نزل متشقلباً إلى الأرض. ناديت ثانيةً بينما مسّدت بطن بيردي.

صمتٌ مطبق.

- "أين هي يا بيرد؟"

انقلب الهر ليقف على قوائمه الأربع، ومدّ قائمتيه الخلفيتين الواحدة تلو الأخرى،

ثم توجّه نحو المطبخ. سمعت بعد ثوانٍ قليلة الضجة التي يسبّبها تحريك وعاء طعامه.

- "آني؟"

كان باب غرفة نومها مغلقاً. قرعت الباب ودخلت على الفور. شعرت بهبوط في قلبي؛ لقد اختفت حقيبة آن، لكنني لاحظت رسالةً متروكة على الطاولة.

حدّقت هنيهة في هذه الرسالة، ثم أسرعت لفتح الورقة.

"عزيزتي تمب،

لا أستطيع التعبير عن مدى تقديري للطفك وصبرك تجاهي. لا أعني هذا الأسبوع فقط، بل أعني طوال مدة صداقتنا الرائعة، والممتعة، والثمينة. اعتبرتك سَندي، والرياح التي تحمل أجنحتي. (أتذكرين فيلم نحن؟)

إننا متشابهتان بطرق عديدة يا تمب. لست ماهرة بالتعبير عن مشاعري، ولست حتى ماهرة بالتفكير بهذه المشاعر. إنك مثالية بالنسبة لي.

حان وقت إسدال الستار على صداقتنا. أعرف أنني أحبّك جداً جداً، مع أنني لا أستطيع قول هذه الكلمة وجهاً لوجه. أرجوكِ لا تغضبي مني لأنني فعلت ذلك بهذه الطريقة".

- آن

سيطرت عليّ مجموعة من الانفعالات.

الحب! عرفت صديقتي هذه منذ زمن بعيد، وأعرف مدى ثقل هذه الكلمات بالنسبة إليها.

الذنب! غرقت بمشاكلي الخاصة، إلى حد أنني لم أركّز على وجود آن معي. كيف استطعت أن أكون أنانية إلى هذه الدرجة؟

الغضب! حزمتْ حقائبها وتوجّهت نحو المنزل من دون أن تعلمني؟ كيف استطاعت أن تتجاهلني إلى هذه الدرجة؟

تسارع الخوف في أعماقي مثل تسارع قاطرة بخارية. أتراها حقاً توجّهت إلى منزلها؟ أرادت إسدال الستار على ماذا؟ وماذا فعلت بهذه الطريقة؟ وأية طريقة؟

تذكّرت كتاب آن والعشاء الذي تناولناه سوية في الليلة الماضية. لم تذكر لي حينها أي شيء عن المغادرة. ماذا قالت لي؟ هل ذكرت لي أشياءً عن الدورات، وضرورة تغيّر الإنسان في الجوهر. أشعر أنني حملتها على الرحيل.

يا إلهي القدير! هل كانت تتكلّم عن الموت؟ بالتأكيد لا. أعتقد أن آن ليست ممّن يفكرون بالانتحار، سواء أكانت مكتئبة أم لا. هل نستطيع أن نتأكّد من هذا حقاً؟

استعوضت شريط الذكريات. جلست صديقة أخرى ذات يوم في هذه الغرفة، ثم غـــادرت. بعدئــذٍ انتهت ميتة في قبر متواضع. هل انطلقت آن في رحلة طويلة هي الأخرى؟ حاولت الاتصال بهاتفها الخليوي. لا إجابة. فاتّصلت بطوم.

- "مرحباً".

- "هل آن موجودة عندك؟"

- "تمب؟"

- "هل وصلت آن إلى المنزل؟"

- "ظننت أنها عندكِ؟"

- "كانت عندي، لكنها رحلت".

قرأت له الرسالة التي تركتها آن.

- "عمّ تتحدّثين بحق الله؟".

- "لست متأكّدة".

- "غضبت مني كثيراً".

- "نعم، أعرف".

- "هل تعتقدين أنها أقدمت على شيء من قبيل الجنون؟"

سيطر السؤال نفسه على ذهني من قبل.

- "ألم تتّصل بك؟"

- "كلا".

- "اتّصل بشركات الطيران. تأكّد ما إذا كانت قد حجزت لها مقعداً في رحلة ما إلى شارلوت".

- "لا أعتقد أنهم سيخبرونني".

كدت أبكي: "قل لهم أي شيء يا طوم. اكذب. فكّر بشيء ما".

- "حسناً".

- "اتّصل بي حالما تعرف أي شيء".

- "افعلي هذا أنتِ أيضاً".

وقفــت وقــد حملت سماعة الهاتف بيدي، وشاهدت انعكاس صورتي في مرآة

غرفة السفرة التي استُبدلت حديثاً. رأيت التوتر الذي سيطر على جسمي، وبدا وجهي أبـــيض اللـــون بسبب الخوف. شاهدت هذه المظاهر نفسها عند آن ليلة اقتحم أحدهم البيت.

يـــا إلهي القدير! أريد أن تكون بخير. ماذا أفعل؟ هل أتّصل بشركات الطيران؟ وعـــد طـــوم أن يقـــوم بهـــذه المهمة. هل أتّصل بشركات تأجير السيارات؟ أم أتّصل بشركات سيارت الأجرة؟ أم أن من الأفضل أن أتّصل بالشرطة؟ أم أنه يجدر بي أن لا أفعل أي شيء وأكتفي بالانتظار؟

تركـــت آن رسالة لي، إذاً فهي تخطّط لشيء ما. ما هي خطتها يا ترى؟ قفزت من مكاني عندما انطلق الهاتف بالرنين في يدي.

– "آن".

– "هذا أنا. ما خطبك؟"

لا بـــد أن رايان قد أحس بالتوتر الذي ينضح به صوتي. أخبرته عن رحيل آن المفاجئ.

– "هل ذكرت في رسالتها أنها ستتوجّه إلى المنزل؟"

– "لم تذكر ذلك صراحة".

– "هل اتّصلت هاتفياً بأحدهم؟"

– "لا يسجل هاتفي المكالمات الصادرة".

– "إنه لا يسجل حتى المكالمات الواردة، ولا يسجل رقم المشترك على الشاشة. عليك أن تحسّني نوعية هاتفك فعلاً".

– "أشكرك على نصيحتك التقنية".

– "سأقوم ببعض التحريات".

– "شكراً لك. رايان"

– "على الرحب".

– "إنها محبطة جداً".

– "أخذت أمتعتها معها، وهذه علامة جيدة".

لم أفكر بهذه النقطة من قبل: "أعتقد ذلك".

مرّت فترة صمت.

– "هل ترغبين أن آتي إلى منزلك؟"

رغبت فعلاً بقدومه، لكنني قلت: "سأكون على ما يرام. لماذا تتّصل؟"

- "تمكـــن مكتب التحقيقات الجنائية من رفع بصمات عن فتاحة الرسائل. وجدوا مجموعتين من البصمات".

- "هل وجدوا بصمات مينارد، وبصمات المرأة؟"

- "حزرتِ نصف الحقيقة".

- "أتقول النصف؟"

- "تبيّن لنا أن الرجل ليس مينارد".

الفصل 28

- "تعود البصمات لشخصين، وليس مينارد أحدهما".
- "هل أنت متأكّد؟"
- "أرسلت كل شيء إلى فيرمونت. قارن مختبرهم هناك البصمات التي رُفعت من فتّاحة الرسائل التي أرسلناها، مع تلك التي أخذت من مينارد عندما ألقي القبض عليه بتهمة القيادة تحت تأثير الكحول".

لم أصدّق هذه المعلومة فقلت: "لكن مينارد أمسك بفتاحة الرسائل تلك".

- "أمسك بها الرجل الذي رأيناه في البيت، لكن مينارد لم يلمسها".
- "هل توصّلتم إلى معرفة أي شيء بشأن المجموعة الثانية من البصمات؟"
- "لا. إننا ندقّق بها هنا، وسنرسلها بعد ذلك إلى آفيس في الولايات المتحدة".

يُذكر أن آفيس هو نظام معلومات بصمات الأصابع الآلي.

- "إذاً لم يكن الرجل مينارد، فمن يكون إذاً".
- "إنه سؤال ذو أهمية استثنائية، يا دكتورة برينان".

لم أفهم ما يجري فقلت: "لعل شخصاً ما تلاعب بالبصمات".

- "يحدث ذلك أحياناً".
- "يمتلك شاربونيو صورة لمينارد مأخوذة من كتاب الجامعة السنوي. دعنا نريها لساير ونعرف ماذا يقول بشأنها".

وافق رايان مع فكرتي هذه: "لن يضرّنا هذا بشيء".

انتظرت، وتمنّيت جزئياً لو أن رايان يكرّر لي دعوته لاصطحابي معه. لم يفعل ذلك.

بدأ رايان بالقول: "سأحصل على الصورة من شار..."

سمعت ما يشبه صوت أنثى في مكان ما، ثم سمعت صوتاً يتكلّم أمام سماعة هاتف مغطاة.

قال رايان بصوت خافت: "آسف. سأحصل على الصورة من شاربونيو، وسأمر لاصطحابك عند الثامنة".

أدركـــت أنّنـــي سأتناول عشاءً مؤلفاً من المعكرونة والجبنة مساء يوم الجمعة، لكننـــي ســـأكون وحدي. سأتناول هذا العشاء أثناء أخذ حمام ساخن يمتدّ لفترة طويلة، حتى يحين موعد أخبار الساعة الحادية عشرة.

فـــي سريري، وسط الظلام، اجتاحتني أفكار سيطرت عليّ من دون قصد مني. رأيت نفسي في قبوٍ قذر، حيث تتناثر العظام، بعضها في صندوق، وبعضها في حفرة. رأيـــت امرأة في سريرها، وشعرها الأشيب تدلّى حول وجهها. شاهدت فراشاً ملطخاً، وجســـداً هامداً لا حياة فيه، ملقى على فولاذ لا يصدأ. رأيت المرايا المهشمة. ورأيت كســـرة من زجاج استقرت على لوحة معلقة. شاهدت آن مع أمتعتها، وهي تحدّق في إطـــارات أزهارها. شعرت بتقلص في أحشائي، واجتاحت وجهي جداول من رطوبة ساخنة.

تذكّـــرت أنني كنت مع رايان آخر مرة اجتاحني فيها مثل هذا الشعور. تذكّرت كـــيف أحاطني بذراعيه، وشرع يمسد رأسي، وكيف سمعت دقات قلبه. تذكّرت كيف جعلني أشعر بقوتي، وبجمالي، وأن كل شيء يسير على ما يرام.

تنهدت، وتصاعد من خلال حنجرتي شيء كالنشيج. أخذت أنفاساً عميقة أدخلتها في رئتيّ، قرّبت ركبتيّ من صدري، وأطلقت العنان لمشاعري.

يحمـــل الـــبكاء المناســـب فوائد علاجية تفوق تلك التي يحصل عليها المرء بعد تمضـــيته ساعة كاملة مع طبيبه. استيقظت وقد تخلّصت من كل الأحزان والإحباطات الكامـــنة فـــي نفســـي. شـــعرت بتجدّد حيويتي، وقدرتي على السيطرة على مجريات الأمور. استمرّ هذا الوضع حتى مضت اثنتا عشر ساعة، حيث أبديت قدراً كبيراً من الغفلة.

اتّصل بي طوم عند الساعة السابعة كي يسأل إن كنت قد علمت شيئاً جديداً بشأن آن، فقلـــت إننـــي لم أعرف أي شيء جديد. أكّد لي طوم أن زوجته لم تجرِ حجوزات على أية رحلة متجهة من مونتريال إلى شارلوت في أي يوم من أيام الأسبوع. أخبرته أنني تحدّثت مع ضابط من شرطة كيبيك.

فكّر طوم باحتمال أن تكون آن قد اختارت أن تنعزل مع نفسها كي تحصل على

فرصــــة للتفكـــير، وأننا سنعرف عنها شيئاً في القريب العاجل. وافقته على هذا الرأي لأننا كنا بحاجة إلى شيء يطمئننا.

وقعت عيناي على المرآة مجدداً بعد انتهاء الاتصال. لم يجد رجال الشرطة شيئاً بعـــد مرور تسعة أيام على اقتحام منزلي. عادت إلى ذهني بعض الصور. برز منها ذلك الرجل الذي جلس قرب آن في مقعد سي ثلاثة.

يـــا إلهي! هل هربت مع ذلك الرجل الغريب الذي التقته على الطائرة؟ هل يُعقل أن يكـــون هذا الرجل هو ذاته الذي اقتحم منزلي؟ برزت صورة أخرى. تذكّرت نظام المراقـــبة الـــذي رتّبه رايان. هل الدوريات المكثفة ما زالت تحوم حول منزلي؟ هل يُحـــتمل أن تكـــون إحدى سيارات المراقبة قد لاحظت مغادرة آن لمنزلي؟ إنه احتمال بعيد لكنه يستأهل المحاولة.

ارتديت ملابس كافية لتضمن الدفء لي، وانطلقت خارجةً من المنزل. استقبلني نهـــار رائـــع. توقّع المذياع درجة حرارة تصل إلى ثلاثين درجة مئوية تحت الصفر. أشـــارت عقارب الساعة إلى السابعة وخمس دقائق، ولم تقترب الحرارة بعد من هذه الدرجة.

مـــرّت ســـيارة تابعـــة للشرطة في غضون عشر دقائق. مشيت نحو الرصيف ولوّحـــت باتجاهها. قالوا لي إنهم ما زالوا يمرّون تكراراً من هنا، وإنهم ظلّوا يعملون طـــيلة أيـــام الأســـبوع، وإنهم لم يشاهدوا أيّ شقراء طويلة تحمل الكثير من الأمتعة. وعدونـــي أن يســـألوا الرجال الذين عملوا في فترات العمل الأخرى. بعدئذٍ عدت إلى الرواق حيث وجدت ما يكفي من الدفء الذي يسمح للدم بالسريان في العروق.

حضـــر رايـــان عند الساعة الثامنة وعشر دقائق. صعدت إلى سيارته، وكانت السيارة عابقة بدخان السجائر.

– "صباح الخير".

– "صباح الخير".

ناولنـــي رايـــان صورة مينارد التي ظهرت في كتاب التخرج السنوي للجامعة، والتـــي وصـــلت عبر الفاكس. بدت الصورة صغيرة ومعتمة، وقد بهتت ألوانها نتيجة الإرسال. بقي الوجه مع ذلك واضحاً بما يكفي. قلتُ: "يبدو مثل مينارد".

– "ومثل آلاف الرجال ذوي الشعر الأشقر، والنظارات، والتغضنات".

اضطررت إلى موافقته.

- "هل عرفتِ شيئاً عن صديقتكِ؟"

- "لا".

حرّكت قدميّ. وأنزلت زمّام سترتي المقلنسة. تحيّرت ماذا أفعل بعينيّ، وساقيّ، وذراعـــيّ. شـــعرت بالارتباك والاضطراب لوجودي مع رايان. لم أثق بقدرتي على إجراء محادثة معه. سأل رايان: "هل أمضيتِ ليلة صعبة؟"

- "ما هو سبب اهتمامك المفاجئ بأنماط نومي؟"

- "تبدين متعبة".

نظـــرت إلـــيه، وبدا لي أن الظلال الموجودة تحت عينيه قد تعمّقت، وأن ملامح وجهـــه أصـــبحت أكثر توتراً. أردت أن أسأله، ماذا جرى لك بحق الجحيم؟ قلت له: "تشغل ذهني أمور كثيرة".

وضع رايان طرف إصبعه على أنفي: "ألسنا جميعاً كذلك؟"

وصلنا إلى شرفة ساير بعد مرور عشرين دقيقة. سبق لرايان أن أجرى اتصالاً مـــع ســـاير الذي أجاب من الدقة الأولى. ارتدى ذلك المغفل العجوز ثيابه كاملة هذه المرة.

جلس ساير على المقعد المريح نفسه الذي جلس عليه عندما زرته برفقة آن.

يـــا للهوبـــالونغ العجوز! ركّزي أكثر يا برينان... قدّمت رايان، وتركته يجري الحديث.

- "سيد ساير، إننا..."

ابتســـم ساير بوجهي: "تكلّم بالإنكليزية من أجل السيدة الشابة. أين هي صديقتكِ الجميلة؟"

- "غادرت إلى منزلها".

هزّ ساير رأسه: "صديقتك رائعة".

تناول رايان صورة الفاكس من جيبه وناولها إلى ساير: "لن يستغرق هذا طويلاً. هل هذه هي صورة ستيفن مينارد؟"

- "من؟"

- "ســـتيفن ميـــنارد. أعنـــي ذلك الرجل الذي شغل أحد محلاتك، وأدار مكتب رهنيات في عمارتك".

حدّق ساير بصورة الفاكس.

- "قد أبدو لكما أحمق، لكنني في الثانية والثمانين من عمري".

هبّ واقفاً ثم عبر الغرفة، وشغّل جهاز التلفزيون. تناول الرجل جهازاً للتكبير موصولاً بواسطة سلك إلى مؤخرة التلفزيون، ووضع فيه صورة الفاكس، وضغط على زر.

رأينا وجه مينارد وقد ملأ الشاشة.

قلت: "يا للروعة!"

- "إنه جهاز فيديو صغير رائع يقوم بتكبير كل شيء، وهكذا أستطيع أن أقرأ كل شيء تقريباً".

حرّك ساير العدسة فوق الصورة عدة مرات، ثم ركّز الصورة على أذن مينارد. أظهرت الصورة تكبيراً للطرف الأعلى من الأذن، فملأت الشاشة.

انتصب ساير واقفاً: "لا، ليست هذه صورة من تبحثون عنه".

دهشت للثقة التي تكلّم بها فسألته: "كيف عرفت؟"

أنزل ساير العدسة المكبرة وتراجع قليلاً، ثم مدّ إصبعاً باتجاهي، فسارعت إلى الوقوف. أشار ساير إلى نتوء غضروفي صغير في الجزء الأعلى من الحافة الخارجية لأذنه. سألته: "هل هي درينة داروين؟"

أجاب ساير: "يا لك من سيدة ذكية".

وقف رايان يراقبنا، بينما علت وجهه نظرة تشوش.

نقر ساير على أذنه: "لم أعرف أي شخص يمتلك مثل هذا النتوء. استشرت طبيبي بشأن هذا النتوء، فأخبرني أنها ميزة وراثية، وأعطاني بعض المقالات كي أقرأها. هل تعرفين كيف اكتسبت هذه الأشياء التافهة اسمها؟"

- "قيل ذات مرة إنها أثر من آثار رباعيات الأرجل".

وثب ساير على أطراف أصابعه وبدا الانشراح عليه.

سأل رايان: "وما علاقة هذا بمينارد".

- "امتلك مينارد أكبر النتوءات الصغيرة واللعينة التي رأيتها في حياتي. مازحته كثيراً بهذا الشأن، وقلت له ذات يوم إنني أتوقّع أن أراه وهو يرعى أوراق الأشجار ذات يوم، أو القوارض في القبو. لم يسرّ كثيراً بممازحاتي هذه".

نهض رايان وقال: "ماذا بشأن الرجل الذي يظهر في الصورة؟"

حمل ساير صورة الفاكس بيده: "لا يمتلك الرجل صاحب الصورة أية نتوءات

ورمية".

توقّف رايان قليلاً عند الباب قائلاً: "أريد أن أطرح عليك سؤالاً أخيراً يا سيدي. هل افترقت أنت ومينارد على ودّ؟"

- "لا، بحق الجحيم. أقدمت على طرده".

- "لماذا فعلت ذلك؟"

- "سئمت من شكاوى المستأجرين الآخرين بشأنه".

- "أي نوع من الشكاوى؟"

- "تركّزت معظم الشكاوى حول زبائنه السيئين، وجاء بعضها الآخر بسبب الضجيج في وقتٍ متأخر من الليل".

- "أي نوع من الضجيج؟"

- "لم أعرف مطلقاً، لكنني سمعت ما يكفي من التشكي. هل أن التشكي هي الكلمة المناسبة؟"

- "نعم".

- "تبدو لي وكأنها اسم سمكة".

أنزلني رايان أمام منزلي، واعتذر لي قائلاً إنه سيكون مشغولاً بمهمات طيلة عطلة نهاية الأسبوع. وعدني أنه سيتّصل بي هاتفياً إذا عرف شيئاً جديداً عن مينارد، أو مجموعة البصمات الأخرى، أو حتى عن آن. لم أسأله إن كان برنامج عمله يشمل ليلة السبت. سحقاً لكل ذلك، فمن يهتم؟

لم يحمل لي المجيب الآلي أية رسائل.

أرادت كاتي أن أحضر إلى شارلوت في الثاني والعشرين من هذا الشهر، وهكذا حاولت أنْ أشغل نفسي بمهمات ينبغي عليّ إنجازها قبل مغادرتي. شغلت نفسي بأغطية السرير، وبالشتول، وبلف الهدايا التي سأحملها إلى مدبرة المنزل، وكذلك إلى التقنيين في المختبرات. ماذا بشأن رايان؟

أجّلت التفكير بهذا الموضوع. شغلت نفسي أيضاً بالمهمات التي لا تحتمل التأجيل. عملتُ بالغسيل، وبتنظيف مكان الهر، وبالبريد. شغّلت جهاز الأسطوانات المدمجة فصدح بموسيقى الميلاد، وتردّدت أصوات الأجراس، وأصوات ترانيم الملائكة، وأنا آمل أن تضعني هذه الموسيقى في أجواء العيد.

لـــم يفدنـــي هـــذا شـــيئاً. ولم أستطع التفكير إلا بالعظام المستلقية على طاولات مختـــبري، وبالبصـــمات الموجودة على طاولتي، وبالمكان الذي يُحتمل أن تتواجد آن فيه.

استسلمت عند حلول الساعة الثالثة وتوجّهت إلى ويلفريد ديروم.

شـــعرت أنها فترة ما بعد ظهيرة يوم سبت رائعة. بدا المختبر خالياً وساكناً مثل سكون القبر. رأيت على طاولتي ورقة نموذج يُطلب مني فيها إبداء الرأي؛ اختفى أحد الأشخاص الذين يعملون في المصاعد قبل أربعة أشهر، بينما كان ينفذ مهمة صيانة في عمارة تقع في كوت سان لوك، ووُجد جسده المتحلل يوم الخميس في بارك أنغريغنون فـــي لاسال. أظهرت صور الأشعة السينية كسوراً في أماكن عدة. أرادني بيليتييه أن أحلّل وجود الصدمات بعد تنظيف العظام.

وضعت ورقة النموذج جانباً، وتناولت اللائحة التي حضّرها كلوديل.

اســـتمرّ مصباح الفلور بإصدار همهمته من فوقي، أما في الخارج فقد ظل أنين الـــرياح يســـيطر علـــى حواف النوافذ. تساقطت على الألواح الزجاجية بعض القطع الجليدية التي حملتها الريح بين الحين والآخر.

بـــدأت باستعراض الأسماء؛ سيمون بادو: كبيرة في السن. إيزابيل لمييه: أجرت إصـــلاحات لأسنانها. ماري لوسيل داكان: سوداء. ميشلين تيبو: صغيرة السن. تاوني مـــاك جـــي: صغيرة إلى حد بعيد. سيلين دالاير: كُسرت عظمة الترقوة عندها عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها.

توالت الأسماء إلى ما لا نهاية...

تحوّلت لاستعراض لائحة شاربونيو بعد مضي ساعة. استعرضت أسماء جينيفر كاي، إستر آن بيجوين، إيلاين ماسي، آمي فيش، وتيريزا بيريز.

رجعـــت إلى طاولة مختبري بين حين وآخر كي أعيد فحص بعض العظام مرة أخـــرى، متمنيةً أن أجد تفصيلاً معيناً لم أنتبه له في السابق، إلاّ أنني عدت خائبة في كـــل مـــرة. انتهيت من كل الأسماء، فعدت إلى اللائحتين لأستعرض الفتيات بحسب الأعمـــار، ثم استعرضت الطول، ثم تاريخ الاختفاء. أدركت أنني أبحث عن إبرة في كومـــة قـــش، لكني كنت كالمجبرة على ذلك. لم أستطِع منع نفسي من الاستمرار في التفتيش.

سمعت صوت باب يُفتح في نهاية الرواق.

بحثـت عـن مكان اختفاء الفتيات. ظهرت أسماء مثل تيريبون، آنجو، غاتينيو، وباكونـز فـيلد. قرأت أسماء مثل مقاطعة بيوت، مقاطعة تهامة، ومقاطعة سان ماتو. توقّفـت عـن العمـل في الساعة السادسة، وشعرت بإحباط عارم. أمضيت ساعتين ونصف في العمل من دون إنجاز أي شيء.

سـمعت صـوت وقع أقدام تتردّد في القاعة الفارغة. اعتقدت أنها وقع خطوات لامانش. أعرف أن لامانش هو الشخص الوحيد، عداي أنا، الذي يُحتمل حضوره إلى المختبرات في ليلة سبت.

أهنئك يا برينان، لأنك تتمتّعين بنفس نوعية الحياة الاجتماعية التي تمتلكها امرأة ستينية، لديها سبعة أحفاد.

رجعت إلى اللائحتين.

مـا زال ذلك الشعور الذي يقول إنني أفتقد رابطاً ما يلازمني باستمرار. ما هو؟ هل هي علامات الحزوز؟

حملـتْ الجمـاجم الـثلاث دلائل على ضربات أحدثتها آلة حادة. ظهرت هذه الحـزوز فـي الفتاة التي وضعت في الكفن الجلدي، وكأنها حدثت بعد الوفاة. يختلف الأمـر بالنسبة للهيكلين الآخرين، والتي تبيّن أنها جرت على عظام حية. لاحظت أن جميع هذه الحزوز موجودة في منطقة الأذن. أهي طقوس متعلقة بالموت؟

أوحـت نـتائج اختبارات الكربون 14 أن الفتاة التي كانت في الكفن الجلدي قد ماتـت في سنوات الثمانينيات، أما الفتاتين الأخريين فماتتا في سنوات التسعينيات. ما هي أمكنة ولادة الفتيات يا ترى؟

أوحـت نـتائج اختبارات نظير السترونتيوم أن فتاة الكفن الجلدي ربما تكون قد ولدت، أو عاشت أولى سنوات طفولتها، في شمال وسط كاليفورنيا، ثم انتقلت بعد ذلك إلى فيرمونت أو كيبيك. يُحتمل كذلك أن تكون الفتاتان الأخريان قد أمضتا حياتيهما في كيبيك.

يُحـتمل ذلك، ويُحتمل أيضاً أنني أركّز كثيراً على السترونتيوم، ولعل كاليفورنيا ستظهر وكأنها طريق مسدود.

سمعت أصواتاً أخرى، تبيّن لي أنها أصوات بشرية.

التحق مينارد بمعهد للمتخرجين في شيكو. تقع شيكو في شمال وسط كاليفورنيا. أعرف أن مينارد هو مستأجر المكان الذي وجدت فيه الفتيات. توافقت فترة استئجاره

مـــع مـــوت فتاتين على الأقل. رأته لويز بايرنت مع الفتيات في مناسبتين، في إحداها كانت الفتاة هاربة، أما في الثانية فكانت غائبة عن الوعي.

هل من الممكن أن تكون الصلة مع كاليفورنيا محض صدفة؟ تحرّك حدسي مرة أخرى ثم تراجع. ماذا؟

لـــم أســـتطع أن أزحـــزح هذه الفكرة بعيداً رغم ما بذلته من مجهود. عدت إلى مينارد. تسلّم مينارد ملكية منزل جديه في مونتريال في العام 1988. إن الرجل الذي يعيش هناك الآن ليس مينارد، بالرغم من أنه يستخدم اسمه.

ألقيت قلمي على دفتر سجلاتي: "إذاً، من هو بحق الجحيم؟"

- "لا أعرف".

قفـــزت مـــن مكاني مجفلة من سماع الصوت. نظرت، وإذ بي أرى رايان واقفاً قرب الباب.

- "لكننا أصبنا شيئاً يتعلّق بهوية صديقته".

الفصل 29

- "تدعى آنيغ بومرليو".

طويت أصابعي إشارةً إلى حاجتي لمعرفة المزيد من المعلومات.

- "اختفت هذه الفتاة في العام 1990".

- "كم كانت تبلغ من العمر؟"

- "خمس عشرة سنة".

يتوافق هذا العمر مع معطياتنا. أوحت المرأة التي رأيناها في منزل مينارد أنها في وسط، أو أواخر، العشرينيات من عمرها.

- "من أين أتت؟"

- "إنها من ماسكوش".

- "وماذا حدث لها؟"

- "أبلغت الفتاة ذويها أنها ستمضي عطلة نهاية الأسبوع مع صديقاتها. تبيّن أن صديقاتها قد لفّقن قصة لكي تستفيد منها مع صديقها الجديد. لم ترجع الفتاة يوم الأحد فبدأ أهلها يبحثون عنها، وقدّموا يوم الإثنين بلاغاً عن اختفائها، أي عندما مضت ستون ساعة تقريباً على غيابها".

- "ألم تصل إلى منزل صديقها؟"

- "وصلت فعلاً. ذهب الاثنان إلى عدة حانات مساء يوم الجمعة، وتشاجرا. خرجت آنيغ غاضبة، وأمضى ذلك الفتى المحظوظ عطلة الأسبوع مع المرشحة الثانية".

- "وهل صدّقت الشرطة روايته؟"

- "دعم النادل والسيدة المحظوظة روايته. يظهر أن بومرليو كانت فتاة مضطربة بحيث أنها هربت عدة مرات في السابق. أصرّ الوالدان على أنها خُطفت، لكن رجال الشرطة ظنّوا أنها رحلت".

- "وهل تابعت الشرطة قضيتها؟"
- "فعلت ذلك حتى تلاشت دلائل القضية".
- "هل هذا كل شيء؟"
- "ليس تماماً. تلقّت عائلة بومرليو بعد ثلاث سنوات مكالمة من آنيغ الصغيرة. أبلغت الفتاة عائلتها أنها بخير، لكنها لم تخبر ذويها أي شيء عن مكان وجودها".
- "لا بد أن ذلك شكّل صدمة للعائلة".
- "مضت عدة سنوات قبل أن تتلقّى العائلة اتصالاً ثانياً. تكّرر نفس الكلام. أبلغت عائلتها أنها على ما يرام، لكنها لم تنطق كلمة واحدة عن مكان سكنها. جاءت آخر مكالمة في العام سبعة وتسعين، وحينها كان الوالد قد توفّي، أما الوالدة فكانت تعيش في بومباي سابفير".
- "هل بصمات بومرليو موجودة هنا في ملفات كيبيك؟"

أومأ رايان: "تمتلك الشرطة ملفاً عنها مليئاً بأشياء صغيرة مثل، تخريب ممتلكات عامة، وسرقة معروضات. تضمّن سجلها أيضاً سرقة سيارة، ولعلها فعلت ذلك بهدف التنزه فقط. سُجّل آخر بند في ملفها قبل أربعة أشهر من اختفائها".

سيطر عليّ الانزعاج، لأنني واجهت انحرافاً آخر غير متوافق مع المواصفات التي أمتلكها: "ماذا تفعل آنيغ بومرليو عند ستيفن مينارد بحق الله؟"
- "إنه ليس مينارد".

تناولت قلمي وألقيت به ثانية فوق دفتر ملاحظاتي: "لا تتظاهر بالبطولة أمامي يا رايان. سمّه السيد أكس، أو مسيو أكس. كيف انتهت الفتاة بين يديه؟"

تناولت القلم ووجّهته نحو رايان.
- "لماذا لا نستطيع اكتشاف هوية ذلك التافه؟ ولماذا لا نستطيع كشف ستيفن مينارد الحقيقي؟ ومتى حصل ذلك التبدل في الهوية؟"
- "أترغبين بتناول بعض الطعام؟"
- "ماذا؟"
- "أترغبين بتناول العشاء معي؟"
- "لماذا؟"
- "أريد أن أخبرك عن بعض الأمور".
- "حسناً. أريدك أن تبقى أنت وكلوديل على خط اتصال دائم معي لإبلاغي بكل

جديد. أين كلوديل بحق الجحيم؟"

شرع رايان بالكلام، لكنني قاطعته.

– "تعبـت كثيراً من كلوديل، وموقفه المستهتر مني. شاربونيو هو الوحيد الذي يعاملني باحترام".

– "يتميّز كلوديل بطريقته الخاصة في التعامل مع الآخرين".

– "هكذا هي القنفذيات أيضاً".

– "تحكمين على كلوديل بقسوة. ما هي القنفذيات بالمناسبة؟"

أطلقت عبارته هذه سيل النقمة عندي.

– "هـل أنا من يحكم عليه بقسوة؟ تعيّن عليّ منذ البداية أن أواجه ذلك النرجسي المتزمت كي يأخذني على محمل الجد. إنني أفعل ذلك كي يأخذني الجميع على محمل الجد".

فكّرت بتحطيم القلم.

– "تبيّـن أن العظـام قديمة جداً، واختبار الكربون 14 مكلف جداً. وتبين لنا أن الفتيات كن مومسات. وتوفيت لويز بايرنت أثناء نومها، لكن ذلك يحدث كثيراً للسيدات المسنات، والجميع يعرف هذه الحقيقة".

– "كنت أشير إلى سيلان لعابها".

قذفت بقلمي باتجاه رايان: "أرأيت؟ إن موقفك المزاجي هذا لا يفيد".

تقدّم رايان ليلمسني، لكنني تراجعت: "تمب..."

– "آه، نسيت. بالطبع، إنك تحبّني، لكنك تحبّ الكثير من الأشياء غيري. أعرف أنك تحبّ جبنة الماعز، والببغاوات، وحوريات الماء".

فتح رايان فمه ليقول شيئاً، لكنني قاطعته.

– "حسناً، أنت تحبّني، لكنك لا تجد متسعاً من الوقت لتكون معي".

تابعـت ثورتي، وعبّرت عن كل إحباطاتي التي خرجت من فمي باندفاع قوي: "وجـدتَ فجأة أنك تستطيع تخصيص وقت لدعوتي لتناول العشاء! وتدعوني في ليلة سبت! صحيح أنني فتاة محظوظة!"

تدفقت الكلمات من فمي كما تندفع المياه من بوابة السد. استخدمت سبابتيّ لتحديد الكلمة الأخيرة: "ماذا بشأن مهمات الوظيفة؟ وماذا بشأن... ابنة أختك؟"

ارتد القلم الذي قذفته عن دفتر ملاحظاتي نحو رايان، فمدّ يده ليصدّه.

نهضت واقفةً: "يا إلهي! أنا آسفة جداً. لم أقصد أن أصيبك".

تهالكــت من جديد على مقعدي، وغطيت وجهي براحتَي يديّ. شعرت أن خديّ ملتهبان بالحرارة والرطوبة.

- "يا إلهي. ماذا دهاني؟"

شعرت بيد تلامس كتفي.

مســحت العــرق عن خديّ، رفعتُ شعري وراء أذنيّ، ثم رفعت رأسي. رأيت رايان واقفاً يحدّق بي، وقد امتلأت عيناه الحالمتان بالقلق.

أم أنهما امتلأتا بالشفقة؟ أم بماذا يا ترى؟ قلت له: "آنا آسفة. لست أدري من أين أتى كل هذا".

- "أعرف أن الجميع واقعون تحت الضغوط".

- "لكن لم يتحوّل كل واحد منهم إلى الدوتشي".

أحسست بوصول لامانش قبل أن أراه بالفعل. استطاعت قوة إبصاري الخارجية ترصّــد حركـــته، وشـــممت رائحة دخان غليونه، ورائحة عطره المميزة، ثم سمعت صوت تنحنح.

التفتّ أنا ورايان في وقت واحد، ورأينا لامانش واقفاً قرب المدخل.

- "قدّرت أنكما تريدان معرفة أن المحقق الجنائي قرّر أن موت لويز بايرنت هو جناية قتل".

سألت: "هل خُنقت؟"

- "أعتقد هذا".

سأل رايان: "هل استلمت نتائج اختبار السموم؟"

- "اكتُشفت بعض آثار دواء التنويم، الآمبيان في دمها وبولها. تتوافق مستويات هــذه الأدويــة مــع تناولها لعشرة ميليغرامات دُسّت في طعامها قبل ساعات عدة من موتها".

سأل رايان: "ماذا بشأن التوقيت؟"

- "هل تمكّنت من تحديد ما إذا كانت بايرنت قد تناولت دواءها مع الغداء أم مع العشاء؟

- "تدلّ سجلات الهاتف على أن مكالمات قد أُجريت يوم الجمعة من منزل فيشر عــند الساعة الثالثة والخمس والخمسين دقيقة، وعند الرابعة والأربع عشرة دقيقة من

بعــد الظهر. أجريت المكالمة الأولى مع كاهن السيدة بايرنت، أما المكالمة الثانية فقد أجريـــت مع الصيدلية التي تقع على بعد شارعين من المنزل. أُجريت المكالمة الثالثة مع هاتف خليوي، ما زلنا نعمل على معرفة رقمه".

نظرت باتجاه رايان. لم يخبرني أحد عن هذه المعلومات.

- "ذلك يعني أن آخر وجبة لبايرنت كانت العشاء".

قـــال لامانش: "يحتاج الحساء إلى ثلاث ساعات قبل تفريغه، أما الآمبيان فيحتاج إلـــى ساعتين. أفترض أن الدواء المساعد على النوم قد ذوّبه أحد ما في فنجان الشاي الذي تناولته".

بـــدأ رايـــان بإجراء حساباته: "اعتادت بايرنت أن تأكل في حوالى السابعة، كما تقول ابنة أختها. وإذا افترضنا أنها فعلت ذلك يوم الجمعة فسيعني ذلك أنها ظلت حية حـــتى الساعة العاشرة. وإذا افترضنا أن بايرنت تناولت الآمبيان وقت توجهها للنوم، فسيوصـــلنا ذلـــك إلى تحديد زمن وفاتها عند الساعة الحادية عشرة، أو إلى منتصف الليل. أعتقد أن الوفاة لا بد أن تكون حدثت في ساعات الصباح الأولى ليوم السبت".

قال لامانش: "يتوافق ذلك مع حالة التحلل".

قال لي رايان بعد انصراف لامانش: "ما زال عرضي ساري المفعول".

سألته: "متى علمت كل ما قلته بشأن المكالمات الهاتفية؟"

- "علمت ذلك هذا اليوم. إنها أحد الأمور التي كنت عازماً على إبلاغك بها. هل تفضلين الذهاب إلى هيرلي؟"

نظرت إلى رايان لوقت طويل جداً، ثم رسمت ابتسامة على شفتيّ.

- "لكن بشرطٍ واحد".

بسط رايان راحتَي يديه.

- "أريد أن أدفع الفاتورة".

قال رايان: "يا للروعة!"

يقـــع ملهـــى هيرلي الإيرلندي في شارع كرسنت وخلف شارع القديسة كاترين. تســـاءلت أثناء قيادتي السيارة عن الخيارات المتاحة أمامي: أولهما، أن أركن السيارة أمام منزلي، وأن أخاطر بالمشي وسط البرد الشديد، أما ثاني الخيارات فهو أن أبحث عن مكان أركن فيه سيارتي قرب الملهى إلى ما لا نهاية.

اخـــترت أن أركن سيارتي أمام المنزل وأمشي وسط البرد الشديد. بدأت أتساءل

عن صوابية قراري أثناء إسراعي بالمشي في شارع القديسة كاترين.

رأيـت رايـان عند وصولي جالساً في غرفة تابعة للملهى. شاهدت أمامه على الطاولـة كوبـاً من الشراب وقد شرب نصفه. طلبت طبق يخنة لحم الحمل، وزجاجة عصير وطلب رايان فروج سان آمبروا.

اقتربـت من رايان بحذر أثناء انتظارنا للطعام. حاول كلانا رواية النكات، التي جاء بعضها تافهاً.

تحلّـق حولنا حشد من الناس. بدا بعضهم سعيداً، بينما بدا بعضهم الآخر يائساً، واكتفى بعضهم بالشرود. لم أستطِع أن أتخيّل مشاكلهم وعلاقاتهم المتعددة.

جلس شريكان شابان إلى جانبنا. لاحظت أنهما يكادان يلتصقان ببعضهما. ارتدى الشـاب قـبعة حمراء من فراء الوعل، بينما ارتدت الفتاة كنزة مزركشة بألوان عيد الميلاد.

حدّقـت فيهما، ورأيت كيف احتكّت قبعة فراء الوعل بأعلى الكنزة الميلادية. تلا ذلك ضحكة أطلقتها الفتاة. بدا لي أنهما سعيدان، ومرتاحان لبعضهما بعضاً.

التقت عينا صاحبة الكنزة الميلادية بعينيّ. أشحت بنظري على الفور لأجد أمامي لوحة مثبتة فوق رأس رايان، كُتب عليها: أهلاً وسهلاً. مرحباً بكم. لاحظت أن أحدهم أقدم على وضع إكليل من غصون الصنوبر فوق الطرف الأعلى من اللوحة.

دارت فـتاة حول طاولتنا، ولاحظت أنها تتحرّك بحرصٍ بالغ يشاهده المرء عند الذيـن يشربون حتى الثمالة، ليحجبوا حالتهم عن الآخرين. لفتتني بشرة الفتاة الشاحبة وضفيرتها السوداء الطويلة.

أخذتنـي أفكـاري إلـى آنيغ بومرليو. أين تراها كانت في الخمس عشرة سنة الماضية؟ ولماذا تتواجد الآن مع الرجل الذي ينتحل اسم مينارد؟

أحضـرت الـنادلة الطعـام لكلينا. طلب رايان كوب شراب آخر، بينما طلبت زجاجـة عصير أخرى. تحوّلت محادثتنا أثناء تناولنا للطعام باتجاه العمل، وهو حقل آمن لتبادل الحديث مع رايان.

- "ذهب كلوديل إلى فيرمونت".

قلت مندهشة: "هل ذهب بحثاً عن مينارد الحقيقي؟"

أومأ رايان بالإيجاب.

- "من أعطاه الفكرة؟"

- "إن كلوديل هو رجل شرطة نشِط".

- "لكنه يعتقد أنني مغفلة".

- "أنا لا أرافق المغفلين".

إنك لا ترافقني. لم أتفوه بهذه العبارة.

سألته: "أتعتقد أن منتحل شخصية مينارد هذا هو الذي قتل لويز بايرنت؟"

- "يبقى ذلك احتمالاً وارداً".

- "إنه احتمال قوي جداً، ألا تعتقد ذلك؟ اتّصلت بي بايرنت لتكلمني عن مينارد. مضت أيام قليلة قبل أن يخنقها شخص ما بوسادة".

لم يعلّق رايان.

- "كيف عرف هذا الذي ينتحل شخصية مينارد أن بايرنت اتّصلت بي؟"

- "وكيف يتسنّى لأي شخص أن يعرف؟"

لم أمتلك إجابة عن هذا السؤال.

- "هل تكلمت مع الجار بشأن الجيب؟"

- "إنه بريء".

- "لا أنفكّ أفكر بشأن ليلة بايرنت الأخيرة. أفكّر بآخر الأفكار التي خطرت على ذهنها. فكّرت بآخر مشاعرها وأفكارها. أتعتقد أنها كانت تعرف؟"

- "لم نلحظ أية علامات للمقاومة. تعرّضت هذه المرأة للغش في دواء الآمبيان".

- "وجد شخص مجنون، ويخلو من المشاعر، طريقه إلى بيت بايرنت في منتصف الليل ليخنقها مستخدماً وسادة شقيقتها. هل تعتقد أنها أحسّت بضغطٍ على وجهها؟ وهل اشتمّت رائحة مليّن الأقمشة؟ وهل تذوّقت طعم ريش الوسادة؟ وهل استشعرت الرعب في مرحلة ما؟"

- "لا تفعلي هذا بنفسك يا تمب".

- "إنني أفكر دوماً بآخر أحاسيسها".

أفكّر أيضاً بأحاسيس الفتيات المقتولات، لكنني لم أقل هذه العبارة.

- "هناك شيء لم أخبرك إياه بعد".

انتظرت رايان ليتابع كلامه.

- "تركت لويز بايرنت ممتلكاتٍ تقارب قيمتها النصف مليون دولار، كما أن لديها بوليصة تأمين بربع مليون دولار أخرى".

سألته: "ومن هو المستفيد؟"

- "شقيقتها، روز فيشر".

.

أوصلني رايان إلى منزلي عند التاسعة والنصف تقريباً. لم يطلب أن يدخل، وأنا لم أطلب منه ذلك.

وجدت المجيب الصوتي ساكناً ومظلماً.

أين آن بحق الجحيم؟

أنهيت الاستحمام، وتنظيف أسناني ووجهي، ثم توجّهت إلى السرير. قفز بيردي إلى السرير، وتكوّر إلى جانبي.

حاولت أن أقرأ، لكن غمرني القلق الشديد. أغلقت الكتاب وأطفأت النور. شعرت بضيقٍ مجهول المصدر. انقلبت إلى الجهة اليسرى، ثم إلى اليمنى.

انتقل بيردي إلى طرف السرير.

لم يسبق لي في حياتي أن شعرت بحاجة لتناول مشروب. هل هناك من ضير بتناول مقدار صغير من المشروب؟ إنني من الذين لا يسرفون في الشراب.

كوّرت وسادتي، وانقلبت على ظهري. يئست من قدرتي على النوم، فتناولت جهاز التحكم عن بعد، وشغّلت جهاز التلفاز، وسرعان ما وجدت برنامجاً فكاهياً أتفرج عليه.

ما هي الأشياء التي أفتقدها يا ترى؟ اختفت آنيغ بومرليو من ماسكوش في العام 1990. كانت الفتاة في الخامسة عشرة من عمرها في ذلك الوقت. إنها ما تزال حية إلى اليوم، وتعيش في مونتريال. أعرف أن فتاتين من فتيات قبو مطعم البيتزا كانتا في الخامسة عشرة من عمرهما، أما فتاة الكفن الجلدي فكانت أكبر سناً من ذلك. اختفت آنجي روبنسون في العام 1985. قيل إنها تقارب الخامسة عشرة، لكنها لم تظهر، بعكس بومرليو...

تحول الممثلون ليصبحوا دمى متصارعة. تلاشى الحوار والضحكات بحيث لم أعد أسمعها.

كسرت آنجي روبنسون معصمها. وكسرت فتاة الكفن الجلدي معصمها أيضاً، لكن الأعمار لا تتوافق، كما أن طوليهما لا يتوافقان أيضاً.

إذاً، ماذا ينقصني؟

اختفت آنجي روبنسون في شمال وسط كاليفورنيا. لا أستطيع أن أتذكّر اسم المكان. هل كان كونرز؟ أم كورنرز؟ أم كورنيرو؟ هل يقع المكان في مقاطعة بيوت؟

لا. إن شيكو هي في مقاطعة بيوت.

أمضى مينارد سنةً على الأقل في شيكو. تساءلت أيّ مينارد من الشخصين هو الذي أمضى هذه الفترة؟ هل كان مينارد الحقيقي؟

قدّم والد آنجي روبنسون تقريره عن اختفاء ابنته إلى مركز الشريف في مقاطعة تهامة.

نهضت بعد أن رفعت عني أغطية السرير. شغّلت جهاز الكمبيوتر ودخلت إلى موقع ياهو. طلبت الحصول على خريطة شمال وسط كاليفورنيا. تقع مقاطعة تهامة إلى الشمال الغربي من مقاطعة بيوت مباشرة. وجدت شيكو، وتقريباً بعدها مباشرة قرية كورنيغ الصغيرة. كبّرت منظر تلك المنطقة. ظهرت على الشاشة البلدات الكبيرة، والطرقات الثانوية. شاهدت اسم مدينة هاميلتون، وويلو، وأورلاند. نقرت على مكان السهم، ثم تحرّكت شمالاً.

رد بلوف!

قفزت تلك الفكرة الغامضة التي كمنت في لاوعيي لتصبح في طليعة تركيزي، ثم ما لبثت أن تراجعت.

رد بلوف!

ماذا؟ فكّري يا برينان. فكّري!

ومضت في ذهني فكرة متناهية الدقة. متى قفز اسم رد بلوف إلى طليعة الأخبار؟ هل حدث ذلك منذ عشر سنوات؟ أم منذ عشرين سنة؟ ولماذا؟ فكّري!

نهضتُ وأطفأت جهاز التلفاز. رميت جهاز التحكم عن بعد بعيداً، ورحت أذرع غرفتي جيئة وذهاباً. شعرت بحاجة يائسة إلى الولوج إلى المناطق البعيدة في لاوعيي.

الصمت الذي خيّم على شقتي لم يكن ذلك النوع الذي يبعث الراحة في النفس، عندما يكون المرء وحيداً. إنه من نوع الصمت الضاغط. تابعت السير جيئة وذهاباً مرة بعد أخرى.

رد بلوف! رد بلوف!

ومض أخيراً مسلك عصبي في رأسي، فتجمّدت في مكاني. يا إلهي القدير! هل وجدت الإجابة؟

قفزت قفزاً كي أصل إلى جهاز الكمبيوتر. من كانت الضحية وقتها؟

اســـتخدمت مسالك بحث متعددة، أثار معظمها غيظي، وأوصلني بعضها الآخر إلى أسماء لا حصر لها. وجدت الاسم أخيراً...

أجريـــت المـــزيد من البحث. تصفّحت أرشيف رد بلوف دايلي نيوز، وتصفّحت أرشـــيف شـــيكو إيكزاميـــنر. تراجعت الأصوات الليلية المعتادة، واختفت عن مجال سمعي، في حين استسلم بيردي للنوم.

جلست بعد مرور عدة ساعات. أحسست بالخدر الممتزج بالرعب بسبب الأشياء التي كانت تتكشّف أمامي.

أدركت، في هذه اللحظة، كل ما يجري.

الفصل 30

انتظرت حتى الساعة السابعة صباحاً قبل الاتصال برايان. لم يتأخر في الإجابة، وبدا لي يقظاً مع أنني أحسست أنه متعب قليلاً.

- "هل أيقظتك؟"
- "كنت سأنهض على أية حال للرد على الهاتف".
- "إنها إحدى دعاباتك القديمة يا رايان".
- "تبدين متوترة. ما الأمر؟"

عرضت له نظريتي، وأخبرته عن الأمور التي اكتشفتها خلال بحثي في الشبكات الإلكترونية.

- "عجباً!"
- "لا بد أن نذهب إلى ذلك المنزل يا رايان".
- "إن العمل على قضية مطعم البيتزا ليس من ضمن مهمّتي".
- "لكن مقتل لويز بايرنت يقع ضمن مهمّتك. يُحتمل أن يكون مينارد، أو من ينتحل شخصيته، قد أقدم على قتل بايرنت ليمنعها من التحدث إليّ".

سمعت صوت إشعال عود ثقاب، ثم سمعت صوت زفير بطيء.

- "أريد أن يسمع كلوديل وشاربونيو هذا. هل ستبقين في المنزل لبعض الوقت؟"
- "سأنتظر".

اتّصل بي رايان عند الساعة التاسعة ليبلغني أن الرجال الثلاثة اتفقوا على الاجتماع في منزلي عند الساعة الحادية عشرة.

- "هل وافق كلوديل على المجيء؟"
- "إن كلوديل هو شرطي جيّد".
- "إنه يتمتّع بسحر شخصية فرسان الليل. سأحضّر القهوة".

أعلم أن كلوديل هو شخص يصعب إقناعه، لذلك أمضيت الساعة التالية بتسليح

نفسي بأكبر قدر ممكن من المعلومات لمواجهته بها.

وصـــل كلوديل أولاً ولاحظت ملامح عبوسه المتغطرس. أشرت إليه كي يجلس على الأريكة، وقلت: "صباح الخير".

- "صباح الخير".

خلـــع كلوديل معطفه فتناولته منه، ثم شدّ كمّي قميصه، وهي من ماركة آرماني إلـــى الأعلـــى، فانثنى القماش ليُغطي طرفيهما الشديدي البياض، بعدئذٍ جلس كلوديل ووضع ساقاً فوق ساق.

قلت مقدمة عرضي: "أتشرب القهوة؟"

تعمّد كلوديل النظر إلى ساعته: "لا. شكراً".

وصل كلٌ من رايان وشاربونيو في غضون دقائق. ارتدى كل منهما بنطال جينز وكنزة. وكان رايان قد عرّج على متجر حلويات في طريقه.

مـــلأت كوبَي قهوة لرايان وشاربونيو، ثم تناولنا الحلوى نحن الثلاثة. حافظ كلوديل على وضعه المنعزل، ولسان حاله يقول: من الأفضل أن يكون اجتماعنا هذا مفيداً.

بدأ رايان الاجتماع رسمياً. أومأ نحو كلوديل قائلاً: "تمب، أطلِعي هؤلاء الرجال على ما أخبرتِني إياه. أريدك يا لوك أن تسمعها جيداً".

بـــدأت بعـــرض مـــا عندي: "خرجت كولين ستان، وهي شابة في العشرين من عمـــرها، في 19 أيار/مايو من العام 1977، من منزلها في يوجين، أوريغون، قاصدةً ويســـت وود، كاليفورنيا، واعتمدت طريقة التنقلات المجانية. استفادت كولين من عدة تنقلات قبل أن تستقل سيارة كاميرون هووكر وزوجته جان. أوصل الزوجان هووكر ســـتان إلـــى غابـــة لاسن الوطنية حيث قيّدا يديها، وعصبا عينيها، وكمّما فمها، ولفّا جسدها بالحبال، ثم أخذاها إلى منزلهما".

دخل بيردي إلى الغرفة، وبدأ يشمّ زوجين من الأحذية الثقيلة، وزوجاً واحداً من الموكاسان، ثم اتّخذ قراره. غمز شاربونيو من قناة زميله: "هذا الفتى الصغير يحبّك يا لوك".

قفزت من مكاني، وانتزعت الهر من حضن كلوديل: "آسفة".

بـــدا أن الهـــر قد انزعج، وعبّر عن انزعاجه هذا كأفضل ما تستطيعه الهررة. تابعـــت قائلـــة: "أبقى كاميرون هووكر كولين في ظلمة كاملة، وأخضعها لحرمان تام طيلة ثلاثة وعشرين ساعة في اليوم. استمرّ هذا الوضع لمدة سبع سنوات".

قال شاربونيو: "سحقاً لهذا اللعين!" أكملت شرحي: "أقدم هووكر على حبس ستان فـي مجموعة من الصناديق كان قد صمّمها بنفسه لهذه الغاية. اعتاد أن يخرجها كلما أحـبّ ذلك. كان يعلّقها مستخدماً أنابيب خاصة، واعتاد أن يضعها على لوحةٍ خشبية، ثم يجلدها، ويعرّضها للصدمات الكهربائية، ويجوّعها، ويغتصبها، ويرعبها".

انـتزع كلوديل شعرة هرّ عن كمّ قميصه، أمّا أنا فاستمريت بالشرح: "أطلقت زوجة هووكـر سـراح ستان في النهاية. اعتُقل هووكر في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1984. أُديـن الـرجل في الخريف التالي بجريمة الاختطاف، والاغتصاب، والاعتداء، وعددٍ من التهم الأخرى. وقامت وسائل الإعلام بتغطية هذه القضية بشكل هجومي".

تأوّه كلوديل: "وما هي صلة كل هذا بموضوعنا؟"

- "وقعـت محنة كولين ستان في رد بلوف، كاليفورنيا. وتقع رد بلوف على بعد أربعين ميلاً من شيكو".

تـناول شاربونيو قطعته الثانية من الحلوى، وقال: "كان ستيفن مينارد طالباً في السنة النهائية في جامعة شيكو في العام 1985".

أومـأتُ بالموافقـة. تسـلّل بيردي باتجاه الأريكة، ثم قوّس جسده ملامساً ساق كلوديل. وقف الهر على قدميه ووضع قائمتيه الأماميتين على ركبة كلوديل. اعتذرتُ للمرة الثانية، وانتزعت الهر، ثم وضعته في غرفة نومي، وأقفلت الباب. عندما عدت قال شاربونيو: "لكن هذا المغفّل الموجود هنا في مونتريال ليس مينارد".

- "إنني أستخدم هذا الاسم على سبيل الافتراض".

- "إذاً أين هو مينارد الحقيقي؟"

- "لا أعـرف. يُحتمل أن يكون قد قُتل على يد ذلك الرجل الذي يعيش في بوان سان شارل. إنها مهمتك أنت".

قال رايان يحثّني على المتابعة: "تابعي".

- "بقيـت قضـية ستان تتصدّر نشرات الأخبار من خريف العام أربعة وثمانين حـتى خـريف العام خمسة وثمانين. أحبّت الصحافة هذه القضية، وأسمتها قضية فتاة الصندوق. أطلقت عليها بعد ذلك اسم قضية عبدةُ الجنس.

نظـر كلوديل إلى ساعته، فيما أكملت قائلة: "اختفت في العام 1985 فتاة تدعى آنجـي روبنسـون، وكانت تبلغ الرابعة عشرة من عمرها. اختفت الفتاة في كورنينغ، كاليفورنـيا. تقع كورنينغ ما بين شيكو ورد بلوف... لديّ ما يكفي من الأسباب التي

تدفعني للاعتقاد أن أحد هياكل فتيات قبو مطعم البيتزا الثلاث يعود لآنجي روبنسون".

أوقف شاربونيو عملية مضغ قطعة الحلوى في منتصف مسارها في فمه: "أتعنين الفتاة الصغيرة التي وُضعت في كفن جلدي؟"

- "أجل".

أسرع كلوديل ليقول: "إنها الفتاة ذات المعصم المكسور، لكنك كنتِ أكيدة عمري الفتاتين لا يتطابقان".

- "قلــت إن مواصفات آنجي روبنسون كانت أصغر وأقصر من أن تتوافق مع مواصــفات الهيكل رقم 38428، أما إذا عاشت آنجي لبعض الوقت بعد اختفائها، فإن هذا سيفسّر الفروقات الموجودة".

قــال رايان: "هل يمكنكِ أن تشرحي نتائج اختبارات السترونتيوم، والكربون 14 أمام لوك؟"

فعلتُ ذلك.

- "وهل لكِ أن تشرحي موضوع المادة التي تغلّف الأسنان لمنعها من التسوس؟"

فعلتُ ذلك.

قــال شاربونيو: "يا للعجب. أتعتقدين أن مينارد قلّد ما قرأه في أخبار الصحف، وأنه قد استلهم ذلك المعتوه هووكر؟"

- "نعــم، لكــن هناك المزيد. اختفت آن بومرليو في ماسكوش في العام 1990، عــندما كانت بعمر الخامسة عشرة. تمكّنا، أنا ورايان، يوم الجمعة من رؤية بومرليو في منزل مينارد".

قال شاربونيو: "يسكن مينارد هنا منذ العام ثمانية وثمانين".

أحنى كلوديل رأسه، وبدا أنه يتكلّم من أنفه: "وهكذا، استناداً إلى قضية الفتاة التي وُضعت في الصندوق..."

استفزتني سخرية كلوديل فقلت: "لكن الفتاة تمتلك اسماً، وهو كولين ستان".

توتّر منخرا كلوديل.

- "إذاً، هلِ تعتقدين أن مينارد احتجز آنيغ بومرليو عنوةً لما يفوق عقداً ونصف مــن السنين؟ وأن آنجيلا روبنسون، والفتيات الأخريات اللاتي جرى دفنهن في القبو، كانا من أسراه؟"

أومأتُ بالموافقة.

لـــم يتكلّم أحد لبضع لحظات، لكن كلوديل كسر طوق الصمت: "هل حاولت آنيغ بومرليو الهرب؟"

- "لا".

- "هل أشّرتْ لك بطريقة من الطرق أنها أرادت مغادرة منزل مينارد؟"

- "لم تحمل الفتاة يافطة تقول: ساعدوني. إذا كان هذا ما تقصده".

قوّس كلوديل حاجباً ونظر باتجاه رايان. قال رايان: "بدت بومرليو خائفة جداً".

قلت بدوري: "بل بدت مرتعبة".

سأل شاربونيو: "ماذا فعلتْ بالضبط؟"

- "اختفت عن الأنظار حالما نظر مينارد باتجاهها. تصرّفت كأنها كلبة مقهورة".

قال شاربونيو: "أتعتقدان أن مينارد يحتفظ بها لتكون عبدة جنسية تحت تصرفه؟"

- "أنا لا أوحي بالدوافع".

صرخ كلوديل: "أفاعي خانعة!"

- "إننـــي غير ماهرة بأمور الزواحف والبرمائيات أيها التحري. ماذا يعني ذلك بالضبط؟"

رفـــع كلوديـــل كتفيه وبسط يديه: "إن أي شخصٍ بالغ سليم، ويتمتّع بالقدرة على التصرف، كان سيطلب المساعدة".

قلـــت مقاطعةً: "لا يوافق علماء النفس على كلامك هذا. يبدو لي أنك غير مطلع على متلازمة ستوكهولم".

رفـــع كلوديـــل راحتَـــي يديـــه باتجاه السماء، فقلت: "إنها عبارة تشير إلى الحد الأقصى من التوتر الذي يعانيه المرء نتيجة ظروف الأسر والتعذيب".

عادت يدا كلوديل إلى حضنه، بينما انخفضت ذقنه، أمّا أنا فتابعت أقول: "تظهر متلازمة ستوكهولم عند ضحايا الاختطاف، والسجناء، وعند أتباع بعض الفرق الدينية، والرهائـــن، وحـــتى عند الشركاء والأولاد الذين يتعرّضون للإساءة. يبدو أن الضحايا يستسلمون لآسريهم، أو للذين يعذبونهم، حتى إنهم قد يعبّرون عن مشاعر الولع بهم".

قال شاربونيو: "إنها عنوان غامض".

- "أتـــى اســـم هذه المتلازمة من حالة اختطاف حدثت في ستوكهولم، عاصمة الســـويد فـــي العام 1973. جرت حادثة الاختطاف هذه والتي احتُجز فيها ثلاث نساء ورجـــل واحد لمدة ستة أيام، على يد سجناء سابقين أثناء عملية سطو على مصرف.

وصل المحتجزون إلى حالة اقتنعوا معها أن هؤلاء اللصوص كانوا يحمونهم من رجال الشرطة. وأعلنت إحدى النساء خطوبتها على أحد آسريها، وذلك بعد إطلاق سراح المجموعة، بينما بدأت امرأة أخرى بحملة دفاع عنهم".

قال رايان: "إن أهم ميزة هنا هي التفاعل مع الظروف المهددة بشكل سلبي مطلق".

هزّ شاربونيو رأسه: "علينا أن نقتنع بهذا الكلام ونسلّم به".

قلت: "يتعدّى الأمر هذا الحد. إن الأشخاص المصابين بهذه المتلازمة يترابطون مع آسريهم، حتى إنهم قد يتّحدون معهم. يُحتمل أيضاً أن يتصرّف هؤلاء الأشخاص بطريقة تُظهر عرفان الجميل، أو حتى المحبة، تجاه هؤلاء".

سأل كلوديل: "تحت أية ظروف تتطوّر هذه المتلازمة؟"

استخدمت أصابعي لتعداد هذه الظروف: "يوافق علماء النفس على ضرورة توافر أربعة عوامل: العامل الأول، هو أن يشعر الضحية أن حياته مهددة من الآسِر، ويؤمن أن هذا الآسِر سوف ينفّذ تهديده. أما العامل الثاني، فهو أن يُظهر الآسِر بعض اللطف تجاه الضحية، وذلك حسب مزاج الشخص الآسر".

تدخّل شاربونيو: "كأن يسمح لذلك المسكين في الاستمرار بالحياة".

- "يُحتمل ذلك. ويُحتمل أن يأتي ذلك على شكل فترات استراحة من التعذيب، وفترات قصيرة من الحرية، وإعطاء الضحية وجبة محترمة، والسماح له بالاستحمام".

هزّ شاربونيو رأسه مجدداً: "يا للسماء!"

- "يتمثّل العامل الثالث في عزل الضحية كلياً عن مشاهدة أي شخص عدا الآسِر. يبقى العامل الرابع، وهو اقتناع الضحية، عن حق أو عن غير حق، أن جميع طرق الهرب مسدودةً أمامه".

لم ينبس شاربونيو ولا كلوديل بأية كلمة.

فأكملت كلامي: "كان كاميرون هووكر متمكناً من هذه اللعبة. أبقى هذا الرجل ستان داخل تابوتٍ وضعه تحت سريره، ولم يكن يخرجها منه إلاّ لتعذيبها. اعتاد بين الحين والآخر أن يمنحها فترات من الحرية، وأن يسمح لها بالعدوِ. وسمح لها في بعض الأوقات أن تعمل في الحديقة، وأن تذهب إلى الكنيسة. وصل الأمر بهذا الرجل ذات مرة إلى أن يصطحبها إلى ريفرسايد كي تزور عائلتها".

مرّر شاربونيو يده في شعره، الأمر الذي تسبّب بانسدال غرّته: "لماذا لم تنفصل

عنه بكل بساطة".

- "استطاع هووكر إقناع ستان أنه يمتلكها".

قال شاربونيو: "يمتلكها؟"

- "أبــرز الــرجل لستان وثيقة مزورة، وأخبرها أنه اشتراها من جماعة تدعى الجمعــية. أخــبرها أيضاً أنها تحت رقابته المستمرة، وأنها إذا حاولت الفرار فسيقوم أعضاء الجمعية بملاحقتها وقتلها، وهي وكل أفراد أسرتها".

رفــع شـــاربونيو يديه: "تباً! أقدم هووكر على تعذيب ستان فأحسّت أنها معزولة بالكامل، وأنها تحتاجه في أدق احتياجاتها، وهكذا انتهت بالاتحاد مع ذلك المعتوه".

قلت له: "فهمتَ الأمر كما هو. علمت أن إحدى أخطر شهادات الدفاع قد ركّزت على رسالة حب كتبتها ستان إلى هووكر".

بــدا شاربونيو مذهولاً، أمّا أنا فتابعت قائلةً: "احتُجزت إليزابيت سمارت من قبَل أشخاص مجانين لمدة تقارب السنة. سمعت هذه الفتاة الباحثين عنها ينادونها، حتى إنها استطاعت في إحدى المرات تمييز صوت عمّها، إلا أنها لم تحاول الهرب أبداً".

قال شاربونيو: "كانت سمارت في الرابعة عشرة من عمرها عندما اختُطفت".

ســأل رايــان: "أتذكــرون باتــي هيرســت؟ أمسكها جيش التحرير السيمبوني واحتجزها داخل خزانة. انتهت هذه الفتاة بالاشتراك مع خاطفيها بسرقة مصرف".

هــبّ شـــاربونيو واقفــاً على قدميه، وبدأ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً: "كانت تلك قضـــيةً سياسية، أما هووكر فلا شك أنه مختل عقلياً. أعتقد أن الناس لا يتجوّلون في الشوارع كي يختطفوا الفتيات، ويخبئونهن في الخزائن والصناديق".

قلتُ: "لعل هذه الظاهرة أكثر انتشاراً ممّا نظنّ".

توقّف شاربونيو عن المشي، ونظر هو وكلوديل باتجاهي. فقلت: "اعترف جون جميلسكي في العام 2003، أنه مذنب بجرم احتجاز خمس نساء واعتبارهن عبدات له. احتجزهن في مستودع إسمنتي أنشأه تحت الباحة الخلفية لمنزله". تحوّل كلوديل أخيراً إلى التكلّم بالإنكليزية: "يقع المنزل مباشرة تحت طريق سيراكيوز، نيويورك".

عاد شاربونيو ليمرّر يده في شعره: "أوه، هل تتذكّرون لايك، وأن جي؟"

شــيّد ليونارد لايك وتشارلز أن جي، وهما رجلان مريضان مصابان بعقدة كره النســاء، غــرفة خاصــة بالتعذيب ضمن مزرعة منعزلة تقع في مقاطعة كالافيراس، كاليفورنــيا. جرى تصوير بالفيديو لامرأتين، على الأقل، أثناء تعذيب هذين الرجلين

لهما. استخدمت عبارة سيدات م كعنوان للفيلم. يرمز حرف م هنا إلى كلمة مقتولات.

امتلأ صوت كلوديل بالاشمئزاز: "وماذا حدث لهذين الأحمقين؟"

- "قُبض على لايك بتهمة السرقة من متجر، ومات منتحراً عن طريق ابتلاع حبتين من السيانيد. واعتُقل أن جي في كالغاري، ثم قاوم محاولات تسليمه للولايات المتحدة لمدة عقدٍ من الزمان. هل هذا صحيح يا دكتورة؟"

استغرق الأمر ست سنوات من المنازعات القانونية، وفي النهاية أُعيد أن جي إلى كاليفورنيا لمحاكمته. صوّتت هيئة المحلفين هناك على تجريمه في العام 1998، بتهمة قتل ثلاث نساء، وسبعة رجال، وطفلين".

امّحت كل البرودة من صوت كلوديل: "كفى. أتعتقدين أن مينارد قد نقل عرضه الشاذ هذا إلى مونتريال؟"

- "أبلغتني روز فيشر أن لويز بايرنت اتّصلت بي هاتفياً لتخبرني أنها شاهدت مينارد مرتين مع فتيات صغيرات. وتعرفون أننا وجدنا هياكل ثلاث فتيات مدفونات في قبو يقع أسفل المتجر الذي كان يستأجره".

- "هل تعتقدين أن مينارد قد أقدم على نقل آنجي روبنسون من كورنينغ، كاليفورنيا، إلى مونتريال؟"

- "قد يكون نقل آنجي أو جثتها".

- "وهل تقولين إنه خطف آنيغ بومرليو واستعبدها؟"

- "هذا صحيح".

عبّر كلوديل عن مخاوفي حين علّق قائلاً: "ويُحتمل أن يُقدم مينارد على قتل بومرليو إذا عرف أنه مهدّد".

- "نعم".

تضيّقت عينا كلوديل، ونظر نحو زميله، ثم هبّ واقفاً وهو يقول: "يتعيّن على القاضي أن يضع هذا الاحتمال بحسبانه".

- "هل ستحصل على إذن بالتفتيش؟"

- "سأحصل عليه عندما يصل الأمر إلى المحكمة".

- "أريد الذهاب معك إلى بوان سان شارل".

- "لا تفكري في ذلك".

- "لماذا؟"

- "إذا صحّ كل ما تقولينه فمعنى ذلك أن مينارد هو رجل خطِر جداً".

- "إنني فتاة ناضجة".

حـــدّق بي كلوديل لفترة طويلة إلى درجةٍ ظننت معها أنه لن يجيب، ثم هزّ كتفه باتجاه رايان، وقال: "سأطارد راعي البقر هذا لوحدي، ولن يصحبني أحد".

ذهلتُ لكلامه هذا. ها هو الرجل الجدّي على الدوام يحاول أن يُلقي نكتة.

جـــاءت بقـــية نهار الأحد بمثابة عذاب لي. شعرت، وأنا أفكر بمهماتي الكثيرة بالحـــزن الممزوج مع خيبة أمل شديدة تجاه نفسي. لماذا لم أدرك من قبل احتمال أن تكون العظام عائدة للفتياتِ المحتجزات؟ ولماذا لم أدرك سبب فشل مواصفاتي بالتوافق مع المواصفات الموجودة في ملفات شرطة مونتريال؟ تساءلت مرةً بعد مرة: هل كان ذلك سيغيّر الأمور؟

استمرّت الصور المقلقة بالتوالد في رأسي. تخيّلت آنيغ بومرليو بوجهها الأبيض الشـــاحب وضـــفيرتها السوداء الطويلة. برزت أمامي أيضاً صورة آنجي روبنسون، وهي راقدة في كفنها الجلدي وسط قبرٍ حُفر في قبو.

تخيّلت نفسي مع رايان في السيارة، وتذكّرت آن. أين هي آن بحق الجحيم؟ هل يتعيّن عليّ بذل المزيد من الجهود لإيجادها؟ ماذا أفعل؟

جرّبـــت الترانيم الميلادية. أفلحت هذه الترانيم بإدخال بعض السرور إلى قلبي، وكأنهـــا جـــيش سانتا للإنقاذ. قصدت النادي الرياضي، ومشيت ثلاثة أميال فوق آلة المشي، برفقة الأغاني الرائعة القديمة المسجلة على الأسطوانات المدمجة، والتي دوّت ألحانهـــا فـــي ســـماعات الأذن التـــي أستخدمها. سمعت ألحان فرَق لوفينغ سبونفول، ودونافان، والماماز والباباز، والسوبريمز.

أصـــابني القلق وتقلّبت في السرير تلك الليلة، فيما استمرّت لازمة لحن بالدوران في ذهني.

الاثنين، الاثنين...

اســـتخرجت فـــي يـــوم الاثنين قبل الماضي عظام ثلاث فتيات صغيرات السن. وانتزعت في يوم الاثنين الماضي ريشتين من فم لويز بايرنت.

ويُحـــتمل أن أشارك يوم غد في استكشاف منزل الرعب. لا أستطيع الوثوق في ذلك اليوم...

ارتعدت خوفاً بسبب التفكير بما يمكن أن يحمله لي يوم الاثنين التالي.

الفصل 31

استحصل كلوديل على أمر تفويض من المحكمة عند الساعة التاسعة، وحضر رايان إلى منزلي عند التاسعة والربع.

ناولني رايان كوباً من القهوة فور صعودي إلى سيارته الجيب. لم يكن الكافيين هو ما أحتاجه، لأنني كنت متوترة إلى درجة تكفي للهجوم على البنتاغون مرة ثانية. شكرته ونزعت قفازَي، ثم لففت أصابعي حول كوب الستايروفوم، وعملت على إبطاء دقات قلبي حتى أثناء ارتشافي للقهوة.

مضت خمس دقائق، عمد بعدها رايان إلى إنزال زجاج نافذته قليلاً، وشرع بإشعال سيجارة بلايرز. اعتاد رايان في الماضي أن يسألني إذا كنت أمانع في إشعاله للسيجارة، لكنه لم يفعل ذلك هذه المرة. افترضت أنه يشعر بالتوتر مثلي تماماً. اكتظّت الشوارع بما تبقى من الازدحام المعتاد صباح الاثنين. وصلنا إلى بوان بعد مدة، بدت بالنسبة إلي عقداً من الزمان وعشرين دقيقة.

انعطفنا نحو دي سيباستوبول، فرأيت سيارتَي كروزر وسيارة إمبالا من دون لوحات مركونتين على أبعاد متساوية إلى جانب الطريق. لاحظت الأدخنة المنطلقة من عوادم السيارات الثلاث. ركن رايان سيارته إلى جانب أقرب سيارة كروزر، ثم التفت إلي بعد أن أوقف محرك السيارة.

- "إذا وجّه مينارد باتجاهك أي شيء، حتى العبوس، فعليك أن تسرعي بالخروج من المنزل. هل تفهمين؟"

- "إننا عازمان على تفتيش المكان، وليس مهاجمته".

- "قد ينقلب الوضع ويتحوّل إلى أمورٍ غاية في البشاعة".

- "يتواجد هنا سبعة رجال شرطة يا رايان. إذا لم يُظهر مينارد تعاوناً معنا فبإمكانك اعتقاله".

- "إذا أبدى الرجل أية حركة تهديدية فعليكِ أن تخرجي على الفور".

أديت له التحية بلباقة.

بدا صوت رايان أكثر صلابة: "اللعنة! أنا أتكلّم بجدية. إذا طلبتُ منك الخروج فعليكِ تنفيذ ذلك على الفور".

قلّبت عيني. فامتدّت يد رايان لتدير المحرك مجدداً. وضعت قفازَي وقلت: "حسناً. سأطيع الأوامر يا سيدي".

- "لا مكان للعبث هنا. إنه عمل خطر".

خرجت أنا ورايان من سيارة الجيب، وأغلقنا الأبواب بهدوء.

لاحظت أن الطقس قد انقلب، وأن الهواء مشبع بالرطوبة والبرد الشديد، بينما استقرت الغيوم الرمادية المثقلة على ارتفاع منخفض في السماء. بدأ الكلب بالنباح فور رؤيته لنا. لم نر عدا ذلك أية علامة للحياة في شارع دي سيباستوبول. لم نشاهد صبية يلعبون في الشارع، ولا سيدات البيوت وهنّ يحملن بقالتهن. لم نرَ حتى المسنّين المتقاعدين وهم يثرثرون على الشرفات، أو المصاطب.

إنه يوم شتائي نموذجي في مونتريال. يغري هذا الطقس بالبقاء داخل المنزل، أو بالتواجد في عربات المترو، أو في أي مكان تحت سطح الأرض. إنه يغري بالجلوس والتزام الهدوء حتى مجيء الربيع. تضخّم صوت نباح الكلب وسط هذا السكون المخيّم. انعطفت مع رايان عبر الشارع. خرج الثنائي النشِط من سيارة الإمبالا فور اقترابنا منها. ارتدى كلوديل معطفاً من الكشمير ذا لون بني مائل إلى الأصفر، بينما ارتدى شاربونيو سترة فضفاضة، لكنني لم أستطع تخمين تكوينات نسيجها. تبادلنا الإيماءات في ما بيننا.

سأل رايان بالإنكليزية: "ما هي الخطة التي سنتبعها؟"

بسط كلوديل قدميه، بينما استند شاربونيو على سيارة الإمبالا. أشار كلوديل بإبهامه نحو سيارة الكروزر المركونة في أقصى الشارع: "ستبقى وحدةٌ هنا، بينما أرسل الوحدة الأخرى إلى شارع دي لا كونغركاسيون".

أنزل شاربونيو زمام سترته المقلنسة، ودسّ يديه في جيبه، ثم حرّك بعض القطع النقدية فيهما.

- "سيسيطر ميشال على الباب الخلفي".

زعق صوت جهاز اللاسلكي في جيب شاربونيو الخلفي. تراجع قليلاً وعالج زر جيبه.

صوّب كلوديل نظرة سريعةً باتجاهي، ثم تحوّل بنظره نحو رايان.

قال رايان: "تعرف بريتان ما عليها فعله".

زمّ كلوديل شفتيه، لكنه لم يقل شيئاً.

- "سنُبرز لمينارد بطاقة التهنئة بعيد الميلاد التي أرسلها القاضي إليه، ثم نأمره بالجلوس، وننصرف بعد ذلك لقلب المكان رأساً على عقب".

وضع شاربونيو يده على عقب مسدسه: "لن أفشل عطلتي إذا ما قرّر هذا المعتوه أن يشهر مسدسه الشوارزينيغر".

تناول كلوديل جهاز الاستقبال والإرسال من حزامه، ثم زرّر معطفه مجدداً: "هل أنتم جاهزون؟"

أومأ الجميع بالموافقة.

قال كلوديل: "هيا بنا".

كرّر زميله: "هيا بنا".

انطلق شاربونيو بسيارته الإمبالا نحو نهاية شارع دي سيباستوبول. تحدّث إلى سائق السيارة، ثم اختفت سيارة الكروزر وراء المنعطف. عَكَسَ شاربونيو اتجاهه ثم تحرّك باتجاه قطري، وعبر الباحة الخالية.

مرّت ثلاثون ثانية، ثم سمعنا صوت شاربونيو من خلال جهاز الاستقبال والإرسال الذي يحمله كلوديل. أبلغنا أنه واقف قرب المدخل الخلفي لمنزل مينارد.

لوّح كلوديل بإشارة الانطلاق للفريق الآخر من رجال الشرطة، ثم مشى أمامنا أثناء اجتيازنا الممر المكسو بالجليد. تبعته إلى جانب رايان، بينما تقدّمت سيارة الكروزر إلى جانب الرصيف الموجود خلفنا.

شعرت أثناء تعثري في طريقي بنفس مشاعر الخوف الغامضة التي سبق لي وشعرت بها يوم الجمعة. تزايدت مشاعر خوفي، وتعاظمت دقات قلبي كأنها ضربات الطبول.

توقّف كلوديل عند المنعطف، وتحدّث في جهاز إرساله. حدّقت في منزل مينارد، ورحت أتساءل عن حالته أثناء تملّك أجداد مينارد الحقيقي، أي عائلة كورنيو، لهذا المنزل. بدا المنزل معتماً جداً ومثقلاً بالخطر. شعرت أنه يصعب على المرء أن يتخيّل مشهد ربة المنزل وهي تقلي الدجاج، فيما أفراد العائلة يشاهدون مباريات البايسبول، أو حتى تخيّل القطط الصغيرة وهي تلاحق الكرات، في الغرف الكئيبة لهذا المنزل.

أصدر جهاز راديو كلوديل أصوات إرساله. قال شاربونيو إنه في موقعه. خطونا إلـى درج المنزل. أدار رايان المقبض النحاسي، فانطلق صوت الجرس زاعقاً مثلما حدث في يوم الجمعة. مرّت دقيقة كاملة من دون أن يحدث أي شيء.

أدار رايـان المقـبض مرة ثانية. خيّل إليّ أنني سمعت حركةً ما داخل المنزل. توتّـر رايـان، وأسدل يده باتجاه مسدس الكلوك الذي يحمله، كما فكّ كلوديل أزرار معطفه.

لم يظهر أي شخص.

أدار رايان مقبض الجرس للمرة الثالثة، ثم خيّم سكون مطبق على المكان.

دقّ رايان على الباب بيديه، وقال: "افتحوا الباب! الشرطة!"

مـا إن شـرع رايان برفع قبضته مجدداً حتى مزّقت طلقة مسدس كاتم للصوت سـتار الصمت. انتشر ضوء أزرق وأبيض حول أطراف ستارة النافذة الموجودة إلى يميني.

انحـنى كـلّ من كلوديل ورايان وربضا على الأرض في وقت واحد، ثم شهرا أسلحتهما. أمسك رايان بمعصمي وسحبني إلى الأرض.

صـرخ كلوديـل فـي جهاز الإرسال الذي يحمله: "ميشال! هل ما زلتَ هناك؟ أكرّر. هل ما زلتَ هناك؟"

عـاد صوت شاربونيو بعد ثانيةٍ من خلال الجهاز: "أنا هنا. هل كانت تلك طلقة رصاص؟"

- "انطلقت الرصاصة داخل المنزل؟"

- "ومن يطلق النار؟"

- "لا أعرف. هل لاحظت أي حركة في خلف المنزل؟"

- "ما من حركةٍ هنا".

- "إبقَ في مكانك. سندخل إلى المنزل".

أشار لي رايان كي أتراجع: "هيا تحرّكي!"

اندفعـت إلـى المكان الذي حدّده لي، فيما هبّ كلوديل ورايان واقفَين، وانطلقا يعالجـان الباب. استخدما أكتافهما في البداية، ثم تحوّلا إلى استخدام أحذيتهما الثقيلة. صمد الباب أمام ضرباتهما.

تحوّل الكلب في البعيد ليعوي بطريقة هستيرية.

ازدادت قوة رفس الرجُلَين، وتطايرت الشظايا. تناثرت شظايا الورنيش المصفر في الهواء. وصمدت ألواح الباب التي تعوّدت الصمود في وجه عوامل الطقس. ازدادت الرفسات، وازدادت اللعنات والشتائم. تحوّل لون وجه كلوديل إلى لون توت العلّيق، أما جبهة رايان فأصبحت رطبة. أخيراً، رأيت حركة في مكان واجهة القفل.

أشار رايان لكلوديل بالتراجع، ثم تهيّأ جيداً، ومدّ رجلاً واحدة ثم دفعها بركلة كاراتيه. أصاب حذاؤه الثقيل هدفه، تراجعت السقّاطة وتراجعت دفّتا الباب منفتحتين إلى الداخل.

توجّه رايان نحوي وقال لاهثاً: "ابقي هنا".

دخل كلوديل ورايان إلى المنزل لاهثَين، ورفعا مسدساتهما إلى مستوى الأنف. تحرّك أحدهما إلى الجهة اليسرى، بينما تحرّك الآخر إلى الجهة اليمنى.

تسلّلتُ إلى الداخل، وأسندتُ ظهري على الجدار إلى يمين الباب. بدا الرواق مظلماً وساكناً، وانتشرت رائحة بارود خفيفة.

تقدّم كلوديل ورايان باتجاه الصالة شاهرين مسدساتهما، بينما تحرّكت عيونهما وجسداهما بحركات متوافقة. تبيّن لهما أن القاعة خالية.

تحرّكت أنا باتجاه الجانب الآخر للرواق. تأقلمت عيناي مع الظلمة في غضون لحظات. أسرعت لرفع يدي باتجاه فمي.

أنزل كلوديل سلاحه: "أهذا أنتِ!"

لم ينطق رايان بأية كلمة أثناء خفضه لمرفقه وتوجيهه مسدس الكلوك الذي يحمله باتجاه السقف.

استلقى مينارد على الأريكة نفسها التي استخدمها يوم الجمعة، ومال جسده إلى الجهة اليسرى، بينما استند رأسه بطريقة غريبة على خلفية الأريكة. استلقت يد مينارد اليسرى على مسند الأريكة، أما يده اليمنى فكانت في حضنه. لاحظت أن أصابعه تلتفّ بتراخٍ حول مسدس سميث أند ويسون من عيار تسعة ميليمترات.

لعلع صوت شاربونيو من خلال جهاز الإرسال والاستقبال. أجابه كلوديل على الجهاز. فيما تحرّكت أنا ورايان، واقتربنا من مينارد.

تبادل كلوديل وشاربونيو كلمات انفعالية. سمعت كلمات: انتحار، الشرطة القضائية، والمحقق الجنائي. لم أستطع استيعاب بقية محادثتهما. أذهلني منظر مينارد المستلقي على الأريكة.

شاهدت الثقب الصغير، الذي كان بحجم قطعة نقدية صغيرة، في جبهته اليمنى. انساب جدول دماء من حافة جبهته البيضاء المتغضنة، فمخرج الرصاصة كان جبهة مينارد اليسرى. اختفى معظم ذلك الجزء من الرأس وتناثر على المصباح النحاسي، وعلى قطع الكريستال المتدلية، وعلى ورق الجدران الزهري اللون لتلك الغرفة الكئيبة. تمازجت كتلة دم مرعبة وأجزاء من دماغ مينارد، مع ما تبقى من عظام جمجمته.

شعرت بارتعاش تحت لساني.

تناول رايان مقعد وندسور إلى أبعد مسافة ممكنة عن الجثة، ثم قادني إليه. جلست على المقعد وأحنيت رأسي. سمعت وقع أقدام أفراد الشرطة وهم يدخلون إلى المنزل. سمعت صوت رايان وهو يعطي أوامره الصارمة. سمعت ما قاله شاربونيو، وعلى الأخص كلمة سيارة الإسعاف، واسم بومرليو. سمعت أصوات الأبواب وهي تُفتح على مصاريعها أثناء اندفاع رايان والرجال الآخرين إلى داخل المنزل.

حاولت أن أهرب من الحاضر، فحاولت أن أركّز تفكيري على الأشياء التي يتوجب عليّ إنجازها في المستقبل. ركّزت على أشياء مثل إعادة تقييم القوائم التي حصلت عليها من شرطة مونتريال، وكذلك إعادة تقديم مواصفات الهياكل العظمية، لكن مع إبقاء تقديرات العمر مفتوحة. يتعيّن عليّ أيضاً أن أحصل على نماذج من الحمض النووي العائد لعائلة آنجي روبنسون.

لم يُجْدِني ذلك نفعاً. لم أستطع التفكير في شيء، وكان انتباهي يعود ليحوّم عبر الغرفة. تنقّلت عيناي ما بين اليدين، والرجلين الممدوتين، والمسدس. تفحّصت الوجه. تأمّلت تغضنات وجه مينارد التي ظهرت مثل كلى داكنة صغيرة فوق جلده الشاحب. شاهدت عينيه المفتوحتين الناظرتين إلى الفراغ. لم أجد دهشة فيهما، ولا مظاهر الخوف. امتلأتا فقط بنظرة الموت الفارغة.

تحوّل عقلي إلى ساحة قتال. ارتحت إلى واقع أن مينارد لن يكون قادراً بعد اليوم على إيذاء أي شخص. شعرت بالغضب نتيجة هربه السهل هذا، وشعرت بعد ذلك بالرثاء لحياة تغيّرت بغرابة. وشعرت أخيراً بالقلق على آنيغ بومرليو. قلقت كثيراً لأننا لم نمتلك الأجوبة على الألغاز التي بين أيدينا. لم يكن هذا الرجل مينارد. من هو إذاً؟ وأين هو مينارد؟

شعرت بأصابع تمسّد شعري، فنظرت إلى الأعلى.

- "هل أنتِ بخير؟"

أومــأتُ، ووجــدت نفسي متأثرة جداً بالرقة التي ظهرت من ملامح رايان: "هل وجدتم بومرليو؟"

جــاء صوت رايان ثقيلاً مثل غطاء تابوت: "المنزل خالٍ. توجد أشياء هنا لعلك تودّين رؤيتها".

تبعــته أثــناء اجتيازنا لرواق يؤدي إلى غرفة خلفية، ثم نزلنا عبر درج ضيق يــؤدي إلــى قــبو ضعيف الإضاءة. رأيت الجدران الحجرية التي تخلو من النوافذ، والأرضــية الإســمنتية، بيــنما حمل الهواء الرطب رائحة التراب، والغبار، والعفونة الجافــة. اســتطعت أن أرى من حولي الخردة المعتادة التي تتواجد في الأقبية عادة. رأيت حوض غسيل معدني، وبعضَ أدوات الحدائق، وكدسة من صناديق الكرتون، ثم ماكينة خياطة سنجر.

سمعت أصواتاً، ثم سمعت إلى يميني شتيمة مكبوتة. قادني رايان إلى غرفة ثانية بعــد أن مــررنا من خلال باب مفتوح. لاحظت أن هذه الغرفة تشبه القبو الخارجي، لكــنها أصــغر منها، وأنها مضاءة بشكل جيد. لاحظت أيضاً أن جدران هذه الغرفة وسقفها مكسوة بألواح البولي يوريثاين.

شاهدت كلوديل وشاربونيو واقفين إلى جانب لوحة خشبية يُحتمل أنها استُخدمت فــي الماضــي لــتكون طاولــة عمل. وضع الرجلان قفازات جراحية مصنوعة من اللاتكس. التفت شاربونيو عندما سمعنا ندخل إلى الغرفة. بدا وجهه خمري اللون.

غادر رايان هذه الغرفة كي يفتّش القبو مجدداً. أدار شاربونيو يده حول الغرفة: "أوجد ذلك المعتوه مكاناً مميزاً جداً بالفعل هنا، مثل العزل الكامل للصوت، بالإضافة إلى الأشياء الأخرى".

تتبّعــت عيناي القوس الذي رسمته حركة يد شاربونيو. تدلّت في إحدى الزوايا مجموعــتان مــن الأصفاد من حلقتين مثبتتين في السقف. شاهدت طاولة بسيطة قرب الجدار المجاور. مشيت نحوها، وأحسست بخدر بارد يسري في أعماقي.

بــدت الطاولــة متينة التركيب بألواحها الخشبية الرقيقة. لاحظت أن كلاّبات قد ثبتّــت فــي كل زاوية من زوايا هذه الطاولة، ورأيت طوقاً جلدياً مربوطاً بكل كلاّب، بالإضافة إلى أربع سلاسل ملتفة إلى جانب الأطواق الجلدية.

قلتُ: "أعتقد أن هذه الطاولة ليست قديمة العهد".

دمدم صوت شاربونيو ممتزجاً بالغضب: "طاولة! إنها رف من الرفوف اللعينة!"

مشـيت نحو طاولة العمل. نظر كلوديل نحوي، ثم التفت إلى يساره. ولاحظت مدى حرصه على إفراغ وجهه من أية تعابير. وصل الخدر إلى أعماق أعماقي.

رأيـت سوطاً، وحبلاً مجدولاً، ومقبض لجام، ومجداف جلدي، ثم رأيت أنشوطة متعددة العقد في وسطها.

رأيـت وريداً ينبض في جبهة شاربونيو، واستطعت أن ألمح الغضب الشديد في عينيه: "هذه هي كل الوسائل الضرورية ليظهر شخص ما لعبده من هو سيده".

جاء صوت كلوديل هادئاً: "هدئ من روعك يا ميشال".

– "كان هذا المجرم مبدعاً حقيقياً".

لمـس شـاربونيو شـكيمة حصان، ومعقصة شعر، وكمامة غير متقنة الصنع، وضعت كرة في منتصفها.

– "تفحّص المواد التي كان يطالعها".

تسبّب غضب شاربونيو الشديد بإفراطه في النشاط. تناول مجلةً، ثم رماها بعيداً. حملـت هـذه المجلة مواضيع إباحية، وتحدّثت مقالاتها عن العبودية. تناول شاربونيو شريط فيديو حمل عنوان قصة أو.

وضـع شاربونيو شريط الفيديو على الطاولة المخصصة للعمل. دخل رايان في تلك اللحظة، وبان التوتر في عضلات فكّيه نزولاً حتى أعلى صدره.

– "وجدتُ شيئاً".

تحرّكـنا جميعاً في وقت واحد وخرجنا من الباب. دخلنا القبو الخارجي، ومشينا حول فرن قديم، ثم دخلنا غرفة تشبه تلك التي خرجنا منها للتو. كانت الرفوف تغطّي ثلاثة جدران في الغرفة، وقد تدلّى مصباح كهربائي من سقفها لينيرها.

عـبر رايـان الغرفة حتى وصل إلى الجدار البعيد، فتبعناه. استطعت أن ألاحظ ألـواح البولي يورثاين المشابهة لتلك التي تغلف جدران الغرفة الأخرى. لاحظت أن جانباً من أحد هذه الألواح غير مثبت.

– "هذا الجدار ليس من الحجر، إنه من الخشب الرقائقي".

أدخـل رايان أطراف أصابعه عامودياً على طول لوح الخشب الرقائقي الموجود خلف الرفوف، والذي انتُزع جانبه قبل وقت قريب.

– "توجد ثغرة هنا".

خلـــع كلوديل أحد قفازيه وقلّد حركة رايان، ثم أومأ. أشار رايان إلى الباب الذي دخلنا منه: "لنتحقّق من المصابيح الكهربائية".

التفتنا جميعاً. بدا أحد أغطية المفاتيح الكهربائية جديداً ولامعاً، بينما ظهر الغطاء الآخر قذراً ومتشققاً.

– "يضيء المفتاح الأقدم مصباح السقف".

أبقى بقية الكلمات لنفسه.

انـــتزع كلوديـــل قفـــازه الآخـــر في يده، ثم شرع مع رايان بنزع ألواح البولي يوريثاين.

أســـرع شاربونيو بالخروج إلى القبو الخارجي. سمعت أصوات الجلبة وانتزاع الألواح، ثم عاد شاربونيو حاملاً مخلاً صدئاً.

استطاع رايان وكلوديل انتزاع صف من الألواح. تمكّنت من خلال هذه المساحة أن أرى فتحةً ومفصّلتين، لكنني لم ألمح ضوءاً من خلالها.

قدّر الرجلان عرض الباب، وهاجما الجهة الأخرى من الرفوف حيث يلتقي لوحا بولـــي يوريثايـــن. أســـفرت جهودهمـــا عن كشف شق ضيق آخر بين ألواح الخشب الرقيقة.

تقدّم شاربونيو إلى الأمام: "دعوني أقوم بالعمل".

تنحّى رايان وكلوديل جانباً.

أدخل شاربونيو طرف المخل في الثغرة، ثم حرّكه". تحرّك جزء من الجدار إلى الأمام.

أدخل شاربونيو المخل ثانية، ولمسافة أكبر هذه المرة، ثم حرّكه.

تحرّر فجأة الخشب الرقيق، والقطن، والرفوف.

أمسك شاربونيو رفاً من الرفوف وجذبه بقوة. تراجع الجدار المستعار فانكشفت ثغـــرة يـــبلغ طولهـــا خمسة أقدام وعرضها قدمين. وصل ضوء المصباح الكهربائي المتدلـــي من السقف لمسافة اثنتي عشرة بوصة، بينما ظلت المساحة الباقية من الغرفة مظلمة وسوداء مثل لون الزفت.

اندفعت نحو الباب وضغطت على مفتاح كهربائي، ثم استدرت. ضغطتْ أسناني على شفتي السفلى بشدة، وأحسست بانكماش في حنجرتي.

الفصل 32

بدأت هذه الغرفة حياتها كمخزن للفواكه، أو مستودع. يقارب عرضها الثماني أقدام، أما طولها فيصل إلى عشر أقدام. تتميّز هذه الغرفة بأنها معزولة تماماً عن الأصوات، مثلما هو حال مركز مينارد الصغير للتسلية. وتنبعث منها رائحة الرطوبة والتراب الممزوج بالمواد الكيميائية وشيء من المواد العضوية.

بدا الأثاث مزرياً. هناك مصباح قديم موصول بسلك غير معزول، ومرحاض نقّال من تلك المراحيض التي تُستخدم في التخييم. ظهرت أيضاً منصةً خشبية غير متقنة الصنع، بالإضافة إلى غطائين ممزقين.

جلست امرأتان على المنصة الخشبية وأحنتا رأسيهما، بينما أُلصقتا ظهريهما بألواح البولي يوريثاين. وقد وُضع في رقبتيهما طوقان جلديان شديدا الإحكام، ولا شيء آخر. بدت بشرة المرأتين بيضاء إلى حد يسبّب المرارة، كما ظهرت الظلال التي تحدّد أضلاعهما وفقرات عظامهما الداكنة، والمتموجة. تدلّت جديلة شعر طويلة من خلف رقبة كل منهما.

أطلق شاربونيو شتيمة مليئة بكامل محتويات معجم من الغضب والكراهية.

ارتفع رأس امرأة بينهما. ارتسمت إمارات الإنهاك على ذلك الوجه، وبرزت العينان اللتان تشبهان عيني مخلوق وحشي أجفل وسط الظلام. إنها آنيغ بومرليو. بقيت زميلتها ساكنة ومحنية الرأس، بينما لامست ذراعاها، اللتان تكاد العظام تبرز منهما، ركبتيها الهزيلتين.

استدار كلوديل وأسرع مختفياً في القبو الخارجي. سمعت أصوات الأحذية الثقيلة أثناء عبورها الأرض الإسمنتية قبل إسراعها بالنزول على الدرج.

قلت بألطف نبرة أقدر عليها: "كل شيء على ما يرام يا آنيغ".

أغمضت بومرليو عينيها بسبب المفاجأة، أما المرأة الأخرى فاحتضنت ساقيها بشدة أكبر، وشدّتهما نحو صدرها.

- "إننا هنا لمساعدتكما".

تنقلت نظرة بومرليو ما بين رايان وشاربونيو. أشّرت للرجلين بالتراجع، وتقدّمت وحدي إلى الغرفة.

- "إنهما من رجال التحري".

راقبتني بومرليو وبدت عيناها مثل بركتين سوداوين واسعتين.

- "انتهى الأمر الآن يا آنيغ. انتهى الأمر".

تحرّكت ببطء ومشيت نحو المنصة الخشبية، ثم وضعت يدي على كتف بومرليو. أجفلت المرأة عندما لمستها.

- "إنه عاجز عن إيذاءك بعد الآن يا آنيغ".

جاء صوت بومرليو منخفضاً وخالياً من الحيوية: "اسمي كيو".

خلعت سترتي ووضعتها على كتفَي بومرليو. لم تحاول المرأة أن تثبت السترة في مكانها. بدا أن بومرليو تنطق بالفرنسية، لكنها قالت بلغة إنكليزية مشدّدة المقاطع: "أنا كيو، أما هي فتدعى دي".

خلع رايان سترته وناولني إياها. تقدّمت بحذر باتجاه دي، ولمست شعرها بلطف. تقوقعت المرأة أكثر على نفسها وشدّت قبضتَي يديها.

غطيت تلك المرأة بسترة رايان، ثم قرفصت لأصبح على مستواها. قلت بالفرنسية: "لقد مات، ولن يستطيع إيذاءك بعد الآن".

أدارت المرأة رأسها من جهة إلى أخرى كي تتجنّب رؤية وجهي وسماع صوتي. لم أضغط عليها أكثر، لأنني أدركت أنه سيتوفّر لي الوقت الكافي للتحدث معها في ما بعد.

قلت بصوت أجش: "سأبقى معكِ ولن أتركك".

مسّدتُ قدمها، ثم نهضتُ وتراجعت.

بقي شاربونيو في الغرفة بينما تراجعتُ إلى القبو الخارجي، وتبعني رايان. لم أستطع الوثوق بعواطفي التي تخونني في بعض الأحيان. إنها الحقيقة! شعرت أن عقلي مشلول نتيجة الصدمة والألم اللذين عانت منهما هاتان المرأتان. شعرت بتوتر شديد في أحشائي بسبب كراهيتي لذلك الوحش الذي تسبّب بكل هذه الآلام لهاتين المرأتين.

سألني رايان: "هل أنت بخير؟"

خفت من شرٍ قادم، وشعرت أنني منهارة. شرعت بقول كذبةٍ بأهدأ صوت أقدر

عليه: "نعم".

كتّفــت ذراعـــيّ كي أستطيع إخفاء الارتجاف الذي اجتاح صدري، وانتظرت. ســمعت مــن البعــيد، وبعــد مــدة بدت دهراً، أصوات صفارات سيارات الشرطة والإســعاف، وهي تكسر الصمت المخيّم. وما لبثت أن فرضت أصواتها المدوية على المكــان. ســمعت أصوات الأحذية الثقيلة في الطابق العلوي قبل نزول الرجال على الدرج.

ارتعبــت بومرلــيو عــندما شــاهدت رجال الإسعاف. قفزت قفزاً مندفعة نحو المرحاض. حشرت نفسها في الزاوية، وأبقت ذراعيها ممدودتين أمامها. لم تفلح جهود رجــال الإســعاف، ولا جهودي أنا، في تهدئتها. ازدادت مقاومتها لنا مع بذلنا لجهود أكبر لطمأنتها. اضطررنا في النهاية لاستخدام القوة.

بقيــت المــرأة الأخرى على وضعها الجنيني، حتى عندما وُضعت في الحمالة، وغُطّيت، قبل إخراجها من الغرفة.

رافقت سيارة الإسعاف مع رايان حتى وصولها إلى مستشفى مونتريال العام، أما كلوديل وشاربونيو فقد بقيا لاستقبال لامانش وعربة المحقق الجنائي، وكذلك للإشراف علــى تقنيــي التحقيقات القضائية أثناء عملهم في المنزل. أشعل رايان سيجارة أثناء قيادته السيارة، بينما انشغلت بمشاهدة مناظر المدينة التي تمرّ أمامي من خلال زجاج نافذة السيارة.

فــي صـــالة الانتظار في قسم الطوارئ، راح رايان يذرع المكان جيئة وذهاباً، بيــنما اكتفيــت أنـــا بالجلوس. انتشرت حولنا أصوات السعال الناتجة عن الالتهابات الشعبية، والعويل الناتج عن المغص، ونحيب المنهكين، بالإضافة إلى الأحاديث القلقة. انصرف الدكتور فيل إلى توبيخ زوجين بقيا من دون ممارسة الجنس لسنوات طويلة.

كـــان رايـــان يجلـــس بقربي بين حين وآخر، فنتبادل أثناء ذلك بعض التعليقات الهامسة.

- "هاتان المرأتان لا تعرفان شيئاً حتى اسميهما".
- "قد تكونان خائفتين من استخدامهما".
- "يبدو أنهما جائعتين".
- "نعم".
- "تبدو دي بحالة أسوأ من الأخرى".

- "أعتقد أنها الأصغر سناً".
- "لم أرَ وجهها على الإطلاق".
- "يا للسافل!"
- "إنه سافل حقاً".

بدأ جهاز هاتف رايان بالاهتزاز بعد مرور ساعة على وجودنا في المستشفى. هبّ رايان خارجاً من الغرفة، لكنه عاد بعد دقائق قليلة.

- "كان كلوديل هو المتصل. قال إن ذلك السافل قد صوّر أشرطة فيديو بيتية".

أومأتُ وأنا في حالة من تبلّد الإحساس.

- "عليّ أن أتّصل بشاربونيو عندما نغادر هذا المكان".

دخلتْ من خلال الأبواب المنزلقة امرأةٌ ذات شعر أجعد، وذلك بعد مرور عشرين دقيقة، وتوجّهت إلى قسم الطوارئ. ارتدت هذه المرأة معطف مختبرٍ أبيض اللون، وحملت بيديها لوحتَي كتابة، بالإضافة إلى أحد الأكياس البلاستيكية التي تُستخدم لحفظ ممتلكات المرضى.

هبّت امرأة بدينة سوداء، ذات ثديين ضخمين، تحمل طفلاً حديث الولادة وهو يبكي بين يديها، واقفةً على قدميها عند دخول الطبيبة. أشارت الطبيبة لتلك الأم بالرجوع إلى مقعدها بعد أن تطلّعت بالرضيع، ثم تلفّظت بكلمات قليلة. حملت المرأة طفلها على كتفها، راحت تربّت على ظهره.

أشارت لنا الطبيبة بالدخول وسط مظاهر المعاناة البشرية. تبعتنا عشرات العيون، وبدا بعضها مرتعباً، فيما كان بعضها الآخر غاضباً، لكنها كانت كلها مليئة بالتوتر.

واجهت الطبيبة عائقاً جديداً تمثّل هذه المرة برجل قوي البنية، يده ملفوفة بمنشفة. طمأنت الطبيبة الرجل كما فعلت مع المرأة سابقاً.

نهضتُ، وكذلك فعل رايان. بدت الطبيبة متعبة، وبدت عيناها محتقنتين بالدم: "أنا الطبيبة فيلدمان، وأنا أعالج المرأتين اللتين أُدخلتا قبل وقت قصير".

أجرى رايان التعريفات المناسبة.

- "الأكبر سناً..."

قاطعتها: "تدعى آنيغ بومرليو".

كتبت الطبيبة فيلدمان ملاحظة في أعلى سجلها، وقالت: "تعاني الآنسة بومرليو

من جروحٍ بسيطة، وهي تبدو بحالٍ جيدة عدا ذلك. تبدو رئتاها بحالة جيدة، أما صور الأشـــعة السينية العائدة لها فهي طبيعية. إنني أنتظر فقط نتائج فحوصات الدم. أعتزم أن أخضعها للاختبارات المسحية عندما يأتي دورها، وذلك للمزيد من الاطمئنان".

سألت: "هل بدأت بالكلام؟"

قالت باقتضاب: "لا. يتعيّن عليّ فحص المئات الذين ينتظرون في الخارج".

سأل رايان: "هل وجدت عندها علامات على اعتداءات جنسية؟"

- "لا، لكن الحال غير ذلك عند الفتاة الأصغر".

قلت متدخلةً: "الفتاة الأصغر؟"

وضـــعت فـــيلدمان الورقة التي كانت في الأسفل فوق ورقة بومرليو: "هل لديك اسماً لها؟"

اكتفيـــت أنا ورايان بهزّ رأسينا، فعادت تقول: "أستطيع القول إن الصغرى تبلغ الخامســـة عشـــرة، أو السادسة عشرة، من عمرها. يُحتمل أن أكون قد قلّلت في تقدير عمـــرها مـــع أنهـــا نحيلة. استخدم أحدهم هذه الفتاة لتكون كيس تمرين للملاكمة لمدة طويلة جداً".

شـــعرت بالحرارة الشديدة تجتاح دماغي، فيما قلّبت فيلدمان الورقة، وبدأت تقرأ من ملاحظاتها: "هناك جروح قديمة وجديدة. تعاني الفتاة من كسور لم تشف تماماً في عظـــام زندها الأيسر، بالإضافة إلى كسور في عدة أضلاع. توجد ندوب حول أماكنها الحساسة، وحروقٍ في ثدييها وأطرافها، نتجت عن نوعٍ من..."

حاولت الحفاظ على الهدوء في صوتي، وعلى الاتزان في وجهي عندما قاطعتها: "مكواة للتجعيد؟"

أعادت الدكتورة الصفحات إلى مكانها في اللوحة: "هذا ممكن".

سألت: "هل حالتها الذهنية سليمة؟"

نقّلت الطبيبة نظرها ما بين رايان وبيني وأجابت: "إنها تعاني نوعاً من الانفصام في الشخصية، كما أنها ليست سريعة الاستجابة. تعلمون أنني لست طبيبة نفسية، لكن هذه الفتاة ليست في حالة ذهنية سليمة مطلقاً".

سأل رايان: "أين هما الآن؟"

- "إنهما في الطريق إلى الطابق العلوي".

ظهـــر ممـــرض مـــن خلال الأبواب المنزلقة. لوّح الرجل بجدولٍ ما إن شاهد

الطبيبة فيلدمان، فلوّحت باتجاهه بدورها.

سأل رايان: "متى يصبح بإمكاننا التحدث معهما؟"

رفع الممرض يديه الاثنتين، فأشارت له كي ينتظر: "لست متأكّدة بعد. ماذا بشأن إجــراءات الأمن؟ أيُحتمل أن يأتي والد مهووس، أو زوج سابق، ليقتحم المكان مطالباً باستعادة ممتلكاته؟"

- "أقدم المهووس في قضيتنا هذه على تفجير رأسه".

- "يا للأسف".

أعطيــت بطاقتــي لفــيلدمان، وكذلك فعل رايان. وضعت الطبيبة البطاقتين في جيبها، ثم رفعت الكيس وقالت: "سأتّصل بكما. إليكما أغراضهما".

استطعت أن ألاحظ قطعتين معدنيتين تبرزان من خلال كيس البلاستيك.

التقيــت أنا ورايان بشاربونيو في محلٍ يبيع الأطعمة المعلّبة يدعى شوارتز، يقع فــي جــادة ســان لوران. شعرت أنني فاقدة الشهية، لكن رايان أصرّ على أن تناولنا للطعام سيشحذ أذهاننا.

قدّمــنا ثلاث طلبات متماثلة هي عبارة عن شطائر اللحم المدخّن، ولحمٍ يحتوي علــى القلــيل من الدهن، وكذلك بعض المخللات، والمقالي، وصودا الكرز من نوع كوت. تبادلنا آخر المعلومات المستجدة أثناء تناولنا الطعام.

- "رفع الدكتور لامانش البصمات من جثة الرجل الذي نعرف أنه ليس مينارد. تبيّــن أنهــا نفس البصمات التي رُفعت من فتّاحة الرسائل. ويقوم لوك الآن بالاتصال ببلاد الفواكه والمكسرات".

سأل رايان: "منذ متى أرسلت البصمات إلى النظام المعلوماتي في كاليفورنيا؟"

تــناول شــاربونيو قضمةً من شطيرته، ثم مسح بعض الخردل من زاوية فمه: "أرســلَت يــوم الجمعة الفائت، وإذا أصبنا شيئاً من النتائج التي ستظهر في كاليفورنيا فسوف يقوم لوك ببثّ البصمات في كامل أنحاء كندا، وبقية أنحاء الولايات المتحدة".

أبلــغ رايان شاربونيو بما اكتشفته فيلدمان. تناول شاربونيو قطعة من المخللات وقــال: "أعــتقد أن هذا الرجل كان سادياً معتوهاً، لقد التقط هذا الرجل صوراً لأوقاته المرحة لإبقاء الإثارة في مخيلته".

انتهى شاربونيو من تناول قطعة المخلّل، ثم رفع رأسه وشرب الصودا الباقية في الكــوب: "تبدو اللقطات في دفاتره نوعاً من نماذج أخذت من مجموعة صورٍ إباحية.

حاول ذلك السافل المريض أن يجدّد حياته وينعشها عن طريق فنّه".

لاحظت أن صوتي جاء غريباً عني حين قلت: "هل وجدتم صوراً عائدة للفتاة دي؟"

أومأ بشدة: "لقطة مباشرة وجيدة واحدة للوجه. عمّم لوك هذه الصورة في كندا، وكذلك فعل وراء الحدود الجنوبية".

سأل رايان: "أين وجدتم شرائط الفيديو المنزلي؟"

- "وجدناها مع الأشرطة الإباحية".

- "هل هي معك الآن؟"

أومأ شاربونيو.

- "هل هي في مكتبك أم في مكتبنا؟"

لفّ شاربونيو منديله الورقي وقذفه نحو صحنه: "تعطّل جهاز الفيديو العائد لوحدتنا مرة ثانيةً".

قلت: "يوجد جهاز فيديو في غرفة الاجتماعات عندنا".

تناول رايان الفاتورة: "هيا بنا".

أرجع شاربونيو كرسيّه إلى الخلف: "هيا لنمرح قليلاً".

بقيت شطيرتي فوق صحني دون أن تمسّ.

اكتشفت أن الأمر أسوأ مما تخيّلت. شاهدت فتيات معلقات من أذرعهن. رُبطت الفتيات بالكامل ابتداءً من معاصمهن حتى كواحلهن. رأيتهن في وضع النسر الذي يفرد جناحيه، ولاحظت أنهن مستسلمات، بينما بقيت رؤوسهن مغطاة على الدوام.

شاهدنا بصمت، أنا ورايان وشاربونيو. سمعنا شاربونيو يتنحنح ويحرّك قدميه، ويغيّر من أوضاع يديه بين حينٍ وآخر. كان رايان يهمّ بإشعال سيجارة بين حين وآخر، ثم يتذكّر أنه من غير المسموح له بالتدخين، فكان يكتفي بالطرق على الطاولة.

ظهر اهتزاز في بعض أجزاء الأشرطة، وكأنها التقطت بكاميرا محمولة باليد، بينما كانت لقطات أخرى ثابتة، ولعلها التقطت من كاميرا مثبتة على حامل خشبي ثلاثي القوائم، أو من موقع ثابت آخر.

أعطيت الأشرطة أرقاماً من الواحد حتى الستة. دخل كلوديل عندما كدنا ننتهي من مشاهدة معظم الفيلم الأول، فالتفتت ثلاثة رؤوس نحوه.

بدا وجه كلوديل وكأنه مطلي بالكلس: "تاوني ماك جي".

ضغطت على زر الإيقاف المؤقت في الجهاز، وسألت: "أتعني دي؟"

لمحت إيماءة مقتضبة منه: "أبلغ والداها أنها فُقدت في العام تسعة وتسعين".

سأل رايان: "أين؟"

- "مانيواكي".

دفـــع كلوديـــل بورقة فاكس على الطاولة. نظر شاربونيو إليها لبعض الوقت ثم ناولها لرايان، الذي ناولني إياها بدوره.

شـــعرت بوخـــز في رأسي. نظرت إلى وجه طفلة مستديرة الخدين، ذات شعرٍ ملفوفٍ على شكل جدائل، وعينين متلهفتين، وفضوليتين، كأنهما تبحثان دوماً عن شيء ما.

آه! لكانت أمي تسمِّي مثل هذه الطفلة شخصاً فذّاً، مثلما سمّتني أنا، ومثلما سميّتُ أنا كاتي.

تفحّصـــت المواصفات. اختفت تاوني ماك جي عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها. بلعت ريقي وقلت: "هل أنت متأكّد من أنها دي"؟"

دفـــع كلوديـــل ورقة فاكس ثانية عبر الطاولة. تناولتها، فوجدت عليها الاستعلام الـــذي وزّعه. رأيت صورة وجه هو نسخة من تلك التي رأيتها لتوي. بدت لفتاة أكبر سناً، وأنحف، مع تعابير توحي بفقدان الأمل.

لا.. هـــذا الوصف ليس صحيحاً. لم يحمل وجه تاوني ماك جي أي تعبير على الإطـــلاق. بدا صوتي ممتزجاً بغضبٍ شديد عندما سألته: "هل حصلتم على معلومات بشأن ذلك السافل الذي عذّبها؟"

- "إنني أعمل بهذا الشأن".

- "هل اتّصلت بعائلة ماك جي؟"

- "يهتمّ مركز شرطة مانيواكي بهذا الأمر".

تصـــاعدت طبقتـــي الصـــوتية مـــع كل سؤال أطرحه: "أين ستيفن مينارد بحق الجحيم؟ هل مينارد متورط بهذا؟ هل يُحتمل أن يكون مينارد وهذا الرجل قد شكّلا معاً فريقاً للمصارعة؟ هل وجد فريق التحقيقات القضائية بصمات أخرى في المنزل؟"

مـــال كلوديل برأسه إلى الخلف، وأرسل نظرة على مستوى أنفه. هبّ شاربونيو واقفاً: "أنا سأتابع قضية مينارد".

ضغطت على زر تشغيل جهاز الفيديو عند انصرافهما، وجهدت للمحافظة على اتزاني. مرّت عشرون دقيقة على بداية مشاهدتنا للشريط الثاني، ثم رنّ جهاز الهاتف. قال عامل الهاتف إن الطبيبة فيلدمان تريد التحدث معنا. تلفّظت بالاسم لرايان أثناء انتظاري بدء المكالمة.

- "دكتورة برينان".

- "بيني فيلدمان من مستشفى مونتريال العام".

- "كيف حالهما؟"

- "استيقظت الفتاة بحالة هستيرية. لم تسمح لأي شخص بلمسها، وهي تقول إن شخصاً ما يعتزم قتلها".

- "هل تتكلم الإنكليزية أم الفرنسية؟"

- "تكلمت بالإنكليزية، وظلّت تسأل عن المرأة التي كانت في المنزل".

- "هل سألت عن آنيغ بومرليو؟"

- "لا. إن بومرليو موجودة على السرير المجاور. أعتقد أنها تسأل عنكِ. إنها تسأل أحياناً عن المرأة التي ترافق رجل شرطة. وتسأل في أحيان أخرى عن المرأة التي ترتدي سترة. لا أحب أن أخدّرها قبل أن يراها طبيب نفسي..."

- "أنا آتية على الفور".

- "سأنتظر قبل إجراء التخدير".

- "عرفنا اسمها على أية حال. تدعى تاوني ماك جي، ويعرف والداها بأمر العثور عليها".

أثناء ذهابنا استخدم رايان الإشارات الضوئية وصفارة الإنذار. وصلنا إلى المستشفى في غضون اثنتي عشرة دقيقة. وجدنا الطبيبة فيلدمان في قسم الطوارئ. صعدنا معاً إلى الطابق الرابع. ألقيت نظرة على الغرفة من خلال بابها المفتوح قبل دخولها. بدا لي أن ضحايا مينارد قد تبادلتا الأدوار.

استلقت آنيغ بومرليو على سريرها، فيما جلست تاوني ماك جي منتصبة الظهر. بدا وجهها متورداً ورطباً، ونظراتها غير مستقرة. فتحت تاوني أصابعها وأطبقتها على الغطاء المحشور تحت ذقنها. دخلت إلى الغرفة بينما ظل رايان وفيلدمان ينتظران في القاعة.

- "صباح الخير آنيغ".

أدارت بومرليو وجهها، وبدت نظراتها فاترة بينما ماتت كل مشاعرها فأصبحت مثل قطعة خشبية متحجرة. أحنت ماك جي رأسها. انحسر رداؤها عنها، فانكشف كتفها الذي يخلو من العضلات تقريباً.

- "كل شيء على ما يرام يا تاوني. ستتحسّن الأمور قريباً".

اقتربت من سريرها، فرفعت ماك جي رأسها إلى الخلف. برزت الغضاريف مثل الأشواك من حنجرتها البيضاء اللون بشكل مرعب.

- "ستكونين بخير".

فتحت ماك جي فمها الذي انطلقت تنهيدة منه، فتحرّكت تلك الأشواك بطريقة غريبة. تقدّمت لأعيد وضع ردائها على كتفها: "أنا هنا".

انحنى رأس ماك جي على نحو سريع، وتمسّكت أصابعها بالغطاء بشدة أكبر. لاحظت أن أظافرها قد امتلأت بذرات التراب.

- "لا يستطيع أحد أن يؤذيك الآن".

التفت الرأس، الذي يشبه رأس لعبة مكسورة، نحو بومرليو. اكتفت بومرليو بمراقبتنا بعينين غير مكترثتين كالزجاج. عادت ماك جي للنظر باتجاهي، وأبعدت الغطاء عنها، ثم بدأت بتمزيق أنبوب المصل الملصق في يديها.

- "يجب أن أخرج من هنا!"

وضعت يديّ فوق يديها: "أنتِ بأمان هنا".

جمُدت ماك جي في مكانها، فقلت محاولةً تهدئتها: "سيساعدك الأطباء".

- "لا! لا!"

- "ستكونين أنت وآنيغ بخير".

- "خذيني معك!"

- "لا أستطيع أن أفعل ذلك يا تاوني.

حررّت ماك جي يدها ثم تمسّكت بالشريط محاولةً انتزاعه. غدت أنفاسها متقطّعة، وانهمرت الدموع على خدّيها.

أمسكت بمعصميها، فحاولتْ أن تفلت من يديّ وقاومتني. لاحظت يأسها الممتزج مع قوتها التي فاجأتني كثيراً. سرعان ما هرعت فيلدمان إلى الغرفة، وتبعتها ممرضة. أمسكت ماك جي بذراعي، وتوسّلت إليّ بعينين واسعتين: "خذيني معك! خذيني معك!"

أومأت فيلدمان، فأعطتها الممرضة حقنةً.

- "أرجوك! أرجوك! خذيني معك!"

رفعــت فــيلدمان أصــابع مــاك جي عن ذراعي بلطف وأبعدتني عن السرير. تراجعت وأنا أرتجف. ماذا أستطيع أن أفعل؟

شــعرت بالعجــز وعــدم القدرة على فعل أي شيء نافع لها. تناولت بطاقة من حقيبتــي الصــغيرة، ودوّنــت رقم هاتفي الخليوي، ثم وضعت البطاقة على الطاولة المجاورة للسرير.

وقفــت عــدة لحظات في الرواق. أحسست بتوتر في فكيّ ويديّ، وأصغيت إلى توسلات ماك جي أثناء استسلامها لمفعول المخدر.

تمنّيــت في ما بعد، وعندما كنت أتذكّر تلك اللحظة، تمنّيت من الله لو أنني لبّيت طلب تاوني. تمنّيت من الله لو أنني أصغيت وفهمت ما تقوله تلك الفتاة.

الفصل 33

عانيت من ليلة أرقٍ أخرى، استيقظت فيها مرة بعد مرة، وكنت في كل مرة أحاول أن أتذكّر بصعوبة ما بقي من أحلامي.

رنّ جرس المنبه. تأوّهت ونظرت بعينين نصف مغمضتين نحو أرقام الساعة التي أشارت إلى الخامسة والربع. لماذا ضبطت المنبّه على الساعة الخامسة والربع؟

ضغطت على الزر براحة يدي، لكن الموسيقى استمرّت. بدأت أسترجع وعيي ببطء.

إنني لم أضبط المنبّه. وما سمعته لم يكن صوت المنبّه.

ألقيت اللحاف بعيداً عني، وهرعت لأتناول حقيبة يدي. راحت يدي تبحث فيها: تفحّصت نظارتي الشمسيّتين، ومحفظتي الصغيرة، ومساحيق التجميل، ودفتر شيكاتي، ومفكرتي.

- "اللعنة!"

شعرت بالإحباط، فقلبت محتوياتها على السرير وأمسكت هاتفي الخليوي من كومة الأغراض.

توقّفت الموسيقى. أعلمتني الشاشة الرقمية أنني لم أرد على مكالمة واحدة. من هو الشخص الذي يتّصل بي عند الساعة الخامسة صباحاً؟ هل هي كاتي؟

تسارعت نبضات قلبي. ضغطت على زر لائحة الأرقام، فظهر رقم هاتف آن الخليوي. يا إلهي!

ضغطت زر الخيارات، ثم زر أرسِل.

- "إننا آسفون. إن الطرف الذي تتّصلون به لا يستطيع..."

إنها نفس الرسالة التي أتلقّاها منذ يوم الجمعة. ضغطتُ على زر الإيقاف ورجعت إلى اللوحة الرئيسية. ظهر تاريخ اليوم، وأشارت أرقام الساعة إلى 5:14:44 صباحاً.

أتـت المكالمة من هاتف آن الخليوي، لكن هاتفها لم يكن في حالة تشغيل. ماذا يعنـي كـل هذا؟ هل اتّصلت آن بي، ثم أقفلت هاتفها؟ هل فرغت بطارية هاتفها؟ هل ابتعدت آن عن مجال الاتصالات؟

تنقّلت مجدداً بين الخيارات، ثم اخترت أرسل رسالة، طبعت كلمتي اتّصلي بي، ونقـرت على زر أرسِل. نقرت رقماً آخر. أجابني طوم بعد الدقة الرابعة، لكن صوته بـدا مـترنحاً. قال لي إن آن ليست في المنزل، وإنه لم يسمع أي شيء منها، وكذلك الحال مع الأصدقاء الذين اتّصلَ بهم.

رميت الهاتف على وسادتي. اعتدت ليلاً أن أضع الهاتف على الطاولة الموجودة قـرب سـريري، لكـن الـتوتر الذي عانيت منه نتيجة الأحداث تسبّب في كسر هذا الروتين. لقد تركت ذلك الجهاز اللعين في محفظتي. إن غلطة واحدة تجعلك تدفع ثمنها غالياً.

اسـتبعدت العـودة للنوم من حساباتي. استحممت، وأطعمت بيردي، ثم غادرت باتجاه المختبر.

دخل رايان إلى مكتبي بعد الثامنة بقليل.

- "فاز كلوديل في مراهنته".

نظرت إلى الأعلى، فتابع يقول: "تبيّن أن البصمات التي أُخذت من ستيفن مينارد المزيف تعود لشخصٍ تافه يدعى نيل ويسلي كاتس".

- "ومن يكون هذا الشخص؟"

- "إنـه متشرد ومجرم. صدم هذا الرجل شخصاً متجولاً ذات يوم، وهذا يفسّر وجود بصماته في النظام. أرسل لنا مركز كاليفورنيا سجله هذا بالفاكس".

- "هل يتابع كلوديل الموضوع؟"

- "إنه مصمم على معرفة كل مرحاض لمسه هذا المتسكع".

أشـرت بقلم الرصاص إلى لائحة الأشخاص المفقودين التي أعدها كلوديل: "ألقِ نظرة على هذه".

استدار رايان إلى ذلك الجانب من الطاولة القريب مني.

- "أشّرت على الأسماء المحتملة".

تفحّص رايان الأسماء التي دقّقت بها. شكّلت هذه الأسماء معظم القائمة.

- "استبعدت من هنّ من غير البيض".

- "واستبعدت المتقدّمات في السن، أو الطويلات جداً، عند اختطافهن".

نظر إليّ رايان.

وجّهت يدي نحو الهياكل العظمية الموجودة في مختبري: "أعرف. لا أستطيع تحديد مجال المجموعة كثيراً من دون تحديد الحدود الدنيا للعمر والطول. يُحتمل أن تكون الفتيات قد أمضين سنوات في الأسر قبل وفاتهن".

حدث هذا مع آنجيلا روبنسون، وآنيغ بومرليو، وتاوني ماك جي.

- "استخرجت عيّنات من "آنجي روبنسون" لإجراء اختبار الحمض النووي عليها".

- "هل هي الفتاة الملفوفة في الكفن الجلدي؟"

أومأت قائلة: "أنا متأكّدة أنها هي ذاتها".

- "أعتقد أنك مصيبة في هذا".

- "يحاول مكتب المحقق الجنائي الاتصال بعائلة روبنسون. سنحتاج إلى أحد أقاربها من جهة أمها لإجراء مقارنات الميتوكوندريا".

استرخيت في مقعدي قبل أن أقول: "اتّصلت آن بي هذا الصباح".

انفرجت ملامح رايان عن ابتسامة واسعة: "عظيم!"

- "لا. ليس الأمر كذلك".

تلاشت ابتسامته عندما شرحت له ما حدث.

- "اتّصلت بشركات سيارات الأجرة. إنهم يراجعون سجلاتهم ليتحقّقوا ما إذا كانت إحدى سياراتهم قد توجّهت إلى مكان سكنك يوم الجمعة. أتريدين أن أتّصل بوكالات تأجير السيارات أيضاً؟"

قلتُ: "أعتقد أن الوقت قد حان".

- "مرّت أربعة أيام فقط".

- "نعم".

تردّد رايان عندما بدأ يقول: "إذا... حدث لها أي شيء سنكون أول من يعرف".

- "نعم".

انطلق هاتف رايان الخليوي بالرنين. تفحّص الشاشة وعبس، ثم وجّه نحوي إحدى أكثر ابتساماته صبيانية.

- "آسف..."

- "أعرف. يتعيّن عليّ أن أتقبّل الأمر".

أسرع رايان بالخروج، وما لبث هاتف مكتبي أن انطلق بالرنين. أتى أمين المكتبة حاملاً معه صحفاً ومجلات تتعلّق بموضوع السادية الجنسية، ومتلازمة ستوكهولم التي كنت قد طلبتها منه.

وصل كلوديل وكنت قد بدأت بقراءة مقالة في مجلة العلوم الشرعية.

- "يدعى الرجل القتيل نيل ويسلي كاتس".

أشرت له بالجلوس على كرسي قبالة طاولتي، وقلت له بالفرنسية: "اجلس من فضلك".

زمّ كلوديل زاويتَي فمه وجلس.

- "ولد كاتس في ستوكتون، كاليفورنيا، في العام 1963. إنها نفس القصة المثيرة للشفقة، منزل متفسخ، ووالدة كحولية".

راح كلوديل يتكلّم بالإنكليزية. ماذا يعني ذلك يا ترى؟

- "ترك كاتس مدرسته الثانوية في العام تسعة وسبعين، والتحق بعصابة لصوص لمدة من الزمن. أمضى مدة من الزمن في سجن سوليداد بتهمة تتعلّق بالمخدرات".

- "هل التحق بوظائف معينة؟"

- "بقي مدة يقلّب شطائر اللحم المقلي، وعمل في حانة، كما عمل في مصنع لإطارات النوافذ. وأحمل لك نبأ ساراً ستحبينه. أحبّ ذلك المنحرف الصغير الاهتمام بالأشياء النادرة الممنوعة".

أصغيت من دون مقاطعة، فتابع كلوديل: "خضع كاتس لعدة مساءلات بتهم تلصّص".

- "لا يفاجئني هذا".

- "لم يجد رجال الشرطة ما يكفي من الدلائل لتجريمه".

- "إن التلصّص هو خطوة أولى معتادة بالنسبة للمتوحشين الجنسيين".

- "اتهمته خادمة مسنة بقتل كلبها. لم تجد الشرطة مجدداً أي برهان، ولذلك لم توجّه التهم إليه".

- "أين حدث هذا؟"

- "حدث ذلك في يوبا سيتي، في كاليفورنيا".

صدمني الاسم مثل طعنة في صدري.

- "تقع يوبا سيتي إلى الجنوب من طريق شيكو".

ارتسم شيء يشبه الابتسامة على شفتَي كلوديل: "ورد بلوف".

- "متى كان كاتس هناك؟"

- "تواجــد هــناك في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات. اختفى الرجل عن الأنظار في أواسط الثمانينيات".

- "ألا يُفترض به مراجعة الضابط المسؤول عن إطلاق سراحه المشروط، أو ما يشبه ذلك".

- "أصبح حراً بالنسبة للولاية في العام أربعة وثمانين".

غادر كلوديل ليبحث عن لامانش، أما أنا فعدت إلى قراءاتي. عرّج عليّ الرئيس أثناء جولتي الثانية على المواد التي أحضرها لي أمين المكتبة.

- "هل كان يوم أمس يوماً حافلاً يا تمبرانس؟"

- "كان أشبه بالكرنفال. هل تحدّثتَ مع كلوديل؟"

- "أعطيته لتوي معلومات أولية عن كاتس".

- "هل من مفاجآت؟"

زمّ لامانش شفتيه وحرّك أصابعه. قصد من إشارته هذه: ربما نعم، وربما لا.

- "ماذا؟"

- "لم أجد أي أثر للبارود في يديه".

- "ألم تكن يداه منتفختين؟"

- "هذا ما حصل".

- "ألا يُفترض أن يتواجد البارود في حالة إطلاقه للنار؟"

- "نعم".

- "وكيف نفسّر عدم وجود أثرٍ للبارود؟"

رفع لامانش كتفاً وحاجبين.

زاد شاربونيو من لائحة الأشخاص الذين زاروني صباحاً. قال من دون مقدمات: "عرف مينارد وكاتس بعضهما بعضاً".

- "أحقاً؟"

- "اســتطعت الوصول إلى أحد أساتذة مينارد السابقين في جامعة كاليفورنيا -

شيكو. ما زال الرجل يدرّس منذ أن قام ترومان بإعادة تجديد البيت الأبيض وزخرفته، لكــن ذاكرته ممتازة. أوصلني إلى واحدة من أقدم صديقات مينارد. إنها امرأة تدعى كارلا غرينبرغ".

لم أستطع تذكّر هذا الاسم.

– "تعمــل غرينبرغ من ضمن هيئة التدريس التابعة لكلية صغيرة في بنسلفانيا. قالــت إنها واعدت مينارد أثناء دراستهما في السنة الأولى في معهدٍ للدراسات العليا، وذلك قبل أن تغادر إلى بيليز. لم يتوظّف مينارد في موقع التنقيب، أو في أي مشروعٍ آخر، وهكذا بقي في شيكو ذلك الصيف. عادت غرينبرغ لتجد أن مينارد يمضي معظم وقته مع شاب يسكن في يوبا سيتي".

– "كاتس؟"

– "إنه رجُلنا الذي نبحث عنه".

– "وكيف ارتبط كاتس مع مينارد؟"

– "إنهما يشبهان بعضهما بعضاً".

– "أيُعقل ذلك؟"

رفع شاربونيو يده: "أنا لا ألفّق هذه القصة يا دكتورة. تقول غرينبرغ إن كثيرين واظبوا على التحدث أمام مينارد عن مسترهنٍ يعمل في يوبا سيتي يشبهه تماماً. اعتاد الطــلاب التردد على متجر ذلك الرجل لأنه ليس متشدداً جداً بالنسبة للقوانين المتعلقة بالآثار القديمة. أعتقد أنك فهمتِ قصدي".

– "وماذا بعد؟"

– "ذهــب ميــنارد ليستطلع الأمر ثم أصبح الرجلان صديقين حميمين، أو على الأقل هذه هي قصة مينارد بحسب غرينبرغ".

– "تبدو لي هذه القصة غير معقولة".

– "أرسلت لي غرينبرغ هذه المعلومات بالبريد الإلكتروني".

أعطاني شاربونيو صورة ملونة مطبوعة على ورقة كمبيوتر. أظهرت الصورة، التي أُخذت في رصيف بحري، ثلاثة أشخاص يقفون وأذرعتهم متلاصقة ببعضها.

وقفــت المــرأة فــي الوســط، وقد بدت في الصورة عضلاتها، وشعرها البني المسترسل، وعيناها الواسعتان. بدا الرجلان اللذان أحاطا بها مثل مسندٍ بالنسبة إليها. ظهــر الــرجلان طويليــن ونحيلين، وظهر في الصورة شعرهما الأحمر والأشعث،

بالإضافة إلى النمش الذي يملأ وجهيهما.

- "غير معقول!"

- "تقــول غرينــبرغ إن ميــتارد بدأ يمضي أوقاتاً أقل في شيكو، إلى أن ترك بــرنامج دراسته أخيراً. وتضيف المرأة أنها انشغلت بتحضير أطروحتها ذلك الخريف إلى درجة أنها لم تفكّر به كثيراً".

- "ألم تجد أحداً في يوبا سيتي يتذكّر كاتس؟"

- "وجدت زوجين مسنّين. إنهما ما زالا يعيشان في نفس القاطرة المجاورة لتلك التي استأجرها كاتس".

دعني أخمّن: "كان شاباً وسيم الطلعة، وهادئاً، ويحب أن ينفرد بنفسه".

- "أصبتِ".

اســتعاد شاربونيو مني صورة غرينبرغ وتفحّصها مثلما ينظر المرء إلى قذارة في مرجة خضراء.

- "أعــتزم أنا ولوك التجوّل في فيرمونت، لنعرض الصورة على الناس، فربما استطاع أحدهم استرجاع بعض الذكريات منها".

ســارعت إلــى الاتصال بهاتف آن الخليوي بعد مغادرة شاربونيو، فتلقّيت ذات الإجابة: "آسفون. إن الجهة..."

حاولــت أن أتابع العمل في المجلات والصحف التي أحضرها لي أمين المكتبة، ومنها المجلة البريطانية للطب النفسي، وعلوم السلوكيات والقانون، والطب والقانون، ونشــرة الأكاديمية الأميركية للعلوم والقانون. لم أستفد شيئاً من قراءاتي، وبقي ذهني شارداً. اتّصلت بآن مجدداً. لكن هاتفها ما يزال مغلقاً.

اتّصــلت بطوم، فقال إنه لم يتلقَّ أي شيء من زوجته. اتّصلت أيضاً بأشقاء آن الذيــن يعيشــون فــي منطقة الميسيسيبي. قالوا إن آن ليست عندهم، ولم تتّصل بهم. أجبرت نفسي على العودة إلى كدسة مجلاتي.

ركّــزت إحــدى المقالات على ليونارد لايك، وتشارلز أن جي، وهما النابغتان اللذان شيّدا مستودعات تحت الأرض من أجل تجميع فتيات كن بمثابة عبدات جنسيات لهما.

جــادل محــامو أن جــي أن موكلهم كان متفرجاً لا أكثر، أي أنه كان شخصية معــتمدة على غيره ينتظر من يقوده. وقال محامي الدفاع إن زوجة لايك السابقة هي

الطرف المؤثر فعلاً.

إنك يا تشارلي كنت ضحية، تماماً مثلما كانت كارلا هومولكا الصغيرة.

في العام 1991، وُجدت ليزلي ماهافي التي كانت في الرابعة عشرة من عمرها، مقطعــة الأوصال ومدفونة في الإسمنت في بحيرة تقع في أونتاريو. ظهرت في السنة التالــية كريستين فرنش، والتي كانت في الخامسة عشرة من عمرها، عارية ومدفونة في حفرة. تعرّضت الفتاتان للتعذيب والاغتصاب والقتل.

قُــبض علــى بول برناردو وزوجته كارلا هومولكا، بعد ذلك. أطلقت الصحافة على ذلك الشاب وزوجته الشقراء الجميلة اسم القاتلين كين وباربي.

سُمح لهومولكا أن تعترف بأنها مذنبة بتهمة القتل غير المتعمد، وذلك مقابل تقديم شــهادتها ضــد زوجها السابق. أُدين برناردو بتهمة القتل المتعمد، وبالقيام باعتداءات جنســية مــتمادية، والاحــتجاز عن طريق القوة، والاختطاف، وإيقاع الإهانة بالجسد البشري.

أقدمــت عائلة برناردو على تصوير حفلاتها الماجنة، تماماً مثلما فعل لايك وآن جــي. بيّنــت الشــرائط أخــيراً لقطات أبرزت العريس والعروس يقومون بالتعذيب والجريمة بنفس الحماسة، لكن كارلا أقدمت على اقتطاع المشاهد التي تظهرها.

رنّ هاتفــي في الوقت الذي كنت أوشك فيه على الانتقال إلى المقالة التالية. بدا رايان وكأنه يتكلم من أورانوس: "اختفتا".

– "من الذي اختفى؟"

– "آنيغ بومرليو وتاوني ماك جي".

الفصل 34

- "كيف أمكنهما المغادرة؟"
- "أتت الممرضة النهارية لتفقدهما، فوجدت السريرين خاليين".
- "ألم يكن هناك من حارس؟"
- "أبلغنا فيلدمان أن الحراسة ليست ضرورية".
- "هل سمح لهما المستشفى بالمغادرة؟"
- "لا".
- "هل كانتا لوحدهما؟"
- "لم يرهما أحد وهما تغادران".

بدا صوتي عالياً جداً: "هل استقبلتا زواراً، مثل أحد أفراد عائلتيهما؟"

- "إننا ما زلنا نبحث عن أقرباء بومرليو. وعلمنا أن شقيقة ماك جي قد سافرت من آلبرتا الليلة الماضية. إنها تدعى ساندرا، ولا أعرف اسم عائلة زوجها. إنها في طريقها من مانيواكي بصحبة والدتها".

أحسست بسريان الأدرينالين في شراييني.

- "أيُعقل أن يكون مينارد قد فعل ذلك؟"
- "عمّمت أوصافه في البلاد. لم يتمكّن أي شخص من رؤية شخص يشبهه".
- "بدت تاوني ماك جي هستيرية البارحة. هل يقولون في المستشفى إنها غادرت هكذا بكل بساطة برفقة بومرليو؟"
- "تعتقد رئيسة الممرضات أنهما تسلّلتا في وقت تغيير فرق العمل، أو أثناء الليل".
- "لكنهما لا تمتلكان ثياباً!"
- "فُقد معطفان، وزوجان من الأحذية من غرفة الموظفين. وفُقِد أيضاً مبلغ سبعة عشر دولاراً من صندوق المقهى".

– "ما هو المكان الذي قد تقصده امرأتان مضطربتان، ولا تمتلكان بيوتاً؟"

– "اهدئي قليلاً".

أغمضت عينيّ، وأجبرت الأدرينالين على التراجع إلى مصادره المتنوعة.

– "يمكــن للمرأتيــن أن تقصدا أيّ مكان. يُعتبر مستشفى مونتريال العام شبكة معقــدة من الأنفاق والممرات، وتُعتبر الطبقة السفلى من المستشفى نوعاً من متاهات القــرون الوســطى. إننــي في المستشفى الآن. إذا لم نجد المرأتين داخل المستشفى، فعندها سنطوّق المنطقة".

– "وماذا سيحدث بعد ذلك؟"

– "عندما يصل أفراد عائلة ماك جي سأسألهم إن كانت تاوني تعرف أي شخص في مونتريال".

– "يا إلهي! فقدت هذه المرأة المسكينة ابنتها، ولعلها اعتقدت أنها ماتت، ثم تلقّت معلومات تقول إن ابنتها ما زالت على قيد الحياة. هل علينا الآن أن نقول لهذه المراة إن ابنتها قد فُقدت مجدداً؟"

بدا صوت رايان صلباً كالفولاذ: "سوف نجدها".

قلتُ: "سأتّصل بمأوى النساء المسنّات".

– "يجدر بك أن تحاولي".

وصــلنا إلــى حــائط مسدود. لم يرَ أحدٌ، أو يستقبل، امرأتين بالمواصفات التي قدّمتها.

عــدت إلى بحثي، لكن الأمر بدا أسوأ مما كان من قبل. لم أستطع الجلوس، ولم أستطِع القراءة. أحسست بداخلي ما يكفي من القوة لتفجير صخرة غرانيت.

اختُطفــت هــذه النســاء قبل سنوات عدة. اختُطفت آنجيلا روبنسون في العام 1985، وآنيغ بومرليو في العام 1990، أما تاوني ماك جي فيعود تاريخ اختطافها إلى العام 1999. ولقي الرجل الذي اختطفهن مصرعه. إذاً، لماذا أشعر بإحساسٍ متصاعد بالرعب؟

هل أفسدنا الأمر؟ هل كان كاتس المختطف الوحيد؟ هل ستيفن مينارد شريك نيل ويسلي كاتس في لعبته الحقيرة، أم أن الأمر على العكس من ذلك؟ هل ما زال مينارد حراً طليقاً؟ هل وقعت بومرليو وماك جي مجدداً بين يدي مينارد؟ هل أخرجهما عنوةً مــن المستشــفى، أم أن المرأتيــن قد غادرتا عن طيب خاطر بسبب وقوعهما تحت

سحره؟ هل أقدم كاتس على قتل مينارد؟ متى حصل ذلك؟ ولماذا؟

يُفترض أن تكون يدا كاتس قد حملتا آثار البارود، لكن لامانش لم يجد أي أثر له. هل الأمر على العكس من ذلك؟ هل مينارد هو من قتل كاتس؟

تذكّرتُ توسلات ماك جي لأخرجها من المستشفى. هل استطاعت ماك جي إقناع بومرليو بالمغادرة؟ هل غادرتا هكذا، وبكل بساطة؟ هل أخافتهما البيئة غير المعتادة بالنسبة إليهما إلى حد الهروب؟ ولكن، الهرب إلى أين؟ لماذا ينتابني هذا الشعور العميق بأن ماك جي وبومرليو هما في خطر داهم؟ وأنه كان باستطاعتي أن أنقذهما لو كنت ذكيةً بما يكفي لأدرك الأمور؟ لماذا لم يتّصل رايان؟

تمكّنت من استخراج كل التفاصيل الممكنة من العظام، وتفحّصتُ قوائم شرطة مونتريال مرة بعد مرة. ماذا باستطاعتي أن أفعل غير هذا؟ تذكّرت شرائط الفيديو.

تراجعت عن طاولتي وأسرعت عبر القاعة ثم فتحت قاعة الاجتماعات. بقيت الأشرطة في مكانها حيث تركناها أنا ورايان الليلة الفائتة. ضغطتُ على زر شغّل وشاهدت مشهداً بعد آخر لفتيات مقنّعات. بدت أجسادهن شديدة البياض إلى حد مؤذٍ.

شاهدت كل مشهد مرة بعد أخرى وبالحركة البطيئة، فتمكنت بذلك من تمييز ما ظننته ثلاث ضحايا. تمتلك إحداهن ثديين كبيرين. وتمتلك الأخرى شامةً إلى يسار سرّتها. بدت إحداهن أطول بالنسبة للأشياء الموجودة على خلفية الصور. لم يتغيّر المكان، مع أن نِسَب الصور زادت وتقلصت. رأيت سوطاً، ومنخساً كهربائياً، وقارورةً زجاجية. ظهر كاتس بين وقتٍ وآخر وهو يقوم بتعذيب، أو بتهديد ضحية ما، أو أخرى.

شعرت بالاشمئزاز وبالمرض. يُفترض أن تنشغل هذه الفتيات بالدراسة، وبالوقوع في الحب، وبانتقاء الأواني المنزلية، بدل أن يعلّقن بمعاصمهن في قبو يفوح برائحة نتنة. إننا في كندا، ولسنا في ترانسلفانيا في القرن السادس. لم يسبق لي أن شعرت بمثل هذا الغضب العارم إلا نادراً.

كوني موضوعية يا برينان. ابحثي عن متواطئين، وعن الدوافع.

بدأت مجدداً بمشاهدة الشريط الذي يحمل الرقم 1. حضّرت لائحة بأنماط التعذيب عند ظهورها. ظهرت النساء بالتتابع. ظهرت المرأة الأطول من بين الثلاث في النصف الأول من الشريط الأول. وظهرت المرأة ذات الثديين الكبيرين في المشاهد الباقية من الشريط، واستمرّت بالظهور في الشريط الذي يحمل الرقم 2. استُبدلت المرأة ذات الثديين الكبيرين في الشريط الذي يحمل الرقم 3، بالمرأة ذات

النمش الكثير.

لـــم تتضـــمّن الأشـــرطة أصـــواتاً، ولاحظت أن المشاهد تبدأ وتنتهي على نحو مفاجـــئ. بدت بعض المشاهد مستقرة، أي أنها التُقطت بآلة تصوير وُضعت في مكان ثابـــت. بـــدت مشاهد أخرى بحالة اهتزاز، أي أنها التُقطت بواسطة آلة تصوير غير ثابتة في مكان واحد.

أدركـــت شيئاً على نحو مفاجئ؛ هل كاتس هو الذي يظهر في المشهد الذي يضمّ لقطات مهتزّة؟ إذا كان الأمر كذلك، فمن هو الشخص الذي يقوم بالتصوير؟

مـــرّت علـــي ثـــلاث ساعات تقريباً وأنا منهمكة بمشاهدة الأشرطة إلى أن مرّ المشـــهد الـــذي كنت أبحث عنه. شغّلت آلة التصوير، وعبرت الغرفة بحركة متمايلة. ظهـــرت فتاة مستلقية على طاولة كاتس وهي مقيدة المعصمين والكاحلين بقيود جلدية. وضـــع أحدهم خلفها مرآة مستطيلة الشكل، يبلغ عرضها التقريبي اثنتي عشرة بوصة، وطولها حوالى الأربع والعشرين بوصة.

ظهر كاتس في ذلك المشهد وقد أدار ظهره لآلة التصوير.

أحسست بوخز خفيف في رأسي. نهضت واقفةً، وضغطتُ على زر إرجاع، ثم ضـــغطت علـــى زر شغّل. استطعت أن أرى في منتصف حركة العدسة شكلاً ضبابياً عكَسَته المرآة. هل هو مينارد؟

أرجعـــت الشريط مجدداً، وأعدت تشغيله إلى الأمام بالحركة البطيئة، ثم جمّدتُ المشهد.

تهاوت آمالي بالكامل.

- "اللعنة!"

بـــدت صـــورة المرآة محبحبة ومحجوبة جزئياً، إلا أنني استطعت تمييز الوجه الذي يركّز على عدسة التصوير عبر الغرفة: إنها آنيغ بومرليو!

تـــردّد صـــوتي بمـــرارة في أنحاء الغرفة الخالية: "يا لك من ماهر أيها اللعين المهووس. إنك تجبر إحدى الضحايا على التصوير بينما تعذّب ضحية أخرى".

حاولـــت أن أشـــاهد بعض المشاهد الأخرى، لكنني لم أستطِع الجلوس بسكون. واظبـــت على النهوض وتفحّص هاتف مكتبي، والتحديق بالرواق، كأنني طفل يحبو. عدت إلى مكتبي بعد عشرين دقيقة، ملأني خلالها شعور بالغثيان والغضب والقلق.

بـــدأت بقـــراءة مقالة عن متلازمة ستوكهولم، لكن الصور التي لا أريد تذكّرها منعتنـــي من التركيز على الصفحة التي أطالعها. تخيّلت آنيغ بومرليو وهي تعدو في

منزل نيل كاتس، وتخيّلت تاوني ماك جي وهي تتوسّل لإخراجها من المستشفى. وتخيّلت كولين ستان وهي ترقد في تابوت تحت سرير. فكّرت بهن جميعاً وهن محتجزات في ظلمة رهيبة، ومصعوقات من الخوف، وعاريات، ووحيدات. أقدم كاميرون هووكر على تعليق كولين ستان وتمديدها، ثم جلدها بسوط، وأكمل ذلك بتعريضها لصدمات بواسطة الأسلاك الكهربائية حتى امتلأ جسدها بالبثور. سيطر نيل كاتس على ضحاياه مستخدماً طرقاً متماثلة، واستخدم عزل ضحاياه عن الإحساس بالمحيط، والترهيب، والألم كي يسحقها.

حاولت أن أتخيّل المحنة التي تحمّلتها أولئك النسوة. هل أجبرهن كاتس على الاستلقاء في الظلمة من دون أن يسمعن شيئاً غير أصوات أنفاسهن؟ أو لربما أصوات دقات قلوبهن؟ هل ميّزن ما بين الليل والنهار؟ هل شعرن بالرعب مع كل صوت ينطلق من قفل الباب؟ هل استسلمن لليأس؟ هل تبخّرت ذكريات حياتهن الماضية مع مرور الأيام مثلما يتبخّر الضباب مع نسمات الصباح؟

تصلّب شيء في داخلي، لكني أجبرت نفسي على التركيز. بدأت بأخذ ملاحظات أثناء قراءتي كما فعلت أثناء مشاهدتي لأشرطة الفيديو. تراقصت خيالات العبودية في ذهني وامتزجت مع مشاهد التوتر الجنسي المضاعَف نتيجة تقييد الحركة. تصوّرت الماسوشية السادية حيث يتلذّذ المرء بإنزال العذاب بالآخرين وبنفسه أيضاً، واستخلاص الإثارة الجنسية عن طريق إنزال الألم بالآخرين أو تلقّي هذا الألم. يستخلص ذلك الشخص المهووس اللذة من أقصى الحدود المرضية، والاختطاف، والسجن، وفرض الاستعباد على الآخرين.

لم أنسَ متلازمة ستوكهولم.

بدأت برسم حدود هذه العملية، وأضفت نقاطاً عليها أثناء تنقلي من مقالة إلى أخرى.

النقطة الأولى: احتجاز الضحية ثم عزلها. تقييد الضحية ثم تعريتها، وإذلالها، وإهانتها.

النقطة الثانية: استخدام الاعتداءات الجسدية أو الجنسية، إلى حدّ اقتناع الضحية أنها ضعيفة.

النقطة الثالثة: حرمان الضحية من أنماط العيش اليومية المعتادة، وإبقاء الضحية محتجزة في الظلام الدائم أو تحت الأضواء الدائمة. استخدام ربطات الأعين، والصناديق، والأقنعة.

النقطة الرابعة: إلغاء خصوصية الضحية. وإبقاء نشاطات الضحية البيولوجية، مثل التغوّط، والتبوّل، والحيض، تحت نظر الشخص الذي يقوم بالاحتجاز.

النقطة الخامسة: التحكم وتقليص كميات الطعام والماء المقدمة للضحية، وكذلك تطوير اعتماد الضحية على الشخص المحتجِز.

اتّصل بي رايان هاتفياً عند الساعة الثالثة. قال لي إنهم فتشوا كل بوصة في المستشفى، ولم يظهر أيّ أثر للمرأتين هناك.

عدت إلى بحثي.

النقطة السادسة: فرض عقوبات لا تتوقّعها الضحية، وحرمان الضحية من الحصول على تفسيرات، أو تبريرات، لما يحصل.

النقطة السابعة: فرض طلب الإذن. إجبار الضحية على طلب الإذن لتناول الطعام، والتحدث، والوقوف، وأشياء أخرى.

النقطة الثامنة: فرض نمط مستمر من الإساءات الجنسية والجسدية. تقتنع الضحية هنا باستمرارية قدرها.

النقطة التاسعة: العزلة المستمرة. يصبح الشخص المحتجِز هنا مرجع الضحية الوحيد للاتصال بالعالم الخارجي والحصول على المعلومات.

اتّصل بي رايان مجدداً عند الساعة الرابعة.

- "حضرت السيدة ماك جي وساندرا".
- "هل تكلمت معهما؟"
- "نعم".
- "كيف تلقّتا الأمر؟"
- "بدت الوالدة مذهولة، أما الابنة فهي غاضبة جداً".
- "أين هما الآن؟"
- "أنزلتهما في فندق دلتا".
- "هل تعرف تاوني أحداً في مونتريال؟"
- "تقول ساندرا إن صديقة تاوني الحميمة الموجودة في مانيواكي لها أقارب في إحدى ضواحي الجزيرة الغربية. إنني أتحقّق من هذا الأمر في هذه الأثناء".

خطرت فكرة في ذهني.

- "تعرف ماك جي، وبومرليو، أن كاتس قد مات. يُحتمل أن يكون منزله هو

المكان الذي تشعران فيه بالأمان".

- "تمتلكين أفكاراً عظيمة يا برينان، لكن هذا لن يجدي نفعاً. تحقّقت من المكان ووجدته فارغاً. سأتّصل بك إذا استجدّ أمر ما".

عدت إلى مجلاتي.

النقطة العاشرة: توجيه تهديدات لأفراد عائلة الضحية وأقاربها.

النقطة الحادية عشرة: توجيه التهديد بنقل الضحية إلى محتجزٍ أكثر وحشية.

النقطة الثانية عشرة: تساهل غير متوقع. تُمنح الضحية امتيازات لا تتوقّعها، كإعطائها بعض الهدايا، ومنحها فترات من الحرية.

النقطة الثالثة عشرة: يظهر المحتجِز بصورة غير متوقعة. وتقتنع الضحية أن المحتجِز يعلم بكل شيء.

رنّ هاتفي الخليوي عند الساعة السادسة والنصف.

تسبّب الصوت الذي سمعته بهبوط في قلبي، من ذلك النوع الذي تشعر به عند ركوبك في القاطرة الأفعوانية.

سمعت صوتاً أنثوياً ولغةً إنكليزيةً مشددة المقاطع: "تريد دي أن تراكِ".

- "آنيغ؟"

- "إنها بحاجة للمساعدة".

حاولت الحفاظ على هدوء صوتي: "أنا مسرورة لأنك اتّصلتِ بي. إننا قلقون عليكما".

- "لم ترغب دي بالبقاء في ذلك المستشفى".

- "هل أنتما بخير؟"

- "قد تقدم دي على أذية نفسها".

- "أين أنتما؟"

- "إننا في المنزل".

ما هو المكان الذي تعتبره بومرليو منزلها؟ هل هو ماسكوش؟ أم بوان سان شارل؟

- "هل أنتما بأمان؟"

- "تريد دي أن تراكِ".

تناولت قلماً وقلت: "قولي لي أين هو المنزل".

- "إنه في دي سيباستوبول".

أجبت بسرعة: "لكننا بحثنا عنكما في ذلك المنزل".

خيّم سكون مطبق. يا لغبائي! يا لغبائي!

قلتُ لها: "إننا قلقون بشأنكما".

- "تعالي لوحدك".

- "سآتي مع التحري رايان".

- "لا!"

- "بإمكانك الوثوق برايان. إنه رجل لطيف".

أتت إجابتها قاطعة: "لا أريد رجالاً هنا".

- "أنا في طريقي إليكِ".

بدأت بنقر رقم هاتف رايان، ثم توقّفت.

الفصل 35

قطعــت الاتصــال، ثم عدت لأشغّل جهاز هاتفي، بينما بدأ عقلي بطرح ملايين الاحتمالات. ماذا لو اتّصلت برايان هاتفياً؟ أو بكلوديل؟ أو بشاربونيو؟ أو بفيلدمان؟

أردت الحصــول على مساعدة ما. ماذا لو هرعت إلى دي سيباستوبول؟ تحتاج هاتين المرأتين إلى من ينقذهما.

طلبــت بومرلــيو منــي أن آتي لوحدي، كما طلبت عدم حضور الرجال معي. وتقول مطالعاتي إن هذا الموقف هو موقف منطقي. عانت بومرليو وماك جي من عدة ســنين مــن الــتعرض للإساءات على أيدي الذكور. تصارعت العواطف في داخلي. تصارع الغضب، والاشمئزاز، والتعاطف، وإلحاح الموقف.

أعــتقد أن رجــال الــتحري الثلاثة سيغضبون مني إذا توجّهت إلى ذلك المكان لوحدي. يستطيع رايان أن ينتظرني في الخارج. بدأت مجدداً بنقر أرقام هاتف رايان، ومجدداً توقّفت. ماذا لو أصرّ رايان على مرافقتي إلى داخل المنزل؟

أعــتقد أن مــاك جي وبومرليو قد وجدتا ملاذاً آمناً لهما في ذلك المنزل، ولعل وجود رايان سيدفع بهما إلى الاختفاء مجدداً. فكّرت أن وجوده قد يمزّق ثقتهما بي، أو لــربما لــم تكــن المــرأتان هناك، بل تعتزمان إعطائي تعليمات جديدة عند وصولي بمفردي إلى هناك. وإذا طوّقت الشرطة ذلك الحي فلربما ذلك يفسد كل شيء.

ســمعت في ذهني توسلات ماك جي المرتعبة، وأحسست بقبضتها على ذراعي، كما رأيت نظرة اليأس في عينيها.

احتلّت أفكاري مشاعر الذنب ولوم الذات. فشلت في تهدئة ماك جي عندما كنت فــي المستشــفى، وإذا كنت نجحتُ بشيء ما فقد نجحت بزيادة ذعرها. ماذا لو تسبّب وجود رايان بإرعابها مجدداً؟

نهضــت واقفةً، وتناولت سترتي من حمّالتها. سأنزل هذه المرة عند طلبها، فأنا مدينة لها بذلك، وفي الواقع أنا مدينةٌ لهما.

أوقفتني فكرة جديدة طرأت على ذهني، ماذا لو لم تكن ماك جي وبومرليو وحدهما؟ ماذا لو كانتا تعملان تحت إمرة مينارد؟ ماذا لو كانت المكالمة مجرد مصيدة لي؟ هل سيجرؤ مينارد على إيذائي؟ ولمَ لا؟ ينتظر هذا الرجل السجن المؤبد، بالإضافة إلى أنه رجل منحرف وخطِر.

اللعنة! اللعنة! اللعنة!

من هو الرجل الذي يتعيّن عليّ الاتصال به.

لو اتّصلت برايان فسيتصرّف بشكل أبوي، لكنني لا أستطيع أن أواجه هذا الوضع بمفردي. استبعدتُ كلياً الاتصال بكلوديل. تزايدت نبضات قلبي. حاولت الاتصال بشاربونيو، ليكون أحد ما على معرفة بالمكان الذي أقصده. أعلمني صوت آليّ أن رقم المشترك الذي أطلبه غير متوفر حالياً، ثم قُطع الاتصال على الفور.

نظرت إلى ساعتي. أشارت عقارب الساعة إلى السادسة والاثنتين والأربعين دقيقة. اتّصلت بمركز شرطة مونتريال وتركت رسالة لشاربونيو. افترضت أن شاربونيو موجود في فيرمونت مع كلوديل، لكنهما على الأقل سيعرفان المكان الذي قصدته.

أحاطني الصمت، وجالت في ذهني احتمالات أخرى. ماذا لو أقدمت ماك جي على إيذاء نفسها؟ ماذا لو كان مينارد يناور ليضيفني إلى مجموعة لهوه؟ ماذا لو كان مينارد يناور لوضع رصاصة في رأسي؟

انشغلت بتفحّص كل وجه من وجوه ذلك المشهد البشع، إلى أن رنّ هاتفي الجوّال في يدي. ارتعشتُ وكأنني تعرّضت لحريقٍ ما. طار الجهاز من يدي ووقع على الأرض، ثم اختفى تحت طاولتي. انحنيت على قوائمي الأربع، وزحفت على البلاط، ثم ضغطتُ زر التشغيل، وسرعان ما تلقّيت صدمةً أخرى.

اندفعت آن بتقديم اعتذاراتها غير المترابطة، ومن دون مقدمات. اجتاحتني حالة من الارتياح والاستياء في الوقت نفسه، وانضمّت إلى الصراع الكبير الدائر في رأسي.

قاطعتها على الفور: "أين أنتِ؟"

أساءت آن فهم دلالات صوتي المرتعبة، فقالت: "لا ألومك على مشاعرك العدائية تجاهي يا تمب. أعترف أن سلوكي تعدّى الأنانية، لكن حاولي أن تفهمي..."

مرّت الثواني بسرعة، وهي الثواني التي تحتاجها ماك جي لتجرح معصميها.

قلت بصوت أقوى: "أين أنتِ؟"

- "أنا آسفة جداً يا تمب..."

- "أين أنتِ؟"

- "أنا عند راهبات العناية الإلهية".

بدأ صوت آن يأخذ مجالاً صغيراً في دماغي. وبدأت أستعيد صفاء تفكيري.

- "هل يقع الدير على زاوية شارعَي سان كاترين وفولهام؟"

- "نعم".

تــتواجد آن على مسافة تستغرق خمس دقائق لقطعها من مكاني. فكّرت أن آن هي امرأة، واتّخذت قراراً سريعاً.

- "أحتاج إلى مساعدتك".

- "أنا مستعدة لأي شيء تطلبيه مني".

- "سأمرّ لاصطحابك".

- "متى؟"

- "الآن".

- "سأكون في الخارج".

قطعــت نصــف المسافة التي تفصلني عن سيارتي مشياً، وركضت في نصفها الثانـــي. تــزايدت ضـــربات قلبي بوتيرة ماراتونية. هل أنا على وشك اقتراف خطأ باصطحابي آن؟ هل هي مستنزفة عاطفياً؟ أتراني أقذف بها وسط المخاطر؟ قرّرت أن أخبر آن كل شيء، ثم أترك لها أن تتّخذ قرارها.

خــيّم برد قارس على المدينة، وحملت الرياح رطوبة شديدة، فيما زحفت الغيوم على علو منخفض ببطء شديد، كأنها لم تتّخذ قرارها بعد بإنزال المطر أو الثلج.

وقفت آن خارج الدير القديم وهي ترتعش من البرد، وظهرت أمتعتها مكومة عند قدمــيها. مــلأ المشاة الأرصفة والشوارع ومشوا مجهدين. انعكست أضواء السيارات وأضـــواء المــيلاد على الزجاج الأمامي لسيارتي، فانتهزت الفرصة لأطلع آن على ملخـــص للمعلومـــات التي تجمّعت عندي أثناء غيابها. أصغت إليّ من دون مقاطعة، وبـــان الـــتوتر في قسمات وجهها، ثم انشغلت أصابعها باللهو بأطراف وشاحها غير المشدود.

مـــرّت دقـــيقة كاملـــة قـــبل انتهائي، وكنت متأكّدة في نهايتها أنها ستطلب مني

إيصالها إلى المنزل.

- "أنا مستعدة للدخول في أكثر الميادين قذارةً في العالم".

- "لا تقولي هذا يا آن".

التفتت نحوي: "أثناء تفكيري بعدم تحمّل المسؤوليات التي يفرضها الله، كانت هذه الفتيات يعشن في كوابيس حقيقية. ما هذه الهورمونات المجنونة التي تدفع بذلك المهووس إلى إنزال الأذى بفتيات صغيرات؟"

- "لا تشعري أنك مضطرة للذهاب معي. سأعذرك إن لم ترغبي بمشاركتي".

- "لا تفكّري في ذلك يا عزيزتي. أريد المشاركة في هذه العملية القذرة".

أجبتها بلهجة تشبه لهجة رايان: "هذا هو بالضبط الشيء الذي لن تقومي به. هل تحملين هاتفك الخليوي معك".

ربّتت آن على حقيبة كتفها: "تعطّلت تلك الخردة عندما حاولت أن أتّصل بك هاتفياً هذا الصباح، لكنني أحضرت علبة "مايس".

أشرت إلى محفظتي: "تناولي هاتفي منها".

فعلت آن ما طلبته منها عندما انعطفتُ إلى شارع دي سيباستوبول.

ركنتُ سيارتي مقابل الإسطبل، وقبل أن أطفئ أضواءها تحرّك ذلك الكلب الهجين، وتسلّل عبر الباحة. لاحظت أن عينيه تومضان وهو يشق طريقه.

تفحّصت مع آن الشارع بطوله. شاهدنا إلى يميننا ضوءاً كهربائياً وحيداً يلقي بنوره على أبواب الإسطبل. وبدت إلى يسارنا باحات السكك الحديدية مظلمة وفارغة. أقفلت باب جهة السائق في سيارتي، وهمست: "ابقَي في السيارة".

- "لا، مطلقاً".

- "نعم".

- "لا".

قلت بما يشبه الفحيح: "نعم".

سمعت ما يشبه الأزيز عندما أحكمت آن ذراعيها على صدرها، والتفتّ بعيداً. استطعت بمساعدة ضوء الإسطبل أن أرى أسنانها العلوية تضغط على شفتها السفلى.

أمسكت بيد آن، واصطنعت لنفسي ابتسامة فاشلة. قلت بما يشبه الهمس: "أحتاج إلى مساعدتكِ يا آني، لكنني أريد أن تساعديني من بعيد. بقيت هاتان المرأتان معزولتين لسنوات عديدة. إن العالم يرعبهما. إنهما لا تعرفانك".

تمتمت آن: "ولا تعرفانك أنت أيضاً".

- "طلبتا مساعدتي".

- "ماذا لو كان ذلك المعتوه مينارد في الداخل؟"

- "يوجد جهاز هاتف في المنزل. اتّصلي برايان إذا لم أتّصل بك، أو أؤشر لك خلال عشر دقائق. ستجدين أن رقمه موجود على لائحة الاتصالات السريعة".

- "ماذا لو لم يرد رايان؟"

- "اتّصلي بالرقم 911".

أسرع الكلب باتجاه السياج ما إن رآني أترجّل من السيارة. تبعني أثناء سيري بمحاذاة الشارع. نهض الكلب وزمجر عندما وصل إلى نهاية المنطقة المسيّجة. اختار الكلب أن لا ينبح لأسباب تعود له.

امتلأ هواء الليل برائحة الخيول، ومياه النهر، بالإضافة إلى الثلج الذي يوشك على الهطول. سمعت صوت سلك من فوقي، واصطدام الغصون العارية ببعضها، واحداً تلو آخر.

سمعت صوت حفيف أشياء معدنية على بعضها فاندفعتُ باتجاه المدخل المسقوف لآخر بيت في مجموعة البيوت. شعرت أنني سأتجمّد من البرد أثناء وقوفي في الظلال. جهدت لأسمع أيّ صوت بشري، لكنني لم أسمع شيئاً.

خرجت من مخبأي واسترقتُ النظر باتجاه زاوية الشارع. رأيت زجاجةً بنية اللون على الطريق. أوحت لي خلية غير عقلانية من خلايا دماغي إنها من ماركة بودوايزر. تحرّكت الزجاجة بفعل عصفة ريح، وتدحرجت على الحصى والجليد.

غطّيت كتفيّ، ودفعت زجاجة البود جانباً، ثم أسرعت في سيري. حرصت على عدم التعثر والتسبّب بالتواء كاحل من كاحليّ. بدت الأشجار والجنبات كأنها تغيّر أشكالها وأحجامها أثناء اهتزازها في الظلمة المحيطة بي.

استدرتُ حول المنعطف. بدا المنزل مظلماً وساكناً، ولم تلُح أية نقطة ضوء من داخله. تقدّمت نحو باحة المدخل، وأدرت مقبض الجرس، ثم انتظرت. أدرتُ المقبض مجدداً، وتهيّأت كي أركض متراجعةً إذا ما اضطررت لذلك.

تحرّك القفل مع السلسلة الحديدية. وانفرج الباب قليلاً. تقدّمت إلى الأمام، وانساب الأدرينالين في شراييني. شعرت كأنني جندي داخل المعركة. رأيت وجهاً ترتسم عليه إمارات الموت، وشاهدت عينين واسعتين، فشعرت بأنفاسي تتسارع.

- "أنا الدكتورة برينان يا آنيغ".

شملتني بومرليو بنظرة تجاوزت كتفي.

- "جئتُ لِوحدي".

تراجعــت بومرلــيو إلى الخلف، واندفع الباب متراجعاً إلى الوراء. دخلت إلى المنزل. دُهشت لأن الهواء ما زال مليئاً برائحة كرات العث والعفونة.

أغلقــت بومرلــيو الباب وأحكمت إقفاله. لاحظت أنها ترتدي بنطال جينز أسود اللون، وكنزة زرقاء داكنة.

سألتها: "هل تاوني بخير؟"

اســتدارت بومرليو ببطء معهود مع أشباه الموتى، وتراقصت سلسلة الباب مثل بندول الساعة.

صحّحت تعبيري: "هل دي بخير؟"

أجابت آنيغ بصوت هامسٍ أجّش: "إنها مرتعبة".

أنزلت زمّام سترتي المقلنسة: "هل تسمحين؟"

استدارت بومرليو من حولي أثناء انشغالي بنزع سترتي. عندما استدارت المرأة نحو القاعة، علّقت السترة على مقبض الباب، وأدرت المزلاج ليكون في وضع يسمح بفتح الباب.

قادتني بومرليو نحو الرواق الذي عمّده كاتس بدماغه، فتبعتها. لاحظت أن أريكة كــاتس قــد غطّيــت وحُشرت قرب طاولة المكتب، وأن مصباحاً نحاسياً واحداً ينير الغرفة بضوئه الأصفر الشاحب.

جلســت تاونــي ماك جي على أحد المقاعد المزودة بمساند للأذرع. رفعت تلك المــرأة ركبتــيها إلى الأعلى، وخفّضت رأسها، أي أنها كانت في نفس الوضع الذي رأيــتها عليه في زنزانتها. غطّت تاوني جسمها بالغطاء ذاته الذي تمسّكت به في ذلك اليوم.

- "تاوني؟"

لم تتحرّك.

- "تاوني؟"

انقبض جسدها الضعيف.

تقدّمــت خطوةً إلى الأمام، لكنني بقيت يقظةً لأقل إشارة تدل على وجود شخص

ثالث. بقي المنزل ساكناً بشكل مخيف.

- "أنا الدكتورة برينان يا تاوني".

أجفلت ماك جي فوكزت طرف الطاولة. تمايلت بلورات المصباح فتراقصت النقاط الصفراء على شعرها. جثوتُ، ووضعت يداً على قدمها، فانقبضت عضلاتها.

- "ستكونين بخير".

لم تتحرّك.

أردت لمس يدها. شعرتْ أصابعي بشيء صلبٍ ومتعرجٍ من خلال الصوف.

في تلك اللحظة بالذات سمعت طرقة قوية على الباب كسرت الصمت المخيّم على المنزل. تلوّى جسد ماك جي، أمّا بومرليو فوقفت جامدة في مكانها، وسرعان ما انفتح الباب الأمامي قليلاً، ثم سمعت صوتاً عبر الرواق. نادت آن: "مرحباً!"

زمّت بومرليو شفتيها، وقالت هامسة: "لقد كذبتِ عليّ".

ظهرت آن في القاعة قبل أن أتمكّن من الإجابة. رأيتها تحمل هاتفي الخليوي بيد، ومفاتيح سيارتي باليد الأخرى.

نهضتُ واقفةً: "ماذا تفعلين هنا؟"

نقّلت آن نظرها ما بيني وبين بومرليو، وبين ذلك الشكل المتكوم خلفي: "تلقّيتِ اتصالاً. ظننت أنك مهتمة بمعرفة مضمونه".

انزعجت إلى حدٍ يتعدّى التهذيب: "ألم يكن بوسع الخبر أن ينتظر؟"

أيقنت آن أنها ارتكبت خطأً كبيراً. سعت لإصلاح الأمور، فتقدّمت نحوي، ورفعتْ الهاتف الخليوي: "ترك شاربونيو رسالة في مركز شرطة مونتريال، فأسرعت عاملة الهاتف للاتصال بهاتفك الخليوي".

لاحظت تراجع بومرليو نحو الظلمة في طرف القاعة.

تعلّقت عينا آن بعينيّ طالبة الصفح، وتابعت: "مات ستيفن مينارد منذ سنوات عدة، وكاتس هو الذي قتله".

ارتفع صوت من الشكل المتكوّم من خلفي، واستطعت سماع نصف تأوهٍ، ونصف نشيج. تمتمت آن قائلة وهي تسرع نحو الرواق: "أنا آسفة. ظننت أنك تودّين أن تعرفي. سأعود إلى السيارة".

جثمتُ ووضعت يداً على قدم ماك جي. رفعت ماك جي ظهرها المقوّس. انحسر الغطاء وبان وجهها الذي ظهر مثل قمرٍ شتائي شاحب. لاحظت شفتيها المرتعشتين.

- "إنك بأمان يا تاوني. أنت وآنيغ بأمان".

رفعت ماك جي أحد كتفيها، وسقط الغطاء متكوماً في حضنها.

ورأيت حبلاً ملفوفاً على معصميها، ولم أفهم المشهد الذي تراه عيناي. ما هذا الحبل؟ ولماذا استخدام الحبل؟ هل هي مربوطة؟

سمعت صوت الباب الأمامي وهو ينفتح، فرفعت نظري. امتلأت عينا ماك جي بالرعب. تبعت اتجاه نظرتها. تركّزت نظراتها على ظهر بومرليو المتراجع. توقّفت رئتاي عن العمل، وتوقّف قلبي عن النبض. أحسست بالدم يكاد يتفجّر بوجهي. تذكّرت الرعب الذي شاهدته في المستشفى. تذكّرت الوجه الموجود وراء آلة تصوير الفيديو. تذكّرت الأيدي الخالية من آثار البارود. تذكّرت هومولكا، الزوجة التي شاركت زوجها في إجرامه بكل طيبة خاطر... وأدركت ما الذي يحدث!

نهضت واقفةً على قدميّ. رأيت بومرليو وهي تسرع إلى آخر القاعة كأن سلكاً ساخناً قد ضربها. سمعت فرقعة مرعبة، ثم سمعت صوت ارتطام ما. ركضت نحو الرواق، فوجدت الباب مفتوحاً.

شاهدت آن راقدة هناك قرب الباب، وجهها نحو الأسفل، وساقاها منبسطتان فوق مشمع الأرضية. حدّقت في العتمة. لم أرَ أثراً يدل على بومرليو.

- "آني!"

جثمت لكي أتحسّس رقبة آن بحثاً عن نبضات القلب، لكن يبدو أنني تأخّرت جداً، لأنني سمعت حركةً ورائي. مال الباب إلى الداخل بحدة، فارتطم بكعب حذاء آن.

تفجّر ضوء داخل رأسي قبل أن أتمكّن من الاستدارة، ووقعت في ظلمة دامسة.

الفصل 36

مــرّت لحظات، أو هكذا خيّل إليّ، فشعرت أن دماغي يضغط على جمجمتي في سـعيه اليائس لإيجاد مجالٍ أكبر له. فتحت عينيّ وحركّتُ رأسي. مرّت أمام بصري جسيمات زجاجٍ متكسر. أغمضتُ عينيّ وحاولت إجراء تقييم للوضع.

أحسسـت بحريق في صدري. كنت مستلقية على جنبي الأيسر وكتفي اليسرى. بلعـت ريقـي، وحاولت أن أنهض. وجدت أن ذراعيّ وساقيّ لا تعمل، وأدركت أنها موجودة تحتي وخلفي.

عـاد إلـيّ وعيي ببطء. لم أشعر بيديّ، ولا بقدميّ، لكنني كنت بحاجة للتحرّك. شددتُ من عزيمتي، وحاولت أن أنهض على ركبتيّ مجدداً. اجتاحني الغثيان، وتقيّأت.

حاولـت أن أتحـرّك إلى الوراء كي أبتعد عن هذه الفوضى، فاستخدمت كاحليّ وركبـتيّ. تسـبّب مجهودي هذا بالتقيؤ مرة بعد أخرى، حتى لم يعد في معدتي شيء غير إفرازات الصفراء.

استلقيت للحظة وأنا أتنفّس بعمق، وبحثتُ عن تفسيرات في عقلي. أين أنا؟ وكم مضـى عليّ من الوقت في هذا المكان؟ أدرت رأسي بحذر شديد، وكادت وخزة الألم تتسبّب بإطلاقي لصرخة.

صـرخت بـي خلية عصبية فكّري! حاولت أن أفكّر، لكن أفكاري رفضت أن تتحوّل إلى صور مفهومة. ركّزي على اللحظة الراهنة!

استخدِمي حاسة الشم!

هـل أشتَم رائحة العفن، أم رائحة الملابس الرثة، أم الخشب، أم شيئاً آخر؟ هل هذه رائحة منظف كيميائي؟ هل هي رائحة الكاز؟

تلمّسي!

أحسسـت بألياف خشنة تلامس خدّي، وبحُبيبات داخل فمي، وبغبار داخل أنفي. هل هي سجادة؟ ما هذا الصوت الذي أسمعه؟ هل هو صوت الريح وهي تحرّك غصناً

فيضرب لوح زجاج، أم أنه صوت صريرٍ وتنفسٍ من داخل المنزل؟

استطعت أن أسمع نبضات قلبي في أذنيّ. سمعت وقع أقدام مكتومة، لعله صوت معدن يطرق معدناً فارغاً.

اســتطعت أن أســمع من البعيد صوت شخص يتحرّك. هل هذا الصوت هو في الغرفة الأخرى؟

فتحــت عينيّ مجدداً، فوجدت نفسي مستلقية على سجادة وسخةٍ جداً. تمكّنت من رؤيــة قائمــة كرسي خشبية محفورة، وقماش مقعدٍ توتيّ اللون، بالإضافة إلى غطاء ممزّق.

أدركــت أيــن أنا! إنني في رواق كاتس، لكن المصباح غير مضاءٍ الآن. أُغلق الباب، فأحدث صوتاً مدوياً، ثم ساد السكون.

رأيت أمامي مقعداً مزوداً بمسندٍ للذراع. سمعت صوت إغلاق الباب مجدداً، لكن علــى مســافةٍ أبعــد مــن خلفي. انشغل دماغي باستيعاب المعلومات بسرعة انزياح القــارات. هل استخدم أحدهم مدخلاً خلفياً؟ هل استخدم مدخل المطبخ؟ مطبخ كاتس. حاولت أن أتذكّر تصميم البناء من زياراتي الماضية. تذكّرت أنه ما من وجود لمدخل فــي المطــبخ. أمسكت أنفاسي، وأصغيتُ. لم أسمع أيّ صوت في المنزل. راح الدم يضجّ في رأسي. سمعت دقة قلبي، تلتها اثنتا عشرة دقة، ثم ألف دقة.

ســمعت صــوت انغلاق الباب الخلفي مجدداً. اقتربت مني خطوات متسارعة. أغلقتُ عينيّ واستلقيت بسكون، وشعرت بالنيران تشتعل في كل عضلة من عضلاتي. ســمعت صــوتاً يشبه صوت الخنزير، ثم سمعت صوت تساقط قطراتٍ لسائل. ملأت الرائحة حواسي كلها. تمسّكت أصابعي بوثاقي.

إنها رائحة البنزين!

انفتحت أجفاني مجدداً، فاستطعت تمييز شكلين: رأيت تاوني ماك جي مقيدةً في كرســي ذي مسندين، ورأيت آنيغ بومرليو وهي تبلّل الغرفة بالسائل الذي تسكبه من صفيحة كبيرة.

صــعقني الخوف، وقضى بذلك على القليل من التفكير السليم الذي تدبّرته حتى الآن. مــاذا أفعل الآن؟ هل أتحدّث مع بومرليو؟ هل أتحدّث مع ماك جي؟ هل أتظاهر بالموت؟

أطبقت أجفاني، واستمعت إلى الصوت السائل للموت المرعب.

مــرّت ثــوانٍ عدة قبل أن أسمع القرقعة مجدداً، وصوت خطوات متراجعة، ثم

صـــوت انغـــلاق الـــباب بقوة. فتحت عينيّ. رأيت علبة قهوة فارغة قرب الباب. هل ذهبـــت بومرلـــيو لإحضـــار المزيد من البنزين؟ إلى أين ذهبت؟ هل ذهبت إلى كوخٍ خارج المنزل؟ كم استغرقت جولتها السابقة؟ هل استغرقت دقيقة، أم اثنتين؟

انحصر تركيز دماغي على فكرة واحدة: اخرجي من هنا!

خطرت على بالي عدة صور: آن، بومرليو، والحبل الذي يحيط بمعصمَيْ تاوني ماك جي. هل ماك جي مشدودة الوثاق؟ هل قدماها مربوطتان أيضاً؟ حرّكت كاحليّ، لكني لم أشعر بشيء. شعرت ببصيص أمل.

- "تاوني".

خيّم الصمت.

- "تاوني".

هل هناك حركة في الكرسي؟

رفعـــت رأســـي. أدركت أن الغرفة أصبحت مستنقعاً معتماً، وبدا الأثاث بأشكال متعددة في الظلمة المخيمة.

- "تنوي كيو إحراق المنزل. يتعيّن علينا الخروج من هنا".

هل سمعت صوت تنفس عميق؟

- "أعرف ماذا فعلت كيو بكِ".

انغلق الباب الخلفي. سمعت وقع أقدام تسرع نحونا، فأخفضت رأسي.

شـــاهدت مـــن خلال عينيّ نصف المغمضتين بومرليو تدخل، وهي تحمل علبة جديـــدة. سكبت السائل على طاولة المكتب والأريكة. قذفت بالعلبة على الأرض عندما أفرغتها. ركضت بعد ذلك لتجلب علبة أخرى.

- "لا يعرف أحد بوجودنا هنا يا تاوني".

تسبّب السكون في جعل الغرفة تبدو أكثر قتامة، وأكثر رعباً.

- "لن يأتي أحد لنجدتنا. يتعيّن علينا مساعدة أنفسنا".

لم أتلقَّ أي استجابة.

- "إذا زحفت مقتربة منك هل تستطيعين فكّ وثاقي؟"

ساد الصمت.

- "هل تقدرين على المشي؟"

بـــدا كأنني أتحدّث مع شخص ميت. كافحت بيأس مع الحبال التي تلفّني، جهدت

وحركت نفسي حتى شعرت أن جلدي قد تمزّق، ومع ذلك ظلّت عقد الحبال صامدة.

انغلق الباب الخلفي مجدداً، فاسترخيتُ، وأغمضت عينيّ.

عادت بومرليو بالمزيد من الوقود السريع الاشتعال.

يا إلهي! أين هي آن يا ترى؟ لم أجد لها أي أثرٍ في هذه الغرفة. تساءلتُ إن كان بمقدوري إخراج آن وماك جي من المنزل. هل سنموت قبل أن يتمكّن فريق الطوارئ من الاستجابة لنا؟

هــل مــن الأفضل أن أتحدّث مع بومرليو؟ هل أستطيع الإتيان بحجة، أو طرح فكــرة، مــن شــأنها تأمين بعض الوقت الإضافي لنا؟ هل سيُحدث هذا فرقاً؟ فتّشت الشــرطة المكان سابقاً ووجدَته خالياً. لم أخبر رايان أنني سآتي إلى هنا، فهل سيتبلّغ شاربونيو رسالتي؟

تدافعــت الدموع في عيني. جهدت للخلاص من قيودي، والنهوض بحرية ثانية، والقــبض علــى بومرلــيو، وإغلاق مركز تعذيب البشر هذا. استلقيت على الأرض وانتظرت. اشتدّت رائحة البنزين كثيراً. تذوّقت الصفراء في فمي، وشعرت بتشنجات تحت لساني.

ســمعت صــوت علــبة أخــرى ترطم بالأرض. وشاهدت أقدام بومرليو قرب الزاوية. لم يُغلق الباب الخلفي هذه المرة.

تتبّعت وقع الأقدام التي وصلت إلى الرواق، ثم وصلت إلى الغرفة الخلفية.

همستُ بصوت خافت: "يتعيّن علينا أن نتحرّك يا تاوني!"

بدا أن لا فائدة من ندائي هذا. أيقنت أنني مضطرة إلى التصرّف بمفردي.

قوّســت ظهــري، وجهدت بكل طاقتي كي أحرّر كاحليّ من معصميّ. صمدت العُقَد، وكدت أصرخ من فرط الألم والإحباط.

تــردّد صــوت تحــرّك بومرليو مجدداً في الصالة، ثم تلاشى عند وصولها إلى الغرفة المجاورة. وصلت خطواتها بعد لحظات قليلة إلى الرواق.

استلقيتُ على الأرض.

بدأ الوقت بالنفاد.

توقّفت الخطوات قبل إسراعها باتجاه الكرسي المزوّد بمسند. سمعت صوتاً يشبه المواء، ويقترب من صوت الهررة أكثر من الصوت البشري، ثم ما لبثت الخطوات أن انحرفتْ باتجاهي.

- "إذاً، أرى أن فأرتيّ قد استيقظتا!"

إن بقائـــي بوضـــع ســـلبي كان شيئاً بلا معنى. استجمعت قوتي التي أتتني من الأدرينالين، وتدحرجت منقلبةً على ركبتيّ، ثم نظرت إلى الأعلى.

بدت بومرليو مثل تمثال من الأبنوس وسط هذه الظلمة البائسة. رأيتها مثل شبحٍ يحمل علبة قهوة. فاحت رائحة البنزين في أرجاء الغرفة.

اجتاحنـــي الخـــوف من أقصى عصبٍ في جسمي إلى أقصى عصبٍ في النهاية الأخرى منه. هل أطلب العطف؟ هل أتملّق؟ هل أتّهم؟ أم هل أستجدي؟

تساءلتُ إن كانت آن قد استطاعت الخروج بطريقة ما: "أين هي صديقتي؟"

تلقّيت نظرة خبيثة من بومرليو: "لم تستطع الصمود. فشلت في اجتياز المرآة".

صرخت فيها بيأس: "لم يقتل كاتس تلك الفتيات. أنتِ من قام بالقتل".

تقدّمت بومرليو مني، ولاحظت أن وميضاً رمادياً يضيء وجهها، فقالت بصوت أجش: "قتل؟ ما هي اللذة في ذلك؟"

- "أنت عذّبت وجوّعتِ تلك الفتيات".

- "فشلت الفتيات في اجتياز مرآتي".

- "آنجي روبنسون".

أحسستُ، أكثر مما شاهدت، التوتر الذي سيطر على بومرليو. تابعت محاولتي: "قولي لي لماذا فعلتِ ذلك".

قالت بنشوة: "أتريدين الصدق، أم تمنياتي؟"

- "ماذا فعلتِ بصديقتي؟"

- "أتريدين أن أقول الصدق، أم تمنياتي؟"

يا إلهي القدير! إن هذه المرأة تستمتع بهذا!

- "أنتِ أقدمتِ على تعذيب تاوني".

ارتســـمت ابتســـامة بدائـــية علـــى شـــفتيها: "كانت مجرد آليس أخرى في بلاد العجائب".

- "أقدمتِ على قتل فتيات صغيرات".

- "تصمد بعضهن، بينما تنهار أخريات".

- "أعطِني أسماءهن".

- "لماذا؟"

- "تمتلك عائلاتهن الحق بمعرفة ما جرى لهن".

- "فلتذهب عائلاتهن إلى الجحيم، وأنتِ لن تستطيعي إخبار عائلاتهن أيتها الحمقاء! لن تستطيعي قول أي شيء لأي شخص".

قلتُ بنبرةٍ مستعطفة: "بحث أهلك عنك لمدةٍ طويلة".

أجابت بمرارة: "لم يبذلوا ما يكفي من الجهود".

قلت كاذبةً: "إنهم مشتاقون إليك. يريدونك أن تعودي إليهم".

- "لا أنوي العودة".

- "هناك أشخاص مستعدون لمساعدتك".

- "تحطّمت المرآة الآن".

ومضت صورة في ذهني. شاهدت شقتي، والصور المهشمة، والمرايا المحطمة.

قالت بصوت يشبه الغناء: "تعجز كل خيول ملك الموت، وكل رجال ملك الموت، عن إرجاع الهالكين إلى الحياة".

- "ماذا حدث لأنجي روبنسون؟"

- "إنها مجرد فتاة ضائعة أخرى".

- "هل ضاعت؟ أم تحطّمت؟"

- "إنها تحت الكثير من التراب".

احمليها على الاستمرار بالكلام!

- "متى ماتت آنجي؟"

- "ماتت قبل وصولي".

- "أعرف ماذا حدث يا آنيغ. إنني أفهم ماذا حدث. أنزل كاتس بكِ الأذى، ثم حملكِ على إنزال الأذى بالآخرين".

- "من هو كاتس؟"

- "مينارد. قتل كاتس مينارد ثم استخدم اسمه".

انطلق الهواء من شفتيها: "مينارد... كاتس... إنهما هاويان".

- "كان شريراً. عذّبكِ، وعذّب آنجي روبنسون. اضطررتِ إلى مجاراتِه لإرضائه".

أشارت إلى صدرها بإصبعها: "لم أشارك في اللعبة. أنا حكمتُ، وأنا كنتُ الملكة".

كيو هي ملكة الكوبّة في ورق اللعب.

- "فعلتِ ذلك اضطراراً لكي تبقي على قيد الحياة".

- "أنت لا تفهمين الوضع. أنا هي الملكة، ولست الطريدة".

استمرّي بمجاراتها.

- "أعرف هذا. أنتِ القوية هنا يا آنيغ. أنتِ أطلقت النار على كاتس".

- "تحوّل ليصبح جباناً".

- "وخنقتِ لويز بايرنت كذلك".

- "منحتها قتلاً رحيماً".

اســتدعى عدم اكتراثها الوقح هذا غضباً يائساً ووحشياً من جهتي. عجزت فجأة عــن الســيطرة علـــى نفسي. تخلّيت، من دون قصدٍ مني، عن محاولاتي إقامة حوار معها، فحاولت النهوض وتحرّكت. امتلأ وجهي بحبيبات العرق، فتدحرجت على طول ظهري.

- "أنتِ عاهرةٌ وقاسية القلب!"

ضـــحكت بومرلـــيو، ونهضت على أطراف أصابعها بطريقة إيقاعية، ثم انحنت علـــى عقبـــيها مثلما يفعل طفل مليء بالحماسة، وانتظرتني حتى تراخيت في جلستي بينما كنت أتأوه من شدة إنهاكي.

قلت لاهثةً: "سيجدك رجال الشرطة، ولن تتمكّني من الهرب".

وضـــعت بومرليو إصبعاً تحت ياقتها التي تحيط بعنقها. ارتسمت ابتسامة حقودة علـــى ذلـــك الوجـــه الشاحب الذي يشبه وجوه الأموات. انطلقت تقول بطريقة تشبه الإنشـــاد: "انتشلت ثلاثة أجساد من تحت الرماد، لكن الحمد لله، وبفضله، نجت ضحية واحدة من ألسنة النيران".

فتحـــت بومرليو غطاء العلبة، وسكبت البنزين على ثيابي. شعرت أن معدتي قد تحرّكت من مكانها، وأن قلبي طار إلى حنجرتي.

اهدئي! ابقَيْ هادئة

رمـــت بومرلـــيو العلـــبة على الأرض، ثم توجّهت نحو الرواق. سمعتها أثناء عبورها الصالة، ثم وهي تتحرّك نحو المطبخ، وبعد ذلك عندما دخلت إلى غرفة النوم الخلفية. دخلتْ بعد ذلك إلى الغرفة التي تقع إلى جوارنا. لاحظت أنها توقّفت قليلاً في كـــل غرفة. انتقلت أفكاري نحو آن. شعرتُ بأسفٍ شديد تجاه آني. شعرت أنني آسفة

جداً، وغبية جداً. اقترفت خطأً كان يجدر بي أن لا أقترفه بإقحامها في هذه القضية.

انتشرت رائحة حادة ملأت هواء المنزل. يا إلهي القدير!

صرختُ: "أركضي يا تاوني! أسرعي بالخروج!"

تلويت في مكاني، وشعرت أن صدري يحترق، واخترق الألم رأسي.

عادت بومرليو بعد دقائق قليلة. لاحظت أن وجهها ينطق... بأي شيء يا ترى؟ بالابتهاج؟ أم بالحبور؟

صـــرخت بـــأعلى صوتي: "سيتّصل الجيران بالرقم 911، ولهذا لن تتمكّني من الفرار بعيداً".

- "ستموتين عندها مختنقة من الدخان".

أشـــعلت بومرلـــيو عود ثقاب، وقبعت تراقب اللهب الضئيل وهو يُحدث صوتاً خافتاً قبل أن يتزايد.

- "أراكِ في كاندي لاند".

نفضت معصمها.

ســـمعت فرقعةً صاخبة، وشعرت بالحرارة ورائي، ثم رأيت الغرفة تتراقص في الضوء البرتقالي المضطرب.

الفصل 37

ضـــمُرت ومضة اللهب بعد تفجّرها الأولي، لكن الدخان الأسود الخانق بدأ يملأ الغرفة.

لـــم أســـتطعِ الـــنهوض على قدَمي. شدّتني الحبال التي تشدّ وثاقي إلى الخلف، ووجدت أن كاحليّ مربوطان مع معصميّ. تحرّكت كي أستند على ركبتيّ.

شـــعرت بحـــريق في عينيّ، وبحنجرتي تكاد تنسلخ من الداخل. بدأت الحرارة بالـــتزايد، وأخـــذ جسدي بالارتعاش. لن تنطفئ هذه النار من تلقاء نفسها. يتعيّن عليّ الخـــروج وإلاّ ســـأموت. تراقصت في مخيلتي مشاهد عظام كلسية بيضاء في موقدة حطب. وتراءى لي هيكل عظمي متفحم في قبو محترق، وجسدان متفحّمان في طائرة سيسنا محترقة.

صرخت بصوتٍ عالٍ: "تشجعي يا برينان. فكّري!"

أخذت عدة أنفاس قصيرة، سعلتُ، وكرّرت صلاتي. صرخت ثانية: "فكري!"

شعرت بجَيَشانٍ في معدتي. بلعت ريقي، وتكلّمت ثانيةً بصوت عالٍ، وهذه المرة وجّهت كلامي إلى تاوني.

- "تاوني! هل تسمعينني؟"

أزّت النـــيران من خلفي وفرقعت. لم أرَ سوى الدخان الكثيف من ناحية تاوني. صرخت مجدداً: "تاوني!"

تلوّيـــت علـــى جنبـــي، وجرّبت الزحف مستخدمةً وركيّ وركبتيّ. انزلقت عبر الســـجادة، وتســـبّبت كـــل اندفاعة بألم في كتفي، وباحتكاك وجهي بها. سمعت زعيقاً تصـــاعد من الكرسي المزود بمسندٍ بينما كنت في اندفاعتي الثالثة. جمدتُ في مكاني، وانتصبتْ كل شعرة من شعرات رقبتي وذراعيّ.

- "تاوني!"

استمرّ العويل، بنغمة عالية الطبقة. يا إلهي! هل تحترق؟

صرختُ: "أتستطيعين التكلم يا تاوني؟"

بدأ العويل بالتلاشي ليحل السعال محلّه. وجّهت حديثي إلى نفسي أكثر مما وجّهته إلى تاوني: "أصمدي أيتها المكافِحة، أنا آتية".

ارتطم جسدي بالكرسي بعد ثلاث اندفاعات. أحسست بطبقة كثيفة من البنزين والغبار تنتشر على جلدي. قلت لاهثةً بأعلى صوتي: "غطّي فمك، وانزلي إلى الأرض، إن كنت تستطيعين".

تزايد السعال بوتيرة هستيرية.

دفعت الكرسي إلى الأعلى مستخدمةً كتفي، ثم تراجعتُ إلى الخلف مستندةً على ركبتيّ، وجرّبت أن أهزّ الكرسي مرة بعد أخرى.

صرخت: "تاوني! انبطحي. الآن!"

سمعت جلبةً ورائي. رأيت جداراً غطته ألسنة اللهب التي اندفعت نحو السقف، ثم انغمرت الغرفة بالضوء البرتقالي الداكن.

شعرت بحركةٍ من حولي. نزلت تاوني مرتطمةً بالأرض بركبتيها، وتكوّمت على أطرافها قبل أن تنهار متكومةً إلى جانبي. شعرت بعوامل الغثيان، والألم، والخوف تسيطر عليّ، وبالكاد استطعت التنفس، وبالكاد استطعت التفكير. شرع دماغي برسم صورٍ لم أرها بالفعل.

تدلّى حبل من طوق يُستخدم للكلاب من رقبة تاوني، ولاحظت أن رجليها ويديها غير مقيدة! استدرتُ نحوها، وسعلتُ: "تاوني، عليك أن تساعديني. تستطيعين أن تنقذينا نحن الاثنتين يا تاوني. تستطيعين أن تنقذينا نحن الاثنتين".

انكمشت تلك الكتلة البشرية أكثر فأكثر.

فكّري يا برينان، فكّري! هل تمكّنت النيران المنتشرة من إنزال أذية أكبر بها؟ هل استطاع ذلك الأمر الصارخ أن يؤثّر بها أكثر من الأمر الصادر إليها بلطف؟ هل هي مبرمجة لتلقّي الأوامر؟

صرخت بها: "فكّي قيودي يا تاوني!"

اندفعت تلك الرقبة الهزيلة.

- "الآن يا تاوني، الآن!"

استدارت تاوني نحوي. التقت عيوننا وحلّت الشفقة مكان قراري بزيادة تصلبي تجاهها.

- "ستذهبين إلى منزلك يا حبيبتي. ستذهبين إلى مانيواكي، وإلى والدتك".

أحسست بالنيران تجتاح صدري. سعلت بطريقة هستيرية.

قلت بصوت مختنق: "ستذهبين إلى ساندرا".

ومض شيء ما في عينيها الغائرتين.

كرّرت قولي: "ستذهبين إلى ساندرا".

تراخى وجه تاوني، وكأن ذلك قد حصل بسبب عودة عالم ظنّته انتهى إلى الحياة في عقلها. فتحت فمها، وارتعشت شفتاها، قبل أن يرتسم عليهما شكل الحرف O.

كرّرت مجدداً: "إلى ساندرا".

استدارت تاوني من دون أن تنبس ببنت شفة، وزحفت تحت الدخان، ثم اتّجهت نحو آخر المنزل.

حاولت الإمساك بها، لكن الحبال منعتني. قلت بصوت متكسّر: "تاوني!"

استمرّيت بالسعال حتى آلمني بطني، وكدت أن أتذوّق طعم الدم في فمي. انتهت النوبة والتفتّ لأنظر نحو الجهة التي قصدتها تاوني. لم أرَ شيئاً غير الدخان الأسود الكثيف. شعرت بهبوط في قلبي. ها أنني تُركت لأموت وحيدة.

يا إلهي القدير! هل أنا لوحدي بالفعل؟ هل ماتت آن وانتهت؟ ناديت بأعلى صوتي: "تاوني! أرجوكِ".

لا جواب.

بدأت أتلوّى وأتقلب كما فعلت من قبل. أصابني الانهيار نتيجة الإرهاق كما حدث معي من قبل، وسقطت على السجادة المتسخة. شعرت أن جلدي منسلخ، بينما كانت رئتاي تعانيان.

بدأت الغرفة تتلاشى بالنسبة إليّ. فكّرت، وأنا بحالة تشبه حالة من تلقّى تنويماً مغناطيسياً: "سأموت. سأموت. سأموت".

سمعت بعد ذلك صوت كشط وقرعٍ عنيفين. بدا الصوت كأنه ناتج عن فتح أدراج ثم إغلاقها بقوة ثانية. مرّت لحظات قليلة قبل أن أتبيّن شكلاً داكناً يتقدّم وسط الدخان باتجاهي.

ومض جلد تاوني مثلما يلتمع المرمر. غطت فمها بيدٍ، وتمسّكت بالأخرى بأداة مفلطحة وطويلة.

ماذا؟

تحرّكت بعصبية. التمع نصل سكين بفعل ضوء النيران. سكّين!

بـــدت مفاصـــل يـــد تاوني بيضاء وخالية من الدم. حدّقتْ للحظة بيدها، وكأنها تحـــاول التفكير بجدوى وجود السكين معها. انحنت تاوني وقلّبتني حتى لامس وجهي السجادة. شعرت بأنفاسها على رقبتي، وبثقلها على ظهري.

يـــا إلهي! ستُقدم هذه المرأة على طعني. ما تزال كيو تتحكّم بها. انتظرتُ طعنة نصل السكين في ظهري، لكنني شعرت بدلاً من ذلك بضغط على معصميّ، وسمعت صوت نَشْرٍ. انكبّت تاوني على قطع وثاقي! جهدتُ كي أرفع رأسي لأتنفّس.

– "أسرعي يا تاوني، أسرعي!"

دفعت الحبال نحو الخارج بينما أخذت تاوني تقطع الحبال بحركة دؤوبة. شعرت بخَدَرٍ في ذراعيّ، ثم أحسستُ بانحسار ضغط الحبال عني شيئاً فشيئاً.

انطلقت يداي بحرية مبتعدتين عن بعضهما بعد فترة حسبتها دهراً. دفعت برجليّ نـــزولاً ثـــم انقلبت على ظهري. اخترق الألم عمودي الفقري، ثم عَبَر كتفيّ ووركيّ. شعرت بوجود غشاوة أمام عينيّ. قلت وأنا ألهث: "أعطني السكّين".

رأيـــت جســـد تاونـــي كأنه أصبح جسدين، ثم سيطرت عليّ نوبة سعال جعلتني أتـــراجع. أمسكت بالسكين ثم أسقطتها. شبكت يديّ وحرّكتهما، ثم ضربتهما بالأرض. فعلت ذلك مرة أخرى حتى أصبحت قادرة على الإمسالك بمقبض السكين.

استغرق تحرير كاحليّ بضع لحظات أخرى. حاولت أن أنهض فتعثّرت، وقبعت تاوني إلى جانبي مطوّقة العنق وهي تسعل.

بحثت بيد واحدة عن وسادة. نجحتُ بتمزيق غطاء الوسادة الخارجي إلى نصفين بعد محاولتين مني. تحوّلت هذه القطعة إلى كمامتين. وضعت إحداها فوق أنف تاوني وفمها، ثم أخذتُ راحة يدها وجعلتها تضغط عليها. ووضعت الأخرى على وجهي.

اخترقـــت أصابع قدميّ وخزة جليدية. اندفعت لأقف ودفعت إحدى ركبتي قدماً. حرّكت إحدى يديّ. قدّمت ركبة أخرى، وأيقنت أن أطرافي تعمل جيداً. أمسكت ذراع تاونـــي وســـحبتها. زحفنا معاً على قوائم ثلاث من الرواق باتجاه مدخل المنزل حيث كانت ألسنة اللهيب أخفّ قليلاً.

تلاعبـــت نســـائم الليل الباردة بمنخريّ بعد أن ابتعدنا مسافة ست أقدام. انحنيت قلـــيلاً، واندفعـــت بيأس نحو الرواق. فتحت الباب، فتعثّرت بسترتي المقلنسة. دفعتها جانباً، ثم اندفعت إلى الخارج، وسرتُ في الممشى بينما كنت أجّر تاوني خلفي.

امتلأ هواء الليل برائحة منعشة من الجليد والخيول والحياة. بردّت الرياح وجهي المتصــبب عــرقاً، وعلقت بعض حبيبات الجليد على خدّي، وما لبثت أن انزلقت عن كتفيّ ووجهي.

مســحت الدموع عن عينيّ، ثم نظرت نحو تاوني. رأيت أنها شبه عارية وهي تجلس على الجليد، وقد انخرطت بالبكاء راحت ترتجف كما يفعل طفل مرتعب.

حدقــت إلــى المنزل الموجود خلفي. تدافع الدخان من بعض النوافذ، وتصاعد بشــكل عمــود مــن الــباب الأمامي الذي فُتح منذ وقت قريب. تزايدت ألسنة اللهب وتســارعت بفعــل الهــواء المــندفع إلى داخل المنزل. لم أجد أية دلائل أخرى على الكابوس الدائر داخل هذا المنزل.

تجمّد صدري وسط تنهده. أصغيتُ جيداً... لم أسمع صوت صفارات الإنذار. لم يــتوجّه أحد باتجاهنا! ذلك يعني أن آن لم تتّصل بأحد! ولم يفعل هذا أي شخص آخر بالطبع. ارتفعت يدي إلى فمي.

آن! أيُعقــل أن تكــون على قيد الحياة؟ تحدّثت كيو عن ثلاثة أجساد غارقة في الرماد. هل آن ما تزال في الداخل؟

اندفعتُ إلى مدخل المنزل، تناولت سترتي وأسرعت عائدة، وجثمت لأتمكّن من تغطية تاوني. تساقطت حبيبات الثلج على السترة وارتدّت عنها.

- "هل رأيتِ امرأة أخرى في المنزل؟"

استمرّت تاوني في نحيبها وارتجافها.

أمسكتها من كتفيها وكرّرت سؤالي، فأومأت تاوني بالإيجاب.

- "أين؟"

ارتعشت الكتفان النحيلتان. صرخت بها: "أين؟"

- "على الأرض".

- "في أية غرفة؟"

نظرت نحوي، لكنها لم تتكلّم.

- "في أية غرفة يا تاوني. في أية غرفة؟"

هززتها وكرّرت سؤالي. رأيت وجهها ملطخاً بالرماد، وقد امتلأ شعرها بحبيبات العرق: "إنها في الخلف... القبو... أنا لا أعرف".

وقفت دون حراك وتردّدت. صفعت أنفي رائحة الحريق الحادة، بينما تزايد حجم

الوميض البرتقالي اللون.

لم تجد آن الوقت الكافي للاتصال برقم النجدة 911! يتعيّن عليّ أن أعود لأبحث عنها! لكني كنت مبللة بالبنزين.

ففككــت حذائــي بأصابع مرتجفة وخلعته. نزعت ملابسي عني وبقيت بملابسي الداخلــية، ثم دسست قدميّ ثانية في الحذاء. بلّلتُ غطاء الوسادة بالثلج وانطلقت عائدة إلى المنزل، بينما اعتصرت رأسي دوامة من الألم. قرفصت بعد أن دخلت من خلال الباب المفتوح، ثم مشيت بهذا الوضع من خلال الدخان.

اتجهت متعثرة نحو الكرسي ذي المسند. تناولت غطاء تاوني، وغطيتُ كتفيّ، ثم شــققت طريقي نحو الجهة الخلفية من المنزل. حاولت مجدداً أن أتذكّر تصميم القاعة الخلفــية. نجــح دماغــي المعذب هذه المرة برسم تصميم لهذا القسم من المنزل. يقع المطــبخ إلــى اليســار، وتقع الصالة إلى اليمين، بينما يتواجد مكتب، أو غرفة نوم، وراءها. يبدأ الدرج المؤدّي إلى القبو من غرفة النوم التي تقع أمامي مباشرة.

امتلأ الممر بالدخان مع أن ألسنة اللهب لم تصل إليه. تحسّست طريقي على غير هــدى، وشــعرت بــألم شديد في صدري وحنجرتي. ضجّت أوتار ركبتيّ من الألم، وارتطــم مرفقي أو ساقي بعدة أشياء بين حين وآخر. تابعت طريقي متخبطة بعد أن مددت يدي، أما يدي الأخرى فوضعتها على فمي. اتّجهت أفكاري نحو آن فقط.

اصطدمت يدي الممدودة بشيء صلب. انقلبت معدتي، وتذوقتُ طعم الصفراء في فمي.

وضــعت راحة يدي على الباب فوجدته ساخناً. تحرّكت براحة يدي إلى الأعلى فوجدت الباب أكثر سخونة.

يا إلهي! لا!

لمست مقبض الباب، فوجدته حاراً جداً. أدرت المقبض، وفتحت الباب قليلاً.

رأيــت ألســنة اللهب تتلوّى من السرير وتلتفّ حول الستائر الموجودة في آخر الغرفة. رأيت شكلاً ما وسط الظلال المتراقصة.

فتحت الباب على مداه.

- "آن!"

لم يتحرّك ذلك الشكل.

- "آني!"

لا حركة.

وضـــعت قطعـــة القماش جانباً، وزحفت باتجاه آن، ثم نزعت الغطاء عن كتفيّ وطويته عدة طيات ووضعته إلى جانبها.

تفجّر الألم في رأسي عندما جلست. أجبرت موجات الألم على التراجع إلى خلفية قعـــر جمجمتـــي. حشدت ما تبقّى لي من احتياطات بدأت بالنضوب، وقلبت آن فوق الغطـــاء، ثم غطّيتها به. انفتح الغطاء فدسسته ما بين جسد آن وبين الأرض. تحسّست بيدي طرف الغطاء، وربطت زاوية منه على كل يد من يديّ، ثم بدأت بالانسحاب من الغرفة، وبعد ذلك من الصالة.

شـــعرت أن آن تـــزن ألـــف رطـــل. حاولت أن أطمئنها من خلال كمامتي. لم أخصّـــص وقـــتاً كي أتفحّص نبضات قلبها. هل ما زالت على قيد الحياة؟ أرجوك، يا إلهي!

جهـــدت بجـــرّ عربتي المرتجلة، ونجحت بالتقدم بوصات قليلة مع كل اندفاعة. شـــعرت بتصلب شديد في ذراعيّ وساقيّ. استمرّيت بالسحب مرة بعد أخرى. رحت أســـعل وســـط لهاثي المستمر، ويئست كل خلية من خلايا جسدي من الحصول على نصيبها من الهواء. أجفلت عندما انفجر، أو ارتطم شيء ما في المنزل. تراجعت إلى الـــرواق، وأدرت رأسي يمنةً ويساراً لأحصل على تقييم سريع للوضع. استطعت أن أرى مـــن خلال الدخان المنتشر ألسنة اللهب وقد أحاطت بالجدران. لاحظت أن ممراً ضيقاً في الوسط لم تحاصره النيران بعد.

انعطفت باتجاه القاعة الأمامية بعد وقت خلته طال لساعات عدة. شعرت بحريق فـــي عينيّ، وبحريق آخر في صدري، وبحريق ثالث في معدتي. استندت بيدي على إطـــار الـــباب. انحنيـــت وتقيأت المزيد من الصفراء. أردت أن أجلس على الأرض وأتكوّر على نفسي، ثم أستغرق بالنوم.

هدأت معدتي قليلاً، فأعدت إمساك الغطاء. ارتعشت ذراعاي ورجلاي وترنّحت إلى الخلف أثناء سحبي الغطاء بكل قوتي اليائسة.

تحـــوّل الرواق إلى جحيم. وزحفت ألسنة اللهب على الأثاث الخشبي، والتهمت طاولـــة المكتب، ثم أحاطت بالأريكة. فرقع أثاث المكتب قاذفاً بعض الكسرات نتيجة الاحـــتراق، وانتشرت الشذرات والشرارات باتجاه الصالة الأمامية والرواق. تخطّيت حـــدود الوعي، وتخطّيت حدود التفكير. أدركت فقط أنه يجدر بي أن أستمرّ بالسحب،

وأن أتراجع لمسافة قدم أو قدمين، وأعاود السحب ثانية.

بقيت مسافة خمس ياردات ورائي تفصلني عن المدخل الأمامي للمنزل.. ثلاث ياردات.. ياردتين..

انشغل عقلي بترديد صلاة تحثّ جسدي على عدم الفشل. حثّته الصلاة على اجتياز الرواق. وحثّته على اجتياز عتبة الباب. وحثّته على الوصول إلى الباحة الأمامية.

تهالكت على الأرض عندما تأكّدت من أن رجلَيْ آن أصبحتا خارج المدخل، ثم وضعت أطراف أصابعي فوق حنجرتها. لم ألاحظ نبضاً محسوساً.

- "ستكونين بخير يا صديقتي الحميمة".

حامت نقاط سوداء خلف أجفاني. تساقطت حبيبات الثلج على ظهري، وأحسست بالأرض الجليدية تضغط على ركبتَيّ.

انتشرت حولي معزوفة ضجيج متنافرة النغمات. جهدت لتحليلها، ثم سمعت نشيجاً. هل يصدر النشيج عن آن؟ أم عن كاتي؟

سمعت صوت ألسنة اللهب في تمايلها وقذفها للشذرات المحترقة. مرّت لحظات ثقيلة، وسمعت أصواتاً.

هل هي أصوات المطر المنهمر على نبتة المغنولية؟ لا. فأنا الآن في مونتريال، وفي دي سيباستوبول. رأيت الثلج الذي يغطي عربات سكك الحديد في الباحة. أي باحة هذه؟

سمعت دمدمة محركات بعيدة. سمعت صوت أبواق سيارات مكتومة، وسمعت عويل الذئاب الشمالية في صحرائها البعيدة.

إنها ليست أصوات الذئاب، إنها أصوات صفارات الإنذار.

تجمّدت النقاط الصغيرة لتصبح نقاطاً سوداء وصلبة.

الفصل 38

إنني مع الذين يقولون إنه ينبغي على المرء أن يتجنّب المستشفيات، ذلك أن الناس يموتون هناك.

نهضت من سريري بعد مضي عشر ساعات على وصولي إلى المستشفى بسيارة الإسعاف. وضعت الرداء الذي أعطاني إياه شاربونيو في منزل كاتس الليلة الفائتة، ثم غادرت المستشفى العام.

كيف غادرت المستشفى؟ مشيتُ على قدميّ. تسلّلت كما فعلت ماك جي وبومرليو.

كتبت رسالة وداعية إلى الذين قدّموا إليّ الإسعافات اللازمة، أعفيتهم فيها من كل مسؤولية، وهو الأمر الذي لم تفعله ماك جي ولا بومرليو. بدت الكتابة بالنسبة إلي مهمة صعبةً بسبب وجود أربطة ومراهم حول يديّ الاثنتين.

أقلتني سيارة أجرة، وأوصلتني إلى منزلي في غضون عشر دقائق. اتّصل بي رايان هاتفياً في غضون عشرين دقيقة: "هل أنتِ مجنونة؟"

- "أنا أعاني من حروق قليلة ومن صدمة بسيطة. أعتقد أن الكنديين الذين يقصدون المناطق الجنوبية يتعرّضون أحياناً إلى ضربات شمس أخطر بكثير".

- "تحتاجين للراحة في المستشفى".

- "سأنام بطريقة أفضل هنا".

- "هل سعت شريكتك للخروج من المستشفى، مثلك؟"

آلمتني الابتسامة التي لاحت على وجهي مثلما تفعل الشظية: "تعاني آن من بعض الارتجاج، لذلك تبدو فكرة هروبها غير واردة".

- "أعتقد أن آن تتمتّع بالدماغ الذي يمتلكه الناجحون".

- "ستخرج غداً من المستشفى. وسنسافر جواً إلى شارلوت يوم الجمعة".

- "ستسافران إلى المكان الذي يُعتبر الشتاء فيه مناسبة مزعجة عابرة".

- "لا يستخدمون القفازات هناك، ولا حتى الرفوش".

- "هل تلت بالفعل مقطوعة فلتدخلي إلى ذلك الدير؟"

- "أرادت آن أن تـنفرد بنفسها. سعت وراء الأشياء الأوفر لها، وقدّم لها الدير غرفاً نظيفة، ووجبات محترمة، والانفراد بالذات الذي يحلم به المرء".

رجعـت بذاكرتـي إلـى الوراء. تذكّرت حبيبات الجليد فوق بطني، والنيران. تذكّرت شاربونيو وهو يصدر أوامره، وكلوديل أثناء تغطيته لي بشيء دافئ وناعم.

سألتُ رايان: َ"هل من أخبار جديدة عن بومرليو".

- "لن تستطيع الابتعاد كثيراً".

- "قد تكون في أونتاريو الآن، أو حتى ما وراء الحدود".

- "وجدنا دراجة قديمة في كوخ كاتس. أعتقد أنها كانت وسيلة تنقلها الأساسية".

- "كـيف تفسّر تمكّنها من نقل ماك جي من المستشفى العام إلى ذلك المنزل في بوان؟"

- "هـناك احتمالات كثيرة؛ إما بسيارة أجرة، أو بالباص، أو بالمترو، أو بالتنقل المجاني".

- "أين هي ماك جي الآن؟"

- "عادت إلى المستشفى العام".

- "ماذا يحصل الآن في دي سيباستوبول؟"

- "وجد رجال مكتب التحقيقات جداراً مستعاراً ثانياً في القبو".

- "يبدو أن هذا المكان هو الذي أخفت فيه بومرليو ماك جي خلال حملة التفتيش عنهما".

- "يُحـتمل هذا. وجدنا هناك جهاز الكمبيوتر المحمول الذي تستخدمه آن، وآلة التصوير العائدة لها".

- "أعتقد أن بومرليو هي التي اقتحمت منزلي وخرّبته".

- "يبدو الأمر كذلك. يُحتمل أن يكون كاتس قد ساعدها".

- "هل فعلا ذلك لإخافتي، ومنعي من متابعة قضية القبو؟"

- "أظـن ذلـك. يُحتمل أنها رأت جهاز الكمبيوتر المحمول وآلة التصوير أثناء تسـلّلها إلـى شـقتك، واعتقدتْ أنهما يعودان إليك، ويُحتمل أن تكون قد ظنّت أنهما يحتويان على أدلة تتعلّق بالهياكل العظمية. ستُخبرنا روايتها عندما نقبض عليها".

- "كيف عرفتْ مكان إقامتي؟"

- "لـــم يعـــد مكان سكنك أو عملك سرياً بفضل الصحافة. امتلكت بومرليو تلك الدراجة، وأعتقد أنها انتظرتك خارج ويلفريد ديروم، وتبعتك إلى العمارة التي تسكنين فيها، ثم انتظرت لتعرف أية شقة تضيء أنوارها".

- "أعتقد أن بومرليو مصابة برهاب المرايا".

- "بل إن الأمر يتعدّى ذلك بكثير".

- "إنها شديدة الاحتيال نظراً للطريقة التي ضلّلتنا بها".

- "وضعت طوقاً، وشريطاً، ولعبت دور الضحية".

- "صدّقتها أنا يا رايان. كدت أبكي عندما رأيتها في تلك الزنزانة".

- "إننا معرضون جميعاً لهذا النوع من الاحتيال. هل استلمتِ باقة الزهور؟"

التفتّ باتجاه طاولة السفرة. بدت الباقة بحجم لارامي في ولاية وايومينغ.

- "إنها جميلة. سأطلب من مصلحة مياه كيبيك خط مياهٍ ثانٍ لأسقيها".

شـــعرت أن قوتـــي تتناقص، وأظن أن رايان لاحظ مدى التعب الذي أعانيه من صوتي.

- "يعـــتزم كلوديل وشاربونيو إخبارك بالكثير عندما تتحسّن حالتك. أريدك الآن أن تأكلي شيئاً، وأن تقفلي الهاتف، وتسرعي إلى المطبخ لتتناولي مشروباً مدفئاً".

فعلت ما قاله بالضبط، ونمتُ حتى الظهيرة.

بـــدا اســـتيقاظي بمثابة الوصول إلى خط نهاية سباق رياضي. شعرت بانتعاش ونشـــاط كبيرين. وشعرت أنني مشبعة بحيوية عظيمة تمنحني القدرة للسير على وجه الماء. استمرّ هذا الشعور إلى أن تطلّعت بالمرآة.

بـــدا وجهـــي مليـــئاً بالبـــثور، ورأيت شعري محروقاً، أما ما تبقى من حاجبيّ ورموشي فبدت مثل مسامير صغيرة ومتجعدة.

ســـاعدني الاســـتحمام على تحسين وضعي قليلاً، لكن مساحيق التجميل أفادتني بنسبة أقل. رحتُ أتساءل عن ردة فعل كاتي عندما تراني يوم الجمعة، وتخيّلت كلوديل بأناقته المفرطة، وتجاعيده الواضحة.

- "يا للفظاعة!"

توجّهـــت إلـــى مركـــز شرطة مونتريال بعد أن أعدت ربط يديّ. قلت لموظفة الاستقبال: "أريد مقابلة العريف في التحري شاربونيو، أو كلوديل، من فضلك".

بقـــي وجـــه موظفـــة الاســـتقبال خالياً من أية تعابير عندما تحدّثت إلي باللغة الإنكليزية: "هل كانت ليلة حافلة؟"

- "كانت مثيرةً حقاً".

تخيّلت نفسي أجول في السماء. يا للعظمة! انتشر الخبر. سينشغل زملائي الذكور من رجال الشرطة بيوم مثير.

نزل شاربونيو ليسهّل مروري من خلال الإجراءات الأمنية. سألني عن وضعي، ثم تقدّمني حتى وصلنا إلى غرفة فريق عمله، وأبقى أنظاره في خط مستقيم.

دخلـــت الغـــرفة وسط الصفير والتصفيق. تناول العريف في التحري آلان تيبو كيســـاً من طاولة مكتبه، ونهض، ثم تقدّم نحوي. بدا لي أنه ينتمي إلى ذلك النوع من الـــرجال الشجعان في فيلم من إنتاج ديزني. أعرف أنه إذا احتاجت الفرقة إلى مهرّج فســـيُنتخب تيبو ليلعب هذا الدور، ذلك لأنني أعرف أنه يتمتّع بحس الفكاهة: "لسنا في الولايـــات الجنوبـــية يا دكتورة، فالطقس بارد جداً هنا في مونتريال. جمعنا مبلغاً من المال واشترينا لك بعض الثياب المناسبة".

قدّم إلي تيبو الكيس بجدية ظاهرة. احتوى الكيس على كنزة زرقاء، أما الكلمات المكتوبة عليها فكانت باللون أحمر الساطع:

لا شيء أسوأ من الطقس السيئ، سوى الملابس غير الملائمة.

- مثل اسكتلندي قديم

ظهر تحت هذا المثل رسم امرأة صنعت رجل ثلج وسط عاصفة ثلجية. بدا لون شعر المرأة برتقالياً، أما لون بشرتها فكان زهرياً. ارتدى رجل الثلج قبعة، أما المرأة فاكتفت بانتعال حذاء مستدق الكعب، وبارتداء حمالة صدر، ولباس داخلي.

قلّبـــت عينـــيّ، ووضـــعت الكنزة في الكيس مجدداً. توجّهت مع شاربونيو نحو كلوديل، وشققنا طريقينا بين الطاولات، وسلال النفايات، والأرجل الممدودة.

سمعت صوتاً من ورائي: "سيطالبك كلوديل بدفع ثمن المعطف. رتّبي الأمر مع النقيب ليضعه في خانة لوازم العمل".

سأل تيبو: "هل سيعطيك جلد النمر حافزاً ليوم الثلاثاء يا دكتورة؟"

أجابه صوت آخر: "سمعت أن يوم الأربعاء مخصص للسيرك".

وجّهت ما بقي من حاجبيّ نحو شاربونيو.

بـــدأ بالتكلم، لكن تيبو قاطعه: "لا تقلقي يا دكتورة. يمتلك كلوديل مجموعة كاملة مـــن الكلاب الصغيرة ذات الوجوه الضاحكة. إنه يعرف كيف يبقى جزءاً منه ضاحكاً بينما يسيطر الامتعاض على ما تبقى منه".

نهـــض كلوديل بعد أن تناول ملفاً من حافظة المستندات الواردة، وأسرعنا نحن الثلاثة بالتوجه إلى غرفة المقابلات.

جـــاء صوتي بارداً إلى درجة تمكّنه من الحفاظ على المثلّجات جامدة على مدى أسبوع كامل: "أرى أن ملابسي الداخلية دخلت في القضية أيضاً".

قال كلوديل: "لا يمكن إخفاء هذه الأمور".

- "أحقاً؟"

أضاف شاربونيو: "لسنا المسؤولين عن هذا يا دكتورة. صدقاً".

صدّقت كلامه بطريقة ما. رتّبنا الكراسي حول طاولة قديمة قدّمتها الحكومة.

قال كلوديل: "أعتقد أنك بحالة أفضل".

سبق لكلوديل أن ضحّى بمعطفه الكشمير ليدفئني: "نعم. أشكرك على سماحك لي باستخدام معطفك".

أومأ كلوديل، ومرّت لحظة من الصمت.

سألتُ: "هل مات مينارد؟"

أومأ كلوديل مجدداً.

- "كيف يمكنك التأكّد من هذا؟"

فـــتح كلوديل ملفه، ثم دفع صورة فوق سطح الطاولة: "اكتشفنا هذه الصورة في بيت مينارد في فيرمونت".

بدا أن الصورة المطبوعة على زاوية الورقة ذات اللونين الأسود والأبيض، هي مـــن إنتاج منزلي، أي مثل الصور التي يُنتجها الهواة. بقيت الصورة واضحة بالرغم مـــن أنها باهتة قليلاً. ظهر في هذه الصورة رجل طويل ونحيل في قبر ضحل، وبدت الركبـــتان فـــي حالـــة انثناء، واليدان مربوطتين مع الكاحلين. بقي وجه مينارد مميزاً بالرغم من بعض التشويهات نتيجة الموت.

قلبـــت الصورة على قفاها. كتب أحدهم الحرفان: س. م. بالإضافة إلى التاريخ 85/9/26.

- "هـــل أقـــدم كاتس على قتل مينارد في كاليفورنيا في شهر أيلول/سبتمبر من

العام 1985؟ وهل احتفظ بصورة عن الجثة؟"

قال كلوديل: "يعتزم مدير الشرطة القيام ببعض الحفريات بجانب مقطورة كاتس القديمة".

قلت بدوري: "اختفت آنجيلا روبنسون في تشرين الأول/أكتوبر من العام خمسة وثمانيــــن. ويقــول الجيران إن مينارد عاد إلى فيرمونت في شهر كانون الثاني/يناير التالي".

أسند شاربونيو مرفقيه على الطاولة وانحنى قليلاً: "لكنه لم يكن مينارد. أعتقد أن كاتس فكّر بتنظيم عرض الرعب الخاص به عن طريق تقليد ما قرأه في تغطية وسائل الإعلام لقضية كاميرون هووكر – كولين ستان. تابع ذلك المهووس ما يجري من يوبا ســيتي، الموجــودة إلـــى يمين الطريق الآتية من رد بلوف. وتابعت الصحافة تقديم تفصيلات متتابعة عن فتاة الصندوق".

قـــال كلوديل مقاطعاً: "حصل ذلك في وقت كان فيه كاتس يتقرّب من مينارد. لم يشـأ كـــاتس أن يكرّر غلطة هووكر عندما بقي قرب مسرح جريمة الخطف، وهكذا اعتبر أن مزرعة مينارد هي المكان الأمثل لتنفيذ خيالاته. أقدم كاتس على قتل مينارد، ثم قبع منتظراً فريسته".

قلت: "أتعني آنجي روبنسون؟"

تابع كلوديل: "خطف كاتس روبنسون ونقلها إلى فيرمونت، وما إن أصبح هناك حتى استغلّ واقع شبهه مع مينارد".

قلتُ: "أرسل شعره في ضفائر، وأطلق لحيته، ثم ابتعد قدر مستطاعه عن سكان المنطقة".

أشّر شاربونيو بإصبعه في الهواء ثم استرخى في مقعده: "أصبتِ".

سألتُ: "لماذا غادر فيرمونت؟"

قـــال كلوديل مقترحاً: "لعل كاتس أصبح عصبياً. وأعتقد أن عدداً ولو قليلاً من الجيران كانوا يعرفون مينارد بالفعل، ولعل آنجي ماتت".

– "عاشـــت آنجي، وفقاً لتقديراتي، حتى قاربت عمر الثامنة عشرة. يوصلنا هذا التاريخ إلى سنة 1988، وهي السنة التي قُتل فيها الجد والجدة كورنيو".

قال شاربونيو مندهشاً: "نعم، سنتحقّق من تلك المسألة".

قـــال كلوديـــل: "لعـــل كاتس أحبّ فكرة البلاد التي لا يطبّق فيها حكم الإعدام.

افـــترض الرجل أن وجوده ما وراء الحدود يجعل تتبعه أمراً صعباً، ولعله افترض أن أحـــداً فـــي مونتريال لا يعرف مينارد. جمع الرجل أغراضه وتوجه شمالاً لسبب لا نعرفه".

قلت: "رحل مع آنجي، أو مع جثتها".

قال شاربونيو: "خدع ذلك المحتال أقرباء مينارد بشخصيته المنتحلة، فتظاهر أنه فرنســـي وأصبح ستيفان مينارد، واستأجر محلاً من عند ساير، وفتح متجراً مثل ذلك الذي امتلكه في يوبا سيتي".

قلتُ: "فتح متجراً لهواة التجميع".

– "كان ذلك اللعين المنحرف هاوياً للتجميع بكل معنى الكلمة".

دفع كلوديل صورةً أخرى فوق الطاولة.

عرّف مكتب التحقيقات الجنائية الصورة بوصفها صورة تتعلّق بمسرح الجريمة. بدا أن موضوع الصورة الرئيسي كان لوحة خشبية مغطاة باللباد. وُضعت فوق اللوحة ثـــلاث آذان بشـــرية، اثنتان منها مكتملتين، ولم تكن الثالثة مكتملة. بدا أن هذه الآذان ممطوطة ومثبتة بدبابيس، مثلما يفعل البعض بالحشرات. توتّرت معدتي لرؤيتها.

قـــال شـــاربونيو: "أقـــدم ذلك المنحرف المريض والحقير على تجميع الأعضاء البشرية لضحاياه".

تذكّرت علامات الحزوز الموجودة على الجماجم الموجودة في مختبري.

– "لعل بومرليو هي صاحبة فكرة أخذ التذكارات".

– "أحقاً؟"

أشّـــرت نحو الأذن المجتزأة: "اقتُطعت أذن آنجي روبنسون بعد وقت طويل من وفاتهـــا، أي عندما أصبحت العظام أكثر جفافاً، ويدلّنا هذا على أن كاتس لم يفعل هذا في البداية. أعتقد أن الآذان الأخرى قد اقتطعت قبل أن تبدأ العظام بالجفاف".

– "أتستطيعين تحديد ذلك من علامات الحزوز؟"

أومأت، وبلعت ريقي.

– "فصلت تسع سنوات ما بين خطف بومرليو وخطف ماك جي. أعتقد أنه أثناء تلك المدة جرى تبدل في ميزان السلطة ما بين المختطِف والمختطَفة".

مرّر شاربونيو يده على شعره: "أي أن متلازمة ستوكهولم قد عُكست".

قلـــتُ: "احـــتُجزت باتي هيرست في خزانة لمدة وصلت إلى ثمانية أسابيع، أما

كولين ستان فاحتُجزت في صندوق لمدة سبع سنوات. اختُطفت آنيغ بومرليو في العام 1990، أي عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها".

ساد الصمت، وتأمّلنا في الضرر اللامحدود المحتمل الذي يحدث في تلك المدة من الوقت.

تكلّم كلوديل أولاً: "عُذّبت بومرليو، ثم حاولت أن تسترضي كاتس، ويُحتمل أن تكون قد اقترحت عليه الحصول على ضحية أخرى".

تدخل شاربونيو: "لعل فكرة الحصول على ضحية جديدة كانت من كاتس، ربما أصابه الطمع، فقرّر توسيع مجموعته. رأت بومرليو في تلك القادمة الجديدة وسيلة لتعزيز الحلقة: إذا أنزلت الإساءة بماك جي فإنها سترضي كاتس. استطاعت أن تتصرّف كما يحلو لها في النهاية".

قلتُ: "أصبحت المتحكَّم بها هي المتحكِمة، أو أننا نستطيع القول إن بومرليو وكاتس قد اتّحدا سوية".

استطردتُ بالتفكير أن هذا هو ما حدث مع هومولكا وبرناردو.

تابعتُ بالتذكير: "اتخذ كاتس أسيرتين إضافيتين ما بين بومرليو وماك جي. أستطيع أن أقول إنهما لم تغادرا منطقتهما، وذلك حسب تحليل نظير السترونتيوم".

تقلّصت عضلات فكّي كلوديل ثم انبسطت: "سنتمكّن من تحديد هويتهن. تستطيعين التأكّد من ذلك".

انحنى شاربونيو مجدداً نحو الطاولة: "لديّ سؤال لك يا دكتورة. إن كانت آنجي روبنسون هي أول أسيرات كاتس، لماذا إذاً كانت عظامها هي الوحيدة التي ظهرت عليها تلك المادة التي تسيل من جثث المتوفين حديثاً؟"

سبق لي أن وجّهت ذلك السؤال إلى نفسي.

– "يقوم حامض التنّيك الموجود في الجلد بدور المادة الحافظة. ويُحتمل أن تكون آنجي قد دُفنت بدايةً في مكان آخر أكثر رطوبة من قبو مطعم البيتزا".

وجّه شاربونيو ذقنه باتجاه كلوديل: "إننا نظن ذلك أيضاً. نعتقد أن الفتاة توفيت في فيرمونت فدفنها كاتس هناك، ثم عاد لاحقاً نحو الجثة. عجزنا مع ذلك عن تفسير السبب الذي جعل كاتس ينشغل بذلك. نعتقد أن ما أخبرتِنا إياه عن الأذن هو أمر أساسي في القصة".

– "عاد كاتس ليحصل على الأذن فقط، لكنه انتهى أخيراً إلى إحضار الجثة إلى

مونتريال. لماذا؟"

- "لعله شعر بأمان أكثر عندما وضعها تحت قدميه".

- "أعطـــى ســـاير المتجر لكايتس في العام ثمانية وتسعين. وإذا كان قد سبق له الحفر ونقل آنجي روبنسون في المرة الأولى، فلماذا إذاً تركها مع الاثنتين الباقيتين في تلك العمارة؟"

هـــزّ شـــاربونيو كتفيه: "بدأ كاتس هوايته الشريرة منذ أن اختطف روبنسون في العـــام خمســـة وثمانين، ولعله بدأ يشعر وكأنه قوة لا تقهر، وعدا عن ذلك، أين كان بإمكانـــه دفـــن الجثـــث؟ لا شـــك في أنه عجز عن حفر القبور في فناء آل كورنيو الأمامي".

قلت بمرارة: "استُخدم القبو لأمور غير هذه".

مرّت لحظة من الصمت عندما أخذنا نفكر بالأمر. كسرتُ فترة الصمت هذه.

- "برأيكما من هو الشخص الذي رأته لويز بايرنت؟"

قال شاربونيو: "لعلها رأت بومرليو، ولعلها رأت أيضاً إحدى الفتيات الأخريات. يُحـــتمل أن يكـــون كاتس قد احتفظ بفتياته تحت متجر رهنياته، وذلك أثناء تحضيره لعربة الاستقبال في البوان".

قلتُ: "اعترفت بومرليو أنها هي التي قتلت بايرنت".

- "لا أشـــك في أنها متورطة بهذه القضية. وجد رجال مكتب التحقيقات الجنائية عنوان روز فيشر في قبو سيباستوبول. أعتقد أن جريمة قتل بايرنت قد تمّت بتحريض مـــن كـــاتس. ويُحتمل أنه أبلغ بومرليو أن تلك السيدة العجوز قد رأته مع أسيراته في مـــتجر الرهنـــيات. أعـــتقد أنهم ظلّوا يراقبون بايرنت، وعندما اكتُشفت الجثث اعتقد الاثنان أنه ينبغي عليهما التحرّك قبل أن تتحرّك هي".

هزّ شاربونيو رأسه وتابع: "إنه أمر يدعو للسخرية، أليس كذلك؟ حاولا إخفاء كل شيء في قبو دي سيباستوبول، وهذه هي الأشياء الوحيدة التي نجت من النيران".

قـــال كلوديـــل: "لربما يفسّر هذا عدم وجود صديقتك هناك في الأسفل. أعتقد أن بومرلـــيو خطّطت في البداية لجر السيدة تورنيب إلى القبو ثم غيّرت رأيها، خشية ألاّ تمتدّ النيران إلى القبو".

شعرت أن يديّ أصبحتا بشكل قبضتين: "أو لعلها تعبت، وتركتها لهذا السبب".

تطلّع إليّ كلوديل مواجهاً عينيّ مباشرة: "كنتِ على حق بشأن الأزرار. لا أشك

فـــي أنها سقطت من كاتس أثناء وجوده في قبو مطعم البيتزا. أعتقد أن لا علاقة لهذه الأزرار بالجثث".

لـــم أشعر بارتياح نتيجة كوني على حق، بل شعرت بحزن موجع. شعرت كذلك بالإرهـــاق. وبدأت قوتي بالانحلال مثل الجزء الأعلى من جورب قديم. أرخيت يديّ وشبكت أصابعي. بقي من المهم بالنسبة لي الحصول على إجابة واحدة.

- "متى عرفتم أنني توجّهت إلى دي سيباستوبول؟"

قـــال شاربونيو: "استلمت رسالتك عندما كنت في طريق عودتي من فيرمونت. علمـــنا أن ميـــنارد قد توفّي من تلك الصورة، وعرفنا أن كاتس قتله. علمنا أيضاً أن بومرلـــيو ومـــاك جي هما على قيد الحياة. علمنا أيضاً أن كاتس قد مات. توجّهت أنا ولوك إلى المركز مباشرةً، فوجدنا التقرير الذي ورد فيه أن بصمات بومرليو موجودة على المسدس الذي استخدمه كاتس لقتل نفسه".

قلت مخمنة: "لم تكن بصمات كاتس على ذلك المسدس".

- "قال الدكتور لامانش أن يدَي كاتس كانتا خاليتين من أية آثار. تذكّرنا بعد ذلك الأشـــياء التي أخبرتِنا إياها والمتعلقة بعملية غسل الدماغ، ثم ربطنا ما بين المعطيين. توجّهـــنا على الفور إلى دي سيباستوبول وراهنّا على وصولنا إلى هناك قبل أن تجدي بومرليو وتتورّطي في متاعب كبيرة".

- "شكراً لكما".

ابتسم شاربونيو ابتسامة عريضة: "هذا هو واجبنا أيتها السيدة".

تطلّعت نحو كلوديل قائلة: "شكراً لك أيها التحري. أنا آسفة فعلاً بشأن معطفك".

أومأ كلوديل: "أبديتِ قدراً عظيماً من سعة الحيلة والشجاعة".

- "شكراً لكما مرة ثانية. أقدم شكري لكليكما".

وقفنا جميعاً، ومشيت نحو الباب.

- "دكتورة برينان".

نظرت مجدداً نحو كلوديل، فرأيت زاويتَي فمه تنفرجان عن شيء يشبه ابتسامة عريضـــة: "لم أكن من المعجبين بك من قبلِ، لكنني اكتسبت بسببك تقديراً جديداً لجلد النمر".

الفصل 39

لم أكد أستيقظ حتى اتّصل بي رايان ليلة الأربعاء. رجعت إلى عالم النوم بعد أن تمتمت عدة مقاطع: "ممم" و"آه... ها".

لـــم أتذكّـــر أي شيء حتى تسلّلت أشعة الشمس من خلال نافذتي. نظرت باتجاه السـاعة التـي أشارت عقاربها إلى العاشرة والنصف، ثم رأيت وجه بيردي على بعد بوصات قليلة من وجهي، وسرعان ما انطلق الجرس بالسقسقة.

تناولت رداء الحمام، ثم توجّهت متعثرةً نحو لوحة الأمن. شاهدت من خلال الشاشة رايان مرتدياً قبعة الميلاد. لاحظت أنها تحمل كلمتَي بابا نويل مطرزتين على فرائها.

مسّـــدت شــعري بـــيديّ، وابتسمت ابتسامة تشبه تلك التي ترتسم على الوجوه السعيدة لخدم كلوديل. شاهدت على الشاشة أيضاً انفتاح الباب الخارجي، ودخول امرأة شـابة إلـى الـرواق. شاهدت أيضاً جدائل لولبية سوداء اللون. بدت الشابة طويلة، ولاحظت قرطيها اللذين أخذا شكل طارتين.

رأيـت رايان وهو يعانق تلك المرأة التي لازمته. جذبت هذه المرأة قبعة الميلاد التي يرتديها.

جمُـدت يــدي فـي منتصف طريقها نحو الزر، وتقوضت ابتسامتي؛ إنها ملكة الغواني!

شعرت أن جبلاً من الجليد قد سقط على صدري.

استدارت ملكة الغواني، ورأيت جلدها الذي يميل إلى لون القَهوة بالحليب. بدت من تعابـيرها كأنها تنتمي إلى مكان آخر مثل تكريت أو كابول. إنها تنتمي إلى أي مكان آخر غير الرواق. ابتسم رايان وعانقها مجدداً. تلوّت المرأة، وحرّرت نفسها، ثم ناولته قبعته.

يا إله السموات! هل ينوي هذا الحقير المغرور إجراء تعارف بيننا؟

ألقيـت نظرة على صورتي في مرآة الحائط. بدت ملابسي زرية المظهر، وبدا وجهي متغضناً قليلاً، أما شعري فكان أشبه بحيوان يعيش على العوالق.

ضغطت الزر قائلة: "حسناً أيها الأحمق، أحضِرها إلى هنا".

رأيت رايان وحده عندما فتحت الباب. بدا الرواق خالياً وراءه. خبأ إذاً مراهقته الأنيقة. حسناً، هذا أفضل.

بادرته بصوت جليدي: "نعم؟"

ابتسم رايان وتفحّصني صعوداً ونزولاً.

- "هل تستضيفين دي كابريو؟"

لم أبتسم.

تفحّص رايان وجهي.

- "هناك شيء محيّر في الحواجب. إننا لا ننتبه لها إلاّ عندما تتّخذ شكلاً مائلاً".

اقترب رايان ليلمس جبهتي، فتراجعت. تابع يقول: "أو عندما نفقدها تماماً".

- "هل قدمتَ إلى هنا لتنتقد حاجبيّ؟"

- "عن أية حواجب تتحدّثين؟"

لم يترافق كلامه هذا مع أية ابتسامة. كتّف ذراعيه قائلاً: "أودّ أن نتحدّث".

- "ليس الوقت مناسباً للحديث".

- "تبدين جميلة".

أجبرت نفسي على عدم تقديم رد سريع يتضمّن كلمتَي: فتاة ومغفلة.

- "ومثيرة".

انثنى حاجباي الغائبان.

- "ونار كامنة".

تحوّل انحناء الحاجبين إلى عبوس كامل.

- "هل أستطيع أن أعود ثانيةً بعد عشر دقائق، إذا وعدتك بعدم إطلاق نكات نارية؟ أعتقد أن هذا وقت أكثر من كافٍ لتجعلي نفسك جميلة".

بدأت بالتعبير عن رفضي.

قاطعني بصدق أخّاذ: "أرجوكِ".

انبعثت انفعالاتي، فحوّلتها إلى يوم غد.

- "بالتأكيد يا رايان. لمَ لا؟"

بدأت بالإجراءات الضرورية: القهوة، ارتداء الجينز والكنزة، ثم تنظيف الأسنان، وإبدال الضمادات. انتقلت إلى تسريح شعري، ووضع بعض مساحيق التجميل على

وجهي. سحقاً لكل ذلك!

انطلق الجرس مجدداً بترديد صوت السقسقة بعد خمس عشرة دقيقة.

فتحـت البـاب، ورأيتها إلى جانبه، فجمُدت في مكاني. تسمّرت نظرات عينَي رايان بعينيّ: "أريد أن تتعرّفي بليلي".

قلتُ: "لا تفعل هذا بي يا رايان".

– "إنها ابنتي".

انفرجت شفتاي، بينما راح عقلي يحلّل معنى كلماته.

– "ليلي، هذه هي تمب".

غيّرت ليلي وضعية وقوفها، وتمتمت: "مرحباً".

– "أنا مسرورة بالتعرّف عليكِ يا ليلي".

أهي ابنته؟ يا إلهي! وجّهت نظرة تساؤلية نحو رايان.

– "تعيش ليلي في هاليفاكس".

استدرت مجدداً نحو ليلي.

– "نوفا سكوتيا؟"

إنها تعيش في نوفا سكوتيا أيتها المغفلة، بالطبع في نوفا سكوتيا.

– "نعم".

تأمّلـت ليلي شعري المجعّد، والبثور التي انتشرت على وجهي، لكنها لم تضف شيئاً آخر.

قال رايان: "حضرت ليلي إلى مونتريال في اليوم الثالث من هذا الشهر".

إنه اليوم الذي قدّمت فيه شهادتي في قضية بيتيت.

– "انشغلنا، أنا وليلي، بالتعرّف على بعضنا على مدى الشهور القليلة الماضية".

هزّت ليلي إحدى كتفيها، وانشغلت بتسوية رباط حقيبتها.

– "أشعر أنه يتعيّن على النساء المهمات في حياتي أن يتعرّفن على بعضهن".

هل قال النساء المهمات في حياته؟

بدا صوتي كأنه صادر عن قاموس تقليدي: "من دواعي سروري يا ليلي".

انتقلت نظرة ليلي نحو رايان الذي أومأ بصورة عفوية.

– "أنا آسفة بشأن المكالمة الهاتفية. ما كان يجدر بي أن أصفك بالمغفلة".

أدركت أن المرأة التي تكلّمت معي من منزل رايان يوم الخميس الماضي كانت ليلي.

ابتسمتُ: "أتفهّم هذا، لأن مقاسمتك والدك ليست بالأمر السهل".

هزّت ليلي كتفها مرة أخرى، ثم التفتت نحو رايان: "هل أستطيع المغادرة الآن؟"

أومأ رايان: "ألديك المفاتيح؟"

تفحّصت ليلي حقيبتها، واستدارت، ثم مشت إلى آخر الرواق. تراجعتُ قليلاً، وفتحت الباب على مصراعيه: "أدخل أيها الوالد".

تبعني رايان إلى غرفة المعيشة، وخلع سترته، ثم جلس على الأريكة.

استرخيتُ على كرسي بمسندين: "إنه أمر محرج".

قال رايان: "نعم، إنه كذلك".

– "لم أكن أعرف أن لديك ابنة".

– "ولا أنا، حتى شهر آب/أغسطس".

تذكّرت رحلته المفاجئة من شارلوت إلى هاليفاكس.

– "لم تكن المشكلة مع ابنة أختك".

– "بدأت المشكلة مع ابنة أختي. توجّهت جواً إلى نوفا سكوتيا بعد أن علمت بأمر الجرعة المفرطة التي تناولتها، وذلك لمساعدة شقيقتي على حمل دانييل للانضمام إلى برنامج إصلاح. تبيّن لي أن إحدى مساعدات الممرضة هي امرأة سبق لي أن عرفتها في سنواتي الأولى من دراستي الجامعية".

– "أي عندما كانت تدرس في سان فرانسيس خافيير؟"

هزّ رايان رأسه علامة النفي: "أنا كنت أدرس، لا هي. التقيتها أثناء إحدى جولاتي التي اعتدت القيام بها في أولى سنتين من دراستي في سان فرانسيس خافيير. رافقتني لوشيا في إحدى جولاتي، وكانت عضواً في فريق من الشابات المشاكسات. أطلقت الشابات على فريقهن اسم راهبات الحب المنفتح المقدسات".

وضعتُ قدميّ تحت مقعدي.

– "تعرفين القصة. انتهت جولتي المتهورة بجرح في شرياني، وبإقامة في المستشفى، بالإضافة إلى اكتسابي لنظرة جديدة بالنسبة لتجربتي في الجامعة. ذهبنا، أنا ولوشيا، كلٌ في طريقه الخاص. رأيتها مرة واحدة، ولربما كان ذلك بعد سنة واحدة من تخرجي عندما عدت إلى نوفا سكوتيا لزيارة أقاربي هناك... انتهيت، أنا ولوشيا، بتجربة مقدسة أخيرة. عدت بعد ذلك إلى مونتريال، وعادت لوشيا إلى منزلها في جزر الباهاما، ثم فَقَدَ واحدنا أثَرَ الآخر".

قلت مخمنة: "إذاً ليلي هي ابنة لوشيا".

أومأ موافقاً.

- "ألم تخبرك لوشيا أنها حامل؟"

- "خافت أن أجبرها بطريقة أو بأخرى على البقاء في كندا".

- "هل تزوجت؟"

- "تزوجـــت في آباكوس، لكن الزواج انهار عندما أصبحت ليلي في سن الثانية عشرة. نقلت لوشيا مكان سكنها مع ليلي إلى هاليفاكس".

دخل بيردي وحكّ جسمه بساقي. انحنيت لاشعورياً وحككت رأسه.

- "ولماذا أخبرتك الآن؟"

- "بـــدأت ليلي بالاستفسار عن والدها الحقيقي. وبدأت ببعض المغامرات مثلما فعلت دانييل. وعندما ظهرت أنا..."

فتح رايان يديه.

- "لكنك لم تتوقّع ظهور ليلي في مونتريال؟"

- "فتحـــت بابـــي ورأيـــتها فجـــأة. اســـتخدمت تلك الساذجة الصغيرة التنقلات المجانية".

لمسني بيردي مجدداً. مسّدته ثانيةً. ماذا كان شعوري عندها؟ هل شعرت بارتياح كبـــير لأن تلك الغانية اللعوب لم تكن إحدى مغامرات رايان العاطفية؟ أم أنني شعرت بخيبة الأمل لأنه لم يخبرني بسره قبل الآن؟

- "لماذا لم تخبرني عن هذا الأمر؟"

ابتســـم رايـــان: "كانت علاقتنا متوترة في الآونة الأخيرة. أعتقد أنني الملام في هـــذا، لأنني كنت أعاني من ضغط شديد مؤخراً، مثل ظهور ليلي في حياتي، والعملية البوليسية".

مـــدّ رايان يده إلى جيب قميصه، ثم تذكّر الحظر الذي أفرضه على التدخين في منزلي، فأنزل يده إلى حضنه.

- "يـــرجع الســـبب الأساسي لإخفاء هذا الأمر إلى أنني كنت بحاجة إلى التأكّد أكثر".

- "هل طلبتَ الحصول على برهانٍ على أبوّتك لها؟"

أومأ رايان.

- "وكيف استجابت ليلي لهذا الطلب؟"

- "جُنّ جنونها في بادئ الأمر، وبدأت بإثارة المتاعب".

تذكّـرت عودة رايان إلى التدخين، وتذكّرت نظرته القلقة. أدركت أن رايان قد خضع مؤخراً لضغوط أكبر مما تعرّضت له أنا.

- "حصلتُ على نتائج اختبارات الحمض النووي في الأسبوع الماضي".

انتظرت.

- "إن ليلي هي ابنتي فعلاً".

- "هذا رائع جداً يا رايان".

- "إنـــه كذلك بالفعل، لكن هذه الفتاة متطلبة جداً، وأنا لا خبرة لديّ بشأن الأبوة وتربية الأبناء".

- "وماذا حقّقت حتى الآن؟"

- "كانـــت لوشيا صريحة مع ليلي. أعلم أن ليلي تحبّ والدتها وستستمرّ بالعيش معهـــا، وإذا مـــا قرّرت في يوم من الأيام أنها تريد العيش مع والدها فسأكون مستعداً لذلك. يتعلّق الأمر بها في النهاية".

مشـــيت نحـــو الأريكـــة وجلست إلى جانب رايان. نظر باتجاهي، وبدت عيناه طفوليتين. أمسكت بيده.

- "ستكون والداً رائعاً".

- "سأحتاج إلى الكثير من المساعدة".

- "ستحصل عليها يا راعي البقر".

لامست وجه رايان بوجهي، وأحسست بشعيرات ذقنه على خدي.

عانقني رايان للحظة، ثم أبعدني عنه قليلاً، ونهض قائلاً: "ابقَيْ هنا".

انتظرت من غير أن أتأكّد ممّا يحصل. فُتح الباب الأمامي ومرّت الثواني. أُغلق الباب وسمعت جلبةً تبعها صوت جرسٍ يدق.

عـــاود رايان الظهور مرتدياً قبعة الميلاد، وحاملاً بيده قفصاً كبيراً. رأيت ببغاءً يتأرجح داخل القفص.

وضـــع رايـــان القفص على طاولتي الصغيرة ثم جلس إلى جانبي على الأريكة ووضع ذراعه حول كتفيّ. استمرّ الببغاء بالتطلع نحونا أثناء تأرجحه جيئة وذهاباً.

قال رايان: "ميلاد مجيد. تعرّف يا تشارلي على تمب"

توقّـــف الطائر عن تأرجحه. تأمّلني تشارلي بعينه اليسرى أولاً، ثم بعينه اليمنى

بعد ذلك.

- "لا أستطيع الاهتمام بطائر، لأنني أكون خارج المنزل معظم الوقت".

قفــز تشـــارلي من أرجوحته نحو طبق بزوره. نهض بيردي من وسط الغرفة ورفع ذيله عالياً، ثم ركّز نظره على الببغاء.

وجه رايان كلامه إلى الهر: "أريدك يا بيردي، أن تتعرّف على تشارلي".

مشـــى بـــيردي بـــبطء فوق السجادة، وبدا لي أنه نمر صغير يمضي في جولته الصـــباحية. وضـــع الهر مخالبه الأمامية على الطاولة الصغيرة، ورفع جسمه باتجاه القفص، بينما لم يتحرّك من ذيله سوى طرفه.

رفع تشارلي رأسه، ومدّ رأسه نحو بيردي، ثم أعاد التركيز على تناول بزوره.

- "إنه جميل فعلاً يا رايان".

بدا الطائر جميلاً حقاً. بدا رأسه أصفر اللون، أما جسمه فكان رمادياً.

قفز بيردي إلى سطح الطاولة، ووضع مخالبه بشكل مربع، وجلس ثم راح يحدّق بالببغاء.

- "إنها فكرة جميلة يا رايان، لكنها غير مجدية".

بدا خد الطائر أرجوانياً.

تركّـــز بـــيردي في وضعه الذي يشبه وضع أبو الهول. لفّ مخالبه إلى الوراء، وظل ينظر نحو الطائر. بدا ريش أجنحة الطائر مخططاً باللون الأبيض.

بدأ بيردي بالقرقرة، فنظرت إليه مدهوشة.

قال رايان: "يبدو أن بيردي يحبه".

- "لا أستطيع التواصل جواً مع هرّ وطائر".

- "لديّ خطة".

تطلّعت باتجاه رايان.

- "تعالي، لتعيشي معي".

- "ماذا تقول؟"

- "تعالي اسكني معي".

أحسســـت بما يشبه الصدمة. لم تخطر فكرة المساكنة على بالي إطلاقاً. هل أريد فعلاً أن أعيش مع رايان؟

نعـــم.. لا.. ليس لديّ أية فكرة. حاولت أن أفكّر بجواب مناسب. أعتقد أن كلمة

لربما تفتقر لأسلوبٍ ما، بينما تبدو كلمة لا شبه نهائية.

لم يبذل رايان المزيد من الضغط.

- "أقــدم لــك الخطة البديلة، والتي هي الرعاية المشتركة. أقصد أنني سأعتني بتشارلي عندما تكونين خارج المدينة".

نظرت نحو الببغاء. بدا لي جميلاً حقاً. ويبدو أن بيرد قد أحبّه.

مددت يدي قائلة: "موافقة".

تصافحت مع رايان دلالة على عقد الاتفاق.

- "تبقى الخطة الأولى على الطاولة في هذا الوقت".

هــل سأعيش مع رايان؟ فكرت أنه لربما كان ذلك احتمالاً وارداً. أعتقد أن ذلك هو مجرد احتمال.

قــررّت في ذلك المساء أن أزور مكتبي. أمضيت ساعة فيه قبل أن يرنّ جرس الهاتف.

- "دكتورة برينان؟"

- "نعم".

- "أنــا بامــيلا ليــندال. أنــا الطبيــبة النفسانية المكلفة من قبل هيئة الخدمات الاجتماعــية بالتأكّد من أن تاوني ماك جي تحصل على التقييم والرعاية اللازمَين لها. هل تتفضّلين بالبقاء في مكتبك لمدة خمس وأربعين دقيقة أخرى؟"

- "نعم".

- "أرغــب بالقيام بزيارة قصيرة إلى مكتبك. هل تتفضّلين بالطلب من موظفي الأمن أن يسمحوا لي بالمرور؟"

- "بالتأكيد".

تمنّيــت لــو أننــي رفضت طلبها ما إن انتهت المكالمة. أعرف أنه يتعيّن عليّ الاعــتراف بأهمــية تقديم كل المعلومات المتوافرة إلى هيئات الرعاية، لكنني أعرف أيضــاً أنني لا أحبّ تذكّر، أو رواية كل الإهانات، أو الشرور، التي شاهدتها بنفسي. فكّــرت بمكالمــة الطبيــبة ليــندال والطلب منها عدم القدوم، ثم تغلّب عليّ الشعور بالواجــب، فأسرعت بالاتصال بموظفي الأمن، وبدأت بتحضير لائحة ذهنية بالأشياء التي يمكنني إبلاغها لها.

سمعت دقة على بابي بعد خمس وأربعين دقيقة.

- "ادخل".

دخلت الغرفة فتاة نحيلة ذات شعر داكن، وترتدي معطفاً وقبعة بنيّي اللون، وتبعتها امرأة أكبر منها ترتدي ثوباً صوفياً، لكنها لا تعتمر قبعة. مرّت فترة تشوّش واضطراب، ثم توضّحت الأمور.

اقتربت الفتاة واستدارت حول طاولتي. مددتُ يديّ الاثنتين، وقلت للفتاة: "مرحباً يا تاوني".

تراجعت تاوني قليلاً إلى الوراء، لكنها لم ترفع ذراعيها.

شبكت يديّ أمامي وقلت: "أنا سعيدة جداً لرؤيتكِ. أردت أن أشكرك لإنقاذك حياتي".

لم أتلقَّ أيّ استجابة في البداية، ثم سمعتها تقول: "أنتِ أنقذتِ حياتي".

تردّدت الفتاة قليلاً، ثم قالت ببطء: "أنا طلبت إجراء هذه الزيارة لأنني أردتكِ أن تريني. أردتك أن ترَيْ أنني كائن بشري، ولست كائناً موضوعاً في قفص".

تقدّمت نحوها، لكنها ثبتت في مكانها هذه المرة. عانقتها وقرّبت رأسي من رأسها. غمرني شعور بالتعاطف مع النساء الصغيرات في السن في كل مكان، واللواتي يلاقين الحب أو الإساءة، كما شعرت بتعاطف غريب مع تاوني وكاتي وكل امرأة صغيرة في السن إلى درجة أنني شرعت بالبكاء. لم تبكِ تاوني، لكنها لم تحاول الابتعاد عني.

تركتها وتراجعت قليلاً إلى الوراء، لكنني أمسكت بيديها.

- "لم أفكّر بكِ أبداً إلاّ كإنسانة يا تاوني، وهذه هي حال الأشخاص الذين يساعدونك الآن. إنني متأكّدة من أن عائلتك تريد بشدة أن تعودي إليهم".

نظرتْ نحوي، وأسدلت ذراعيها إلى جانبيها، ثم تراجعت إلى الوراء.

- "وداعاً يا دكتورة برينان".

بدا وجهها خالياً من التعابير، لكن العمق الذي لاحظته في عينيها اختلف عن تلك النظرة الشاردة التي لازمتها في الأيام السابقة.

- "وداعاً يا تاوني. أنا سعيدة جداً لأنك جئتِ لزيارتي".

ابتسمت الدكتورة ليندال باتجاهي، ثم غادرت المرأتان مكتبي.

عدت لأسترخي على مقعدي. شعرت أنني مرهقة لكنني كنت في حالة معنوية مرتفعة.

الفصل 40

أتــت فترة الأعياد، ورحلت. أشرقت الشمس وغربت على مدى شتاء كامل من أيام الاثنين.

وجد المحققون مفكرة في قبو دي سيباستوبول. وُجدت هذه المفكرة في واحد من عشــرات الصناديق التي عُثر عليها هناك. تضمّنت المفكرة أسماء كثيرة ومن بينها، آنجيلا روبنسون، وكمبرلي هاملتون، وآنيغ بومرليو، وماري جويل باستيان، ومانون فيوليت، وتاوني ماك جي.

تعــرّف المحققون على الهيكل العظمي الذي يحمل الرقم 38427، على أنه يعود لمـــاري جويـــل باستيان، وهي فتاة متحدرة من مستعمرة أكاديا الفرنسية، أي أنها من بوكـــتوش، الواقعة في برونزويك الجديدة. سُجّلت الفتاة في سجل المفقودين في ربيع العـــام 1994. ضـــاع ملفها مع مرور السنوات، وشُطب اسمها من قائمة الأشخاص المفقوديـــن. أوحـــت تقديراتي التي توصّلت إليها والمتعلقة بالعمر والطول أن ماري جويل قد توفّيت بعد وقت قصير من أسرها.

تعــرّف المحققــون على الفتاة التي وُضعت في صندوق الدكتور إنرجي، وقالوا إنهـــا تدعى مانون فيوليت، وهي فتاة كانت في الخامسة عشر من عمرها ومن سكان مونـــتريال. اختفــت الفتاة في خريف العام 1994 بعد مرور ستة أشهر على اختفاء مـــاري جويـــل باستيان. أوحى عمر عظام مانون وطولها أنها عاشت في الأسر لعدة سنوات.

عـــادت عظـــام آنجـــي روبنسون، وماري جويل باستيان، ومانون فيوليت، إلى عائلاتهن بحلول شهر آذار/مارس. جرى دفن عظام كل فتاة من الفتيات وسط احتفال هادئ.

لم يعثر المحققون أبداً على كمبرلي هاملتون.

انخرطـــت آن وطـــوم تـــيد فـــي دورة استشارية سريعة. تدرّبت آن على لعبة الغولـــف، أما طوم فاشترى كتباً حول البستنة. زرع الاثنان عدداً لا يحصى من نبتات

الأزاليا.

لـم أتّصـل بتاوني ماك جي ثانية، لكنني علمت أنها خضعت لبرنامج علاجي مكثف داخل مركز طبي. علمت كذلك أنها انتقلت إلى منزلها في مانيواكي. أعرف أن طريق علاجها كانت طويلة، لكن الأطباء كانوا متفائلين بشأنها.

عمّمت دائرة الشرطة صورة آنيغ بومرليو عبر القارة بكاملها. أعرف أن دائرة شرطة مونتريال، وشرطة كيبيك، قد تلقّتا عشرات الإخباريات عن مشاهدات لبومرليو في أمكنة شيربروك، وآلباني، وتامبا، وثندر باي.

ويستمرّ البحث...

عن آنيغ بومرليو.

وعن كمبرلي هاملتون.

وعن كل الفتيات المفقودات.

من الملفات العدلية

للدكتورة كاثي رايكس

لا أستطيع، لأسباب قانونية مناقشة أية قضايا حقيقية من تلك التي ساهمت بالإيحاء إليّ بقصة: الاثنين الأسود، لكنني أستطيع مع ذلك مشاركتكم ببعض التجارب التي ساهمت في وضع حبكة هذه الرواية.

ساد طقس مشمس يشجع على ارتداء الملابس الخفيفة في ذلك الأسبوع من أيلول/سبتمبر. بدا أنها فترة من الجفاف قبل قدوم الفترة الباردة التي تستمرّ تسعة أشهر.

خصّصتُ يوم الرابع عشر من أيلول/سبتمبر من أجل التجول في الجبل، وممارسة لعبة كرة المضرب، أو ركوب الدراجة الهوائية في الطريق المحاذي لقناة لاشين. لم أمارس كل هذه الرياضات لأنني تلقّيت اتصالاً هاتفياً يدعونني للحضور إلى المختبرات.

انتظرتني عندما وصلت قضية طلب إبداء رأي في الأنثروبولوجيا، وُضعت فوق طاولتي. تناولت الاستمارة وتفحّصت كل المعلومات الواردة فيها.

تشتمل الاستمارة على الرقم المعطى من المختبرات، ورقم المشرحة، ورقم الحادث عند الشرطة، واسم ضابط التحقيق، واسم المحقق الجنائي، واسم الطبيب الأخصائي في الأمراض. تتضمّن الاستمارة أيضاً وصفاً للعيّنات، ويشمل ذلك بقايا أجزاء العظام. ويشمل الرأي المتخصص: التحليل البيولوجي، وطريقة حدوث الوفاة، والمدة التي مضت على الوفاة.

تطلّعت على المغلفات السمراء الثلاثة والمختومة بشريط أحمر مخصص للأدلة.

حسناً!

يقول ملخص الحقائق المعروفة إن الحادث بدأ في مرحاض احتياطي في مطعم يبيع شرائح البيتزا. تعطّلت دورة المياه في ذلك المطعم، فأسرع المالك بطلب

المســاعدة. بــدأ العمل على الأنابيب، لكن السمكري لاحظ باباً خفياً وراء خزانة ذات أدراج.

ذُهــل ذلــك الســمكري الفضولي، وراح يمعن النظر ويستطلع المكان، ثم بدأ بالنزول إلى الأسفل. زاد ذهول ذلك الرجل عندما سطع ضوء مصباحه وانعكس على عظمةٍ نصف مطمورة. صعد الرجل إلى الأعلى وأعلمَ مالك المطعم بالأمر، ثم انكبّ الاثنان على دراسة المراجع المحلية. وجدا مقالة في L'Anatomie pour les Artistes أكّدت لهما أن ما عثرا عليه في القبو ليس إلا عظمة فخذٍ بشرية.

اتّصــل الــرجلان بالشرطة التي فتّشت القبو وعثرت فيه على زجاجة، وقطعة عملة، وعلى دزينتين من العظام البشرية. أُرسلت العظام إلى المشرحة، ثم قام المحقق الجنائــي بالاتصال بمختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي. ألقى الأخصائي بعلم الأمراض نظرة واحدة على العظام، ثم رحلت لأكتشف انهيار مشاريع نهاري.

شغلني التصنيف والتحليل لعدة ساعات. استطعت في النهاية ترتيب وجود ثلاثة أفــراد علـــى طاولتـــي: فتاة بالغة كانت في مقتبل عمرها الذي تراوح ما بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين، وامرأة بالغة أخرى في منتصف عمرها، وامرأة أكبر سناً تعاني من حالة متقدمة من التهاب المفاصل. لاحظت أن الفتاة الأصغر سناً من بينهن عانت من ضربة بآلة حادة على الرأس، والفك، وفي منطقة العجُز، وكذلك في عظمتَي الفخذ والساق.

اســتدعيتُ رجــال التحري الذين أخبروني أن الزجاجة حديثة العهد، لكن قطعة العملــة قديمة وترجع إلى أواخر القرن التاسع عشر. لم يستطِع رجال التحري إثبات وجود علاقة ما بين قطعة العملة والهياكل العظمية. طلبت منهم العودة إلى القبو لأنني احتجت العثور على المزيد من العظام.

مرّ أسبوع.

تلقّيــت أخباراً سيئة من رجال التحري الذين أبدوا عدم إقامة مقبرة في الماضي في قطعة الأرض الموجودة تحت عمارة مطعم البيتزا. تلقّيت أخباراً أسوأ. أبلغ رجال الــتحري عن احتمال ارتباط أحد شاغلي المتاجر في العمارة مع عصابة إجرامية قبل نحو أربعين عاماً.

كــرّرت طلبي مجدداً لمزيد من البحث، واقترحت عليهم أن أرافق الفريق للعمل في القبو. مرّ أسبوع آخر مجدداً. ثم مرّ أسبوعان.

لماذا التردد في العودة إلى القبو؟

واجهت الرجال بهذا السؤال فتلقّيت جواباً موحداً منهم.

الجرذان!

عقدت تسوية مع الرجال. تعالوا نثبت أن الوفيات قد حدثت في غضون خمسين سـنة مضـت، ثم نمضي بعد ذلك كي ننبش القبو بكامله ولتذهب تلك القوارض إلى الجحيم.

تركّزت تحليلاتي بعد ذلك على تحديد الفترة التي مضت على الوفاة. اكتشفت أن كل عظمةٍ، وكل كسرةٍ، من العظام كانت جافة وخالية من الرائحة، أو من أثر اللحم. وجدت بصيصاً من الأمل في تقنية واحدة فقط.

شـرحت طـريقة اسـتخدام الكربون 14 الصناعي المشعّ في تحديد المدة التي انقضـت علـى وفاة شخصٍ ما، وذلك بمقابلتها مع موادٍ عضوية حديثة. وافق مكتب التحقـيقات الجنائـية علـى دفـع مصاريف ذلك الاختبار. أخذت عيّنات من هيكلين عظميين وأرسلتها إلى مختبرات شركة بيتا للتحاليل، والتي تشتمل على مختبر لتحديد عمـر الكربون المشع. يقع مركز هذه الشركة في ميامي، فلوريدا. تلقّينا النتيجة التي انتظرناها بعد مرور أسبوع واحد.

اتّضـح لنا أمر واحد بالرغم من تعقّد نتائج الاختبار. توفّي ضحايا مطعم البيتزا قبل سنة 1955.

لم تبرز حاجة إلى انحناءة إسدال الستار في راتوس، راتوس، ولربما كان علينا أن نعطي بعض الدروس للمنقبين عن الآثار.

ما زلت أفكّر ملياً بتلك العظام مع أن الملّف قد أُقفل منذ مدة. تأثّرت كثيراً عندما فكّـرت بالفتـيات الـراقدات في قبور مجهولة، في قبو مجهول، بينما يستمرّ الأحياء بالعمل فوقهن بطابق واحد.

أعطني علبة بيبسي من فضلك، وقطعة نقانق بالبهارات مع جبنة لآخذها معي.

ماذا كانت الفتيات لتقلن في ذلك؟

المؤلفة في سطور

كاتـــي رايكـــس هـــي عالمة شرعية بعلوم الإنسان. تعمل في مكتب رئيس المحققين الطبيين في ولاية كارولينا الشمالية، وهي تعمل كذلك في مختبرات العلوم القضـــائية والطب الشرعي في مقاطعة كيبيك. تعمل المؤلفة من ضمن فريق يبلغ عـــدده ســـتين شخصاً من المحققين الجنائيين المجازين من قِبل المجلس الأميركي لعلـــوم الإنســـان الشـــرعية. عملـــت المؤلفة من ضمن اللجنة العليا لمجلس إدارة الأكاديمـــية الأميركية للعلوم الشرعية. الدكتورة رايكس، وهي من مواطني مدينة شـــيكاغو حيث تسلّمت درجة دكتوراه من جامعة نورث ويسترن، تدرّس مادة علم الإنســـان (الأنثروبولوجيا) في جامعة كارولينا الشمالية الواقعة في مدينة شارلوت. إنهـــا تقسّـــم وقـــتها حالـــياً ما بين مدينتَي شارلوت ومونتريال، كما أنها كثيراً ما تُســـتدعى لـــتقديم شهادتها كخبيرة في المحاكمات الجنائية. جلبت رواية الدكتورة رايكس الأولى: إنه ميْت. الشهرة لها عندما وُضعت على قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في جريدة نيويورك تايمز، وكذلك عندما نالت الرواية جائزة إيليس عام 1997 عن أفضـــل أول روايـــة. تتابعت رواياتها: ميت النهار، قرارات قاتلة، الرحلة القاتلة، أسرار خطرة، وعظام جرداء، وكلها احتلّت مكانها في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في جـــريدة نـــيويورك تايمز. تُعتبر رواية الاثنين الأسود سابع رواية تجسّد شخصية تمبرانس برينان.

رواية جنائية مثيرة أخرى تجسد شخصية تمبرنس بريثان من كاثي رايكس عالمة الأنثروبولوجيا المعروفة عالمياً، وهي المؤلفة التي تربعت مؤلفاتها طويلاً على قائمة الكتب الأكثر مبيعاً لجريدة نيويورك تايمز...

تعمل تمبرنس بريثان بصفتها خبيرة الأنثروبولوجيا القضائية لولاية كارولينا الشمالية، وفي كويبيك. أتت تمبرنس من مدينة شارلوت إلى مونتريال في الأيام القارسة التي يتميز بها شهر كانون الأول / ديسمبر، وذلك لتقديم شهادتها كخبيرة في محاكمة جنائية.

يُفترض بتمبرنس مراجعة مدوناتها، لكنها تجد نفسها بدلاً من ذلك في قبو مطعم بيتزا. وجدت نفسها وسط البرد القارس والجرذان الزاحفة. لم يكن الأمر مسلياً، وعلى الأخص بعد أن اكتُشفت بقايا عظام ثلاث نساء.

KATHY REICHS

BARE BONES

MONDAY MOURNING

كيف وصلت هذه العظام إلى القبو؟ ومتى حدثت وفاتهن؟

يعتقد كلوديل، وهو رجل التحري الجنائي الذي لم يكن من المعجبين بتمبرنس، أن العظام قديمة العهد، ولذلك فلا شأن له بهذه القضية. وجد صاحب مطعم البيتزا ثلاثة أزرار في القبو إلى جانب الهياكل العظمية، ويعود تاريخها للقرن التاسع عشر. اعتبر كلوديل هذه الأزرار بمثابة دليل على قدم عهد العظام.

بقي شيء واحد بلا تفسير. تتفحص تمبرنس العظام في مختبرها وتستنتج عمرها التقريبي باستخدام تقنية الكربون 14. كما دلت الفحوصات التي أجرتها على طبقة ميناء أسنان الهياكل على مكان ولادة النساء. وإذا تبيّن أنها محقة فسيجد كلوديل ثلاث قضايا بين يديه، وعندها سيكون مجبراً على الاهتمام بها.

يتصرف رجل التحري رايان في هذه الأثناء بطريقة غريبة. ما هو سر تلك المكالمات الهاتفية الغامضة التي يجريها في غرفة أخرى، ولماذا يختفي فجأة في الوقت نفسه الذي تتعزز فيه آمال تمبرنس في أن يكون جزءاً ثابتاً من حياتها؟ يبدو أن ليالي موحشة كثيرة تنتظرها وهرّها «بيردي».

تحاول تمب إيجاد حلول لمشاكلها في حياتها الخاصة والمهنية على السواء، لكنها تجد نفسها منزلقةً نحو شبكة عميقة من أعمال الشر، والتي يبدو أنه لا خلاص لها من شركها. اختفت النساء إلى الأبد... ولعل دور تمبرنس قد جاء الآن.

تُعتبر «الإثنين الأسود» قمةَ الروايات التي ظهرت حتى الآن في التشويق، بما تتضمنه من تفاصيل العلوم الشرعية المبتكرة على يد مؤلفتها الفائقة الشهرة والموهبة، والتي تقول عنها صحيفة نيويورك نيوزداي إنها «الشيء الحقيقي».

تعمل **كاثي رايكس** بصفتها عالمة أنثروبولوجيا في مكتب رئيس المحققين الشرعيين في ولاية كارولينا الشمالية، وتعمل كذلك في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي في ولاية كويبيك. إنها واحدة من فريق يضم ستين شخصاً فقط من علماء أنثروبولوجيا الشرعية في مقاطعة كويبيك وهم مجازون من المجلس الأمريكي لعلوم الإنسان الشرعية. تدرّس الدكتورة رايكس مادة الأنثروبولوجيا في جامعة كارولينا الشمالية الواقعة في مدينة شارلوت، وهي من مواطني مدينة شيكاغو حيث تسلمت درجة دكتوراة فلسفة من جامعة نورث ويسترن. تقسّم الدكتورة رايكس وقتها الآن ما بين مدينة شارلوت ومدينة مونتريال. تُعتبر رواية «الإثنين الأسود» السابعة من مجموعة الروايات التي تجسد شخصية تمبرنس بريثان. جلبت رواية «ديجا ديد» الشهرة للمؤلفة عندما وُضعت من ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز، وهي الرواية التي نالت جائزة «إيليس» لأفضل أول رواية لعام 1997. موقع المؤلفة على شبكة الإنترنت www.kathyreichs.com.

الدار العربية للعلوم ناشرون
www.asp.com.lb www.aspbooks.com
ص.ب 13 5574 شوران 2050 1102 بيروت – لبنان
هاتف 8/785107 (1-961+) فاكس 786230 (1 961+)
البريد الالكتروني asp@asp.com.lb

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop
6 ميدان طلعت حرب القاهرة
هاتف 5756421 فاكس 5752854
info@madboulybooks.com

9 789953 871738